

آدب انجلیزی حدیث

الحکایة الثالثة عشر

روایة

مکتبة | سُر مَن قَرَأ
t.me/t_pdf

ترجمة: محمود علي
فايزان سائقيبتلا

المكتبة

إهداء لـ ..

(NOURA)²



الحكاية الثالثة عشرة

عنوان الكتاب: الحكاية الثالثة عشرة

The Thirteenth Tale

المؤلف: دايان ساترفيلد Diane Setterfield

ترجمة: محمود علي

مراجعة لغوية: محمد حمدي أبو السعود

المحرسة

للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة

ت. ف: 002 02 28432157



.....:

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران

مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٠١٩ / ٢٨٧٥٠

الترقيم الدولي: 978-977-313-798-4

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية

محفوظة لمركز المحروسة

2020

© Diane Setterfield, 2006

First published by Orion Publishing Group Ltd, 2006



الحكاية الثالثة عشرة

دايان ساترفيلد

ترجمة

محمود علي

مركز
المخرسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

الطبعة الأولى 2020



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

ساترفيلد، دايان

الحكاية الثالثة عشرة/ دايان ساترفيلد ؛ ترجمة محمود علي.- ط1
القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2019

533 ص؛ 21.5×14.5 سم

تدمك 4-798-313-977-978

1 - القصص الأمريكية

أ-علي، محمود (مترجم)

ب- العنوان

823

رقم الإيداع 2019/28750

ينسج الأطفال أساطير عن مولدهم، إنه فعل شائع،
فإن أردت الاطلاع على قلب وعقل وروح أحد، أسأله
عن مولده، ما سيقوله لن يكون الحقيقة، بل قصة، ولا
شيء أكثر تعبيراً عن البشر من القصص.
حكايات التغيير واليأس، "فيدا وينتر".





البداية

مكتبة

t.me/t_pdf

الرسالة

إنه نوفمبر، ومع أن الوقت لم يكن متأخرًا، كانت السماء مظلمة حين دخلت ممر "لاندريس"، أنهى والدى عمل اليوم وأطفأ أنوار المتجر وأغلق شيش النوافذ، لكنه ترك ضوء السلام مضاءً لأهتدى به حين عودتي إلى الشقة، يسقط عبر المستطيل الزجاجي بالباب ضوءٌ باهت على الرصيف المبتل، وبينما أنا واقفة فوق مستطيل الضوء، انتبهت للمرة الأولى إلى الرسالة، مستطيل أبيض آخر، مُلقى على الدرجة الخامسة صعودًا، حيث لا يمكن ألا أراها.

أغلقت الباب ووضعت مفتاح المتجر في مكانه المعتاد وراء كتاب "المبادئ المتقدمة في الهندسة" لمؤلفه "بايلي"، يا له من مسكين "بايلي"، لم يطلب أحد كتابه الرمادي السميك لمدة 30 عامًا، أحيانًا أتساءل عما يستفيد من حراسته لمفاتيح متجر الكتب، كذا لا أفترض أن هذا المصير هو ما خطر بباله حين أمضى عقدين يؤلف تحفته هذه.

أرسل أحد رسالة إلى، وهذا حدث مميز في حد ذاته، كُتب العنوان على ظرف أطرافه متجعدة، سميك المحتويات رغم طيها، كُتب العنوان بخط أرهق عيني ساعي البريد بلا شك، ومع أن أسلوب الكتابة يبدو قديم الطراز، بحروفه الكبيرة المنمقة للغاية وزخارفه الملتوية، كان انطباعي الأولي أن الكاتب طفل، فالحروف بدت غير ناضجة، وجرات القلم غير المتساوية إما متلاشية إلى نهايتها وإما محفورة داخل الورقة، كذا لم يبد تتالي حروف اسمي سلسًا، بل رُسم كل حرف منفصلاً كمغامرة جديدة شاقة، لكن حياتي بلا أطفال، لذا افترضت أنها يد شخص معتل.

أثار ذلك لدى شعورًا غريبًا، فبالأمس أو أول أمس، وبينما أنا منهمكة في عملي بهدوء وعلى انفراد، كبَد شخص ليس بصديقي نفسه عناء رسم اسمي على هذا الظرف، تُرى من ذا الذي حدَّق إلى بعين عقله في غفلة مني؟

لم أنتظر حتى أخلع معطفى وقبعتى، بل جلست على درجة السلم لقراءة الرسالة، (لا أقرأ أبدًا دون التأكد من أنني في موضع آمن)، تعلمت هذا منذ كانت سنى سبعة أعوام، إذ كنت أجلس على حائط مرتفع أقرأ كتاب "ذا ووتر بيبيز"، وأغواني وصف الحياة تحت المياه لدرجة أني أرخيت عضلاتي بلا وعي مني، وبدلاً من أن أطفو على المياه التي أحاطت بي بمنتهى الوضوح في بالي، هويت مصطدمة بالأرض، لا أزال حتى الآن أشعر بندبة تلك الواقعة تحت رمشي، (القراءة قد تؤذي أحيانًا).

فتحت الظرف وسحبت منه نصف دسته من الأوراق، كلها مكتوبة بخط اليد المجهد للعينين نفسه، وبفضل عملي فيني خبرة في قراءة ما استعصى من المخطوطات، لا ينطوى الأمر على سر عظيم للمهنة، بل يؤتي الصبر والممارسة كل المطلوب، ومعهما بصيرة الخبير، فعندما

تقرأ مخطوطة خربتها المياه أو النار أو الضوء أو مرور الزمن، فإن عينيك لا تحتاجان إلى دراسة أشكال الحروف فقط، بل والبصمات الأخرى للكاتب، ذلك مثل سرعة القلم، والإمساك والإفراج في سريانه، ومقدار ضغط اليد على الصفحة، ولكن بالأساس يجب أن تسترخي وتصفى عقلك، إلى أن تصحو في حلم تكون فيه قلمًا يحلق فوق ورقة، وتكون أنت الورقة حين تداعبك لمسة الحبر، حينها ستتمكن من قراءة المخطوطة، ستستقري نية الكاتب، وأفكاره، ومدى ترده، وما يشاق إليه، وما يقصده، ستقرأها بوضوح كما لو كنت ضوء الشمعة المظلة على الصفحة في حين يمد القلم خطوط الحبر عليها. ليس الأمر أن هذه الرسالة تضاهي بعض المخطوطات صعوبة، لقد بدأت باقتضاب فظ: "السيدة ليا"، ومن ثم بدأت التلاسم بتفكيك نفسها سريعًا إلى حروف ثم كلمات ثم جمل.

وهذا ما قرأته:

يومًا ما أجريت مقابلة مع صحيفة "بانبري هيرالد"، يجب أن أبحث عن تلك المقابلة لتساعد في كتابة سيرتي الذاتية، أرسلوا إليّ شابًا غريبًا، بل في الواقع، كان فتى طوله طول رجل، لكن جسده ممتلئ كالأطفال، بدا محرجًا ببذلته الجديدة البنية القبيحة، كانت أكبر من سنه كثيرًا وتفاصيلها كلها غير مناسبة، ياقتها، وتصميمها، ونسيجها، كانت أشبه بشيء قد تشتريه أم لولد ينهي تعليمه ويبدأ عمله الأول، متصورة أن طفلها سينمو بداخلها بطريقة ما، لكن الصبيان لا يخلعون صبيانيتهم حين يخلعون زيهم المدرسي للمرة الأخيرة.

شيء ما ميز طريقة تصرفه، درجة ما من الحدة، ففي اللحظة التي استقرت فيها عيناي عليه قلت لنفسى: "آه، تُرى عمٌ يبحث؟" لا أحمل ضغينة تجاه من يحبون الحقيقة، بصرف النظر عن أن صحبتهم مملة، ما داموا لا يشرعون -مثلما يفعل بعضهم- في الحديث

عن السرد القصصى والحقيقة، فهذا عادةً ما يزعجنى، ولكن إن تركونى وشأنى، لن أؤذيهم.

لا أذمر بشأن محبى الحقيقة، بل الحقيقة نفسها، فماذا تقدم الحقيقة من عون وعزاء إن قارئاًها بقصة؟ وما نفع الحقيقة فى ظلام منتصف الليل، حين تسمعين صدى الرياح فى المدفأة مثل الدب؟ وحين يضرب ضوء البرق حائط غرفة نومك، وينقر المطر النافذة بأظفاره الطويلة؟ حين يصنع الخوف والبرد منك تمثالاً على سريرك، لا تنتظرى من الحقيقة الجوفاء الهزيلة أن تهرع لإنقاذك، بل إن راحتين الغضتين للقصة هما ما تحتاجين إليه، إنها السلامة المريحة المهددة التى تقدمها الكذبة.

بالتأكيد لا يحب بعض الكتاب المقابلات، يضيق صدرهم بها ويتذمرون قائلين: "إنها الأسئلة المكررة نفسها"، ولكن ماذا يتوقعون؟ فالمراسلون مبتذلون، لكن نحن -الكتاب- أصحاب القيمة الحقيقية، وإن طرحوا دائماً الأسئلة نفسها، فهذا لا يعنى أننا يجب أن نقدم الإجابات نفسها، أليس كذلك؟ أقصد بهذا اصطناع القصص، إنه ما نفعله لكسب العيش، لذا فإننى أجرى عشرات المقابلات سنوياً، وأجريت مئات المقابلات على مدار حياتى، لأننى لم أصدق قط أن العبقرية يجب أن تُخفى لتتقد، فعبقريتى ليست بالشئ الهش لدرجة أن ينكمش خوفاً من أصابع الصحفيين القذرة.

فى الأعوام المبكرة من مسيرتى اعتادوا محاولة اللحاق بى، فيتحرون ويأتون بجزء بسيط من الحقيقة فى جيوبهم، ويبسطونه فى لحظة مواتية أملين إدهاشى حتى أكشف المزيد، اضطررت ذلك إلى الحذر، فكنت أسوقهم ببطء نحو الاتجاه الذى أريده لهم، وأستخدم طعمى لأستدرجهم بلطف نحو قصة أجمل من التى تطلعوا إليها، إنها عملية دقيقة، وفى نهايتها تبدأ أعينهم فى اللمعان، وترتخى قبضتهم

على قصاصة الحقيقة، إلى أن تسقط من أيديهم إلى بئر التجاهل، لم يفشل هذا الأسلوب قط، فالقصة الجيدة دائماً أكثر إبهاراً من قصاصة الحقيقة.

بعد ذلك وبمجرد أن أصبحت مشهورة، أصبحت مقابلة "فيدا وينتر" على نحو ما تعميماً للصحفي، فقد عرفوا ما يجب أن يتوقعوه، وكانوا يحبطون إن غادروا دون قصة، يمرون سريعاً بالأسئلة العادية (ما مصادر إلهامك؟ هل تبين شخصيات قصصك على أشخاص حقيقيين؟ كم بطلاً من رواياتك يمثلونك شخصياً؟) وكلما كانت إجاباتي على تلك الأسئلة أقصر، أعجبتهم أكثر (عقلي: لا، لا أحد منهم)، ثم يأتي الجزء الذي كانوا ينتظرونه وما أتوا من أجله بالأساس، تعلق وجوههم نظرة حاملة منتظرة، كانوا مثل الأطفال في موعد نومهم، فيقول أحدهم: "وأنت يا سيدة (وينتر)، أخبريني بشأنك".

فأخبرهم، كانت قصصاً بسيطة صغيرة حقاً، لا تعنى الكثير، فقط بعض الخيوط المنسوجة معاً لتشكل تصميمًا جميلًا، فأتى بعنصر مميز من هنا، وقطعتي تتر من هناك، إنها مجرد بقايا في قاع كيس أقمشة قديمة، ولدي مئات غيرها، إنها قصاصات من روايات وقصص وحبكات لم أنهيها، وشخصيات ولدت ميتة، وأماكن رائعة لم أجد لها استخدامًا من قبل، وصدف ونهايات حذفها المحررون، حينئذ يصبح كل المتبقى ترتيب الحواف، وحياسة النهايات لتصبح جاهزة، إنها سيرة ذاتية جديدة تمامًا.

غادروا فرحين، تتشبث أياديهم بدفاترهم كفعل الأطفال بالحلوى في نهاية حفل عيد ميلاد، سيحكون هذا لأحفادهم: "في يوم من الأيام قابلت (فيدا وينتر)، وحكت لي قصة".

ولكن الفتى من صحيفة "بانبري هيرالد" قال لي: "سيدة وينتر، أخبريني الحقيقة"، وتعجبت لهذا الرجاء! لقد رأيت أشخاصًا يدبرون

جميع أشكال الحيل لخداعى حتى أحكى، وأستطيع كشف هؤلاء من بُعد كيلومترات، لكن ما هذا؟! إنه مثير للضحك، ماذا توقع أن يسمع؟!

هذا سؤال جيد، ماذا توقع أن يسمع؟ كانت عيناه تلمعان بما يقصد، لقد راقبني من كُتب باحثًا متحققًا، كان يسعى وراء شيء محدد جدًا، كنت متأكدة من ذلك، رطب العرق جبينه، ربما كانت تلك بداية إعياء، لكنه طلب مني أن أخبره الحقيقة.

راودني شعور داخلي غريب، كأنه الماضي يحيا مجددًا، كأن أشباح حياة ماضية تعبث ببطني، تُحفز موجة لتجتاح عروقي، وترسل موجات باردة لتحتضن رأسي، الأمر ييثر بي حماسًا مخيفًا.

لكننى فكرت في طلبه، قلبت الأمر في بالى وحسبت العواقب المحتملة، لقد أزعجنى هذا الفتى بوجهه الشاحب وعينه المتقدتين. قلت: "حسنًا".

بعد ساعة كان قد رحل، كان وداعًا باهتًا بعقل شارد وبلا التفات إلى الوراء.

لم أخبره الحقيقة، كيف يمكننى ذلك؟ لكننى حكيت له قصة، كانت قصة صغيرة فقيرة تعاني سوء التغذية، بلا بريق ولا قطع ترتز، لا شيء بها سوى رقع باهتة ومملة، مثبتة معًا بأطراف بالية، إنه نوع القصص الذى يشبه الحياة الحقيقية، أو ربما ما يتخيل الناس أنه الحياة الحقيقية، والاختلاف بينهما كبير، ليس من السهل على شخص موهبتى أن يأتى بقصة مثل هذه.

راقبته من النافذة، كان يجر قدميه مبتعدًا، وكتفاه منحنيان ورأسه يتدلى ويخطو الخطوة بجهود بالغ، اختفت كل تلك الطاقة

والحماس والحيوية، لقد قتلتها، ليس الأمر أننى أتحمّل كل اللوم، فقد كان حريّاً به ألا يصدقنى.

لم أره مجدداً أبداً.

الشعور الذى راودنى، والموجة التى ببطنى، والموجبات برأسى وأطراف أصابعى، كل ذلك لازمنى لفترة بعدها، هاج الشعور وهذا بتذكرى لكلمات الفتى، أخبرينى الحقيقة، قلت: "لا" مراراً وتكراراً، لكنه لا يهدأ، كنت ألهى نفسى فقط، وكان هذا الشعور راية حمراء، وفى النهاية عقدت اتفاقاً، قلت: "ليس بعد"، تنهد الشعور، وقلملم، لكنه فى النهاية هدأ وسكن، هدأ للغاية لدرجة أنى ظننت نفسى نسيتها.

كان ذلك منذ زمن بعيد، منذ ثلاثين عاماً؟ أربعين؟ ربما أكثر، الوقت يمر أسرع مما تتصورين.

جال ذاك الفتى ببالى مؤخراً، "أخبرينى الحقيقة"، وراودتنى مؤخراً هذه التقلبات الداخلية الغريبة، هناك شئ ينمو بداخلى وينقسم ويتكاثر، أشعر به فى بطنى، إنه دائرى وصلب وبحجم ليمونة، يسحب الهواء من رئتى، وينخر عظامى، لقد غيّر السكون الطويل، من الوداعة والانصياع إلى التسلط، إنه رافض لكل أشكال التفاوض ويصد النقاش، ويصر على نيل حقوقه، لن يقبل بالرفض إجابةً، إنها الحقيقة تنادى على الفتى ويتردد صداها، وتراقب ظهره المبتعد، ثم تلتفت إلى، فتطبق بثقلها على أحشائى وتقود انقلاباً، لقد عقدنا اتفاقاً، أتذكرين؟

والآن، لقد حان الوقت.

تعالى يوم الاثنين، سأرسل سيارة لتقلك من محطة "هاروجيت" حين وصولك فى الرابعة والنصف.

كم بقيت جالسة على السلم بعد قراءة هذه الرسالة؟ لا أعرف، لأننى كنت مأسورة بسحر ما، شيء ما يتلبس الكلمات، فهى تأسرك حين تنظمها يدان خيرتان بالتلاعب، تلتف حول أطرافك كخيوط العنكبوت، وحين تكون مأسورًا بالسحر لدرجة العجز عن الحركة، تخترق جلدك، وتسرى بدمك، وتخدر أفكارك، وتبتث تعاويذها داخلك، لما انتبهت لنفسى أخيرًا، لم يسعنى إلا أن أدرك ما كان يدور فى ظلام لاوعى، ماذا فعلت فى الرسالة؟

أعرف القليل عن "فيدا وينتر"، كنت على علم بالألقاب العديدة التى تلحق عادة باسمها: الكاتبة الأكثر شعبية فى إنجلترا، و"ديكنز" القرن الحالى، وأوسع المؤلفين الأحياء شهرة فى العالم، وما إلى ذلك، كنت أعرف بالتأكيد أن لها شعبية كبيرة، ومع ذلك تفاجأت حين بحثت لاحقًا عن أرقام مبيعاتها، نشرت ستة وخمسين كتابًا فى ستة وخمسين عامًا، وترجمت كتبها إلى تسع وأربعين لغة، وحصلت على لقب مؤلفة الكتب الأكثر استعارة فى مكتبات إنجلترا سبعا وعشرين مرة، وبُنيت أحداث تسعة عشر فيلمًا على رواياتها، والسؤال الأوسع إثارة للجدل من الناحية الإحصائية هو: هل باعت نسخًا أكثر من الكتاب المقدس؟ ولا تكمن الصعوبة كلها فى حساب عدد النسخ التى باعتها (فهو رقم بالملايين دائم التغير)، بل فى استحالة تحديد عدد مؤكد لنسخ الكتاب المقدس المبيعة، فأيًا كان موقفك من كلمات الرب، تفتقد بيانات مبيعاتها أى أساس قوى، ولكن الرقم الذى ربما اعتبرته أكثر أهمية فى أثناء جلوسى على درجة السلم الأخيرة كان اثنين وعشرين، هذا عدد كُتَاب السير الذاتية الذين قنعوا بالكف عن محاولة كشف حقيقتها، تنوعت الأسباب بين غياب المعلومات، أو غياب الشجاعة، أو بسبب الإغراءات أو التهديدات من جانب السيدة "وينتر" نفسها، لكننى لم أكن أعلم أيًا من هذا حينها، لقد عرفت

حقيقة واحدة حينها، وبدأ أنها الأكثر أهمية: كم من كتب "فيدا وينتر" قرأت أنا "مارجريت ليا"؟ صفر.

انتابتنى القشعريرة وأنا جالسة على السلم، وتساءلت ومددت جسدي، لأعود إلى ذاتي وأجد أن أفكاري أعيد ترتيبها في غيبتى، وقد برز مشهذان وسط البقايا المهملة التى غطت ذاكرتى.

كان الأول مشهدًا قصيرًا مع والدى فى المتجر، كنا نفرغ صندوق كتب ورد إلينا بعد تصفية مكتبة خاصة، وقد حوى عددًا من أعمال "فيدا وينتر"، لا نتعامل فى متجرنا بكتب الخيال المعاصر، فقلت لوالدى: "سأخذها إلى المتجر الخيرى فى ساعة الغداء"، وتركها بجانب المكتب، لكن قبل انقضاء الصباح كانت ثلاثة من الكتب الأربعة قد اختفت، لقد بيعت، واحد بيع لقس، والثانى لرسام خرائط، والثالث لمؤرخ عسكري، بدت وجوه زبائننا -بالشحوب الخارجى والتوهج الداخلى المعتادين لدى محبى الكتب- متقدة حين رأوا الألوان الغنية لأغلفة الكتب، وبعد الغداء، حين انتهينا من التفريغ والتصنيف والتعليق على الرفوف، وانقطع تدفق الزبائن، جلسنا نقرأ كالعادة، إنها أواخر الخريف والسماء تمطر والنوافذ ضبابية ونحن نسمع فى الخلفية حسيس مدفأة الغاز، نسمع الصوت ولا ندركه، ونجلس متجاورين وبيننا أميال، كل منا مستغرق فى كتابه.

أصحو من استغراقى لأسأل: "هل أعد الشاي؟"

ولا أجد إجابة.

فأعد الشاي على أية حال، وأضع الكوب بجواره على المكتب.

بعد ساعة كان الشاي الذى لم يمسه قد برد، فأعد إبريق شاي جديدًا وجلب كوبًا آخر تعلوه الأبخرة إلى جانب والدى على المكتب، إنه غير واع بأى من حركاتى.

أميل الكتاب الذى بين يديه برفق حتى أرى الغلاف، إنه كتاب "فيدا وينتر" الرابع، فأعيد الكتاب إلى موقعه الأصلي، وأتمعن في وجه والدى، لا يسمعنى ولا يرانى، إنه في عالم آخر، وأنا شبح. كانت تلك الذكرى الأولى.

أما الثانية فكانت صورة، صورة جانبية لوجه، منحوتة بكثافة بالظل والنور، ويطل الوجه على المسافرين المنتظرين المتقزمين تحته، إنها مجرد صورة دعائية ملصقة على لوحة إعلانات بمحطة القطار، ولكن عقلى يرى فيها الفخامة المثيرة للإعجاب لدى الملكات المنسيات، والآلهة التى نحتتها الحضارات القديمة في الصخر، الرسم الفاتن للعينين، والامتداد الواسع والسلس لعظمتى الوجنتين، ورسم عظمة الأنف بنسب لا يشوبها خطأ، لا يؤدي تأمل كل هذا إلا إلى الاندهاش من أن عشوائية التنوع البشرى يمكن أن تنتج شيئاً يمثل هذا الكمال الخارق، مثل هذه العظام، التى سيكتشفها علماء الآثار في المستقبل، وستبدو لهم من صنع الإنسان، إنها قمة السعى الفنى الإنسانى، وهى ليس نتيجة لطبيعة تزخرف بلا حس، أما البشرة التى تغلف هذه العظام المميزة، فإن لها لمعاناً عاتماً كالمرمر، ومع ذلك فإنها تبدو باهتة إلى جوار خصلات الشعر النحاسية الملتوية، المرتبة بهذه الدرجة من الدقة عند الصدغين وصولاً إلى الرقبة القوية الأنيقة.

وفوق كل هذا الجمال المفرط توجد العينان، كأنه غير كاف، لونهما مكثف بفعل حيلة تصويرية ما ليكون أخضر غير بشرى، إنها درجة الأخضر التى تراها في زجاج الكنائس، أو الزمرد، أو حلوى السكر، أرى العينين تحمقان بعيداً أعلى رءوس المسافرين على نحو مثالى من اللاتعبير، لا أجزم بأن المسافرين الآخرين شعروا بما أثارته الصورة بداخلي، لقد قرؤوا الكتب وربما تكون لديهم رؤية مختلفة، لكن من منظوري، وأمام هاتين العينين الخضراوين الكبيرتين، لم يسعنى سوى

تذكر التعبير الشائع عن أن العينين بوابة الروح، وأتذكر أنني حينها، وأنا أحملق في العينين الخضراوين اللتين لا تريان، فكرت في أن هذه المرأة بلا روح.

كان هذا هو مدى معرفتي بـ"فيدا وينتر" حتى ليلة الرسالة، لم أعرف الكثير عنها، لكن عند التفكير في الأمر، ربما هذا هو كل ما يعرفه الآخرون أيضاً، ومع أن الكل عرف "فيدا وينتر" -اسمها، ووجهها، وكتبها- لم يعرفها أحد حقاً، فهي مشهورة بأسرارها مثلما هي مشهورة بقصصها، إنها لغز مثالي.

إن كنت سأصدق الرسالة، فإن "فيدا وينتر" تريد الآن أن تحكي حقيقتها، وهذا، في حد ذاته، أمر مثير للفضول، لكن الأكثر إثارة منه كان فكري التالية: لماذا تريد أن تحكيها لي؟

مكتبة

t.me/t_pdf

قصة "مارجريت"

أصعد السلم وأخطو نحو ظلام المتجر، لم أحتج إلى الضوء لأجد طريقي، إذ أعرف خريطة المتجر مثلما تحفظ أماكن طفولتك، تبث رائحة الجلد والأوراق القديمة السكينة على نحو لحظي، أتمرر أطراف أصابعي بامتداد كعوب الكتب كعازف البيانو، لكل كتاب نوته الخاصة المميزة: الكعب المحبب المغلف بالكتان لكتاب "تاريخ رسم الخرائط" لـ "دانيلز"، والجلد المشروخ لمحضر اجتماع أكاديمية رسامي الخرائط بسان بطرسبرج لكاتبه "لاكيونين"، ومغلف متهالك يحوى خرائطه المرسومة والملونة باليد، يمكنك أن تعصب عيني وتركني بأي مكان في أدوار المتجر الثلاثة، وسأعرف مكاني بتمرير أصابعي على الكتب.

نرى بضعة زبائن في متجر الكتب الخاص بـ "ليا"، نصف دسنة هزيلة من الزبائن يوميًا في المتوسط، لكن سبتمبر يجلب موجة من النشاط حين يأتي الطلاب لشراء نسخ من النصوص الدراسية للعام الجديد، ويشهد مايو موجة أخرى حين يردون تلك النسخ بعد

الاختبارات، يصف والدى تلك الكتب بالمرتجلة، وفي أوقات أخرى من العام يمكن أن تمر أيام بلا زبون واحد، أما الصيف فيجلب لنا السائح الغريب الذى ساقته قدماه إلى خارج طريقه ودخل متجرنا، والذى يدفعه فضوله إلى الخروج عن أشعة الشمس ودخول متجرنا، حيث يقف لبرهة ويرمش لتكييف عيناه مع الضوء الداخلى، وقد يبقى في متجرنا من أجل بعض من الظل والهدوء أو لا، حسب مدى ضجره من تناول المثلجات ومراقبة القوارب في النهر، أما الزوار الأكثر تردداً علينا فهم من سمعوا عنا من صديق، حين يجدون أنفسهم قرب "كامبريدج" فيميلون عن قصد إلى عطفتنا، هؤلاء يعلو وجوههم الترقب مع دخولهم المتجر ويعتذرون قليلاً لإزعاجنا، إنهم لطفاء وهادئون وودودون كالكتب نفسها، ولكن في غالب الأوقات يكون الوالد وأنا والكتب، فقط.

فكيف تلبى الكتب احتياجاتنا؟ قد يدور ببالك هذا السؤال إن لاحظت قلة عدد الزبائن المترددين، ولكن المتجر من الناحية المالية لا يمثل إلا عملاً إضافياً، والعمل الأساسى يحدث في مكان آخر، فنحن نكسب عيشنا اعتماداً ربما على ست معاملات تجارية سنوياً، هكذا يتم الأمر: الوالد يعرف جميع جامعى الكتب العظماء في العالم، ويعرف أعظم مجموعات الكتب في العالم، إن رأيت في المزايدات أو معارض الكتب التى يحضرها بانتظام، ستلاحظ تكرار أن يقترب منه أشخاص هادئو الصوت والملبس ليطلبوا كلمة على انفراد، أعينهم تشى بكل ما هو غير هادئ، فيسألونه إن كان على علم بشيء ما، أو إن كان قد سمع من قبل بكذا، عند ذلك يذكرون كتاباً، يجيب الوالد بغموض، الأمر غير مبشر، وعادة لا تثمر هذه المقابلات شيئاً، لكن على الجانب الآخر، إن كان قد سمع عن كتاب السائل، وإن كان لا يملكه بالفعل، فإنه يسجل عنوان السائل في دفتر أخضر صغير، ثم لا يحدث شيء لفترة، لكن لاحقاً -بعد أشهر قليلة أو كثيرة، لا نعلم

تحديدًا- في مزاد أو معرض آخر، يرى شخصًا آخر، ويسأل مجددًا عن الكتاب بأسلوب متردد جدًا، وفي الغالب ينتهى الأمر هنا، لكن أحيانًا بعد تلك المحادثات قد يحدث تبادل للرسائل، إذ يقضى الوالد وقتًا طويلاً في كتابة الرسائل بالفرنسية والألمانية والإيطالية أو حتى باللاتينية أحيانًا، وفي تسع مرات من كل عشرة، يكون الرد رفضًا مهذبًا من سطرين، لكن أحيانًا -ست مرات سنويًا- يكون الرد مقدمة لرحلة يستلم فيها الوالد كتابًا من هنا، ويسلمه هناك، نادرًا ما يسافر لمدة تزيد على 48 ساعة، هذه المرات الست هى سبيل معاشنا.

لا يحقق المتجر نفسه أى أموال تقريبًا، إنه مكان للكتابة واستقبال الرسائل، مكان لانتظار المعرض الدولى المقبل، يرى مدير المصرف الذى نتعامل معه فى هذا تساهلاً، لكنه تساهل استحققه والذى بفضل نجاحه، لكن فى الواقع -واقع والذى وواقعى، فلا أدعى أن الجميع يرى الواقع نفسه- يمثل المتجر قلبًا لعلاقتنا، إنه مستودع للكتب، ومكان آمن لجميع الكتب، التى كُتبت سابقًا بحب شديد، لكن يبدو ألا أحد يريدّها الآن.

وهو مكان للقراءة.

تعلمت الأبجدية فى هذا المتجر، (أ) أوستن، (ب) برونتى، (ج) جاسكل، (د) ديكنز، يتجول والذى بطول الرفوف، وأنا بين ذراعيه، يشرح لى الأبجدية فى حين يعلمنى النطق، تعلمت الكتابة هناك أيضًا، إذ كنت أنسخ أسماء مؤلفين وكتب على بطاقات الفهرسة، والتى لا تزال موجودة فى صندوق الإيداع لدينا حتى الآن بعد 30 عامًا، كان المتجر بيتى وعملى، ومدرسة لى أفضل من أى مدرسة ارتدتها، وبعدها كان جامعتى الخاصة جدًا، لقد كان حياى.

لم يدسس والذى قط أى كتاب فى يدي، ولم يمنعنى عن أى كتاب، بل كان يدعنى أتجول وأحملق لأقرر تفضيلاى الخاصة الملائمة إلى حد

ما، قرأت حكايات دموية عن البطولة التاريخية التى أعتبرها آباء القرن التاسع عشر مناسبة للأطفال، وقصص الأشباح القوطية التى بالتأكيد لم تكن مناسبة للأطفال، قرأت حكايات عن رحلات شاقة عبر أراض غادرة قامت بها عوانس يرتدين تنانير منتفخة، وقرأت كتيبات عن اللياقة والإتيكيت موجهة للشابات ذوات الحسب والنسب، وقرأت كتبًا بها صور، وكتبًا بلا صور، وكتبًا بالإنجليزية والفرنسية، وكتبًا بلغات لم أفقها، فكنت أخلق قصصًا بناء على بضع كلمات أخمن معانيها، كنت غارقة وسط الكتب.

طوال أعوام دراستى أبقى كل قراءة المتجر هذه لنفسى، فقد وجد بعض الفرنسية المهجورة التى تعلمتها من كتب القواعد القديمة طريقه إلى مقالاتى المدرسية، لكن المعلمين اعتبروه خطأً إملائية، ومع ذلك فإنهم لم يتمكنوا أبدًا من إلغائها من عقلى، أحيانًا قد يمر درس تاريخ إحدى طبقات المعرفة العميقة، والعشوائية أيضًا التى راكمتها عبر القراءة غير المنظمة فى المتجر، يمر أمامى الملك "شارلمان"، فأتعجب سرًا قائلة: "(شارلمان)؟ (شارلمان) الذى عرفته بالمتجر؟"، فى مثل هذه الأوقات كنت ألتزم الصمت، مذهولة من التصادم اللحظى لعالمين لم يكونا يلتقيا أبدًا.

أساعد والدى فى عمله بين جولات قراءتى، وفى سن التاسعة، سمح لى بتغليف الكتب بورق بنى وكتابة عناوين زبائننا الأبعد، وفى العاشرة، سمح لى بأخذ هذه الطرود إلى مكتب البريد، وفى الحادية عشرة أرحت والدتى من دورها الوحيد فى المتجر: التنظيف، فكنت أتدفع بغطاء للرأس ورداء منزلى فى مواجهة الأوساخ والجراثيم، والكرهية الكامنة فى الكتب القديمة، لقد اعتادت أن تمر على الرفوف بريشة إزالة الأتربة شديدة الحساسية، وتزم شفيتها بشدة محاولة عدم استنشاق الأتربة، وبين الحين والآخر تثير الريشة سحابة تخريلية من الأتربة، فكانت ترتد عن الرفوف وهى تسعل، بالطبع مزقت

صناديق الكتب جواربها الطويلة، إنه أمر متوقع نظراً إلى الشر الكامن في بعض الكتب، لكن السبب الحقيقي هو أن تلك الصناديق كانت موجودة خلفها فقط، فعرضت عليها أن أتولى تنظيف الأتربة، وقد امتنت لتخلصها من تلك المهمة، فلم تعد بحاجة إلى الخروج إلى المتجر بعد ذلك.

حين بلغت الثانية عشرة، كلفني الوالد بالبحث عن الكتب المفقودة، وقد اعتبرنا الكتب مفقودة عندما تكون متوافرة في السجلات، لكنها غير موجودة في مكانها الصحيح على الرفوف، ربما سُرقَت، لكن المرجح أكثر، أن متصفحاً شارد الذهن تركها في المكان الخطأ، فقد كانت بالمتجر سبع غرف، تصطف الكتب بها من الأرض إلى السقف، إنها آلاف الكتب.

قال الوالد: "وأنتِ تقومين بذلك، تفقدي الترتيب الأبجدي".

كانت تلك مهمة قد تستغرق أبد الدهر، أتساءل الآن ما إذا كان جاداً تماماً في إيلائي مثل هذه الثقة حينها، ولكن الحقيقة أن الإجابة بالكاد تهمنى لأننى كنت جادة في تولي المهمة.

استغرقني الأمر صباحات صيف كامل، لكن في مطلع سبتمبر حين بدأت الدراسة كانت الكتب الضائعة كلها قد رُدت، وعاد كل كتاب تائه إلى موضعه، ليس هذا فقط، بل ولامست أصابعي كل كتب المتجر، وإن كانت لمسة سريعة، وحين أتأمل الآن، أرى أن هذا أهم ما في الأمر.

كنت أقدم لوالدي الكثير من المساعدة بحلول مراهقتي، لدرجة أن في عصر بعض الأيام الهادئة بالكاد تبقى لدينا عمل حقيقي لننهيهِ، فبمجرد انتهاء عمل الصباح، وتسكين الكتب الجديدة بالرفوف، وكتابة الرسائل، وبمجرد تناولنا لشطائرنا عند النهر وإطعام البط، كنا نعود إلى المتجر للقراءة، وبالتدريج أصبحت قراءتي أقل عشوائية، ووجدت

نفسى أعرج أكثر فأكثر على الطابق الثانى، إنه طابق أدب القرن التاسع عشر، والسير الذاتية بأقلام أصحابها أو غيرهم، والمذكرات، واليوميات، والرسائل.

لاحظ والدى اتجاهى فى القراءة، فكان يعود من المعارض ومواسم التخفيضات إلى المنزل ومعه كتب ظن أنها قد تثير اهتمامى، إنها كتب صغيرة مهترئة، غالبها مطبوع بالآلة الكاتبة، وصفحاتها مصفرة ومربوطة معًا بشريط أو خيط، وأحيانًا تكون مربوطة يدويًا، كتب عن الحياة العادية لأشخاص عاديين، فلم أقرأها فحسب بل كنت أفترسها، ومع أن شهيتى للطعام أخذت فى الضعف، كانت شهيتى للكتب فى ازدياد، كانت تلك بدايات إدراكى لحبى لهذه المهنة.

لست كاتبة سير ذاتية لها اعتبار، فى الواقع أنا بالكاد أعتبر كاتبة سير ذاتية من الأساس، فقد كتبت من أجل متعنى الشخصية عددًا من دراسات السير الذاتية القصيرة عن شخصيات غير بارزة فى تاريخ الأدب، واهتممت دائمًا بكتابة السير الذاتية للخاسرين، الذين عاشوا طوال حياتهم فى ظل الشهرة، وغرقوا فى بحر الغموض بعد موتهم، أحب أن أنبش حياة دُفنت فى دفتر يوميات مهجور لمئة عام أو أكثر على رفوف الأرشيف، وغاية سعادتى أن أبث الحياة فى مذكرات شخصية لم تُطبع منها نسخ جديدة منذ عقود.

بين الحين والآخر تكون كتاباتى مهمة كفاية لتثير اهتمام ناشر أكاديمى محلى، لذا نُشر باسمى عدد قليل من الكتابات، ليست كتبًا وليست شيئًا عظيمًا بل مجرد مقالات، بضع صفحات من الكتابة الرديئة مُدبسة بغلاف ورقى، إحدى مقالاتى عنوانها "إلهام أخوى"، عن الأخوين "لاندير"، "إدموند" و"جول"، واليوميات التى كتبها معًا، لفتت عين محرر تاريخ، وضمها إلى مجموعة مقالات مغلفة بورق مقوى عن الكتابة والأسرة فى القرن التاسع عشر، لا بد أن هذا المقال

هو ما لفت انتباه "فيدا وينتر" إلى، لكننى أعتبر وجود هذا المقال وسط تلك المجموعة شيئاً مظللاً، فهو محاط بأعمال أكاديميين وكتاب محترفين، وكأننى كاتبة سير ذاتية ذات اعتبار، رغم أنى فى الواقع محبة للكتابة، مجرد هاوية موهوبة.

تمثل قصص الحياة -المنتهية- هواية لى، إنها عملى الحقيقى فى المتجر، فعملى ليس ببيع الكتب -هذه مهمة والدى- بل العناية بها، وبين الحين والآخر أخرج مجلداً وأقرأ منه صفحة أو اثنتين، ففى النهاية تمثل القراءة طريقة للعناية إن جاز التعبير، وهذه الكتب ليست قديمة كفاية لتكتسب أهميتها لقدمها فقط، وليست مهمة كفاية ليسعى وراءها جامعو الكتب، لكنها عزيزة على حتى وإن كان محتواها -كما هى الحال فى غالبها- مملاً كغلافها، لا يهمنى مدى ابتذال المحتوى، فالكتب دائماً بها ما يمسنى، لأن أحدهم ظن فى وقت ما أن هذه الكلمات مهمة كفاية لدرجة أن يدونها.

يختفى الناس حين يموتون، وتذهب معهم أصواتهم وضحكاتهم ودفء أنفاسهم ولحمهم وشحمهم، وفى النهاية عظامهم، وتنتهى ذاكرتهم الحية، وهذا مخيف وطبيعى فى آن واحد، ولكن هناك استثناء للبعض من هذا الفناء، لأنهم يعيشون فى ما أنتجوه من كتب، فيمكن أن نعيد اكتشافهم، واكتشاف حسهم الفكاهى ونبرة أصواتهم وأمزجتهم، وبكلماتهم يمكنهم إغضابك أو إسعادك أو طمأنتك، أو حتى إرباكك، يمكنهم التأثير فىك، كل هذا على الرغم من أنهم أموات، ومثلما تُحفظ حشرة داخل قطعة كهرمان، أو تُحفظ الجثث فى الثلج، ويُفترض وفق قوانين الطبيعة أنها بذلك قد رحلت، تحفظ معجزة الحبر على الورق أصحابها، ذلك من ضروب السحر.

ومثلما يرعى أحدهم قبور الموتى أرعى أنا الكتب، أنظفها وأصلح هيكلها قليلاً وأحفظها فى حالة جيدة، وأفتح يومياً مجلداً أو اثنين،

أقرأ بعض السطور أو الصفحات وأتيح لأصوات الموتى المنسيين بعض الصدى داخل عقلي، أشعر هؤلاء الموتى المنسيون بكتبهم حين تُقرأ؟ أهد ذلك شعاع ضوء ليؤنس وحشتهم؟ أتحرك نسمة أرواحهم حين يقرأ عقل آخر ما دار بعقولهم؟ أمل ذلك، فلا بد أن في الموت أشد الوحشة.

مع أنني تعرضت هنا لبعض مما يشغل بالي على نحو سرى للغاية، ما زلت أرى أنني أتجنب الأمر الأهم، فأنا لست معتادة على تعرية أفكارى، بل يبدو أنني حتى أدفع نفسي إلى تجاوز تحفظى المعتاد، كتبت كل وأى شيء لأتجنب كتابة الأمر الوحيد المهم.

ومع ذلك فإننى سأكتبه، "الصمت ليس البيئة الطبيعية للقصص"، بحسب ما أخبرتنى السيدة "وينتر"، "إنها بحاجة إلى الكلمات، ومن دون الكلمات تزداد القصص شحوبًا ومعرض وموت، ثم تطاردك".

إنها محقة، لذا إليكم قصتى.

كانت سنى عشرة أعوام حين اكتشفت السر الذى كانت أُمى تخفيه، وسبب أهميته هو أنه لم يكن متعلقًا بها، بل بى.

كان والداى خارج المنزل فى ذلك المساء، لم يعتادا الخروج، لكن حينما يخرجان، كانا يبعثاننى لأجلس فى مطبخ جارتنا السيدة "روب"، كان منزل جارتنا مثل منزلنا تمامًا لكنه معكوس، وذلك الانعكاس كان يشعرنى بدوار البحر، لذا كنت كلما أراد والداى الخروج مساءً أجادلهما بأننى كبيرة وواعية كفاية ليتركاني فى المنزل بلا جليسة أطفال، لم تكن توقعاتى للنجاح كبيرة، لكن فى تلك المرة وافق والدى، وسمحت والدى لنفسها بالاقتران، فقط على شرط أن تأتى السيدة "روب" لتطمئن علىّ فى الساعة الثامنة والنصف.

تركا المنزل فى الساعة السابعة، واحتفلت بصب كوب من الحليب وشربه على الأريكة، وكلى إعجاب بعظمتى، أصبحت "مارجريت ليا"

كبيرة كفاية لتبقى في المنزل بلا جليسة، وبعد شرب الحليب شعرت بململ غير متوقع، ماذا أفعل بهذه الحرية؟ فانطلقت في جولة لأحدد مساحة حريتي الجديدة، غرفة الطعام، الممر، مرحاض الطابق السفلي، كل شيء كان مثلما كان دائماً، وبلا أي سبب محدد، تذكرت أحد مخاوف طفولتي المرتبطة بحكاية "الذئب والخنازير الثلاثة"، فكان الذئب يقول: "سأنفخ بقوة وسأهدم منزلكم!" وما كان الذئب ليواجه أي مشكلة في أن ينفخ ويهدم منزل والديّ، فالغرف الفسيحة الباهتة أضعف من أن تقاوم، والأثاث الهش سينهار مثل كومة من عيدان الثقاب إن فكر ذئب في هذه الخطوة، نعم، ذلك الذئب سيهدم المنزل بنفخة فقط، وسيصبح ثلاثتنا وجبة له في الحال، حينها بدأت أتمنى لو كنت في المتجر، حيث لم أخف أبداً، يمكن للذئب أن ينفخ بكل ما أوتي من قوة، فبوجود كل هذه الكتب التي تضاعف سمك الجدران، سأكون ووالدي بأمن كما لو كنا في حصن.

أمعنت النظر في مرآة الحمام بالطابق العلوي، كان ذلك من أجل الاطمئنان، لأرى كيف سأبدو حين أكون بالغه، أملت رأسي يسرة ويمنة، ودرست انعكاسي من جميع الزوايا، منتظرة أن أرى شخصاً آخر، لكنني لم أرَ غيري يحملق إلى انعكاسي.

لم تبث غرفتي أي أمل في إنقاذ الموقف، فأنا أعرف كل تفاصيلها وهي تعرفني، جعلنا ذلك رفيقتين مملتين، لذا فضلت أن أدفع باب غرفة الضيوف، بدت خزانة الثياب معدمة التفاصيل وطاولة الزينة العارية مؤيدتين لفكرة أنني يمكنني تمشيط شعري وتغيير ملابسي هنا، لكنني عل نحو ما أدرك الخواء الكامن وراء هذه الأبواب والأدراج، كذا لم يبد السرير مرحباً، بملاءته المشدودة للغاية وبطانياته المطوية بعناية، وبدت الوسادات الضئيلة كما لو أن الحياة قد مُنعت عنها، أطلقنا على هذه الغرفة دائماً "غرفة الضيوف"، لكننا لم نستقبل قط أي ضيوف، بل كانت والدتي تنام بها.

وأمام تحيرى انسحبت من الغرفة ووقفت على السلم.

هذا يكفى، إنه طقس التعميد، أن أبقى في المنزل وحدى، فأنا أنضم بهذا إلى صفوف الأطفال البالغين، وغداً في ساحة اللعب يمكننى القول إننى بالأمس لم أحتج إلى جليسة، وبقيت في المنزل وحدى، ستذهل الفتيات الأخريات، لقد أردت هذا منذ زمن، والآن بعدما بلغته، لم أعرف ماذا أفعل به، توقعت أننى سأنبسط تلقائياً إلى أن تلاميضى التجربة، وأننى سأرى لمحة عن الشخص الذى قُدر لى أن أكونه، توقعت من العالم أن يتخلى عن مظهره الطفولى المألوف، وأن يرينى أسرارهِ ووجهه الآخر الخاص بالبالغين، ولكن بدلاً من ذلك، كان استقلالى الجديد أكبر منى، شعرت بأننى أصغر من أى وقت مضى، أكان بي خطب ما؟ هل سأعرف قط كيف أكبر؟

غازلتنى فكرة أن أمر بالسيدة "روب"، لكن لا، لدى مكان أفضل، زحفت إلى أسفل سرير والدى.

تقلصت المساحة بين الأرض وهيكَل السرير منذ آخر زيارة لى، وتصلبت حقيبة الإجازات أمام إحدى كتفى، وكان لونها في تلك الظلمة رمادياً مثلما هو في ضوء النهار، وقد حملت كل لوازمنا الصيفية: النظارات الشمسية، وفيلماً إضافياً للكاميرا، وملابس السباحة التى لم ترتدها والدق قط، لكنها لم تتخلص منها، وعلى الجانب الآخر يوجد صندوق من الورق المقوى، تحسست يداى جدران الصندوق المموجة، ووجدت طريقها لتنقب بداخله، إنها أسلاك أضواء شجرة عيد الميلاد المتشابكة، ويغطى ريش المسند الأرضى الخاص بالشجرة، أتذكر أن فى آخر زيارة لى هنا كنت أصدق وجود "سانتا"، لكننى أقلعت عن ذلك، أهذا نوع من البلوغ؟

وأنا أتلوى فى طريقى للخروج من تحت السرير، حركت صفيحة بسكويت قديمة، إنها أمامى تطل بنصفها من تحت كشكشة ستارة

قصيرة، تذكرت علبة القصدير، لقد كنت هناك دائماً، إنها صعبة الفتح وعلى غطائها صورة لصخور وأخشاب التنوب الإسكتلندية، حاولت بشرود أن أرفع الغطاء، فاستسلم سريعاً لأصابعي بعدما أصبحت أكبر وأقوى حتى إنني ذهلت قليلاً، وجدت بالداخل جواز سفر والدي وأوراقاً متنوعة مختلفة الأحجام، واستمارات أجزاء منها مطبوعة وأخرى مكتوبة، وتوقيعات هنا وهناك.

أن أرى شيئاً معناه أن أقرأه، هكذا اعتقدت دومًا، نفضت الغبار وأنا أتصفح الوثائق، إنها وثيقة زواج والدي، وشهادتا ميلادهما، وشهادة ميلادي، وكتابة حمراء على ورقة صفراء وعليها توقيع والدي، طويتها مجددًا بعناية ووضعتها مع الوثائق الأخرى التي قرأتها وانتقلت إلى الوثيقة التالية، لكنهما كانتا متطابقتين، ما حيرني بعض الشيء، لماذا استخرجنا لي شهادتي ميلاد؟

قرأتها، تتطابق الشهاداتتان في اسم الأب واسم الأم وتاريخ ومحل الميلاد، لكن الاسمين مختلفان.

ماذا حدث لي في تلك اللحظة؟ تفكك رأسي وتشابك مجددًا بشكل مختلف، كان ذلك أشبه بحركة المشكال.

أنا لي أخت توأم.

تجاهلت الجلبة الواقعة بدماغي، وفتحت أصابعي الفضولية ورقة ثانية. إنها شهادة وفاة.

ماتت توأمي.

الآن فقط عرفت ما عابني.

مع أن هذا الاكتشاف أشعرنى بالخدر، فإنني لم اتفاجأ، لقد راودني دائماً شعور ما، وعرفت دائماً أن هناك خطبًا ما، وقد بدا الاكتشاف مألوفًا جدًا لدرجة أنني لم أحتج إلى أن يُقال لي، إنها صفة متغيرة في

الهواء المحيط بي، إنه تكتل للضوء، شيء بدا لي مميزًا جعل الخواء ينبض بالحياة، إنه ظلي الشاحب.

ضغطت بيدي على جانبي الأيمن، وأدريت رأسي حتى كاد أنفي يلمس كتفي، إنها حركة قديمة لي، دائمًا تحدث لي حين أكون متألماً أو في حيرة أو تحت أي من صور الإكراه، لكنها كانت مأثوفة للغاية لدرجة أنني لم أتأملها قبل الآن، وقد كشف لي ما عرفته للتو معناها، كنت أبحث عن توأمي، حيث يُفترض أن تكون، بجانبى.

حين رأيت الورقتين، وهذا العالم وعاد إلى دورانه البطيء، فكرت في أن هاتين الورقتين تفسران كل شيء، الخسارة، والحزن، والوحدة، هناك شعور يبعدني عن الآخرين -ويؤنسني- طوال حياتي، والآن بعد اطلاعي على الشهادتين، عرفت حقيقة هذا الشعور، إنها أختى.

بعد وقت طويل سمعت انفتاح باب المطبخ بالطابق السفلي، وعلى الرغم من تنميل ساقي، ذهبت إلى طرف السلم ورأيت السيدة "روب" بالأسفل.

"أكل شيء بخير يا (مارجريت)؟"

"نعم".

"أينقصك أي شيء؟"

"لا".

"عظيم، مري بي إن احتجت إلى أي شيء".

"حسنًا".

"لن يتأخر والداك".

وغادرت.

أعدت الوثيقتين إلى العلبة، وأرجعتها إلى تحت السرير، وتركت الغرفة وأغلقت الباب خلفي، وأمام مرآة المرحاض، شعرت بالذهول إذ حملت عيناى إلى عينيْن أخريْن، اضطرب وجهى أمام حملتها حتى شعرت بعظامى تحت جلدى.

لاحقًا، شعرت بخطوات والدى على السلم.

فتحت الباب وعانقنى والدى أمام السلم.

وقال: "أحسنِتِ، يبدو أنك أحسنت صنعًا".

بدت والدى شاحبة ومتعبة، فالخروج من المنزل يمكن أن يصيبها بالصداع.

لكنها اتفقت معه وأردفت: "فتاة صالحة".

"كيف كان الأمر يا حلوق؟ أن تكونى وحدك بالمنزل؟"

"لا بأس به".

فقال والدى: "هذا ما توقعته"، ثم عانقنى مجددًا كأنه رد فعل لا إرادى، كان عناقًا سعيدًا دافئًا، وقبل قمة رأسى، وتابع: "حان وقت النوم، لا تقرئ كثيرًا".

"لن أفعل".

لاحقًا سمعت أصوات استعدادات والدى للنوم: يفتح والدى خزانة الأدوية ويملأ كوبًا بالماء، سمعت صوته يقول كالعادة: "ستشعرين بتحسن بعد نوم هائى"، ثم أغلق باب غرفة الضيوف، وبعد دقائق، سمعت صرير سريرى فى الغرفة الأخرى، ثم صوت إطفاء الضوء.

كنت أعرف بشأن التوائم، جوهر الأمر أن خلية يجب حسب المعتاد أن تصبح شخصًا واحدًا، لكنها لسبب غير مفهوم تصبح شخصين متطابقين.

مكتبة IO25

أنا أخت توأم.

وتوأمى ميتة.

تُرى ماذا أكون في هذه الحالة؟

تحت الأغطية ضغطت يدي على الهلال الفضي الوردى الموجود على جذعي، إنه الظل الذي خلفته أختي، ومثل عالمة آثار، أنقب في جسدي وعلى جلدي عن أدلة على وجودها التاريخي، كان جسدي باردًا كالجثة.

لا تزال الرسالة في يدي، وقد تركت المتجر وصعدت السلم إلى شقتي، يضيق السلم عند كل من طوابق المتجر الثلاثة، وأنا أصعد وأطفئ الأنوار خلفي، أبدأ في استحضار جمل لأكتبها بخطاب رفض مهذب، فأنا بحسب ما يمكن أن أخبر السيدة "وينتر"، من النوع الخطأ من كتاب السير الذاتية، فأنا لست مهتمة بالكتابة المعاصرة، ولم أقرأ أيًا من كتبها، وأشعر بالألفة في المكتبات وبين السجلات، ولم أجر مقابلة مع كاتب على قيد الحياة من قبل، كنت مرتاحة أكثر مع الأموات، ولأكون صادقة، يوترني الأحياء.

لكن آخر معلومة لم تكن ضرورية في الرسالة.

لم أقدر على إعداد وجبة، فكان كوب من الكاكاو كافيًا.

وأنا أنتظر أن يسخن الحليب، نظرت إلى الليل عبر النافذة، وفي زجاج النافذة رأيت وجهًا شاحبًا للغاية لدرجة أنك تتمكنك رؤية ظلام السماء عبره، ضغطت خدي بخدها الزجاجي البارد، ولو رأيتنا لعرفت أنه لولا هذا الزجاج، ما كان أحد ليفرق إحدانا عن الأخرى.

ثلاث عشرة حكاية

أخبرني الحقيقة، كلمات الرسالة كانت محبوسة في دماغي، تبدو محبوسة تحت السقف المائل لشقتي التي بالعينة، مثل طائر سقط عبر المدخنة، كان طبيعيًا أن تؤثر بي مناشدة الفتى، أنا التي لم تُخبر بالحقيقة من قبل، بل تركت لأكتشفها بنفسى في السر، لكن لا بد لصوته أن يسكت.

لكننى قررت أن أخرج الكلمات والرسالة من عقلى.

لقد حان الوقت تقريبًا، فتحركت سريعًا، غسلت وجهى بالصابون وأسنانى فى المرحاض، وقبل الثامنة بثلاث دقائق كنت مرتدية ملابس النوم ومنتعلة خفى القدمين وأنتظر غليان المياه فى الغلاية، وسريعًا، وقبل الثامنة بدقيقة، كانت زجاجة المياه الساخنة خاصتى جاهزة، وملأت كوبًا بمياه الصنبور، كان الوقت شديد الأهمية، لأن فى الساعة الثامنة ينتهى العالم، فذلك وقتى المخصص للقراءة.

كانت الساعات بين الثامنة مساءً والواحدة أو الثانية صباحًا دائمًا ساعاتي السحرية، على غطاء السرير الأزرق الذى رُسمت عليه فتيلة شمعة، وتحت ضوء مصباح دائري، كانت بوابتي إلى عالم آخر، لكن في تلك الليلة فشل السحر، فخيوط الحبكة التى تركتها مشدودة بالتشويق منذ الليلة الماضية أصبحت بدرجة ما مرتخية خلال النهار، ووجدت أننى لم أعد مهتمة بما سيؤول إليه الأمر في النهاية، بذلت جهدًا لأوصل نفسى إلى إحدى محطات الحبكة، لكن بمجرد أن بلغت، اعترضنى صوت "أخبرنى الحقيقة" والذى فك عقدة الحبكة وتركها فضفاضة تتخبط مجددًا.

لذا حامت يدي حول مفضلاتي القديمة: "ذات الرداء الأبيض"، و"مرتفعات ويذيرنج"، و"جين أير"...
لكن بلا فائدة، أخبرنى الحقيقة...

لم تخذلنى القراءة من قبل، بل كانت دائمًا المرتكز الوحيد، فأطفأت الضوء، وأرحت رأسى على الوسادة وحاولت النوم.
صدى صوت وقصاصات قصة، سمعتها كلها بصوت أعلى في الظلام، أخبرنى الحقيقة...

في الساعة الثانية صباحًا نهضت من سريرى وانتعلت جوربى، وفتحت باب الشقة مرتدية ثوب النوم، وهبطت السلم نحو المتجر.
في مؤخر المتجر لدينا غرفة ضئيلة، لا تزيد مساحتها كثيرًا على مساحة خزانة، نستخدمها حين نريد تغليف كتاب لنرسله بالبريد، تحتوى الغرفة على طاولة، وعلى رف يوجد ألواح من الورق البنى، ومقصات وبكرة خيط، بها أيضًا خزانة خشبية بسيطة المظهر تضم نحو دسنة من الكتب.

نادرًا ما تتغير محتويات الخزانة، لو تفقدتها اليوم ستجد فيها ما رأيته في تلك الليلة: كتابًا بلا غلاف يستقر على جانبه، وبجواره مجلد سيني التغليف، وكتابان باللاتينية منتصبين، ونسخة قديمة من العهد القديم، وثلاثة مجلدات عن علم النباتات، واثنان عن التاريخ، وكتاب وحيد مهترئ عن علم الفلك، وكتاب باليابانية، وآخر بالبولندية، وبعض القصائد بالإنجليزية القديمة، لماذا تبقى تلك الكتب بعيدة؟ لماذا ليست موجودة مع رفيقاتها من الكتب على رفوفنا المعنونة بعناية؟ هذه الخزانة هي مستقر الكتب النادرة القيمة محدودة الجمهور، تساوي قيمة تلك المجلدات كامل بقية محتويات المتجر، أو ربما أكثر.

كان الكتاب الذي أبحث عنه في غير مكانه، وبجانب كل هذه التحف، وهو كتاب له غلاف مقوى وأبعاده عشرة سنتيمترات في خمسة عشر سنتيمترًا، وعمره خمسون عامًا أو نحو ذلك، ظهر هذا الكتاب قبل شهرين، وأتصور أنه وصل إلى هناك بسهو من الوالد، أردت أن أسأله عن الكتاب وأن أعلقه على رف ما، لكن على سبيل الاحتياط، ارتديت قفازين أبيضين، فنحن نبقي القفازات في الخزانة لارتديها حين نتعامل مع الكتب لأن -بفعل معضلة طريفة- بقدر ما تحيا الكتب بقراءتنا لها فإن الزيوت على أطراف أصابعنا تدمرها مع طيننا للصفحات، على أي حال فبالنظر إلى أن غلافه سليم وزواياه حادة، فإن الكتاب في حالة جيدة، إنه واحد من سلسلة معروفة أنتجتها على مستوى عالٍ دار نشر لم تعد موجودة، إنه مجلد جذاب وهذه طبعة أولى، لكنه ليس من نوع الكتب التي قد تجدها بين كنوز الكتب، ففي الأسواق والمعارض الخيرية يمكن أن تجد مجلدات أخرى من السلسلة نفسها مقابل ثمن بخس.

كان لون الغلاف أصفر وأخضر: تشكلت الخلفية من نمط منتظم من أشكال تشبه قشور الأسماك، وترك مستطيلان بلا لون، أحدهما

من أجل رسم خطى لعروس بحر، والآخر لعنوان الكتاب واسم المؤلف، "ثلاثون عامًا من التغيير والياس"، "فيدا وينتر".

أغلقت الخزانة، وأعدت المفتاح والكشاف إلى مكانيهما، وصعدت السلم متجهة إلى سريري، والكتاب في يدي مرتدية القفاز.

لم أنو القراءة، ليس كثيرًا، بل كل ما أردته هو بضع جمل، أردت كلمات جريئة وقوية كفاية لأسكن كلمات الرسالة التي ظلت تتردد في عقلي، سأحارب النار بالنار مثلما يقولون، سأقرأ جملتين، أو ربما صفحة، ثم سأتمكن من النوم.

أزلت عن الكتاب الغلاف الذي يحميه من الغبار، وتركته من باب الأمان في درج خصصته لمثل هذه الأغراض، فحتى إن ارتديت القفازات لن أكون حريصة كفاية، تنشقت وأنا أفتح الكتاب، إن رائحة الكتب القديمة حادة جدًا وجافة جدًا لدرجة أنك تستطيع استطعامها.

وجدت المقدمة كلمات قليلة فقط.

لكن عيني كانتا قد أغويتا بالفعل وهما تمسحان السطر الأول.

ينسج الأطفال أساطير عن مولدهم، إنه فعل شائع، فإن أردت الاطلاع على قلب وعقل وروح أحد، اسأله عن مولده، ما سيقوله لن يكون الحقيقة، بل قصة، ولا شيء أكثر تعبيرًا عن البشر من القصص.

أحسست كأنني غطست في ماء بارد.

الفلاحون والأمراء، حجاب المحاكم وأولاد الخبازين، والتجار وهوريات البحر، شعرت في الحال بالألفة تجاه شخصيات الحكايات، لقد قرأت تلك القصص مئات، بل آلاف، المرات، كلها قصص يعرفها الجميع، لكن بالتدريج، ومع تقدمي في القراءة، سقطت عنها ألفتها، أصبحت غريبة، أصبحت جديدة، هذه الشخصيات ليست تلك المانيكانات الملونة التي أتذكرها من كتب طفولتي المصورة، التي

تؤدي القصة بشكل ميكانيكي في كل مرة، بل هم أشخاص حقيقيون، فالدم الذي سقط من إصبع الأميرة عندما لمست إبرة المغزل أصبح مبللاً، وترك طعاماً معدنياً على لسانها حين لعقت إصبعها قبل أن تروح في سبات عميق، وحين جُلبت الابنة الغارقة في سباتها إلى والدها الملك، تركت دموع الملك ملوحة حارقة على وجهه، رأيت أحداث القصص بمنظور غير مألوف، حقق الجميع كل ما تاق إليه: استعاد الملك ابنته بقبلة من شخص غريب، وجُرد الوحش من فروه وترك عارياً كأنه إنسان، واستطاعت الحورية أن تمشي، لكنهم لم يدركوا إلا بعد فوات الأوان الثمن الذي يجب أن يدفعوه لأنهم تجنبوا أقدارهم، أصبحت "عاشوا في سعادة للأبد" ملوثة، والمصير الذي بدا في البداية قابلاً جداً للتغيير، ومنطقيًا جدًا، ومتاحًا جدًا للتفاوض، انتهى به الأمر بفرض انتقام قاسٍ من أجل السعادة.

كانت الحكايات قاسية وحادة وحابسة للأنفاس، لقد أحببتها.

حين وصلت إلى "حكاية حورية البحر" -الحكاية الثانية عشرة- شعرت برجفة قلق غير مرتبطة بالقصة نفسها، لقد كنت مشتتة، كان إبهام وسبابة يدي اليمنى يرسلان إلى رسالة: لم يتبق الكثير من الصفحات، ظلت هذه الفكرة تلح عليّ بإصرار أكثر حتى طويت الكتاب لأتحقق من صحتها، ولقد كنت محقة، لا بد أن الحكاية الثالثة عشرة كانت قصيرة للغاية.

تابعت القراءة، وأنهيت الحكاية الثانية عشرة وطويت الصفحة.

إنها بيضاء.

طويت ذهابًا وعودة ولم أجد شيئًا.

لا توجد حكاية ثالثة عشرة.

حدثت فجأة جلبة مفاجأة في رأسى وشعرت بغثيان غطاسى أعماق
البحار حين يصعدون إلى السطح سريعًا.

عادت زوايا الغرفة إلى مجال رؤيتى واحدة تلو الأخرى، غطاء
سريرى، والكتاب الذى بيدي، والمصباح الذى لا يزال يضىء ولكن
بشحوب بسبب ضوء الصباح الذى بدأ يتسلل عبر الستائر الرقيقة.
إنه الصباح.

وليست هناك حكاية ثالثة عشرة.

فى المتجر كان والدى جالسًا عند مكتبه ورأسه بين يديه، سمعنى
أهبط السلم فتطلع إلى شاحبًا.

اندفعت إلى الأمام: "ماذا بك؟"

كانت الصدمة تمنعهم من الكلام، رفع يديه فى تعبير صامت عن
الياس، قبل أن يحركهما ببطء على عينيه المذعورتين، وتأوه.

مسدت كتفه لكننى لم أكن معتادة على ملامسة الناس، لذا
سقطت يدي على السترة الصوفية التى علقها على ظهر الكرسي.

سألته: "هل من شئ يمكنى فعله؟"

حين تكلم كان صوته حزينًا مرتعشًا: "يجب أن نتصل بالشرطة
خلال دقيقة، خلال دقيقة..."

"الشرطة؟ يا أبى.. ماذا حدث؟"

"أحد اقتحم المتجر"، كان وقع صوته كأنه نهاية العالم.

تفحصت المتجر حولي متحيرة، كان كل شيء مرتبًا ومنظمًا، وأقفال الأدراج غير مكسورة، والرفوف غير منهوبة، والنافذة غير مكسورة. فقال: "إنها الخزانة"، وحينها بدأت أفهم.

أردفت: "تقصد (الحكاية الثالثة عشرة)، إنها في شقتي، لقد استعرتها".

تطلع إلى والدي، واعتلى وجهه مزيج من الارتياح والدهشة التامة، وأردف: "استعرتها؟"

"نعم".

"أنت استعرتها؟"

"نعم"، كنت مرتبكة، فدايمًا ما أستعير أشياء من المتجر، مثلما يعرف.

"لكن، (فيذا وينتر)...؟"

وأدركت أن الموقف بحاجة إلى بعض التوضيح.

أنا أقرأ الروايات القديمة، والسبب بسيط: أننى أفضل النهايات اللائقة، الزواج والموت، والتضحيات النبيلة والإحياء الإعجازي، والفراق المأسوي ولم الشمل بعد اليأس، والسقطات العميقة وتحقيق الأحلام، هذه كلها في نظري تمثل نهايات تستحق الانتظار، يجب أن تحدث بعد المغامرات والمخاطر والمعضلات، وأن تغلف إلى النهايات بشكل لطيف ومنمق، هذه النهايات أجدها أكثر شيوعًا في الروايات القديمة مقارنة بالجديدة، لذا أقرأ الروايات القديمة.

لم أعرف الكثير عن عالم الأدب المعاصر، ولقد أنبنى والدي مرات عديدة خلال أحاديثنا اليومية عن الكتب، إنه يقرأ كثيرًا مثلي، لكن على نطاق أوسع، وأنا أحترم آراءه للغاية، لقد وصف بكلمات دقيقة ومدروسة الأسى الجميل الذي يشعر به عند نهاية الروايات التي تحمل رسالة أن المعاناة الإنسانية بلا نهاية، بل يجب تحملها، كما تحدث

عن النهايات الصامتة التي يبقى صداها في الذاكرة أعلى وأقوى من
أى استنكار منطوق، وشرح سبب مس هذا الغموض لقلبه أكثر من
أسلوب النهاية بالموت والزواج الذى أفضله.

خلال تلك الأحاديث، أستمع بأشد درجات الاهتمام وأومئ برأسى،
لكننى دائماً أستمع على عاداتي القديمة، لا أقصد أنه يلومنى على
نحو ما، فهناك شيء اتفقنا عليه: العالم به كتب أكثر من أن نستطيع
قراءتها في حياة واحدة، لذا يجب أن ترسم حدوداً ما لاهتماماتك.
أخبرنى والدى في مرة عن "فيدا وينتر": "هناك كاتبة على قيد
حياة قد تناسب اهتماماتك".

لكننى لم أقرأ أيًا من كتبها، ولماذا قد أفعل وهناك الكثير جدًا
من الكتاب الأموات الذين لم أكتشفهم بعد؟

لكننى نزلت في منتصف الليل لآخذ كتاب "الحكايات الثلاث
عشرة" من الخزانة، تساءل والدى عن السبب، وكان سؤاله منطقيًا.
أوضحت: "تلقيت رسالة بالأمس".

أوما برأسه.

"رسالة من (فيدا وينتر)".

رفع والدى حاجبيه، لكنه انتظر منى أن أتابع.

"يبدو أنها دعوة لى لزيارتها بغية كتابة سيرتها الذاتية".

ارتفع حاجباه بضع مليمترات أخرى.

"لم أستطع النوم، لذا هبطت لأحضر الكتاب".

انتظرت ردًا من والدى، لكنه لم يعقب، بل كان يفكر، فبدا عليه
بعض العبوس الذى جعد جبينه، بعد وهلة تكلمت مجددًا، "لماذا
أبقيته في الخزانة؟ ما الذى يجعله قيمًا إلى هذه الدرجة؟"

قطع والدى حبل أفكاره ليحيينى، "جزئيًا لأن هذه الطبعة الأولى من الكتاب الأول للكاتب باللغة الإنجليزية الأوسع شهرة، لكن في المقام الأول، لأنها معيبة، فكل نسخة لاحقة من الكتاب عُنونت بـ(حكايات التغيير والياس)، دون ذكر الرقم "ثلاث عشرة"، ألاحظت أن الكتاب يضم اثنتى عشرة حكاية فقط؟"

أومات.

"يُحتمل أن عدد الحكايات كان يُفترض أن يكون 13، لكن الكاتبة قدمت 12 فقط، لكن حدث خلط في تصميم الغلاف وطُبِع الكتاب بعنوانه الأسمى وبـ12 قصة فقط، فاضطروا إلى سحبه من المكتبات."

"لكن نسختك هذه..."

"أفلتت من أيديهم، فأحدى الدفعات أرسلت بالخطأ إلى متجر فى (دورست)، حيث اشترى زبون نسخة قبل أن يتلقى المتجر رسالة سحب الكتاب، وأدرك الزبون قبل ثلاثين عامًا القيمة المحتملة للكتاب وباعه لجامع كتب نادرة، وعُرضت ممتلكات جامع الكتب للبيع بالميزاد فى سبتمبر الماضى فاشترته بإيرادات صفقة (أفينيون)."

"صفقة (أفينيون)؟" لقد استغرق عقد هذه الصفقة عامين من التفاوض، لقد كان واحدًا من أكثر نجاحات والدى إدرارًا للأرباح.

سألنى بخجل: "ارتديت القفازات أليس كذلك؟"

"ماذا تظننى؟"

ابتسم قبل أن يردف: "كل هذا الجهد ذهب هباءً".

"ماذا تقصد؟"

"سحب كل تلك النسخ بسبب خطأ فى العنوان، فالناس لا يزالون يسمونه (ثلاث عشرة حكاية)، مع أنه نُشر بعنوان (حكايات التغيير والياس) لمدة نصف قرن".

"هذا ما يفعله مزيج من الشهرة والسرية، فالمعلومات الحقيقية عنها قليلة للغاية، لذا تصبح قصاصات المعلومات مثل قصة الطبعة الأولى المسحوبة ذات أهمية تتجاوز حقيقتها، لقد أصبحت جزءاً من أسطورتها، إنه لغز الحكاية الثالثة عشرة، وهذا يتيح للناس مساحة لبسط نظرياتهم".

ساد صمت وجيز، ثم وجه نظره إلى الفراغ غير البعيد، وغمغم بصوت خفيض لأختار أن أرد على كلامه أو أتجاهله، وهو ما فعلته: "والآن ستكتب سيرة ذاتية.. كم هذا مفاجئ".

تذكرت الرسالة، وخوفي حيال أن الكاتبة ليست محل ثقة، وتذكرت إصرار الفتى: "أخبريني الحقيقة"، وتذكرت "الحكايات الثلاث عشرة" التي تملكتنى بكلماتها الأولى وأسرتنى بطول الليل، أردت أن أوسر مجدداً.

قلت لوالدي: "لا أعرف ماذا أفعل".

"الأمر مختلف عما فعلته من قبل، (فيدا وينتر) كائن حي، وستضطرين إلى إجراء المقابلات بدلاً من التنقيب في السجلات". أومات.

"لكن يجب أن تعرفي الشخصية التي كتبت (الحكايات الثلاث عشرة)".

أومات مجدداً.

وضع والدي يديه على ركبتيه وتنهد، إنه يعرف ما تفعله القراءة، ويعرف كيف تأسر الكتب القارئ.

"متى تريدك أن تذهبي؟"

أجبت: "يوم الاثنين".

"سأوصلك إلى المحطة، موافقة؟"

"شكرًا لك، و..."

"ماذا؟"

"أيمكنني الحصول على إجازة؟ يجب أن أقرأ أكثر قبل أن أذهب إليها".

رد: "نعم"، بابتسامة لم تخفِ قلقه، "نعم، بالتأكيد".

حينئذ بدأت واحدة من أكثر فترات حياتي تألقًا، فللمرة الأولى في حياتي توجد على الطاولة بجوار سريرى كومة من الكتب الجديدة اللامعة التى اشتريتها من متجر للكتب العادية، كلها تحمل اسمًا واحدًا: "فيدا وينتر"، وأغلفتها، التى رسمها فنان واحد، تبث الحرارة والقوة بألوان الكهرمان والقرمزي والذهبي والأرجواني الداكن، واشتريت أيضًا نسخة من "حكايات التغيير والياس" الذى بدا عنوانه عاريًا من دون كلمات "ثلاث عشرة" التى تجعل نسخة والدى قيمة للغاية، ورددت نسخته إلى الخزانة.

بالطبع حين يقرأ المرء لكتاب جديد فإنه يتطلع دائمًا إلى شيء مميز، وقد بثت السيدة "وينتر" في درجة الحماس نفسها التى سيطرت على حين اكتشفت يوميات "لانديير" مثلاً، بل وأكثر من ذلك، كنت دائمًا قارئة، قرأت في جميع مراحل حياتي، ولم أمر بوقت لم تكن فيه القراءة مصدر أعظم فرحتي، ومع ذلك، لن أدعى أن قراءتي كبالغة تضاهي قراءات طفولتي في تأثيرها في روحي، فأنا لا أزال أومن بالقصص، لا أزال أنسى نفسى حين أستغرق في كتاب جيد، لكن هناك اختلافًا، يجب أن أوضح أن الكتب فى نظري هى الشيء الأهم، وما لا أنساه أن فى فترة من حياتي كانت الكتب أكثر عادية وأكثر أهمية فى الوقت ذاته بالمقارنة بالفترة الحالية، فحين كنت طفلة، كانت الكتب

هى كل حياتى، لذا يوجد بداخلى دائماً حنين متقد نحو تلك المتعة المفقودة، ليس الحنين الذى يمكن توقع إشباعه أبداً، خلال هذه الفترة التى قرأت فيها طوال اليوم ونصف الليل، حين نمت تحت لحاف من الكتب، حين كان نومى بلا ملامح ولا أحلام ويمر كالبرق لأصحو وأقرأ مجدداً، عادت إلى مباحج القراءة المفقودة، أعادت إلى السيدة "وينتر" السمات العذرية للقارئ المبتدئ، ثم أسرتنى بقصصها. بين الحين والآخر، قد يطرق والدى الباب أعلى السلم، يحدق إلى، بالتأكيد يعلو وجهى ذلك الذهول الناتج عن القراءة المكثفة، فيعلق والدى: "لن تنسى أن تأكلى، أليس كذلك؟" وهو يسلمنى كيس البقالة أو كوب حليب.

كنت لأود أن أبقى فى شقتى إلى الأبد مع تلك الكتب، لكن إن كنت سأذهب إلى يوركشاير للقاء السيدة "وينتر"، فهناك مهمة أخرى يجب تنفيذها، توقفت عن القراءة لمدة يوم وذهبت إلى المكتبة، وفى غرفة الصحافة، تصفحت صفحات الكتب فى جميع الصحف الوطنية خلال الأيام التالية لإصدار روايات السيدة "وينتر" الأخيرة، لأن مع إصدار كل كتاب جديد، كانت تستدعى عدداً من الصحفيين إلى فندق فى هاروجيت، حيث تلتقيهم واحداً تلو الآخر وتعطى كلاً منهم، على حدة، ما تطلق عليه قصة حياتها، لا بد أن هناك العشرات من تلك القصص، بل ربما المئات، لقد وجدت عشرين منها دون جهد شديد. بعد نشر كتابها "بين بينين" كانت الابنة السرية لكاهن ومعلمة، وبعد عام فى الصحيفة نفسها أشهرت رواية "مسكون" بحكاية أنها كانت طفلة هاربة لمومس باريسية، أما بعد رواية "مسرح الدمى"، توضح صحف عدة أنها كانت يتيمة نشأت فى دير سويسرى بعدما كانت طفلة شارع بأزقة الطرف الشرقى من لندن، والفتاة الوحيدة المكبوتة بعائلة من عشرة أولاد صاخبين، أعجبتنى على نحو خاص

تلك القصة التى تقول فيها إنها إثر انفصالها بلا قصد عن والديها المبشرين الإسكتلنديين فى الهند، شقت طريقها بنفسها وسط شوارع بومباى، حيث كسبت عيشها برواية القصص، وحكت قصصًا عن أشجار الصنوبر التى بدت رائحتها مثل الكزبرة المقطوفة للتو، وجبال تضاوى تاج محل جمالاً، وأطباق الهاجيس الإسكتلندية الألد من أى باكورة هندية تُباع فى الشارع، وعن مزمار القربة الإسكتلندى، ويا لجمال صوت ذاك المزمار! جماله يفوق الوصف، وحين عادت إلى إسكتلندا بعد أعوام كثيرة -وهو بلد تركته وهى طفلة صغيرة- أحبطت بشدة، فأشجار الصنوبر لم تفج منها أى رائحة للكزبرة، والثلوج باردة، وأطباق الهاجيس بلا طعم.

ساخرة وعاطفية، مأساوية وحادة، فكاھية وماكرة، كل واحدة من تلك القصص مثلت تحفة فنية مصغرة، ولو كانت كاتبة من نوع آخر، لكانت تلك القصص قمة إنجازاتها، لكن فى نظر "فيدا وينتر"، كانت تلك مجرد بقايا، ولا أعتقد أن أحداً قد يصدق أنها الحقيقة. كان الأحد اليوم السابق على مغادرتى، وقد قضيت فترة العصر فى منزل والداى، ذلك المنزل لا يتغير أبداً، نفخة واحدة من الذئب يمكنها أن تحيله أنقاضاً.

ابتسمت أمى ابتسامة متوترة وتحدثت ببهاء ونحن نحتسى الشاى، تحدثت عن حديقة الجيران، وأعمال صيانة الطريق فى البلدة، والعطر الجديد الذى أصابها بطفح جلدى، إنها محادثة خفيفة خاوية من أجل إبعاد الصمت، الصمت الذى تعيش فيه شياطينها، وقد كانت مسرحية جيدة: تجنبت فيها ذكر أى شىء يكشف أنها بالكاد يمكنها تحمل مغادرة المنزل، وأن أتفه الأحداث غير المتوقعة يصيبها بصداع نصفى، وأنها لا تستطيع قراءة أى كتب خوفاً من المشاعر التى قد تجدها فيها.

انتظرت ووالدى حتى ذهبت والدنى لإعداد الشاى الساخن
لنتحدث عن السيدة "وينتر".

قلت: "هذا ليس اسمها الحقيقى، فلو كان هذا اسمها الحقيقى،
لكان من السهل تعقبها، وكل من حاول استسلم لنقص المعلومات، لا
أحد يعرف ولو حقيقة بسيطة عنها".
"كم هذا مثير للفضول".

"كانها جاءت من الفراغ، كأنها قبل أن تصبح كاتبة لم تكن
موجودة، كأنها كتبت شخصيتها وكتابها الأول معًا".

عقب والدى: "نحن نعرف الاسم الذى اختاره لتشر به كتبها، لا
بد أن يكشف هذا شيئًا".

"(فيدا)، من كلمة (فيتا) اللاتينية التى تعنى (الحياة)، ولا أستطيع
تجاهل التفكير فى معناها الفرنسى أيضًا".

فكلمة "فيدا" الفرنسية تعنى الفراغ، الخواء، العدم، لكننا لا
نستخدم كلمات مثل هذه فى منزل والدى، فتركنا الاستنتاج له.

أردف: "بالفعل"، وتابع: "وماذا عن (وينتر)؟"

إنه الشتاء، بحثت فى النافذة عن الإلهام، رأيت وراء شبح أختى
الأغصان عارية ممتدة بطول السماء المعتمة، وحدائق الأزهار خالية،
والتربة سوداء، لم يبق الزجاج من البرد، فعلى الرغم من نار المدفئة،
بدت الغرفة معبأة باليأس الحالك، ماذا يعنى الشتاء لى؟ يعنى شيئًا
واحدًا: الموت.

ساد الصمت، وحين أصبح ضروريًا أن أقول شيئًا حتى لا أضيف
إلى المحادثة السابقة ثقلًا لا يُطاق، قلت: "إنه اسم ذو نهايات مدببة
بسبب حرفى ال(فى) وال(دابليو) البادئين للاسمين (فيدا وينتر)، إنه
مدبب الأطراف جدًا".

عادت أمي، وهى تضع الأكواب على الأطباق، وتصب الشاي، تحدثت باستفاضة، بدا صوتها متحركًا بحرية فى رقعة حياتها ذات الحدود الصارمة، وكان مساحتها شاسعة جدًا.

تجولت بعينى فى الغرفة، على الرف أعلى الموقد يوجد الشيء الوحيد الذى قد يُعتبر زينة، صورة فوتوجرافية، تقترح والدتى بين الحين والآخر حفظها من الأتربة فى أحد الأدراج، لكن والدى يحب أن يراها، وبما أنه نادرًا ما يعارض والدتى، فقد تراجعَت إزعانًا له، فى الصورة يوجد عريس وعروس، شابين، يبدو والدى مثلما يبدو دائمًا: وسيم بلا تكلف بعينين داكنتين عميقتين: لا يغيره مرور السنين، لكن المرأة بالكاد يبدو شكلها مألوفًا، لها ضحكة عفوية بعينين ضاحكتين تحدقان إلى والدى بدفء، تبدو سعيدة.

لكن المأساة تغير كل شيء.

لقد وُلدت، واختفت المرأة التى فى صورة الزفاف.

تطلعت إلى الحديقة الميَّمة، ولاح ظلى فى الزجاج أمام الضوء المتلاشى، متطلعًا إلى الغرفة الميَّمة، سألت نفسى، ماذا فعلت بنا؟ ما رأيها بمحاولتنا لإقناع أنفسنا بأن هذه هى الحياة وأننا نعيشها حقًا؟

الوصول

غادرت المنزل في يوم شتاء تقليدي، وقطع القطار بي أميالاً تحت سماء شفافة، ثم بدلت القطار واحتشدت السحب، أصبح أكثر كثف وأدكن وأكثر امتلاءً مع تقدمي نحو الشمال، توقعت في أي لحظة أن أسمع أولى قطرات المطر على زجاج النافذة، لكن السماء لم تمطر. في هاروجيت، كان سائق السيدة "وينتر" غير راغب في الكلام، وهو رجل ملتجٍ داكن الشعر، امتننت لهذا، فقد أتاح لي الصمت مساحة لدراسة المناظر غير المألوفة التي تكشفت على جانبي الطريق ونحن نغادر البلدة، فأنا لم أزر الشمال من قبل، وقد قادتنى أبحاثي إلى لندن، وعبرت بي مرة أو مرتين قنّاة المانش إلى مكثبات وسجلات باريس، لكن يوركشاير مقاطعة عرفتها من الروايات فقط، روايات من قرون سابقة على سبيل الدقة، وبمجرد أن خرجنا من البلدة تراجعت علامات العالم المعاصر، فأصبح ممكناً أن أصدق أنني أسافر عبر الزمن مثلما أسافر إلى عمق الريف، كانت القرى عتيقة وغريبة بكنائسها وحناتها وأبنيتها الحجرية الصغيرة، وكلما تقدمنا، أمسّت

القرى أصغر وزادت المسافة بينها إلى أن باتت بيوت المزارعين المنعزلة الشيء الوحيد الذى يزين الحقول العارية في الشتاء، وفي الأخير لم نعد نرى حتى بيوت المزارعين في حين أن الليل يهبط، أرتنى مصابيح السيارة الأمامية مساحات شاسعة من المناظر الطبيعية عدمة الألوان والملامح، بلا أشيجة ولا جدران ولا حدود ولا أبنية، بل مجرد طريق بلا حواف تمتد على جانبيه تضاريس مظلمة غامضة.

سألت: "أهذه هي الأراضى البور؟"

رد السائق: "نعم"، فملت لأقترب من النافذة، لكن كل ما استطعت رؤيته كان السماء المعبأة بالمياه التى وطدت إلى الأرض والطريق والسيارة، على نحو خانق، وبعد مسافة معينة، خبا حتى ضوء سيارتنا.

وعند تقاطع طرق بلا ملامح، انحرفنا عن الطريق وتقدمنا بحذر لثلاثة كيلومترات تقريباً على طريق حجري، وتوقفنا مرتين حتى يفتح السائق بوابة ثم يغلقها وراءنا، وتابعنا طريقنا، نرتج ونهتز لمسافة كيلومتر آخر.

يقع بيت السيدة "وينتر" بين مرتفعين متدرجين في الظلام، أشباه تلal تبدو كأنها متداخلة، ولا تكشف عن سهل وبيت إلا عند الانعطاف الأخير للطريق، السماء تسطع بأطياف أرجوانية ونيلية ورمادية، ويجثم المنزل تحتها بطوله وانخفاضه وظلمته الشديدة، فتح السائق باب السيارة من أجلي، وهبطت لأجده قد أنزل حقيبتى، كان جاهزاً للانطلاق، تاركاً إياى وحدى أمام شرفة المدخل غير المضاءة، وقد حجب شيش النوافذ ذات القضبان ما وراءها، بلا أى علامات على سكن البشر، يبدو المكان منفراً للزوار بانغلاقه على نفسه.

رننت الجرس، وكان رنينه خافتًا على نحو غريب في الهواء الرطب،
تطلعت إلى السماء منتظرة، وتسلسل البرد عبر فتحات أصابع حذائي،
رننت الجرس مجددًا، لكن لم يجب أحد.

كنت على وشك رن الجرس للمرة الثالثة حين فُتح الباب على
نحو مفاجئ وبلا أى صوت.

ابتسمت السيدة عند المدخل ابتسامة متحفظة واعتذرت لإبقائي
منتظرة، بدت السيدة من أول نظرة تقليدية للغاية، شعرها القصير
الأنيق له لون بشرتها الشاحبة، عيناها ليستا زرقاوين ولا رماديتين ولا
خضراوين، ولكن ليس غياب اللون هو ما يجعلها تبدو عادية، بل
غياب أى تعبير في عينيها، أظن أن وجود بعض دفء التعبير في عينيها
يمكن أن يجعلهما تلمعان بالحياة، وبدالي وهى تبادلنى النظرة المتفحصة
نفسها أنها لم تبق على تلك النظرة الجافة من أى تعبير إلا عن قصد.
قلت: "مساء الخير، أنا (مارجريت ليا)".

"كاتبه السير الذاتية، كنا بانتظارك".

ما الذى يمكن البشر من استشفاف حقيقة الآخرين وراء أقنعتهم؟
لأننى فهمت بوضوح جدًا فى تلك اللحظة أنها كانت قلقة، ربما
للمشاعر رائحة أو طعم، ربما نبثها بلا وعى منا عبر اهتزازات فى
الهواء، أيًا كانت الوسيلة، أدركت تمامًا أن ما يقلقها ليس أنا تحديدًا،
بل حقيقة أننى جننت وأننى غريبة.

أرشدتنى إلى الداخل وأغلقت الباب ورائى، دار المفتاح داخل القفل
بلا صوت، ولم تُحدث الترايبس المزيّنة جيدًا أى صرير وهى تعود إلى
مكانها.

وقفت فى الممر مرتدية معطفى، حينها اختبرت للمرة الأولى الصفة
الأغرب فى المكان، بيت السيدة "وينتر" صامت تمامًا.

أخبرتني السيدة أن اسمها "جوديث" وأنها مدبرة المنزل، سألتني عن رحلتى وأخبرتني بأوقات الوجبات وأفضل الأوقات لأجد المياه الساخنة، تفتح فمها وتغلقه، وبمجرد أن تخرج الكلمات من بين شفتيها، تختنق بغطاء الصمت الذى هبط وأخمدتها، ابتلع الصمت أصوات خطواتنا وكتم أصوات فتح وإغلاق الباب خلال جولة تعريفى بالغرف واحدة تلو الأخرى، غرفة الطعام، والمرسم، وغرفة الموسيقى.

ما من سحر وراء ذلك الصمت: بل السحرُ سحرُ المفروشات الناعمة، فالأرائك متخمة ومكدسة بالوسائد المخملية، عليها مساند ممتلئة للقدمين، ومقاعد للتمدد ومقاعد بذراعين، مُدت الأنسجة على الجدران واستُخدمت كأغطية للأثاث المحشو بالقطن، غطى السجاد كل الأرضيات، وكل سجادة تغطيها البُسْط، وبدا الدمقس الذى كسا النوافذ كأنه يمويه الجدران، ومثلما يمتص الورق الحبر، امتص كل هذا الصوف والمخمل الصوت، باختلاف واحد: فالورق يمتص الحبر المكثف فقط، أما تلك الأنسجة فإنها تمتص كل أثر لما ننطقه من كلمات.

تبعث مدبرة المنزل، انعطفنا يسرة ويمنة، ثم يمنة ويسرة، وصعدنا وهبطنا سلام حتى أصبحت حائرة تمامًا، وسريعًا فقدت كل إحساس بتوافق الداخل المعقد مع البساطة الخارجية للمنزل، وافترضت أنه قد تغير بمرور الوقت، فأضيفت التفاصيل هنا وهناك، على الأرجح كنا فى جناح أو ملحق ما لا يُرى من الواجهة، قالت المدبرة حين رأت وجهى: "ستعتادين عليه"، وفهمتها كأننى أقرأ الشفاه، وأخيرًا توقفنا بعد انعطاف فى السُّلم، فتحت بابًا أدخلنا إلى صالون، وجدت بالصالون ثلاثة أبواب، قالت لى وهى تفتح أحدها: "هذا المرحاض"، وفتحت آخر معقبة: "وهذه غرفة النوم"، وفتحت الأخير: "وهذه غرفة الدراسة"، تمتلئ الغرف بالوسائد والستائر والمعلقات كحال سائر المنزل.

سألتني: "هل ستأكلين وجباتك في غرفة الطعام أم هنا؟" قاصدة الطاولة الصغيرة والكرسي المنفرد بجوار النافذة.

لم أعرف إن كان تناول الوجبات في غرفة الطعام يعنى تناولها مع مضيفتي، ولم أكن متأكدة من وضعي في المنزل (هل أنا ضيفة أم موظفة؟) ترددت، فكرت في ما إذا كان الأكثر تهذبًا أن أقبل أم أن أرفض، علقت المدبرة التي بدا أنها خمنت سبب ترددي، كأنها تحاول تجاوز عادة التكتم: "السيدة (وينتر) تأكل وحدها دائمًا".

"إذا كانت الأمور سواء، فسأكل هنا".

"سأحضر لك الحساء والشطائر في الحال، حسنًا؟ لا بد أنك جائعة بعد رحلة القطار، لديك ما يلزم لإعداد القهوة والشاي هنا"، وفتحت خزانة في زاوية غرفة النوم لتكشف بداخلها عن غلاية والأدوات اللازمة لإعداد المشروبات، بل وثلاجة صغيرة أيضًا، وأضافت: "سيوفر هذا عليك عناء الصعود والهبوط إلى المطبخ"، وألقت ابتسامة خجلة، أظنها على سبيل الاعتذار لأنها لا تريدني في مطبخها.

وتركتني لأفرغ حقيبتى.

في غرفة النوم استغرق الأمر دقيقة لأفرغ ملابسى القليلة وكتبى ومستلزمات المرحاض، وأزحت أدوات الشاي والقهوة إلى جانبى ووضعت مكانها كيس الكاكاو الذى جلبته معى من المنزل، ثم تبقى لى فقط الوقت الكافى لتجربة السرير العتيق المرتفع قبل أن تعود المدبرة بالطعام، السرير المغطى بترف بالغ بالوسائد لدرجة أن من الممكن أن يوجد أى شئ تحتها وما كنت لأعرف.

"تدعوك السيدة (وينتر) للقائها بالمكتبة فى الساعة الثامنة".

بذلت ما بوسعها لتجعل الأمر يبدو كدعوة، لكننى فهمت أن هذا أمر، وهو ما قصدته بلا شك.

لقاء السيدة "وينتر"

لست متأكدة إن كان من قبيل المصادفة أم الحظ أننى وجدت طريقى إلى المكتبة قبل عشرين دقيقة كاملة من موعدى، ولكنها لم تكن مشكلة، فأى مكان أفضل من المكتبة لقتل الوقت؟ وبنظرى، أى طريقة لمعرفة شخص أفضل من اختياراته من الكتب ومعاملته لها؟ تشكل انطباعى الأول عن الغرفة بالكامل، وقد أدهشتنى باختلافها الملحوظ عن بقية المنزل، فالغرف الأخرى مثقلة بجثث كلماتنا المختنقة: لكن هنا فى المكتبة تستطيع التنفس بسلاسة، إنها غرفة مصنوعة من الأخشاب، بدلاً من الأقمشة، أرضيتها عبارة عن ألواح، ويغطى الشيش نوافذها الطويلة، وجدرانها مخططة برفوف من البلوط الصلب.

الغرفة مرتفعة السقف، أكثر بكثير من كونها عريضة، فى أحد جوانبها امتدت خمس نوافذ من السقف إلى الأرض تقريباً وتعلوها أقواس، صُفَّت عند قاعدتها مقاعد تجاه النافذة، وفى الجهة المقابلة

رُصَّت خمس مِرايا تشبه النوافذ شكلاً لتعكس المشهد الخارجى، لكن فى تلك الليلة كانت تعكس ألواح شيش النوافذ ذات النقوش، امتدت رفوف الكتب من الجدران إلى عمق الغرفة، مشكلة ما يشبه الخلجان، وفى كل مساحة مواتية وُضع مصباح أصفر الضوء على طاولة صغيرة، تلك المصابيح هى مصدر الإضاءة الوحيد، بخلاف الموقد الذى فى الطرف الآخر من الغرفة، وقد صنعت حولها هالات رقيقة دافئة، عند أطرافها تذوب صفوف الكتب فى الظلام المحيط.

استكشفت طريقى إلى مركز الغرفة، متفحصة خلجان الكتب على يمينى ويسارى، وبعد نظراتى الأولية، وجدت نفسى أومئ إعجاباً، إنها مكتبة لائقة وتحظى بالاهتمام اللازم، المكتبة نظيفة وكتبها مرتبة حسب الأبجدية والتخصص، كأننى رتبته بنفسى، كل مفضلاتى موجودة، إلى جانب عدد كبير من المجلدات النادرة والقيمة، بخلاف النسخ العادية المستهلكة، لم أجد روايات "جين أير"، و"مرتفعات ويذيرنج"، و"ذات الرداء الأبيض" فقط، بل ووجدت أيضاً "قلعة أوترانتو"، و"سر السيدة أودلى"، و"ذا سبيكتر برايد"، وفُتنت حين صادفت نسخة من رواية "دكتور جيكل ومستر هايد" نادرة جداً لدرجة أن والدى تخلى عن الاعتقاد بوجودها.

تحت تأثير ذهولى بالمجموعة المختارة بعناية من المجلدات على رفوف السيدة "وينتر"، استكشفت طريقى نحو الموقد فى طرف الغرفة، وعند الخليج الأخير إلى اليمين تبرز مجموعة معينة من الرفوف حتى ولو من بُعد: فبدلاً من الكعوب العتيقة البنية فى غالبها المميّزة للكتب القديمة، تراوحت ألوان تلك المجموعة بين الأزرق الفضى، والأخضر الداكن، والوردى الرملى، ذلك المزيج المميز لكتب العقود الأخيرة، تلك هى الكتب الحديثة الوحيدة فى الغرفة، إنها كتب السيدة "وينتر" نفسها، وقد وضعت مؤلفاتها المبكرة فى الأعلى ورواياتها الأخيرة فى الأسفل، وكل عمل تمثله نسخة من كل

طبعة، بل ومن كل لغة، لم أرَ "ثلاث عشرة حكاية"، الكتاب ذا العنوان الخطأ الذى قرأته فى المتجر، لكن توجد أكثر من ستة من الطبعات تحت عنوانه الآخر "حكايات عن التغيير والياس".

اخترت نسخة من كتاب السيدة "وينتر" الأخير، فى الصفحة الأولى، تصل راهبة مسنة إلى منزل صغير فى الشوارع الخلفية لبلدة بلا اسم لكنها بدت فى إيطاليا، ويرشدها أحد إلى غرفة حيث يحبها شاب منتفخ الذات، نفترض أنه إنجليزى أو أمريكى، يبدو متفاجئًا بعض الشيء، (طويت الصفحة، فقد جذبتنى الفقرات الأولى ليس إلا، مثلما يحدث فى كل مرة أفتح كتابًا لها، ومن دون تخطيط، أشرع فى قراءتها بنهم)، لا يدرك الشاب فى البداية ما يفهمه القارئ: أن زائرته جاءت من أجل مهمة خطيرة، مهمة ستغير حياته بطرق لا يتوقع أن يتخيلها، وتبدأ الراهبة فى الشرح، وتحمل بصر حين يعاملها هو بطيش الشباب المدلل، وحين طويت الصفحة، كنت قد نسيت أمر المكتبة، والسيدة "وينتر"، ونفسى...

عند ذلك قطع شئ طريق قراءتى وأخرجنى من الكتاب، إنه وخز فى مؤخر عنقى.
أحد يراقبنى.

أعرف أن ذلك الشعور فى مؤخر العنق شائع إلى حد ما، لكن هذه أول مرة أختبره، مثل الكثير من الوحيدين، حواسى معتادة على وجود الآخرين، فأنا معتادة على أن أكون المتجسّسة الخفية فى الغرفة أكثر من كونى المتجسّس عليها، والآن أحد يراقبنى، وليس هذا فقط، بل وكان يراقبنى لبعض الوقت، لكم من الوقت ظل هذا الشعور غير القابل للشك يدغدغنى؟ تأملت الدقائق الأخيرة محاولة تتبع ذاكرة جسدى مع أحداث الكتاب، أكنت أراقب منذ أن بدأت الراهبة الحديث إلى الشاب؟ منذ أن أرشدت إلى داخل المنزل؟ أم قبل ذلك؟

حاولت أن أتذكر من دون تحريك عضلة واحدة، كنت منكبة على الصفحة كأن شيئًا لم يحدث.

ثم أدركت.

شعرت به قبل حتى أن ألتقط الكتاب.

احتجت إلى دقيقة لأمسك بزمام أفكاري، فطويت الصفحة واستمررت في ادعاء القراءة.

"لا تستطيعين خداعي".

سمعتها بنبرة معلنة أمرة لا سبيل لتجاهلها.

لم يكن بوسعى سوى الاستدارة ومواجهتها.

لم تقصد "فيدا وينتر" بمظهرها أى شيء سوى أن تكون ملحوظة، كأنها ملكة أو ساحرة أو معبودة قديمة، انتصب جسدها المشدود كأنها ملكة تستقر بين وفرة من الوسائد الحمراء والأرجوانية المنتفخة، طيات الملابس الخضراء والفيروزية الملتفة حول كتفيها، والتي غطت جسدها، لم تخفف حدة قوامها، ورُتّب شعرها النحاسى اللامع في شكل خليط طويل من الثنايا والتموجات، ووجهها، المرسوم بشكل محكم كأنه خريطة، يغطيه مسحوق أبيض وبه لمسة أخيرة من أحمر الشفاه القرمزى الجرىء، وفي حجرها تستقر يداها كأنها كتلة من الياقوت والزمرد والعُقل البيضاء النحيلة، وأظفارها، غير اللامعة، والقصيرة المربعة مثل أظفاري، هى الشيء الوحيد الذى بدا غريبًا عنها.

ما أفقدنى شجاعتي أكثر من كل هذا هو نظارتها الشمسية، التى منعتنى من رؤية عينيها، لكننى تذكرت الحدقتين الخضراوين غير البشريتين فى الصورة بمحطة القطار، بدت نظارتها السوداء كأنها

تستحضر قوة كشاف ضوئي: تكوّن لدى انطباع بأن هذه النظارة تجعل جلدي شفافاً وتمكنها من اختراق أعماق روحي.

شدت غطاءً على نفسي، والتزمت الحياد، واختبأت وراء ملابس.

أظن أنها للحظة كانت متفاجئة من أنني لست شفافة، وأنها لا تستطيع اختراق روحي، لكنها أمسكت بزمام أفكارها سريعاً، أسرع مني.

قالت بنبرة حادة: "حسنًا"، وابتسمت كأن ابتسامتها لنفسها أكثر مما هي لي، "لنبدأ العمل، فهمت من رسالتك أن لديك تحفظات بشأن النسبة التي عرضتها عليك".

"نعم، هذا..."

جاء ردها كأنه قطار لا سبيل لإيقافه: "أقترح زيادة الراتب الشهري والأجر النهائي".

عضضت شفتي باحثة عن الرد المناسب، وقبل أن أتكلم، كانت نظارة السيدة "وينتر" الداكنة قد فحصتني من أساسي إلى رأسي، من قصة شعري البنية المنبسطة مروراً بتنورتي المكوية إلى سترقي الزرقاء، وابتسمت ابتسامة شفافة، وعطلت نيتي أن أتكلم، "لكن يبدو واضحاً أن الاهتمام بالمال ليس من طبيعتك، كم هذا طريف"، بنبرة جافة، "لقد كتبت عمّن لا يهتمون بالمال، لكنني لم أتوقع أن أقابل أحدهم أبداً"، ومالت إلى الوراء مستندة إلى الوسائد، "وبالتالي أستنتج أن المشكلة تتعلق بالنزاهة، فمن يغيب عن حياتهم التوازن الذي يحققه الحب الصحي للمال يعانون من هوس مروع بالنزاهة الشخصية".

لوحيت بيدها، رافضة ردي قبل أن ينطق به لساني، "تخافين أن تكتبي سيرة ذاتية بإذن صاحبها لأن هذا قد يهدد استقلاليتك، تشكين في أنني أريد بسط سيطرتي على محتويات الكتاب، تعرفين أنني

قاومت عروض كاتبى السير الذاتية فى الماضى وتتساءلين عن هدفى من تغيير رأى الآن، وفوق كل هذا"، رأيت مجددًا ذلك التحديق بالنظارة الشمسية، "تخافين أن أتعمد الكذب عليك".

فتحت فمى لأعترض، لكنه لم يجد ما ينطق به، فهى محقة.

"ليس لديك رد، أليس كذلك؟ أتخجلين من اتهامى بأنى أريد الكذب عليك؟ لا يحب الناس أن يتهم بعضهم بعضًا بالكذب، وبحق السماء فلتجلسى".

جلست وقلت بلطف: "لا أتهمك بأى شئ..."، لكنها قاطعتنى على الفور.

"لا تكونى مهذبة، لو أن هناك شيئًا واحدًا لا أتحمله فهو التهذب".

اختلج جبينها، وارتفع حاجب أعلى حدود نظاراتها، كان كقوس أسود قوى ليست له علاقة بأى حاجب طبيعى".

"التهذب، إنها فضيلة المغلوب على أمره، هلا أخبرتنى، ما الجدير بالإعجاب فى الوداعة؟ ففى النهاية، الوداعة سهلة جدًا، لا يتطلب الأمر موهبة خاصة حتى يكون المرء مهذبًا، بل على النقيض، أن تكونى لطيفة هو آخر ما يتبقى لك بعد أن تفشلى فى كل شئ، الطموحون لا يشغلهم ما يظنه الناس عنهم، لا أفترض أن (ريتشارد فاجنر) كان يؤرق منامه التفكير فى ما إذا كان قد أذى مشاعر أحد ما، لكنه كان عبقرىًا".

وانطلق حديثها بلا هوادة، ذاكرة المثل وراء المثل على العبقرية ورفيقتها الأنانية، وطيات شالها لم تتزحزح طوال حديثها، قلت لىفسى إنها بالتأكيد مصنوعة من الصلب.

في النهاية اختتمت محاضرتها بقولها: "التهذب فضيلة ليست لدى، ولا أحترم وجودها لدى الآخرين، فلا حاجة لنا لنشغل بالنا بها"، ثم سكنت، كأنها قد حسمت الأمر بلا مجال للنقاش.

علقت: "أنت من أثار موضوع الكذب، وهذا أمر قد نشغل بالنا به".

"من أيّة ناحية؟" عبر النظارة المعتمدة، استطعت رؤية حركة رموش السيدة "وينتر"، جثمت وارتجفت حول عينيها مثلما تفعل أرجل العنكبوت الطويلة حول جسده.

"لقد قدمت تسع عشرة نسخة مختلفة من قصة حياتك للصحفيين خلال العامين الماضيين فقط، وذلك عدد ما وجدته يبحث سريع، هناك المزيد، ربما المئات".

هزت كتفها استهجاناً: "هذا عملي، أنا راوية قصص".

"وأنا كاتبة سير ذاتية، ولا يستقيم عملي إلا بالحقائق".

قلّبت رأسها وتحركت معها تموجات شعرها كأنها خصلة واحدة: "هذا ممل حد البشاعة، ما كنت أبداً لأكون كاتبة سير ذاتية، ألا تعتقدن أن الحقيقة يمكن أن تُحكى أفضل بواسطة قصة؟"

"ليس بواسطة القصص التي حكيتها للعالم حتى الآن".

استسلمت بإيماءة وأردفت بنبرة أبطأ: "آنسة (ليا)، كانت لدى أسبابي لأحجب ماضى وراء ستار، وأؤكد لك أن تلك الأسباب لم تعد موجودة".

"أي أسباب؟"

"الحياة معقدة".

أرمشت.

"تظنين أنه شيء غريب أن يُقال، لكنه حقيقى، حياتى وتجاربى كلها، والأحداث التى حلّت على، وكل من عرفتهم، وكل ذكرياتى، وأحلامى، وخيالاتى، وكل ما قرأته، كل ذلك رُمى فى كومة تحللت بمرور الزمن لتكوّن سمادًا عضويًا غنيًا ذاكنّا، وعملية التحلل تجعلها بلا ملامح، يسمى الآخرون هذا الخيال، لكننى أعتبره كومة سماد، فبين الحين والآخر آخذ فكرة وأزرعها فى السماد، وأنتظر، إنها تتغذى على الشيء المظلم الذى كان حياتى، وتستمد منه طاقتها، ثم تنبت، وتهبط جذورها، وتمتد أغصانها، وما إلى ذلك، إلى أن أجد أمامى فى يوم هادئ قصة، أو رواية".

أومات معجبة بالتشبيه.

أردفت السيدة "وينتر": "القراء مغفلون، يعتقدون أن الكتابة كلها متعلقة بسيرة الكاتب الذاتية، وهى فى الواقع هكذا، ولكن ليس مثلما يظنون، فحياة الكاتب تحتاج إلى بعض الوقت لتنضج قبل أن يستخدمها فى إغناء عمل خيالى، يجب أن تُترك لتتحلل، لذا لم أستطع أن أترك الصحفيين وكتاب السير الذاتية يعبثون بماضٍ، مسترجعين أجزاء وقطعًا منه، ومحفظين بها فى كلماتهم، فحتى أكتب كتبى، احتجت إلى ترك الماضى فى سلام، حتى يفعل الزمن أفاعيله".

تأملت إجابتها ثم سألتها: "وماذا حدث ليتغير هذا الآن؟"

"أنا مسنة ومريضة، ضعى هاتين الحقيقتين معًا يا كاتبة السير الذاتية وأخبرينى علامَ تحصلين؟ أعتقد أنها نهاية القصة".

عضضت شفتى: "ولماذا لا تكتبين الكتاب بنفسك؟"

"لقد تأخرت جدًا، إلى جانب أن من سيصدقنى؟ لقد أرسلت استغاثات كاذبة كثيرة".

سألتها: "وهل تنوين إخباري الحقيقة؟"

قالت: "نعم"، لكنني سمعت ترددها مع أنه استمر لجزء من الثانية.

"ولماذا تريدان أن تقوليهما لي؟"

سكتت لبرهة، "أتعلمين، ظللت أسأل نفسي هذا السؤال طوال ربع الساعة الماضية، أي نوع من البشر أنت يا آنسة (ليا)؟"

ثبَّتُ القناع الذي أخفيت نفسي وراءه قبل أن أرد: "أنا مساعدة في متجر، أعمل في متجر للكتب النادرة، وأنا كاتبة سير ذاتية هاوية، أفترض مسبقًا أنك قرأت كتابي عن الأخوين (لانديير)".

"هذا ليس كافيًا، ألا تتفقين؟ إن كنا سنعمل معًا، سأحتاج إلى أن أعرف المزيد عنك، من الصعب أن أفشي أسرار حياتي بالكامل لشخص لا أعرف عنه شيئًا، لذا أخبريني عن نفسك، ما كتبك المفضلة؟ بم تحلمين؟ من تحبين؟"

وفي الحال شعرت بالإهانة لدرجة منعتني من الإجابة.

"هيا! أجيبي! بحق السماء! هل سأترك غريبة تعيش تحت سقفي؟ هل ستعمل معي غريبة؟ الأمر غير معقول، أخبريني، أتصدقين وجود الأشباح؟"

حينئذ حركني شيء أقوى من المنطق، فنهضت من الكرسي.

"ماذا تفعلين؟ إلى أين تذهبين؟ انتظري!"

خطوت الخطوة وراء الأخرى، محاولة ألا أجري، وسمعت إيقاع ضرب خطواتي على الألواح الخشبية، في حين نادى هي بصوتٍ مَنْ كاد يسقط من حافة الذعر.

فصرخت: "عودي! سأحكي لك قصة، قصة رائعة!"

لكننى لم أتوقف.

"فى يوم من الأيام كان هناك بيت مسكون..."

بلغت الباب، وقبضت يداى المقبض.

"فى يوم من الأيام كانت هناك مكتبة..."

فتحت الباب وكنت على وشك الخروج نحو الخواء، حين قالت بصوت أبخه الخوف كلمات جعلتنى أتجمد فى مكانى.

"فى يوم من الأيام كانت هناك توأمتان..."

انتظرت حتى تلاشى صدى كلماتها ثم نظرت إلى ورائى رغماً عنى، رأيت مؤخر رأسها ويديها المرتجفتين تغطيان وجهها الذى أشاحته عنى. عدت بخطوة حذرة إلى داخل الغرفة، ومع وقع خطواتى، تحول رأسها ذو الشعر النحاسى إلى.

كنت مذهولة، لقد خلعت النظارة، ورأيت عينين خضراوين ساطعتين كالزجاج، تنظران إلى بشيء من التوسل، للحظة بادلتهما التحديق، ثم قالت بصوت مرتعش: "آنسة (ليا)، هلا تجلسين إذا سمحت"، ولولا أنى رأيتها تتحدث، ما كنت لأصدق أن هذا صوتها. حركنى شيء يتجاوز قدرتى، فاقتربت من الكرسى وجلست.

قلت بصوت متعَب: "لن أعدك بأى شيء".

ردت بصوت ضعيف: "لست فى موضع مناسب لطلب أى وعود".

إنها هدنة إذاً.

سألتها مجدداً: "لماذا اخترتنى؟" وأجابت فى هذه المرة.

"بسبب كتابك عن الأخوين (لانديير)، لأن تجربة الأخوة ليست غريبة عنك".

"وهل ستخبرينى الحقيقة؟"

"سأخبرك الحقيقة".

كان ردها غير غامض بدرجة كافية، لكننى سمعت أيضًا الرجفة التى قيّدها، إنها تقصد أن تقول الحقيقة، لم أشك فى ذلك، قررت أن تقولها، ربما حتى لم تقرر ذلك فقط، بل أرادته أيضًا، إلا أنها لم تصدق تمامًا أنها ستفعل ذلك، ويأتى وعدها بالصراحة بهذا الوضوح حتى تقنع نفسها مثلما تريد أن تقنعنى، وقد سمعت هى رجفة الشك فى صوتها مثلما سمعتها أنا.

لذا اقترحت شيئًا: "سأطلب منك ثلاث حقائق، حقائق متاحة فى السجلات العامة، وحين أرحل من هنا، سأتمكن من التحقق بشأنها، إن وجدت أنك قلت الحقيقة، فسأقبل بالنسبة التى عرضتها على".

"نعم، قاعدة الثلاثة، الرقم السحري، ثلاث محاولات قبل أن يفوز الأمير بيد الأميرة الجميلة، ثلاث أمنيات قدمتها السمكة السحرية للصيد، قصة الدببة الثلاثة، وقصة العنزات الثلاث، يا آنسة (ليا)، لو سألتنى سؤالين أو أربعة أسئلة ربما لأتمكن من الكذب، لكن ثلاثة..."

أخرجت قلمى من كعب دفتري وفتحته.

"ما اسمك الحقيقى؟"

ازدردت ريقها وردت: "أمتأكدة من أن هذه أفضل طريقة لنبدا؟ يمكننى أن أحكى قصة أشباح جيدة، ولا أقول إنها جيدة لأننى من ستحكيها، قد تكون هذه طريقة جيدة لنصل إلى حقيقة الأمور..."

هززت رأسى معترضة: "أخبرينى اسمك".

انتقلت كتلة الياقوت وعُقل الأصابع إلى حجرها، وتوهجت أحجارها فى ضوء النار.

"اسمى (فيدا وينتر)، ولقد اتخذت كل الإجراءات القانونية اللازمة لأحصل على هذا الاسم على نحو قانونى وصريح، ما تريدين معرفته هو الاسم الذى عُرفت به قبل هذا التغيير، هذا الاسم هو..."

سكنت للحظة، كانت فى حاجة إلى تجاوز حاجز ما بداخلها، وحين نطق اسم اسمت نبرتها بحيادية ملحوظة، غياب كامل لأى مشاعر، كأنها كلمة من لغة أجنبية لم تجتهد كفاية لتتعلمها: "هذا الاسم هو (آديلاين مارش)".

أردفت بنبرة حادة كأنها تريد تبديد أقل اهتزازة يحدثها هذا الاسم فى الهواء: "آمل ألا تسألينى عن تاريخ مولدى، ففى مثل سنى هذه يصبح عادياً أن أنساه".

"لا بأس بذلك إن أخبرتنى بمحل مولدك".

أطلقت تنهيدة منزعجة: "يمكننى أن أخبرك بمعلومات أفضل كثيراً، فقط إن سمحت لى بأن أقولها بطريقتى".

"هذا ما اتفقنا عليه، ثلاث حقائق مسجلة فى السجلات العامة".

زمت شفيتها: "ستجدين فى السجلات العامة أن (آديلاين مارش) ولدت فى مشفى القديس بارثولوميو بلندن، من الصعب أن تنتظرى منى تقديم أى ضمانات شخصية على صحة هذه التفصيلة، فمع أننى شخصية استثنائية، أنا لست استثنائية لدرجة أنى أتذكر مولدى".

دونت هذه المعلومة.

والآن السؤال الثالث، يجب أن أعترف بأننى لم أعد سؤالاً ثالثاً معيئاً، لم ترد أن تخبرنى بسنها، وأنا بالكاد أحتاج إلى سنها، فبناء على تاريخ أعمالها الطويل، وتاريخ نشر أول كتبها، لا يمكن أن تبلغ أقل من ثلاثة أو أربعة وسبعين عاماً، وبناء على مظهرها، مع أنه متغير بسبب المرض ومساحيق التجميل، فإنها لا يمكن أن تكون قد تجاوزت

الثمانين، لكن هذه الضبابية لم تهمنى، فباسمها ومحل ميلادها يمكننى أن أتوصل إلى تاريخ مولدها بنفسى، وبفضل سؤالى السابقين، أصبحت لدى المعلومات الكافية لأعرف إن كان أحد باسم "آديلاين مارش" قد عاش قط، عم أسألها إذًا؟ ربما شعرت برغبتى فى أن أسمع السيدة "وينتر" تحكى حكاية، لكن حين لاحت الفرصة لأستخدم سؤالى الثالث كيفما يحلو لى، انتهزتها.

تقدمت ببطء وحذر: "أخبرينى"، فى كل قصص السحرة، دائمًا ما تكون الأمنية الثالثة هى ما يُذهب كل ما كسبه الممتنى هباءً بعدما كابد الخطر، "أخبرينى بشئ حدث لك قبل تغيير اسمك ويمكن العثور عليه فى السجلات العامة"، فكرت فى النجاحات التعليمية، أو الإنجازات الرياضية خلال الدراسة، تلك الانتصارات الصغيرة التى تُسجل حتى يفخر بها الآباء وتستلهمها الأجيال القادمة.

خلال الصمت الذى تلى السؤال، بدا أن السيدة "وينتر" تنسحب إلى داخلها، لقد نجحت وهى جالسة أمام ناظرى فى أن تكون غائبة، حينها فهمت كيف لم أرها منذ قليل وهى فى الغرفة نفسها، رأيتها أمامى بلا أى تفاعل مع ما يحدث خارج جسدها، أذهلنى فى هذه اللحظة مدى استحالة معرفة ما يدور داخل رأسها.

ثم ارتدت مجددًا.

"أتعلمين لماذا حققت كتبى نجاحًا بالغًا؟"

"لأسباب كثيرة جدًا".

"يمكن، فى الغالب، لأن بها بداية ومنتصفًا ونهاية، بالترتيب الصحيح، بالتأكيد لكل القصص بداية ومنتصف ونهاية، ولكن ما يهم هو أن يكون الترتيب صحيحًا، لهذا تعجب كتبى الناس".

تنهدت وتململت بيديها: "سأجيب عن سؤالك، سأحكي لك شيئاً حدث قبل أن أصبح كاتبة وأغير اسمي، وهو مسجل في السجلات العامة، إنه أهم ما حدث لي في حياتي، لكنني لم أتوقع أن أجد نفسي أحكيه لك مبكراً جداً هكذا، سأضطر إلى كسر إحدى القواعد التي ألزمت نفسي بها، سأخبرك بنهاية قصتي قبل بدايتها".

"نهاية قصتك؟ كيف يمكن أنها حدثت قبل أن تشرعي بالكتابة؟"

"ببساطة لأن قصتي الشخصية الخاصة جداً انتهت قبل أن أبدأ في الكتابة، ومنذئذ كان حكي القصص مجرد طريقة ملء الوقت بعدما انتهى كل شيء".

انتظرتُ، أخذت هي نفساً كلاعب شطرنج وجد قطعته الأهم محاصرة.

"ما كنت لأحكي لك هذا بهذه السرعة، لكنني وعدتك، إنها قاعدة الثلاثة الحتمية، قد يستجدي الساحر الفتى لكيلا يتمنى الأمنية الثالثة، لأنه يعرف أنها ستنتهي بكارثة، لكن الفتى سيتمنى الثالثة على أية حال، والساحر مُلزم بتحقيقها لأنها قواعد القصة، طلبت مني أن أخبرك الحقيقة بشأن ثلاثة أشياء، ويجب أن أفعل ذلك، لكن سأطلب منك شيئاً في المقابل".

"ماذا؟"

"بعد إجابتي، لن أتجاوز ترتيب أيٍّ من مراحل القصة، بدءاً من الغد، سأحكي لك قصتي، بداية من البداية، مروراً بالمنتصف، وختاماً بالنهاية، كل مرحلة في وقتها، بلا أية حيل ولا استثناءات ولا أسئلة، ولن تسترقى النظر إلى الصفحات الأخيرة".

هل لها الحق في فرض شروط على اتفاقنا بعد أن وافقت عليه؟ ليس حقاً، ولكن مع ذلك أومأت موافقة.

"اتفقنا".

لم تتمكن من النظر إلىّ وهى تحكى.

"كنت أعيش فى آنجلفيلد".

ارتجف صوتها إثر نطق اسم ذلك المكان، ثم حُكَّت باطن يدها بحركة عفوية متوترة.

مكتبة

t.me/t_pdf

"كان عمري ستة عشر عامًا".

أصبح صوتها منقبضًا وهجرته السلاسة.

"وحدث حريق".

كانت تطرد الكلمات من حنجرتها جافة وصلبة، كأنها تقذف حجارة.

"فقدت كل شيء".

ثم هربت صرخة من بين شفيتها أخفقت فى إيقافها: "أوه يا (إيميلين)!"

يُعتقد فى بعض الثقافات أن الاسم يحتوى على كل قوى الشخص الروحانية، وأن الاسم يجب أن يكون معروفًا للرب ولحامله وللقليل جدًا من المحظوظين، فنطق مثل هذا الاسم، سواء أكان بلسان صاحبه أو أحد آخر، يمثل دعوة للخطر، وقد بدا أن هذا ينطبق على ذلك الاسم.

ضمت السيدة "وينتر" شفيتها، لكنها تأخرت جدًا فى ذلك، فقد مرت رجفة تحت جلدها.

الآن أدركت أننى وصلت إلى القصة، لقد عثرت على قلب الحكاية التى كُلفت بروايتها، إنها عن الحب والفقدان، فماذا قد يسبب حزن تلك الصرخة سوى فاجعة الفقد؟ وفى التو رأيت ما وراء قناع

مساحيق التجميل البيضاء والستار الغريب، لمدة بضع ثوانٍ بدا لي أنني أرى ما بقلب السيدة "وينتر"، وما يدور بعقلها، لقد عرفت جوهرها: وكيف أخطئه وهو جوهرى أنا أيضًا؟ كلتانا كانت توأمة وحيدة، بعدما أدركت هذا، ضاق زمام القصة على معصمى، وقطع الخوف فجأة حبل حماسى.

سألته: "أين أجد هذا الحريق بالسجلات العامة؟" محاولة ألا أبدى مشاعرى المضطربة فى صوتى.

"فى الصحف المحلية، صحيفة بانبرى هيرالد".

أومأت، ودونت ذلك فى دفترى وأغلقتة.

عقت: "مع أن هناك سجلًا من نوع آخر يمكن أن أريه لك الآن".

رفعت حاجبى.

"اقتربى".

انتصبْتُ واقتربت خطوة حتى أصبحت بمنصف المسافة بيننا.

رفعت ذراعها اليمنى ببطء، وقربت إلى قبضتها المغلقة التى بدت كالجوهرة من أحد جوانبها، وبحركة دلت على جهد كبير، أدارت يدها وفتحتها، كأنها أخفت بداخلها هدية مفاجئة وكانت على وشك تقديمها إلى.

لكن لم تكن هناك هدية، فالمفاجأة هى اليد نفسها.

كان لحم كفها مختلفًا عن أى يد رأيته من قبل، لم تحمل نتوءاته البيضاء وتجاعيده القرمزية أية علاقة بالقاعدة الوردية التى تستقر عليها أصابعى، ذلك السهل الشاحب بكف يدى، أذابت النار جلد كفها، وبرد ليشكل منظرًا بلا أى ملامح مميزة، مثل مشهد تدفقت الحمم البركانية عبره فغيرته للأبد، لم تنفتح أصابعها تمامًا، بل كانت أشبه بالمخلب بسبب تقلص نسيج الندب، وفى قلب كفها، يوجد

ندب داخل ندب، وحررق داخل حرق، إنه أثر بشع للحريق، الندب غائر جدًا في قبضتها، غائر لدرجة أننى، وبشعور مفاجئ بالغثيان، تساءلت عما حدث للعظمة التى يُفترض أن توجد هناك، جعل ذلك شكل الوضعية الغريبة ليدها عند المعصم منطقية، كان أثر الحريق على شكل دائرة راسخة في كفها، وتمتد من الكف بخط قصير نحو الإبهام.

الحرق يشبه حرف "كيو" الإنجليزي، لكن في لحظتها، وإثر صدمة هذا الكشف المؤلم والمفاجئ، لم يكن شكل الأثر بهذا الوضوح، وأزعجنى مثلما قد يزعجنى ظهور رمز غير مألوف من لغة مفقودة أجهلها وسط صفحة باللغة الإنجليزية.

سيطر على دوار مفاجئ وحاولت الوصول إلى مقعدى ورائى. سمعتها تقول: "أنا آسفة، يعتاد المرء على أهواله الشخصية وينسى أنها تخيف الآخرين".

جلست وبدأت الظلمة التى حاصرت رؤيتى فى الانحسار. أغلقت السيدة وينتر أصابعها على كفها المشوه، وأدارت معصمها وجذبت قبضتها المرصعة بالمجوهرات إلى حجرها، وفى حركة تحفظية، غلفت تلك اليد بأصابع يدها الأخرى.

"أنا حزينة لأنك لم تريد أن تسمعى حكايتى عن الأشباح يا آنسة (ليا)".
"سأسمعها فى مرة أخرى".
وانتهت المقابلة.

فى طريق عودتى إلى غرفتى، فكرت فى رسالتها إلى، واليد المرهقة المثابرة التى لم أر مثلها من قبل، حينها أرجعت سبب بدائية الخط إلى الاعتلال، ربما التهاب المفاصل، والآن عرفت السبب، منذ كتابها

الأول وطوال مسيرتها كلها، كتبت السيدة "وينتر" كل تحفها الفنية بيدها اليسرى.

في غرفة الدراسة، الستائر المخملية خضراء، ويغطي الجدران الساتان الذهبي الباهت ذو العلامات المائية، وعلى الرغم من ذلك الصمت المبهم، سررت بالغرفة، لأن المكتب الخشبي العريض والكرسي البسيط الجائتم تحت النافذة يخففان ثقل جوها العام، أضأت مصباح المكتب وأخرجت رزمة الورق التي أحضرتها معي، وأقلامي الرصاص الاثنى عشر، تلك الأقلام جديدة تمامًا: أعمدة حمراء غير مشحودة، وهذا تحديدًا ما أود أن أبدأ مشروعًا جديدًا به، وآخر ما أخذته من حقيبتى كان المبراة، ركبته عند طرف المكتب ووضعت سلة الأوراق تحتها مباشرة.

فجأة قررت أن أصعد فوق المكتب وأصل إلى العارضة أعلى الستارة القصيرة العريضة، تلمست أصابعي قمة الستارة وتحسست الكلابات والغرز التي ربطت بعضها ببعض، لم تكن تلك مهمة شخص واحد قط، فالستائر تمتد بطول الجدار، ومحاكاة بطرق مختلفة، أما وزنها فشعرت به حين هوى على كتفى، كان ساحقًا، لكن بعد دقائق عدة، كانت أول ستارة مطوية وموضوعة في الخزانة، ثم الثانية، وقفت في منتصف الغرفة وعانيت نتيجة عملي.

النافذة عبارة عن امتداد واسع من الزجاج الداكن وفي منتصفه وقف شبحي المظلم الشفاف يحدق إلى، عالمه ليس مختلفًا عن عالمي: إطار شاحب لمكتب في الجانب الآخر من الزجاج، وخلفه يقع كرسي بذراعين به أضرار عميقة في دائرة الضوء الصادر عن مصباح تقليدي، لكن كرسي أحمر، وكرسيه رمادي، وفي حين استقر كرسي على سجادة هندية، محاطًا بجدران ذهبية فاتحة، لاح كرسيه كالطيف

في ظلمة بلا نهاية ولا معالم بدت فيها أشكال غريبة، تشبه الموج، تتحرك وتتنفس.

بدأنا معًا طقس تحضير مكتبينا سريعًا، قَسَمنا رزمة الأوراق إلى أكوام أصغر ونفضنا كل ورقة منها لنسمح لها بالتنفس، وشحذنا أقلامنا واحدًا تلو الآخر، مديرين يد المبراة ونشاهد الطبقات المتساقطة تلتف حول نفسها وتتدلى في طريقها إلى سلة الأوراق أسفلها، وحين شُحذ آخر قلم حتى أصبح طرفه مديبًا، لم نضعه جانبًا مع الأقلام الأخرى، بل ظللنا ممسكين به.

قلت لشبحي: "هيا، أنا جاهزة للعمل".

فتحت فمها، بدا كأنها تتحدث معي، لكنني لم أتبين ما تقوله.

لم أمارس الكتابة الاختزالية، فخلال المقابلة، أدون ببساطة واختصار قوائم بكلمات مفتاحية، وأمل أنني إن كتبت مقابلاتنا بعدها على الفور، فإن هذه الكلمات ستكون كافية لتنشيط ذاكرتي، ومنذ اللقاء الأول، كان ذلك الأسلوب ناجحًا، وأنا أسترق النظر إلى دفتری بين الحين والآخر، ملأت أوراقى بكلمات السيدة "وينتر"، أستحضر صورتها في بالي، أستمع إلى صوتها، أرى طريققتها المميزة، وبعد فترة قصيرة، كنت بالكاد أنتبه إلى دفتری، لكن حين أفرغ المقابلة كنت أتلقي الإملاءات من السيدة "وينتر" التي في عقلي.

تركت هوامش واسعة، في الهوامش اليسرى أدون السلوكيات والتعبيرات والإيماءات التي بدا أنها تضيف شيئًا للمعنى، وتركت الهوامش اليمنى بيضاء، لاحقًا، حين أعيد قراءة ما دونته، سأكتب في هذا الجانب أفكارى وتعليقاتى وأسئلتى.

شعرت كأننى عملت لساعات، وقفت لأعد لنفسي كوبًا من الكاكاو، لكنه لم يستغرق الكثير من الوقت ولم يعكر صفو تسليتي، عدت إلى عملي والتقطت حبل أفكارى من حيث تركته.

كتبت أخيراً في وسط الصفحة: "أنا آسفة، يعتاد المرء على أهواله الشخصية وينسى أنها تخيف الآخرين"، وأضفت إلى اليسار ملحوظة تصف كيف احتضنت قبضة يدها المتأذية المغلقة بيدها الأخرى السليمة.

رسمت خطأ مزدوجاً تحت آخر سطر من النص، وتمددت، وفي النافذة وجدت شبحي يتمدد مثلي، ثم أخذ أقلام الرصاص التي استهلكت رؤوسها وشحذها واحداً تلو الآخر.

كان شبحي في منتصف تشاؤب حين بدأ شيء في الحدوث بوجهه، في البداية رأيت لطخة مفاجئة في منتصف جبهتها، مثل بثرة، ثم ظهرت علامة أخرى على خدها، ثم تحت عينها، وعلى أنفها، وعلى شفثيها. كل تشوه جديد يصحبه صوت مكتوم، كان إيقاعاً يتسارع باطراد، وفي خلال ثوان قليلة، بدا أن وجهها بالكامل قد تحلل.

لكن ذلك لم يكن الموت، بل المطر، المطر المنتظر طويلاً.

فتحت النافذة، وأخرجت يدي لتغتمر بالمطر، ثم مسحت بالمياه وجهي وعيني، اختلجت وشعرت أن وقت النوم قد حان.

تركت النافذة مواربة لأستمع إلى المطر وهو يهطل بنعومة مكتومة ومنتظمة، سمعته وأنا أخلع ملابسى، وخلال القراءة، وخلال نومى، صاحب أحلامى طوال الليل مثل مذياع مهجور غير مضبوط الموجة، يذيع ضوضاء ساكنة غامضة تنتقى أذنى منها همسات بالكاد مفهومة بلغات أجنبية وتختلس منها حديثاً من محطات غير مألوفة.

وهكذا بدأنا...

في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى بعثت السيدة "وينتر" فى طلبى، فذهبت إليها فى المكتبة.

الغرفة مختلفة جداً فى ضوء النهار، فحين يُفتح شيش النوافذ، تفسح النوافذ بكامل ارتفاعها الطريق لضوء السماء الباهتة، والحديقة التى لا تزال أمطار الليلة الماضية تبللها، لمعت تحت شمس الصباح، والنباتات الغربية قرب مقاعد النافذة بدت كأنها تمد أوراقها لتلمس شقيقاتها القويات المبللات خارج النافذة، والإطار الرقيق الذى ثبت ألواح الزجاج لم يبدُ أصلب من الخيوط اللامعة لشبكة عنكبوت ممتدة بين فروع الأشجار، أما المكتبة نفسها، الأبسط والأضيق مما بدت عليه الليلة الماضية، فبدت كأنها سراب من الكتب فى الحديقة الشتوية المبللة.

على النقيض من السماء الزرقاء الباهتة والشمس البيضاء كاللبن، كانت السيدة "وينتر" تشع طاقة وحيوية، إنها وردة دفيئة غريبة

وسط حديقة شتوية شمالية، لم ترتد نظارتها الشمسية اليوم، لكن جفنيها حملا لونًا أرجوانيًا، يطوّقه خط كحل على طريقة كليوباترا، ويؤطرهما الرمشان الأسودان الكثيفان اللذان رأيتها بالأمس، وفي ضوء النهار الصافي، رأيت ما لم أراه ليلة الأمس: بطول الفرق المستقيم كالمسطرة في شعر السيدة "وينتر" النحاسي يوجد هامش ضيق من الأبيض النقي.

قالت: "تذكرين اتفاقنا"، وأنا أجلس على الكرسي على الجانب الآخر من الموقد، "بداية من البداية، مرورًا بالمنتصف، وختامًا بالنهاية، كل مرحلة في وقتها، بلا أية حيل ولا استثناءات ولا أسئلة، ولن تسترقى النظر إلى الصفحات الأخيرة".

كنت متعبة، غمت على سرير غريب في مكان غريب، واستيقظت بلحن ممل بلا نغم يرن في رأسي، قلت لها: "إبدئي من حيث تودين". "سأبدأ من البداية، مع أن بالتأكيد البداية ليست حيث تظننها أبدًا، فحياتنا مهمة جدًا لنا لدرجة أننا نميل إلى الاعتقاد أن قصتها تبدأ بمولدنا، في البدء لم يكن شيئًا، ثم ولدت أنا، مع أن هذا غير صحيح، فحياة الإنسان ليست خطأ يمكن فصله عن خيوط الآخرين ثم شده ليكون خطأ مستقيمًا، فالعائلات عبارة عن شبكات، ويستحيل لمس جزء منها من دون أن تهتز بقيتها، ويستحيل فهم جزء منها من دون إدراك الصورة الكاملة.

"قصتي ليست خاصة بي وحدي، إنها قصة أنجلفيلد، أنجلفيلد القرية، وأنجلفيلد البيت، وعائلة (أنجلفيلد) نفسها، (جورج) و(ماتيلدا)، وطفليهما (تشارلي) و(إيزابيل)، و(إيميلين) و(آديلاين)، بيتهم، وثوراتهم، ومخاوفهم، وشبّحهم، يجب على المرء دائمًا الانتباه للأشباح، أليس كذلك يا آنسة (ليا)؟"

رفقتني بنظرة حادة، ادعيت أنني لم أرها.

"الميلاد ليس البداية الفعلية، فحيواتنا في بداياتها ليست ملكنا، بل هى امتداد لقصة شخص آخر، وإليك أنا على سبيل المثال، إن نظرت إلى الآن لاعتقدت أن ميلادى كان بلا شك حدثًا مميزًا، مصحوبًا بالبشائر الغريبة، وحضرته الساحرات والجذات الجنيات، لكن لا، هذا ليس صحيحًا بالمرّة، فى الواقع، حين ولدت، لم أكن إلا حدثًا فى حبكة فرعية".

"أسمعك تفكرين، لكن كيف عرفت القصة التى سبقت مولدى؟ ما مصادرى؟ من أين حصلت على المعلومات؟ ولكن السؤال هو: من أين تأتى أيّة معلومة فى بيت مثل أنجليلد؟ إنهم الخدم بالتأكيد، وسيدة خدم المنزل بالتحديد، ليس الأمر أننى عرفت ذلك من فمها مباشرة، أحيانًا حدث هذا، فهى كانت تستغرق فى ذكريات الماضى وهى جالسة تنظف الفضيات، وتبدو كأنها نسيّت وجودى وهى تتكلم، وقد عبست حين تذكرت شائعات القرية ونميتها المحلية، لقد وصلت الأحداث والمحادثات والمشاهد إلى شفيتها لتحدث من جديد على مائدة المطبخ، لكن عاجلاً أو آجلاً، تقودها أحداث القصة إلى أجزاء غير مناسبة للأطفال -وغير مناسبة لى تحديداً- ثم تتذكر فجأة وجودى، وتقتطع حكايتها فى منتصف جملة، وتبدأ فى فرك أدوات المائدة بشدة كأنها تمسح الماضى، لكن لا توجد أسرار فى بيت به أطفال، فقد جمعت أجزاء القصة بطريقة أخرى، فحين تتحدث سيدة الخدم مع البستاني خلال فقرة شاي الصباح، تعلمت أن أترجم السكوت المفاجئ الذى تخلل ما يبدو كمحادثات بريئة، ودون أن يبدو أننى لاحظت شيئًا، أرى النظرات الصامتة التى تستدعيها كلمات معينة بينهما، وحين كانا يظنان أنهما وحدهما ويمكن أن يتحدثا على انفراد، لم يكونا وحدهما، وبهذه الطريقة عرفت قصة أصولى، ولاحقًا، حين لم تعد سيدة الخدم مثلما كانت من قبل، وحين أربكها سنّها وأطلق لسانها، أكدت أحاديثها المملوطة القصة التى ظلمت أخمنها

لسنوات، إنها تلك القصة التى جمعتها من التلميحات والنظرات
والسكتات، والتى سأترجمها لك إلى كلمات الآن".

تنحنحت السيدة "وينتر"، واستعدت لتبدأ.

"كانت (إيزابيل أنجلفيلد) غريبة".

بدا أن صوتها يهرب منها، وسكتت متفاجئة، وحين تكلمت مجددًا
كانت نبرتها حذرة.

"وُلدت (إيزابيل أنجلفيلد) خلال عاصفة ممطرة".

ثم حدث ذلك الانقطاع المفاجئ للصوت مجددًا.

كانت معتادة جدًّا على إخفاء الحقيقة لدرجة أنها ضمرت
بداخلها، فبدأت بداية غير موفقة، ثم حاولت مجددًا، لكن كحال
موسيقى موهوب بعد سنوات من هجر الموسيقى، تناولت أداتها
الموسيقية مجددًا، ووجدت طريقها.

حكى لي قصة "إيزابيل" و"تشارلى".

كانت "إيزابيل أنجلفيلد" غريبة.

وُلدت "إيزابيل أنجلفيلد" فى أثناء عاصفة ممطرة.

من المستحيل معرفة ما إذا كانت ثمة علاقة بين هاتين الحقيقتين
أم لا، لكن حين تركت "إيزابيل" البيت للمرة الثانية، بعد عقدين
ونصف، تذكر أهل القرية أبدية المطر فى يوم مولدها، تذكر البعض
تأخر الطبيب بسبب الفيضانات التى سببها إغراق النهر لضفتيه كأنه
حدث بالأمس، وتذكر آخرون بلا أدنى شك أن الحبل السرى التف
حول عنق الطفلة وكاد يميتها خنقًا قبل حتى أن تولد، حسنًا، لقد
كانت ولادة صعبة بلا شك، فعندما دقت الساعة السادسة، ساعة

ولادة الطفلة ورن الطبيب للجرس، ألم تنتقل أمها من هذا العالم إلى الحياة التالية؟ ثرى ماذا لو كان الطقس معتدلاً، وحضر الطبيب مبكراً، ولم يحرم الحبل السرى الطفلة من الأكسجين، ولم تمت أمها... وماذا لو، وماذا لو، مثل هذا التفكير عديم الجدوى، فـ"إيزابيل" كانت "إيزابيل"، وهذا كل ما يمكن أن يُقال بهذا الشأن.

كانت الرضيعة أشبه بقطعة صغيرة من الغضب، وبلا أم، وفي البداية، بدا أنها ستكون بلا أب أيضاً، لأن والدها، "جورج آنجلفيلد"، سقط في بئر من الضعف، فحبس نفسه في المكتبة، ورفض بكل بصراحة أن يخرج، قد يبدو هذا تصرفاً مبالغاً فيه، فعشر سنوات من الزواج عادة تكون كافية لتقليل المودة الزوجية، لكن "آنجلفيلد" كان رجلاً غريباً، وهكذا كان حاله، لقد أحب زوجته، "ماتيلدا" الجميلة الكسولة سيئة المزاج، أحبها أكثر مما أحب أحصنته، بل وأكثر من كلبه، أما ابنتهما "تشارلى"، وهو ابن التاسعة، فلم يخطر قط على بال "جورج" أن يتساءل إذا ما كان يحبه أكثر أم أقل من "ماتيلدا"، بسبب حقيقة أنه لم يفكر في "تشارلى" قط من الأساس.

يقضى "جورج آنجلفيلد" يومه كله في المكتبة، ثاكل ويدفعه الحزن نحو الجنون، لا يأكل شيئاً ولا يرى أحداً، وبات لياليه هناك أيضاً، على الأريكة التى تُحال سريراً، لا ينام بل يحملق بعينين حمراوين إلى القمر، استمر هذا لأشهر، وأصبح خداه الشاحبان أكثر شحوباً، وفقد وزنه، وانقطع عن الكلام، استدعى الأطباء من لندن لأجله، وجاء القس وراج، ووهن الكلب لغياب المحبة، وبالكاد لاحظ "جورج آنجلفيلد" موته.

وفي النهاية ضاقت سيدة خدم المنزل بكل هذا، فأخذت الرضيعة "إيزابيلا" من سريرها في الحضانة ونزلت بها إلى الطابق السفلى، خطت خطوات واسعة وهى تمر بكبير الخدم متجاهلة اعتراضاته ودخلت

إلى المكتب دون طرق الباب، وتقدمت حتى المكتب وألقت الرضیعة بین یدى "جورج آنجلفیلد" من دون كلمة، ثم استدارت وغادرت، وأغلقت الباب بعنف وراءها.

همّ كبير الخدم بالدخول حتى يستعيد الرضیعة، لكن سيدة خدم المنزل رفعت إصبعها واستهجنته: "لن تجرؤ!" وقد صدمه ذلك لدرجة أنه أطاعها، تجمع خدم المنزل أمام باب المكتبة، يتبادلون النظرات دون دراية بما يجب فعله، لكن شدة إقناع سيدة خدم المنزل شلت حركتهم، ولم يفعلوا أى شىء.

كانت تلك فترة عصر طويلة، وفي نهايتها ركضت إحدى الخادومات للمساعدات نحو الحضانة: "لقد خرج! لقد خرج السيد!" هبطت السيدة بسرعتها وطريقتها العادية لترى ما حدث.

وقف الخدم متفرجين فى الممر لساعات، يسترقون السمع عبر الباب ويختلسون النظر عبر ثقب المفتاح، فى البداية جلس سيدهم هناك بلا حركة، فقط ينظر إلى الرضیعة وعلى وجهه نظرة فاترة ومتحيرة، تلوّت الرضیعة وغرغرت، وحين سُمع "جورج آنجلفیلد" يداعبها ضاحكًا، تبادل الخدم نظرات ذهول، لكنهم ذهلوا أكثر لاحقًا حين سمعوا تهويداته له، فنامت الرضیعة وساد الصمت، وذكر الخدم أن والدها لم يرفع عينيه عن وجه ابنته، ثم استيقظت جائعة وشرعت فى البكاء، أخذت صرخاتها تزداد قوة وحدة إلى أن انفتح الباب.

وقف جدى هناك برضيعة بين يديه.

رأى خدمه يقفون متفرجين، فحدق إليهم وانفجر صوته: "أُيترك الرضع ليجوعوا فى هذا المنزل؟"

ومنذ هذا اليوم، تولى "جورج آنجلفیلد" مسئولية ابنته بنفسه، فكان يطعمها ويحممها وما إلى ذلك، ونقل سريرها إلى غرفته فى حال

بكت من الوحدة ليلاً، وصنع حاملاً لها لتتنقل معه، وكان يقرأ لها (رسائل العمل، وصفحات الرياضة والروايات الرومانسية)، وشارك معها كل أفكاره وخططه، باختصار، تصرف كأن "إيزابيل" رفيقته العاقلة اللطيفة، وليست طفلة جاهلة جامحة.

ربما كان شكلها ما جعل والدها يحبها، ف"تشارلى"، الطفل الأكبر المهمل الذى يكبر "إيزابيل" بتسعة أعوام، كان ابن أبيه: ولد أحمر الشعر، شاحب الوجه، أحرق، بطيء الحركة والتعبير، لكن "إيزابيل" ورثت شكلها من كلا والديها، فالشعر البرتقالي الذى تتشاركه ووالدها وشقيقها كان لامعاً لدرجة كستنائية غنية، وفيها امتدت بشرة "آنجلفيلد" الشاحبة على وجه فرنسى الملامح، وحصلت على ذقن أفضل من ذقن والدها، وفم أفضل من فم والدتها، ونالت عيني "ماتيلدا" الضيقتين ورموشها الطويلة، لكن حين تفتحهما كانا يكشفان عن حدقتين زمرديتين مذهلتين، والتي كانت من سمات آل "آنجلفيلد"، كانت "إيزابيل" تجسيدا للكمال، على الأقل جسدياً.

تأقلم المنزل مع الحالة غير التقليدية للأمور، وعاش سكانه باتفاق ضمنى أن يتصرفوا كأن الأمر طبيعى جداً لأب أن يولع بطفلته الرضيعة، فلم يُعتبر من غير الرجولى، أو غير اللائق أو السخيف أن يبقيا بجانبه دائماً.

لكن ماذا عن "تشارلى" شقيق الرضيعة؟ كان طفلاً غيباً يدور عقله في دوائر حول مكان من هوسه واهتماماته القليلة، والذى لم ينجح أحد في إقناعه بتعلم أفكار جديدة أو التفكير بمنطقية، تجاهل "تشارلى" الرضيعة، ورحب بالتغيرات التى جلبتها إلى المنزل، فقبل "إيزابيل" كان يوجد والدان يمكن لسيدة الخدم أن تبلغهما بما يقدم عليه "تشارلى" من سلوك سيئ، والدان من المستحيل توقع ردود فعلهما، كانت والدته غير متسقة في ردود فعلها التأديبية، فأحياناً تأمر بضرب مؤخرته لسوء

سلوكه، وأحيانًا أخرى كانت تكتفى بالضحك، أما والده فمع أنه كان صارم، كان كذلك مشتتًا، والعقوبات التي كان يأمر به عادة ما كانت تُنسى، لكن رؤيته للولد كانت تسبب لديه شعورًا غامضًا بأنه ارتكب مخالفة ما ويجب تصحيحها، فيضرب مؤخرة الولد ظأنًا أنه حتى لو لم يرتكب خطأ فإن العقوبة مقدمة من أجل المرة التالية، أدرك الولد درسًا هامًا: من الأفضل ألا يوجد في مجال رؤية والده.

تغير كل هذا بمجيء الرضيعة "إيزابيل"، فقد رحلت الأم، ولم يصف وجود الأب الكثير، الذي انشغل بصغيرته "إيزابيل" أكثر من الشكاوى الهستيرية للخادومات بشأن شواء الفئران مع غداء يوم الأحد، أو دق يدين خبيثتين للمسامير في قطع الصابون، تصرف "تشارلي" مثلما يحلو له، وما يحلو له هو أن يزيل ألواح الأرضية في قمة سلم العليا ويشاهد الخادومات وهن يتعثرن وتلوى كواحلهن.

كان بإمكان سيدة الخدم أن توبخه، لكنها ليست إلا سيدة الخدم، وفي هذه الحياة الجديدة الحرة، يستطيع "تشارلي" أن يُقعد الخادومات ويصيبهن ملء سعادته مع علمه بأن ليست لأفعاله عواقب، يُقال إن سلوك البالغين المتسق يفيد الأطفال، وذلك التجاهل المستمر بالتأكيد ناسب هذا الطفل، لأن في السنوات المبكرة من شبه اليتيم الذي عاشه "تشارلي آنجلفيلد"، كان سعيدًا بطول يومه.

استمر شغف "جورج آنجلفيلد" بابنته رغم كل التجارب التي قد تفرضها طفلة على والدها، وحين بدأت الكلام، اكتشف أنها خارقة الموهبة، ومصدر حقيقي للإلهام، وبدأ في استشارتها في كل شيء، حتى أصبح المنزل يدار وفق أهواء ابنة الثلاثة أعوام.

نادرًا ما رأى البيت زوارًا، وعندما انزلق المنزل من الغرابة إلى الفوضى، أصبح الزوار أكثر ندرة، ثم بدأ الخدم في التذمر فيما بينهم، وترك كبيرهم المنزل قبل أن تتم الطفلة عامين، صمدت الطاهية لعام

إضافي في مواجهة المواعيد غير المنتظمة للوجبات حسب طلب الطفلة، حتى جاء اليوم الذي أعلنت فيه نيتها الرحيل، وحين رحلت، أخذت معها مساعدة المطبخ، وفي النهاية تُرك الأمر لسيدة الخدم أن توفر الكعك وحلوى الهلام في ساعات غريبة من اليوم، لم تشعر الخادومات بأي التزام تجاه الأعمال المنزلية، فقد اعتقدن أن رواتبهن الضئيلة بالكاد تعوض الجروح والكدمات والكواحل الملوية وآلام المعدة التي جلبتها عليهن تجارب "تشارلي" السادية، وهذا منطقي إلى حد كبير، فرحلن، وحل محلهن سلسلة من المساعدين المؤقتين الذين لم يستمر أي منهم طويلاً، وفي النهاية، حتى المساعدين المؤقتين جرى الاستغناء عنهم.

بإتمام "إيزابيل" لعامها الخامس، كان المنزل قد ضاق إلا بـ "جورج أنجلفيلد"، والطفلين، وسيدة الخدم، والبستاني، وحارس الصيد، ومات الكلب، وخوفًا على القطط من "تشارلي"، أُبقيت خارج المنزل حيث تلجأ إلى كوخ الحديقة حين يصبح الجو باردًا.

لو لاحظ "جورج أنجلفيلد" عزلة القطط وبؤسها، لما كان أسف عليها، فما دامت لديه "إيزابيل" فهو سعيد.

أكثر من افتقد الخدم هو "تشارلي"، فمن دونهم لا يجد ما يُجرى عليه تجاربه، وهو يتجول باحثًا عن أحد ليؤذيه، وقعت عيناه على أخته، وهو ما كان حتميًا عاجلاً أم آجلاً.

لم يكن "تشارلي" ليتحمل عواقب أن يجعلها تبكي أمام والده، وبما أنها نادرًا ما تبرح جانب والدها، لم يكن الأمر يسيرًا عليه، كيف يُبعدها عنه؟

عبر الإغواء، بالهمس بوعود بالسحر والمفاجآت، قاد "إيزابيل" إلى خارج الباب الجانبي، بطول أحد جوانب الحديقة معقدة التصميم،

بين حدودها الطويلة، ثم عبر الحديقة التوبيارية⁽¹⁾ وبطول طريق أشجار الزان نحو الغابة، ثمة مكان يعرفه "تشارلي"، كوخ قديم بارد وبلا نوافذ، مكان مناسب للأسرار.

كان "تشارلي" يبحث عن ضحية، وبالطبع بدت أخته السائرة وراءه، الأصغر سنًا وحجمًا والأضعف منه، ضحية مثالية، لكنها كانت غريبة وذكية، ولم تسر التجربة مثلما توقع تمامًا.

رفع "تشارلي" كم أخته وجر طرف قطعة سلكيغطيها الصدأ البرتقالي بطول الجزء الداخلى الأبيض من ساعدها، حدقت "إيزابيل" إلى كريات الدم الحمراء التى انبثقت من الخط المزرق، ثم حولت تحديقها إليه، اتسعت عيناها الخضراوان من المفاجأة، وشئ من اللذة، وحين مدت يدها لتحصل على السلك، أعطاها إياه بلا تفكير، فرفعت كمها الآخر، وثقبت جلدها وجرت السلك حتى معصمها تقريبًا، كان الجرح الذى أحدثته أعمق من ذلك الذى أحدثه أخوها بها، وسال منه الدم فى الحال، أخرجت زفرة رضا وهى تنظر إلى الجرح، ثم لعقت الدماء، وقدمت له السلك وطلبت منه أن يرفع كمه.

كان "تشارلي" متحيرًا، لكنه حفر ذراعه بالسلك لأنها أرادت ذلك، وضحك ليتجاوز الألم.

بدلاً من أن يجد لنفسه ضحية، شعر "تشارلي" أنه أغرب من خطط للأذى.

هكذا استمرت حياة آل "أنجلفيلد"، بلا حفلات، بلا رحلات صيد، بلا خادومات، وبلا معظم ما يعتبره معظم أبناء طبقتهم من مسلمات الحياة فى تلك الأيام، فولوا ظهورهم إلى جيرانهم، وتركوا

(1) نوع من الحدائق تنتشر به الأشجار المعمرة وثقث وتُقص وتهذب لتكون أشكالاً هندسية أو خيالية.

إدارة ممتلكاتهم إلى نزلائها، واعتمدوا على حسن نية سيدة الخدم والبستاني وأمانتهما في إجراء المعاملات اليومية مع العالم، التي كانت ضرورية لاستمرار الحياة في المنزل.

نسى "جورج أنجلفيلد" أمر العالم، ولفترة، نسي العالم أمره، ثم تذكره، بسبب الأموال.

ضم الجوار منازل أخرى كبيرة، تسكنها عائلات أخرى أرستقراطية بدرجة ما، وبينهم كان رجل يولى أمواله رعاية خاصة، كان يبحث عن أفضل نصيحة لزيادة ماله، فاستثمر مبالغ كبيرة حيث تُملى الحكمة، وضارب بمبالغ صغيرة حيث المخاطرة أكبر والأرباح في حال إثمارها أكبر، فخسر المبالغ الكبيرة كلها، وأثمرت المبالغ الصغيرة، ولو بدرجة معتدلة، فوجد الرجل نفسه في مأزق، كذا كان لديه ابن كسول مبذر، وابنة جاحظة العينين سميكة الكاحلين، لذا كان مضطراً إلى فعل شيء ما.

لم ير "جورج أنجلفيلد" أحداً قط، وبالتالي لم تُقدم له أية نصائح مالية، حين أرسل إليه محاميه توصياته تجاهلها، وحين أرسل إليه مصرفه رسائل لم يرددها، نتيجة لذلك، بدلاً من أن تضاعف أموالها نفسها وأن تطارد الصفقات المتتالية بعضها البعض، استرخت أمواله في خزانة البنك وثقلت حركتها.

الأموال لها حسيس، وهو مسموع.

سألت زوجة الجار الذي يوشك على إعلان الإفلاس: "أليس لـ(جورج أنجلفيلد) ابن؟ كم ستكون سنه الآن؟ ستة وعشرين؟" إذا لم يزوجا الابن لابنتهما "سيبيلا"، فلم لا يزوجا الابنة لابنتهما "رولاند"؟ أو هكذا فكرت الزوجة، فلا بد أن الابنة قد بلغت سن الزواج الآن، ومعروف أن والدها يحبها حب الجنون، أي أنها لن تأتي خالية اليدين.

قالت: "الجو مناسب لنزهة"، وعلى طريقة الأزواج، لم يبد زوجها مهتمًا.

جثمت الدعوة لأسبوعين على حافة نافذة الصالون، وربما كانت لتظل هناك حتى تبيض الشمس الحبر عليها، لولا "إيزابيل"، ففي عصر أحد الأيام، وبعدما لم تجد ما تفعله، هبطت السلم، ونفخت خديها مللاً، وأخذت الرسالة وفتحتها.

علق تشارلي: "ما هذا؟"

"إنها دعوة، إلى نزهة".

نزهة؟ تفكر "تشارلي" في الأمر، بدا الأمر غريبًا، لكنه هز كتفيه بلا مبالاة ونسى الأمر.

لكن "إيزابيل" وقفت واتجهت إلى الباب.

"إلى أين تذهبين؟"

"إلى غرفتي".

عمد "تشارلي" إلى تتبعها، لكنها أوقفته، "دعني وشأني، لست في مزاج مناسب".

تذمر، وأمسك ملء قبضته من شعرها ومرر أصابعه على مؤخر عنقها، حيث وجد كدمات أحدثها بها في المرة الأخيرة، لكنها تلوّت حتى انفكت من بين يديه وصعدت السلم بسرعة وأغلقت الباب.

بعد ساعة، وإثر سماعه صوت هبوطها السلم، ذهب إلى المدخل، "تعالى معي إلى المكتبة".

"لا".

"إدًا تعالى إلى حديقة الغزلان".

"لا".

لاحظ أنها قد غيرت ملابسها، "لم تبدين هكذا؟ تبدين غبية".

كانت ترتدي فستانًا صيفيًا خص والدتها في الماضي، مصنوع من مادة بيضاء رقيقة ويزينه اللون الأخضر، وبدلاً من حذاء التنس المعتاد برباطيه الباليين، انتعلت صندلاً أخضر أكبر من قدميها بدرجة -يخص والدتها أيضاً- وعلقت وردة في شعرها بعدما مشطته، ووضعت أحمر شفاه.

أظلم قلبه وسألها: "إلى أين تذهبين؟"

"إلى النزهة".

أمسك بها من ذراعها، وشبث أصابعه بها وجذبها نحو المكتبة.

"لا!"

جذبها بقوة أكبر.

استهجنّت: "(تشارلي)، قلت لا!"

حينها أطلق سراحها، فقد عرف أنها حين تقول لا بهذه الطريقة فإنها تعنيها، وهو ما اكتشفه في الماضي، أنها يمكن أن يسيطر عليها مزاج سيئ لأيام.

أولته ظهرها وفتحت الباب الأمامي.

تطلع "تشارلي" المستشيط غضبًا بحثًا عن شيء يضربه، لكنه كسر سابقًا كل ما يمكن كسره، وكل الأشياء المتبقية كانت لتؤدي قبضته أكثر مما قد يؤذيها هو، فتراخت قبضتيه، وتبع "إيزابيل" عبر الباب إلى النزهة.

جسّد الشباب عند ضفاف البحيرة صورة جميلة من بعيد بمقصانهم وبفساتينهن البيضاء، وامتلأت الكئوس التي حملوها بسائل تلاًّ تحت ضوء الشمس، وبدأ العشب تحت أرجلهم ناعماً كفاية

ليمشوا عليه حفاة الأقدام، ولكن في الواقع، كان المتنزهون يتعرقون بشدة تحت ملابسهم، وكانت الشامبانيا دافئة، ولو فكر أحدهم في خلع حذائه لاضطر إلى أن يتحسس طريقه بين فضلات الإوز، ومع ذلك، كانوا مستعدين للتظاهر بالبهجة، أملاً في أن تستثير ادعاءاتهم بهجة حقيقية.

أحد هؤلاء الشباب يقف عند طرف اجتماعهم، والذي رأى بنظرة خاطفة حركة قرب المنزل، فتاة ترتدى ملابس غريبة ومعها ما يبدو أنه رجل، بدا أن بها خطب ما.

لم يستجب إلى مزحة رفيقه، فتطلع رفيقه ليرى ما جذب انتباهه، وباء بدوره بالصمت، ومجموعة الشابات المنتبهات بلا كلل إلى أفعال الشباب، حتى ولو كانت وراء ظهورهن، التفتن ليتبين سبب هذا الصمت المفاجئ، تلا ذلك نوع من الأثر المتموج، حيث التفتت الوجوه كلها نحو القادمين، وحالما ترى القادمين كانت المفاجأة تسكتها.

على العشب الفسيح كانت "إيزابيل" تخطو.

اقتربت من الجمع، فانفلق الجمع مثلما انفلق البحر لموسى، وتقدمت عبره إلى حافة البحيرة، وقفت على حجر مستو بارز فوق المياه، ولوحت بأنها لا تريد حينما اقترب منها أحدهم ومعه كأس وزجاجة، كانت الشمس ساطعة، والتمشية طويلة وتستلزم أكثر من الشامبانيا لتنتعش.

خلعت حذاءيها وعلقتهما على شجرة ومدت ذراعيها وتركت نفسها لتسقط في المياه.

شهق الجمع، وعندنا صعدت إلى السطح تشكلت المياه المتدفقة من "إيزابيل" بطرق تُذكر بمولد الإلهة "أفروديت"، فشهبوا مجدداً.

تلك القفزة في المياه كانت شيئاً آخر تذكره الناس لسنوات لاحقة، بعد أن تركت المنزل للمرة الثانية، لقد تذكروا، وهزوا رؤوسهم بمزيج من الشفقة والاستنكار، فما حل بها تبين أنه كان بها طوال الوقت، لكن في ذلك اليوم تعلق الأمر بالروح المعنوية تمامًا، وكان الناس ممتنون لها، فقد بثت "إيزابيل" بمفردها الحياة في الحفلة بالكامل.

أحد الشبان أو أجروهم، له شعر أشقر وضحكة عالية، خلع حذائه مسرعًا وربطة عنقه، وقفز إلى البحيرة معها، تبعه ثلاثة من أصدقائه، لم يستغرق الأمر وهلة حتى كان كل الشبان في المياه، يغوصون ويتصايحون ويتبارون في الألعاب الرياضية والقفز في المياه.

بالتفكير سريعًا، لم ترَ الفتيات أمامهن إلا طريقًا واحدًا، فعلقن صنادلهن في أفرع الأشجار، وأظهرن أقصى درجات الحماس على وجوههن، وقفزن في المياه، مطلقات صيحات أملن أن تبدو متدلة، ويفعلن ما بوسعهن لتجنب الترطيب المفرط لشعرهن.

لكن جهودهن ذهبت سدى، فقد كان كل أعين الرجال على "إيزابيل".

لم يلحق "تشارلي" بأخته إلى المياه، بل وقف بعيدًا قليلًا يتفرج، بشعره الأحمر ووجهه الشاحب، كان مخلوقًا من أجل المطر والمطارادات داخل المنزل، فقد تحول وجهه إلى اللون الوردي تحت الشمس، واحمرت عيناه إثر هبوط العرق من جبينه إليهما، لكنه كان بالكاد يرمش، إذ لم يتحمل أن يرفع عينيه عن "إيزابيل".

كم ساعة مرت حتى وجد نفسه معها مجددًا؟ بدا كأن دهرًا قد مر، استمرت النزهة لوقت أطول كثيرًا مما توقع الجميع بعدما بثت "إيزابيل" بها الحياة، ومع ذلك فقد شعر الضيوف الآخرون أن الوقت مر بلمح البصر، وكانوا ليظلوا لوقت أطول لو استطاعوا، تفرق الجمع

وببالهم أفكار مواسية عن النزعات التالية، وبجولة من الدعوات الموعودة والقُبل الرطبة.

حين اقترب منها "تشارلي"، كانت "إيزابيل" تغطي كتفيها بستره أحد الشبان، والشاب نفسه في راحة يدها، وعلى مسافة غير بعيدة، كانت فتاة تتسكع، غير واثقة ما إذا كان وجودها مرغوب فيه أم لا، كانت أنثى بدينة عادية الجمال، ومع ذلك فإن الشبه الذي تشاركته والشاب أوضح أنها أخته.

"هيا"، قالها "تشارلي" بخشونة لأخته.

"سريعًا هكذا؟ ظننت أننا سنتمشى، مع (رولاند) و(سيبيلا)".

ابتسمت بلطافة لأخت "رولاند"، وردّت "سيبيلا" الابتسامة متفاجئة باللفظ غير المتوقع.

يلغ "تشارلي" مراده من "إيزابيل" في البيت -أحيانًا- عبر إيدائها، لكنه لا يجرؤ على ذلك في العلن، لذا استسلم.

ماذا حدث خلال تلك التمشية؟ لم يكن هناك شهود على الأحداث التي وقعت في الغابة، وبسبب غياب الشهود لم يُثر القيل والقال، أو على الأقل ليس في البداية، لكن الأمر لا يتطلب عبقرًا ليستنتج من الأحداث التالية ما حدث تحت أوراق الأشجار الصيفية في ذلك المساء.

يمكن تخيل الأمر كالتالي:

ستجد "إيزابيل" ذريعة لتُبعد الرجال.

"حذائي! لقد تركته على الشجرة!" وسترسل "رولاند" لبحث عنه، و"تشارلي" أيضًا، بحثًا عن شال "سيبيلا" أو أي غرض آخر.

استقرت الفتاتان على بقعة من الأرض اللينة، وانتظرتا عودة الرجلين في الظلمة المتزايدة، ناعستين بتأثير الشامبانيا، وتتنفسان ما تبقى من حرارة الشمس ومع أنفاسهما يزداد الظلام، ظلام الليل

وظلام الغابة، بدأ دفء جسديهما في امتصاص رطوبة فستانيهما، وفي حين جفت ثنايا النسيج، انفصلت عن الجلد تحتها وبشت شعورًا مدغدغًا.

عرفت "إيزابيل" ما تريده: أن تقضى وقتًا مع "رولاند" وحديهما، لكن لتحصل على ذلك، عليها التخلص من أخيها.

بدأت بالحديث، في حين استرختا مستندتين إلى شجرة: "إذاً فمن منهن حبيبك؟"

أكدت "سيبيل": "ليس لي حبيب حقًا".

"لكن يجب أن يكون لك حبيب"، تقلبت "إيزابيل" إلى جانبها، وأخذت ورقة شجر السرخس الريشية الشكل ومررتها على شففتها، ثم مررتها على شفتي رفيقتها.

تمتت "سيبيل": "هذا يدغدغني".

فعلتها "إيزابيل" مجددًا، وابتسمت "سيبيل" بعينين نصف مغلقتين، ولم توقفها حين مررت "إيزابيل" ورقة الشجر الناعمة على رقبتها وحول رقبة فستانها، مولية اهتمامًا دقيقًا لبروز صدرها، أطلقت "سيبيل" ضحكة شبه أنفية.

حين بلغت الورقة خصرها وما تحته، فتحت "سيبيل" عينيها.

وتذمرت: "لقد توقفت".

ردت "إيزابيل": "لم أتوقف، لكنك لا تشعرين بما أفعله عبر فستانك"، فرفعت حاشية فستان "سيبيل" وتلاعبت بالورقة بطول كاحليها، "هذا أفضل؟"

أغلقت "سيبيل" عينيها مجددًا.

وجدت الورقة الخضراء طريقة من الكاحل السميك بدرجة ما إلى الركبة المكتنزة المميزة، هربت همهمة خفيفة من بين شفتي "إيزابيل"، مع أنها لم تتحرك حتى بلغت الورقة قمة رجليها، ولم تزفر حتى استعانت "إيزابيل" بأصابعها الرقيقة بدلاً من النبتة.

لم تفارق عينا "إيزابيل" الحادثين وجه الفتاة الأكبر منها سنًا، ولحظة أن أظهر جفنا الفتاة أول دليل على الحركة، جذبت يدها بعيدًا.

أكدت: "بالفعل، الحبيب هو ما تحتاجين إليه".

استيقظت "سيبيل" مرغمة من نشوتها غير المكتملة وفهمت ببطء، اضطرت "إيزابيل" للتوضيح: "من أجل الدغدغة، الأمر أفضل كثيرًا مع الحبيب".

وحين سألت "سيبيل" صديقتها الجديدة: "كيف تعرفين ذلك؟" كانت إجابتها جاهزة: "بسبب (تشارلي)".

وبعودة الفتیان وبأيديهما الحذاء والشال، كانت "إيزابيل" قد حققت غرضها، تأملت "سيبيل" في "تشارلي"، بمظهر غير مرتب واضح على تنورة فستانها وحشوته، وبمنظرة تشي بالاهتمام الدافئ.

أما "تشارلي" غير المبالى بنظراتها، فكان يتطلع إلى "إيزابيل".

سألت "إيزابيل" بلا مبالاة: "هل لاحظت مدى الشبه بين اسمي (إيزبيل) و(سيبيل)؟" حذق إليها "تشارلي" بغضب، "أقصد وقع الاسمين، إنهما قابلين للتبادل تقريبًا، ألا ترى ذلك؟" أرسلت نظرة حادة إلى أخيها، مرغمة إياه على فهم نواياها، "سأذهب و(رولاند) لنتمشي قليلًا، لكن (سيبيل) متعبة، ابق معها"، وجذبت "إيزابيل" ذراع "رولاند".

نظر "تشارلى" ببرود إلى "سيبىلا"، وانتبه إلى بعثرة فستانها، حدثت
هى إليه بعينين متسعتين، وبفم مفتوح مشدوه قليلاً.

وحين أعاد النظر إلى حيث ذهب "إيزابيل"، كانت قد اختفت
بالفعل، لم يسمع إلا ضحكتها قادمة من الظلام، ضحكتها وهمهمة
منخفضة بصوت "رولاند"، لكنه سيحصل على ما يريد لاحقاً، ستدفع
"إيزابيل" ثمن هذا مراراً وتكراراً.

وإلى أن يحدث ذلك، اضطر إلى التنفيس عن مشاعره على نحو ما.
التفت إلى "سيبىلا".

كان الصيف مليئاً بالنزهات، ومن جهة "تشارلى"، كان مليئاً
بالـ"سيبيلات"، لكن من جهة "إيزابيل"، لم يكن لديها إلا "رولاند"
وحيد، فكانت تتسلل يومياً بعيداً عن أنظار "تشارلى"، وتهرب من
قبضته وتختفى على دراجتها، لم يستطع "تشارلى" أبداً معرفة مكان
التقائهما، وكان أبطأ من أن يلحق بها حين تدور عجلتى دراجتها
تحتها ويحلق شعرها وراءها، فى بعض الأحيان كانت لا تعود إلا
بحلول الظلام، وأحياناً تتأخر عن ذلك، وحين وبخها، ضحكت بوجهه
وأولته ظهرها كأنه ببساطة غير موجود، حاول إيذاءها، وتشوييها،
لكنها أفلتت منه مرة تلو الأخرى، وتسربت من بين أصابعه مثل
المياه، فأدرك إلى أى مدى اعتمدت لعبتهما على موافقتها، فبصرف
النظر عن مدى قوته، كانت سرعتها وذكاؤها يعينان أنها ستتنجح فى
الفرار منه فى كل مرة، وكخنزير برى ساخط بسبب نحلة، كان عاجزاً.

فى مرة بين الحين والآخر، وفى محاولة للتهدئة، كانت تستسلم
لتوسلاته، لمدة ساعة أو ساعتين، كانت تطوع نفسها لرغبته، سامحة
له بالاستمتاع بوهم أنها عادت له للأبد وأن كل شئ بينهما عاد
مثلما كان دائماً، لكنه كان وهمًا، مثلما عرف "تشارلى" سريعاً، بل وكان
غيابها المتجدد بعد تلك الاستراحات أكثر إيلاًماً.

ينسى "تشارلى" أمله لحظيًا فقط مع الـ"سيبيلات"، ظلت أخته تمهد الطريق له معهن لفترة، لكن في حين تصبح هى أكثر سعادة باطراد مع "رولاند"، تركت "تشارلى" ليتولى أمر نفسه، لكنه افتقد أسلوب أخته الرقيق: وفي مرة كادت طريقته تؤدى إلى فضيحة، فأخبرته "إيزابيل" المغتظة أنه إن كانت نيته هكذا فى تصريف أموره، فإنه سيضطر إلى اختيار نوع آخر من النساء، فتحول من فتيات الأرستقراطيين الصغار إلى فتيات البيطارين والمزارعين والحراجيين، هو شخصيًا لم يشعر بفرق، ويبدو أن أحدًا لم يمانع ذلك التحول.

لكن الفتيات مانعن، والنسيان لم يدم طويلًا، تلك العيون المصدومة، والأذرع المكدومة، والأفخاذ الدامية، كانت تُمسح من ذاكرته فى اللحظة التى يبعد نظره عنها، فلا شيء يمكنه أن يمس الوله الأعظم فى حياته: مشاعره تجاه "إيزابيل".

فى أحد الصباحات قرب نهاية الصيف، طوت "إيزابيل" الصفحات الخاوية فى دفتر يومياتها وعدت الأيام، ثم أغلقت الدفتر وأعادته إلى الدرج وبالها منشغل، وحين حسمت قرارها، هبطت السلم إلى مكتب والدها.

تطلع والدها: ("إيزابيل!") كان مسرورًا لرؤيتها، فمنذ اعتادت الخروج من المنزل أكثر، كان ممتنًا على نحو خاص لمجيئها إليه هكذا.

ابتسمت له: "عزيزى بابا!" ملح فى عينيها بريقًا ما.

"أثمة خطب ما؟"

سافرت عيناها إلى زاوية السقف وابتسمت، ودون أن تحول عينيها عن الزاوية المظلمة، أخبرته أنها سترحل عن المنزل.

فى البداية وجد صعوبة فى فهم ما قالت، وشعر بنبضه فى أذنيه، وغُشى بصره، أغلق عينيها، لكن داخل عقله كانت هناك براكين

ونيازك هابطة وانفجارات، وحين خمدت ألسنة اللهب، لم يتبق شيء بداخله سوى مشهد مدمر وصامت، ففتح عينيه.

ماذا فعل؟

وجد في يده خصلة شعر وفي طرفها قطعة جلد دامية، "إيزابيل" هناك وظهرها إلى الباب ويداها وراءها، إحدى عينيها الخضراوين محتقنة بالدماء، وبدا أحد خديها أحمر ومتورماً قليلاً، تسيل بعض الدماء من جمجمتها، ووصلت إلى حاجبها وانحرفت بعيداً عن عينها. كان مذعوراً من نفسه ومنها، وأعرض عنها صامتاً وغادرت هي الغرفة.

جلس بعد ذلك لساعات، يبرم الشعر الكستنائي الذي وجده في يده، ويبرمه أكثر ويضيقه على إصبعه، حتى حفر بعمق في جلده، وحتى تعقد لدرجة استحالة فكّه، وأخيراً، حين أكمل الشعور بالألم رحلته البطيئة من إصبعه إلى وعيه، بكى.

غاب "تشارلي" عن المنزل في ذلك اليوم، ولم يعد حتى منتصف الليل، وبعدما وجد غرفة "إيزابيل" خاوية، تجول في المنزل، وهو يدرك بحاسة سادسة ما أن كارثة قد وقعت، ولما لم يجد أخته بأى مكان، ذهب إلى مكتب والده، ونظرة واحدة إلى وجه الرجل المذعور أخبرته بكل شيء، تأمل الأب والابن بعضيهما للحظة، لكن حقيقة أنهما يتشاركان الخسارة لم توحدتهما، فلا شيء يمكن لأحدهما أن يفعله للآخر.

جلس "تشارلي" في غرفته على الكرسي المقابل للنافذة، جلس هناك لساعات، بدا كشبح أمام مستطيل من ضوء القمر، وفي لحظة ما، فتح الدرج وأخرج المسدس الذى حصل عليه عبر ابتزاز شخص يصطاد دون إذن في الأنحاء، ورفعته إلى صدغه مرة أو اثنتين، وفي كل مرة، كانت قوى الجاذبية تعيده إلى حجره.

في الرابعة صباحًا أبعد المسدس، وأخرج بدلاً منه الإبرة الطويلة التي اختلسها من صندوق الحياكة الخاص بسيدة الخدم قبل عقد، والتي استُخدمت كثيرًا منذ حينها، رفع ساق بنطاله، وأنزل جوربه، وأحدث ثقبًا في جلده، اهتزت كتفاه، لكن يده كانت ثابتة وهو ينقش على ساقه كلمة واحدة: "إيزابيل".

في ذلك الوقت كانت "إيزابيل" قد رحلت منذ وقت طويل، إذ عادت إلى غرفتها لدقائق معدودة وغادرتها، وهبطت عبر السلم الخلفي إلى المطبخ، حيث عانقت سيدة الخدم عناقًا قويًا وغريبيًا، وهو ما لم يتسق مع شخصيتها مطلقًا، ثم تسللت عبر الباب الجانبي واندفعت عبر حديقة المطبخ نحو باب الحديقة الذي هو جزء من جدار حجري، كان نظر سيدة الخدم يخفت منذ فترة طويلة، لكنها طورت قدرة على إدراك حركات الأشخاص عبر استشعار اهتزازات الهواء، وكان لديها انطباع بأن "إيزابيل" ترددت لأقصر وهلة ممكنة قبل أن تغلق باب الحديقة خلفها.

حين أصبح واضحًا لـ "جورج أنجلفيلد" أن "إيزابيل" قد رحلت، ذهب إلى مكتبته وأقفل الباب، رفض الطعام والزائرين، لم يتبق سوى القس والطبيب، ولقى كلاهما منه معاملة سيئة، فكانت جملتنا "قل لإلهك أن يذهب إلى الجحيم" و"هلا تركت حيوانًا مصابًا يموت في سلام!" أقصى ترحاب حصل عليه.

بعد أيام قليلة عادا ودعيا البستاني لكسر باب المكتبة، حيث وجدا "جورج أنجلفيلد" ميتًا، وكان الفحص السريع كافيًا للتأكد من أن الرجل مات بالتسمم الدموي الناتج عن لفافات الشعر البشري التي كانت منغرسه بعمق في لحم خنصره.

لم يمِت "تشارلي"، مع أنه لم يفهم لماذا لم يمِت، هام على وجهه في المنزل، وأحدث سلسلة من آثار الأقدام على الغبار، وتتبعها كل

يوم، بداية من قمة المنزل ونزولاً، وغرف نوم العليا غير المستخدمة لأعوام، وغرف الخدم، وغرف العائلة، والمكتب، والمكتبة، وغرفة الموسيقى، والمرسم، والمطبخ، كان بحثاً يائساً بلا كلل ولا نهاية، وفي الليل كان يخرج ليطوف بأملأكه، تدفعه قدماه بلا تعب، وفي أثناء ذلك، ضرب إبرة سيدة الخدم التى فى جيبه بإصبعه، ما أغرق أطراف أصابعه فى فوضى دامية مقرفة، لقد اشتاق إلى "إيزابيل".

عاش "تشارلى" على هذه الحال خلال سبتمبر، وأكتوبر، ونوفمبر، وديسمبر، ويناير، وفبراير، وفى مطلع مارس عادت "إيزابيل".

كان "تشارلى" فى المطبخ يتتبع آثار أقدامه حين سمع صوت حوافر وإطارات تقترب من المنزل، فذهب متجهماً نحو النافذة، فهو لم يرد أى زوار.

هبطت من العربية شخصية مألوفة، وعندها توقف خفقان قلبه.

ركض من الباب إلى السلم إلى العربية فى لحظة واحدة، وكانت "إيزابيل" هناك.

حملق إليها.

ضحكت "إيزابيل"، "إليك، خذ هذه"، وسلمته صرة ثقيلة تغطيها قطعة قماش، وبلغت مؤخر العربية وأخرجت شيئاً: "وهذه أيضاً"، أخذها مستسلماً ووضعها تحت ذراعه، "والآن، أكثر ما أريده فى العالم هو كأس براندى كبيرة جداً".

تبع "تشارلى" المذهول "إيزابيل" إلى داخل المنزل وإلى المكتب، ذهبت مباشرة إلى خزانة المشروبات وأخرجت كأسين وزجاجة، وصبت منها جرعة سخية وتجرعتها على مرة واحدة، مظهرة بياض عنقها، ثم ملأت كأسها مجدداً والكأس الثانية التى عرضتها على أخيها، وقف هو هناك، عاجزاً عن الكلام والحركة، يداه ممتلأتان بالصرة المغطاة

بإحكام، دوت ضحكة "إيزابييل" في أذنيه مجدداً وكان الأمر أشبه بالوقوف قريباً جداً من جرس كنيسة ضخم، بدأ رأسه في الدوران وانطلقت الدموع من عينيه، أمرته "إيزابييل": "اتركها، سنشرب نخباً"، أخذ منها الكأس واستنشق رائحة الكحول: "نخب المستقبل!" وابتلع البراندى على مرة واحدة وسعل بسبب لذعته غير المعتادة.

سأله: "لم ترهما حتى، أليس كذلك؟"

عبس وجهه.

"انظر"، وتحولت "إيزابييل" نحو الصرة التى وضعتها على المكتب، وجذبت الغلاف الخفيف وابتعدت حتى يرى، وبيطء حول رأسه ونظر، كانت الصرة عبارة عن رضيعتين توأمين، رمش بعينيه ولاحظ بغباء أن الموقف يتطلب منه استجابة ما، لكنه لم يعرف ما يفترض به أن يقول أو يفعل.

"استيقظ يا (تشارلى) بحق السماء!" وأخذت أخته كلتا يديه بيديها وجذبتة إلى رقصة جنونية حول الغرفة، أدارته بدوامة استمرت طويلاً، حتى بدأ الدوار فى تصفية عقله، وحين توقفاً أخذت وجهه بين يديها وتحدثت معه، "مات (رولاند) يا (تشارلى)، لم يتبق إلا أنا وأنت الآن، أتفهمنى؟"

أوما برأسه.

"جيد، والآن أين بابا؟"

حين أخبرها، أصابتها هستيريا شديدة، وسيدة الخدم، التى أيقظتها فى المطبخ الصرخات الصاخبة، جاءت لتضعها فى سريرها بغرفتها القديمة، وحين عادت لهدوئها مجدداً أخيراً سألتها: "هاتان الرضيعتان، ماذا تدعيان؟"

أجابت: "مارش".

لكن سيدة الخدم عرفت ذلك، فأخبار الزواج بلغتها قبل شهر، وأخبار الولادة (لم تحتج إلى عد الشهور على أصابعها، لكنها فعلت ذلك على أية حال وزمت شفيتها)، لقد عرفت بشأن وفاة "رولاند" نتيجة الالتهاب الرئوى قبل أسابيع قليلة، وعرفت أيضًا أن السيد والسيدة "مارش" المسنين، المحطمين بسبب وفاة ابنهما الوحيد والمشتمزين بسبب اللامبالاة الطفولية التى لدى زوجة ابنهما الجديدة، قد نبذا "إيزابيل" وطفلتها، بلا أية رغبة إلا فى أن يحزنا.

"ماذا عن اسميهما الأولين؟"

ردت بصوت نعس: " (إيميلين) و (آديلاين) ."

"وكيف تميزين إحداهما عن الأخرى؟"

لكن الطفلة الأرملة كانت قد نامت بالفعل، وهى مستغرقة فى أحلامها بسريرها القديم، كانت قد نسيت مغامرتها وزوجها، وعاد إليها اسمها العذرى، وحين استيقظت فى الصباح، كان الأمر كأن زواجها لم يحدث قط، كأنها ليست أم هاتين الرضيعتين - لم تظهر ولو ذرة شعور بالأمومة - بل كأنهما مجرد روحين فى المنزل.

نامت الرضيعتان أيضًا، وفى المطبخ، مالت سيدة الخدم والبستاني نحو وجهيهما الناعمين الشاحبين وتحدثا بصوت خفيض.

سأل: "ما اسم كل منهما؟"

"لا أعرف".

ظلا يتفرجان على الرضيعتين بعدما وضعا كل واحدة فى جانب من سرير الأطفال، زوجا رموش أشبه بنصفى قمر، وفمان غضان، ورأسان أملسان، رفرق أحد جفنى طفلة منهما سريعًا وفتحت عينها نصف فتحة، حبس البستاني وسيدة الخدم أنفاسهما، لكن العين أغلقت مجددًا وغطت الرضيعة فى النوم.

همست سيدة الخدم: "هذه يمكن أن تكون (آديلاين)", أخذت منشفة شاي مخططة من أحد الأدراج وقصت منها شريطين، وصنعت من الشريطين ضفيريّتين، وربطت الشريطة الحمراء حول رسغ الرضيعة التي اضطربت، والبيضاء حول رسغ الأخرى.

ظلت السيدة والبستاني يتفرجان، وكل منهما يضع يداً على سرير الرضيعتين، حتى نظرت إليه بنظرة ممتنة وحنونة وتحدثت مجدداً.
"رضيعتان، حقاً يا (ديج)، في سننا هذه!"

حين رفع عينيه عن الرضيعتين، رأى الدمعة التي غشت عينيها الدائريتين البنيتين.

مد يده الخشنة عبر سرير الطفلتين، مسحت دموعها وارتاباها وابتسمت، ووضعت يدها الصغيرة السمينة بيده، شعر ببلل دموعها على أصابعه.

تحت القوس الذي شكلاه بعناق يديهما، وتحت الخط المرتجف لتحديقهما المتبادل، كانت الرضيعتان تحلمان.

كان الوقت قد تأخر حين انتهيت من تفريغ قصة "إيزابيل" و"تشارلي"، السماء مظلمة والمنزل نائم، كنت منكبة على المكتب طوال فترة العصر والمساء وجزء من الليل، في حين تُحكى القصة وتُعاد في أذني وتمد قلمي الخط تلو الآخر، مطيعاً ما أُمليه عليه، أوراقى مكتظة بالنص: إنه فيضان كلمات السيدة "وينتر"، وبين الحين والآخر، تحركت يدي نحو اليسار ودونت سريعاً ملاحظة في الهامش الأيسر، حيث بدت نبرة صوتها أو إيمائاتها جزءاً من القصة.

والآن أبعدت آخر ورقة عني، ووضعت قلمي وضممت أصابعي الملوغوة ومددتها، ولمدة ساعات، استحضر صوت السيدة "وينتر" عالماً

آخر، أيقظت الموتى أمامي، ولم أر شيئاً سوى عرض الدمى الذى قدمته كلماتها، لكن حين سكت صوتها فى رأسى، ظلت صورتها قائمة وتذكرت القط الرمادى الذى ظهر على حجرها، كأنه ظهر بفعل السحر، جلس القط بصمت تحت يدها المداعبة، يتأملنى بثبات بعينه الدائريتين الصفراوين، لا أعلم إن كان قد رأى أشباحى، أو أسرارى، فهو لم يبد ساكناً تماماً، لكنه كان يكتفى بالرمش والاستمرار فى التحديق بلا مبالاة.

سألت: "ما اسمه؟"

ردت بشرود: "(شادو)".

أخيراً لجأت إلى السرير، أطفأت الأنوار وأغلقت عيني، ما زلت أشعر بتلك البقعة فى إصبعى حيث أحدث القلم علامة على جلدى، وفى كتفى اليمنى، أحدثت الكتابة الطويلة عقدة ليست جاهزة للفك بعد، ومع أن الغرفة مظلمة وعيني مغلقتان، كل ما استطعت رؤيته هو صفحة من أوراقى، وخطوط من كتابة يدي وهوامش عريضة، لفت الهامش الأيمن نظرى، كان الهامش يتوهج بلونه الأبيض الأسمى بلا أية كتابة، لقد سبب وخزاً فى عيني، إنه الهامش الذى حجزته لتعليقاتى وملاحظاتى وأسئلتي.

فى الظلام، التفت أصابعى حول قلمي خيالى، وانتفضت استجابة للأسئلة التى اخترقت نعاسى، تساءلت عن الوشم السرى الذى حملة "تشارلى" على جسده، اسم أخته المحفور على عظامه، لكم من الوقت ظل ذلك النقش موجوداً؟ أتستطيع عظمة حية أن تصلح نفسها؟ أم أنه ظل معه حتى مات؟ وفى نعشه تحت الأرض، ولحمه يتعفن منفصلاً عن عظامه، هل انكشف اسم "إيزابيل" فى الظلام؟ "رولاند مارش"، الزوج المتوفى، الذى نسي سريعاً، و"إيزابيل" و"تشارلى"، "تشارلى" و"إيزابيل"، من كان والد التوأمين؟ ومن وراء أفكارى، تصدر

الجرح الذي براحة يد السيدة "وينتر" المشهد، حرف الـ"كيو" الدال على الأسئلة، محفور بالنار على اللحم البشري.

وأنا أشرع بالكتابة نائمة لتدوين أسئلتى، بدا أن الهامش يتسع، نبضت الورقة بالضوء، إنها تتضخم، لقد ابتلعتنى، حتى أدركت بمزيج من الذعر والانبهار أننى فى كنف الورقة، وأننى مغمورة فى داخل القصة نفسها، شعرت بانعدام الوزن فتجولت طوال الليل فى قصة السيدة "وينتر"، أرسم مناظرها، وأضبط ملامحها، وأخطو على أطراف أصابعى عند حدودها، وأتطلع إلى الألغاز المتجاوزة لحدودها.

الحدائق

استيقظت مبكرًا، مبكرًا جدًا، يُحدث جزءٌ من لحن رتيب صريرًا برأسي، سأضطر إلى الانتظار لأكثر من ساعة حتى تطرق "جوديث" الباب من أجل وجبة الإفطار، فأعددت لنفسي كوبًا من الكاكاو وشربته ساخنًا للغاية، وخرجت من المنزل.

حديقة السيدة "وينتر" أشبه بالمتاهة، فبداية، مساحتها الهائلة تذهلني، وما ظننته أول ما رأيته أنه طرف الحديقة -سياج من أشجار الصنوبر على الجانب الآخر من أحواض الزهور- لم يكن إلا جدارًا داخليًا يفصل بين جزء وآخر من الحديقة، والحديقة ممتلئة بمثل هذه التقسيمات، ثمّة أشيجة من شجر الزعرور والزان، وجدران حجرية مغطاة باللباب، والياسمين البري الشنوي، والسيقان العارية المتسلقة للورود المتعرشة، وأسوار خشبية مؤطرة بأناقة أو محفورة في أشجار الصفصاف.

تجولت بين الأجزاء المختلفة عبر اتباع المسارات المجهزة، لكنني عجزت عن تخيل الشكل الخارجى للحديقة، الأسيجة التى بدت من الأمام مصمتة، أحيانًا تكشف عن ممر منحرف حين رؤيتها بزاوية، من السهل التجول بين الشجيرات، ومن شبه المستحيل الهروب منها، نوافير ومائيل ظننت أننى تركتها ورائى، أجدها تظهر من جديد، قضيت الكثير من الوقت ساكنة بلا حركة، أنظر حولى فى حيرة وأهز رأسى، صنعت الطبيعة من نفسها متاهة، وكانت تخطط عمدًا لتعجيزى.

اتجهت إلى إحدى الزوايا، فصادفت الرجل الملتحى المتحفظ الذى أقلنى من المحطة، قدم الرجل نفسه على مضض: "يدعوننى (موريس)".

أردت أن أعرف: "كيف لا تتوه؟ هل هناك حيلة ما فى الأمر؟"

"إنه مرور الوقت فقط"، رد دون أن يرفع عينيه عما يشغل به، كان راكعًا على ركبتيه على رقعة من التربة المنبوشة، ويسويها ويضغط على الأرض المحيطة بجذور النباتات.

تكون لدى انطباع بأن "موريس" لا يرحب بوجودى فى الحديقة، لم أمانع ذلك، بما أننى بالأساس ذات طبيعة انعزالية، بعد ذلك حرصت كلما رأيته على أن أمضى فى الاتجاه المعاكس، وأعتقد أنه شاركنى هذا الحذر، ففى مرة أو اثنتين، لمحت حركته بطرف عيني، فأتطلع لأجد "موريس" يتراجع عند مدخل ما أو يلتفت فجأة فى اتجاه مختلف، وبهذا نجح كلانا فى ترك الآخر يعيش فى سلام، هناك مجال واسع أمامنا ليتجنب كل منا الآخر من دون أى شعور بالاضطرار.

لاحقًا فى ذلك اليوم، ذهبت إلى السيدة "وينتر" وأخبرتني المزيد عن المنزل فى "أنجلفيلد".

=====

اسم سيدة الخدم هو "دان"، لكنها كانت دائماً "السيدة" بنظر أطفال العائلة، وبدا كأنها عاشت في المنزل مدى الحياة، وهذه حالة نادرة: فعمال المنزل يأتون ويرحلون سريعاً في "آنجلفيلد"، وبما أن معدلات المغادرة أعلى قليلاً من معدلات المجيء، جاء اليوم الذي أصبحت فيه الخادمة الداخلية الوحيدة المتبقية، هي نظرياً مديرة المنزل، لكنها فعلياً تفعل كل شيء، تنظف الأوعية وتوقد المدفأة مثل خادمة صغيرة، وفي أوقات الوجبات تؤدي دور الطاهية، وتتولى تقديم الطعام، لكن حين ولادة التوأمين كانت تتقدم نحو الشيخوخة، كان سمعها ضعيفاً، ونظرها أضعف، وزاد ما لم تستطع توليه، مع أنها لم تحب الاعتراف بذلك.

عرفت السيدة كيف يجب تنشئة الأطفال: أوقات وجبات منتظمة، أوقات نوم منتظمة، واستحمام منتظم، نشأت "إيزابيل" و"تشارلي" على تدليل مفرط، وتجاهل مفرط في الوقت نفسه، وفطر الأمر قلبها أن ترى ما انتهى إليه أمرهما، وقد كان تجاهلهما للتوأمين فرصتها لكسر هذا النمط، أو هكذا أملت السيدة، وأصبح لديها خطة، فقد أرادت أن تربي فتاتين صغيرتين عاديتين في قلب تلك الفوضى وأمام ناظر الأخ وأخته، ثلاث وجبات مغذية يومياً، والنوم عند السادسة، والكنيسة يوم الأحد.

لكن الأمر أصعب مما توقعت.

فبداية عليها التعامل مع الشجار، "آديلاين" تنقض على أختها وتضربها باللكمات والأرجل، وتنتزع شعرها وتسدد الضربات أينما استطاعت، لاحقت "آديلاين" أختها وهي تحمل بملقط النار قطعاً من الفحم الساخن لدرجة الاحمرار، وحين أمسكت بها أحرقت شعرها، لم تكن السيدة متأكدة مما يقلقها أكثر: أهو عدوان "آديلاين" المستمر بلا رحمة، أم تقبل "إيميلين" التام والمستمر له؟ من جهة "آديلاين"،

ومع أنها ناشدت أختها حتى تتوقف عن تعذيبها، فإنها لم تنتقم ولو لمرة واحدة، بل كانت تحنى رأسها بخضوع وتنتظر توقف الضربات التي انهمرت على كتفيها وظهرها، لم تر السيدة "إميلين" ترفع يدها قط لتضرب "آديلاين"، حمل قلبها ما يعادل طيبة طفلتين، وحمل قلب "آديلاين" ما يعادل شر طفلتين، بدا الأمر منطقيًا على نحو ما، أو هكذا افترضت سيدة الخدم.

ثم هناك مشكلة الطعام المزعجة، ففي أوقات الوجبات، في غالب الأحيان، تعجز السيدة ببساطة عن العثور على الطفلتين، لقد عشقت "إميلين" الأكل، لكن هذا العشق لم يترجم نفسه قط إلى انتظام في الوجبات، جوعها لم يمكن إشباعه بثلاث وجبات يوميًا، لقد كان جوعها شديدًا ومتقلبًا، فكان يضرب عشرة أو خمسة عشر أو عشرين مرة في اليوم، فتطلب الطعام بالحاح، وحين تسترضي جوعها ببضع لقيمات من شيء ما، تغادرها تلك الرغبة، ويصبح الطعام غير مهم مجددًا، تُصان سمّة "إميلين" بواسطة جيب ممتلئ باستمرار بالخبز والزبيب، إنها وليمة متنقلة تغترف منها حيثما تريد، فكانت تأتي إلى المائدة فقط لتملأ جيوبها قبل أن تهيم على وجهها لتسترخي قرب المدفأة أو لتستلقي في ساحة بمكان ما.

أختها مختلفة عنها تمامًا، فقد خلقت "آديلاين" على هيئة سلك به عقد تمثّل الركبتين والكوعين، وقودها ليس الغذاء مثل غيرها من البشر، فالوجبات لم تكن لها، ولم يرها أحد قط تأكل: مثل آلة الحركة الدائمة، كانت كأنها دائرة مغلقة تعمل بطاقة تحصل عليها من مصدر داخلي ما إعجازي، لكن الآلة دائمة الحركة مستحيلة، وعندما تلاحظ السيدة في الصباح طبقًا خاليًا كانت به حتى الليلة الماضية شريحة من لحم الخنزير المقدد، أو رغيف خبز يفقد قطعة غير صغيرة، خمنت مصيرهما وتنهدت، لماذا لا تأكل طفلتيها من الأطباق، مثل الأطفال العاديين؟

ربما كانت لتدير شئونهما بشكل أفضل لو كانت أصغر سنًا، أو لو كانت فتاة واحدة بدلاً من اثنتين، لكن دماء آل "أنجلفيلد" حملت صفات لا يستطيع أى كم من طعام الأطفال أو الروتين الصارم أن يغيرها، لم ترد أن تدرك ذلك، وحاولت ألا تدركه لفترة طويلة، لكنها أدركته في النهاية، التوأمن غريبتين، ليس بذلك شك، كانتا غريبتين بكل ما تحمله الكلمة من معنى، غريبتين حتى الصميم.

على سبيل المثال: طريقة كلامهما، كانت تراهما عبر نافذة المطبخ، كائنتان غير واضحتى الملامح يبدو أن فميهما يتحركان بلا توقف، ومع اقترابهما من المنزل، تلتقط أجزاءً من طنين كلامهما، ثم تدخلان المنزل ويسيطر عليهما الصمت، تقول لهما دائماً: "ارفعنا صوتيكما!" لكنها كانت تقترب من الصمم وهما خجولتان، كانتا تتبادلان الحديث في ما بينهما، وليس مع الآخرين، "لا تكن سخيفاً"، هكذا ردت على "ديج" حين أخبرها أن الفتاتين لا تستطيعان التحدث على نحو سليم، "لا مجال لإيقافهما حين تبدآن".

لكنها أدركت ذلك في أحد أيام الشتاء، في مرة بقيت الفتاتان داخل المنزل، إذ أقنعت "إيميلين" أختها بأن تبقى في الدفء، قرب المدفأة وبعيداً عن الأمطار، عادة ما تعيش سيدة الخدم برؤية ضبابية، لكن في هذا اليوم كانت محظوظة بوضوح مفاجئ في الرؤية، وحدة سمع غير معتادة، وحين مرت بباب المرسم التقطت أذنيها جزءاً من ضوضائهما وتوقفت، كانت الأصوات تجيء وتروح بين الفتاتين، مثل كرة التنس في مباراة ما، أصوات تجعلهما تبتسمان أو تضحكان أو تتبادلان نظرات شريرة، ارتفع صوتاهما في هيئة تنمات للحديث، وهوى على هيئة همسات، من أية مسافة، قد تظن أنها الثثرة الحية المنطلقة للأطفال العاديين، لكن قلبها تحطم، فلك لم تكن مثل أية لغة سمعتها من قبل، هذه ليست اللغة الإنجليزية، ولا الفرنسية التى اعتادت سماعها قبل وفاة زوجة "جورج"، "ماتيلدا"، والتى لا

يزال "تشارلي" يستخدمها مع "إيزابيل"، إن "جون" محق، إنهما لا يتحدثان على نحو سليم.

جمدتها صدمة الإدراك في المدخل، ومثلما يحدث أحيانًا، فتح الاكتشاف الباب لاكتشاف آخر، إذ رنت الساعة التي رف المدفأة، وكالعادة، أخرجت الدائرة الميكانيكية التي وراء الزجاج طائرًا صغيرًا من قفص ليرفرف بواسطة دائرة ميكانيكية أخرى قبل أن يدخل إلى القفص مجددًا من الجهة الأخرى، بمجرد أن سمعت الفتاتان الرنة الأولى، تطلعتا إلى الساعة، زوجان من الأعين الخضراء الواسعة تتفرجان ولا ترمشان في حين يخرج الطائر من الساعة ويرفرف صعودًا ونزولًا.

لم يشِ تحديقهما بالبرود على نحو محدد أو بعدم الإنسانية على نحو خاص، إنها فقط طريقة تطلع الأطفال نحو الجمادات المتحركة، لكنها جمدت سيدة الخدم في مكانها، لأنها كانت الطريقة ذاتها التي تنظران إليها بها، حين توبخهما، أو تعنفهما، أو تنصحهما.

قالت لنفسها: "إنهما لا تدركان أنني على قيد الحياة، إنهما لا تعرفان أن هناك أحياء غيرهما".

لم تعتبرهما وحشين، نظرًا لطيبتهما، بل شعرت بالأسف تجاههما.

لا بد أنهما وحيدتان للغاية.

وتحركات من المدخل تجر قدميهما.

منذ ذلك اليوم أعادت النظر في توقعاتها منهما، مواعيد الوجبات والاستحمام المنتظمة، والكنيسة يوم الأحد، طفلتان عاديتان ولطيفتان: كل تلك الأحلام قفزت عبر النافذة، أصبحت لديها مهمة واحدة فقط: أن تبقى الفتاتين سالمتين.

قلبت الأمر في رأسها، وظنت أنها فهمت سبب هذه الحال، إنهما توأمان، وهما دائمًا معًا، ودائمًا اثنتان، إن كان العادي في عالمهما أن

يكونا اثنتين، فكيف يبدو لهما الآخرون الذين أتوا بصورة أحادية وليست ثنائية؟ لا بد أنهما يرونا كأنصاف، هكذا افترضت سيدة الخدم، وتذكرت كلمة، كلمة بدت غريبة حين سمعتها، ويُشار بها إلى الأشخاص الذين فقدوا أجزاء من أنفسهم: بُترًا، هكذا تعتبرنا الفتاتان: بترًا.

هل الأمر عادى؟ لا، الفتاتان ليستا عاديتين، ولن تكونا عاديتين أبدًا، لكنها طمأنت نفسها بأن الأمور مثلما كانت، والتوأمان تتصرفان مثل توأمين، ربما كانت غرابتهما أمرًا طبيعيًا.

بالتأكيد يتوق كل البُتر إلى حالة التوأمة، فالأشخاص العاديون، غير التوأمين، يبحثون عن توأم روحهم، ويتخذون محبين، ويتزوجون، يسعون جاهدين ليكونوا جزءًا من ثنائي، إذ يعذبهم نقصانهم، وسيدة الخدم لم تكن مختلفة عن الكل في هذا الصدد، بل كان لديها نصفها الآخر: "جون ذا ديج".

لم يكونا مرتبطين بالمعنى التقليدي، فهما لم يتزوجا، ولم يكونا حتى عاشقين، فهي تكبره بما يقارب الخمسة عشر عامًا، فلم تكن كبيرة كفاية لتكون أمه، لكنها أكبر من أن يتخذها زوجة، حين تقابلا، كانت في سن لم تعد تتوقع فيه أن تتزوج، في حين توقع هو أن يتزوج وهو الرجل في عزه، لكنه لم يتزوج قط، كما أنه بمجرد أن عمل معها، وشرب الشاي معها كل صباح وجلس إلى مائدة العشاء ليأكل طعامها كل مساء، تخلص عن عادة السعى وراء مرافقة الشابات، فبالقيل من الخيال، يمكن أن يتجاوزا حدود توقعاتهما، يمكن أن يعترفوا بصدق بمشاعرهما المتبادلة، الحب بصورته الأعمق والأكثر احترامًا، في زمن آخر وثقافة أخرى، يمكن أن يطلبها للزواج، وربما كانت لتوافق، فعلى الأقل، يمكن تخيل أنه في إحدى ليالي الجمعة، وبعد أن يتناولوا السمك مع البطاطس المهروسة، وبعد التحلية بفطيرة الفواكه والكاسترد، ربما

ياخذها من يدها -أو تأخذها من يده- ليقود أحدهما الآخر في صمت خجول إلى أحد أسرتهما، لكن الفكرة لم تمر برأسيهما قط، لذا أصبحت صديقين، على طريقة الأزواج المسنين، واستمتعا بالولاء الحنون الذي ينتظر الشخص المحظوظ بعد العشق، دون أن يعيشا العشق نفسه.

اسمه "جون ذا ديج" أي (جون الحارث)، أو "جون ديجنس" لمن لم يعرفوه، لم تكن الكتابة أفضل مميزاتة، فبمجرد انقضاء أعوام دراسته (وقد انتهت سريعًا لأنها لم تكن كثيرة)، اعتاد التخلي عن الحروف الأخيرة من اسمه الأخير لتوفير الوقت، فقد بدت الحروف الثلاثة الأولى أكثر من كافية: أليست معبرة عن هويته ووظيفته بإيجاز وبدقة أكثر من اسمه الكامل؟ لذا اعتاد التوقيع باسم "جون ديج"، وفي نظر الأطفال أصبح "جون ذا ديج".

كان رجلًا غنيًا بالألوان، عيناه زرقاوان مثل قطعتين من الزجاج الأزرق تقف الشمس وراءهما، وشعره الأبيض ينمو على قمة رأسه مثل النباتات الساعية وراء الشمس، وخداه يتحولان إلى الوردي المشرق مع الإجهاد حين يحرق الأرض، لا أحد يستطيع أن يحرق الأرض مثله، له طريقة مميزة في البستنة تتهادى بمراحل القمر: يزرع حين يتعاطم القمر، ويقيس الوقت بدورات القمر، وفي المساء، يتأمل جداول من الأرقام ليحسب أفضل وقت لفعل كل شيء، مارس جده الأكبر البستنة هكذا، وكذا فعل جده ووالده، لقد توارثوا المعرفة.

عملت عائلة "جون ذا ديج" دائمًا في البستنة بـ"آنجلفيلد"، في الماضي حين كان بالمنزل مدير للبستنة وسبعة مساعدين، اقتلع جده الأكبر سياجًا مربعًا من الأشجار الواقعة تحت نافذة، وحتى لا يبدد الشجيرات، اقتطع منها مئات من الأجزاء الصغيرة، وأثماها في أحواض، وحين بلغت طول ربع متر، زرعها في الحديقة، وقلم بعضها ليكون أسيجة منخفضة حادة الأطراف، وترك بعضها ينمو على نحو أشعث،

وحين أصبحت عريضة كفاية، أخذ مجزّاته إليها وصنع منها أشكالاً كروية، أدرك أن بعض تلك الشجيرات أرادت أن تتشكل على شكل أهرامات، أو مخاريط، أو قبعات، ولتشكيل كل الشجيرات، تعلم ذلك الرجل ذو اليدين الكبيرتين الخشنتين الصبر والرقّة التي يتمتع بهما حائك الدانتيل، لم يشكل الأشجار على هيئات الحيوانات ولا البشر، فالأشكال التي قد تراها في الحدائق الأخرى مثل الطاووس والأسود والإنسان بحجمه الطبيعي على دراجة لم تكن أعماله المفضلة، بل كان يُسر بأشكال هندسية صارمة أو تجريدية مذهلة بأبعاد بارزة.

بحلول سنوات عمره الأخيرة، كانت الحديقة التوبيارية هي كل ما يهيمه، حرص دائماً على أن يُنهي أعماله اليومية الأخرى، فكل ما أراده هو أن يكون في الحديقة "خاصته"، وأن يمرر يديه على أسطح الأشكال التي صنعها، وهو يتخيل الوقت الذي ستصل فيه حديقته إلى أتم النضج، ربما بعد خمسين أو مئة عام.

في فراش موته، أورث مجزّاته إلى ابنه، وبعد عقود أورثها ابنه إلى حفيده، ثم حين مات هذا الحفيد، أورثها إلى "جون ذا ديج"، الذي أنهى فترة تدريبه في حديقة كبيرة على بعد خمسين كيلومتراً تقريباً، وعاد منها ليتولى العمل المقرر له، ومع أنه كان مساعد بستاني، فإن الحديقة التوبيارية كانت مسئوليته منذ اليوم الأول، وكيف لا؟ لقد التقط المجزّات، التي شكلت يدا والده مقابضها الخشبية، وشعر بأن أصابعه تعرف طريقها وسط هذه الحزوز، شعر "جون" هناك بأنه في بيته.

في الأعوام التي تلت فقدان "جورج آنجيلد" لزوجته، حين تقلص عدد العاملين بالمنزل بشدة، بقى "جون ذا ديج"، ترك البستانيون المنزل ولم يحل أحد محلهم، وحين شب أصبح، بطبيعة الحال، كبير البستانيين، مع أنه كان البستاني الوحيد، كان العمل هائلاً، ولم يهتم

صاحب المنزل، فكان يعمل بلا شكر، هناك وظائف أخرى، وحدائق أخرى، وكان لينال أئمة وظيفية يتقدم إليها: فمجرد رؤيته تبعث على الثقة، لكنه لم يغادر أنجلفيلد قط، وكيف عساه يغادر؟ فبعمله في الحديقة التوبيارية، وإغماده لمجزاته في أغمدتها الجلدية مع هبوط الظلام، لم يحتج إلى التفكير في أن الأشجار التي يشذبها هي الأشجار نفسها التي زرعها جده الأكبر، وروتين وخطوات عمله هي نفسها التي مارستها عائلته لثلاثة أجيال، كل ذلك كان محفوراً بعمق في عقله لدرجة أنه لا يتطلب أى تفكير، كان الأمر كالمسلمات، وكحال أشجاره، كان هو مزروعاً في أنجلفيلد.

بم شعر في ذلك اليوم حين دخل حديقته ووجدها مدمرة؟ وجد فجوات كبيرة في جوانب أشجار الصنوبر، فجوات تكشف عن أخشابها البنية التي في قلبها، الرءوس الشجرية مقطوعة وملقاة عند أقدامها، فقدت الأهرامات توازنها بعدما كانت مثالية، والمخاريط مشوهة، والقبعات مقطعة إلى أشلاء، حلق طويلاً إلى الأفرع الطويلة التي لا تزال خضراء وطازجة، المنثورة على العشب، رأى ذبولها البطيء، وتقوسها وهي تجف، وموتها لم يحن أوانه بعد.

كان مصدوماً، سرت رجفة من قلبه إلى ساقيه إلى الأرض تحته، حاول أن يفهم ما حدث، هل هبطت صاعقة من السماء بعدما اختارت حديقته لتدمرها؟ لكن أئمة عاصفة تلك التي تضرب في صمت؟ لا، هذا بفعل فاعل.

وهو يلتفت إلى إحدى الزوايا وجد الدليل: متروكاً على العشب الندى، شفرات منفرجة الفم، والمجزآت الكبيرة وبجوارها منشار. حين لم يأت للغداء، قلقته سيدة الخدم وخرجت لتبحث عنه، بمجرد بلوغها الحديقة التوبيارية رفعت يدها إلى فمها رعباً، ثم أمسكت بمئزرها وتابعت المشى متعجلة.

حين وجدته، رفعته عن الأرض، ومال بثقله عليها وهى تقوده بعناية حنون إلى المطبخ حيث أجلسته على كرسى، أعدت الشاي مسكراً وساخنًا، وحملت فى الخواء دون أن ترى شيئًا، ودون أن تنطق كلمة، رفعت الكوب إلى شفثيه وأمألته ليرتشف من المشروب الساخن للغاية، وأخيرًا تطلعت عيناه إليها، وحين رأت الخسارة فى عينيه، شعرت بدموعها تنزل.

"أعرف يا (ديج)، أعرف!"

أمسك كتفيها بيديه وانتقلت رجفة جسده إلى جسدها.

لم تظهر الفتاتان فى ذلك العصر، ولم تبحث عنهما سيدة الخدم، وحين ظهرتا فى المساء، كان "جون" لا يزال فى كرسيه شاحب الوجه، جفل حين رآهما، بفضول وبلا مبالاة، مرت أعينهما الخضر على وجهه مثلما مرت على ساعة الحائط فى المرسوم.

قبل أن تضع الطفلتين فى سريرهما، ضمدت الجروح التى على يديهما من المنشار والمجزات، قالت متذمرة: "لا تلمسا الأغراض التى فى كوخ (جون)، إنها حادة وستؤذيكما".

كانت لا تزال غير منتظرة لأية استجابة: "لم فعلتما ذلك؟ أوه، لم فعلتما ذلك؟ لقد فطرما قلبه".

شعرت بيد إحدى الطفلتين على يدها وقالت: "سيدة الخدم حزن"، كانت تلك "إيميلين".

اندهشت، ورمشت لتزيح غمامة الدموع عن عينيها وحدقت إلى الطفلة.

تابعت الطفلة: "(جون ذا ديج) حزن".

همست سيدة الخدم: "نعم، نحن حزنان".

ابتسمت الطفلة، كانت تلك ابتسامة بلا خبث، بلا شعور بالذنب، بل كانت ببساطة ابتسامة رضا لأنه لاحظت شيئاً ووصفته بشكل صحيح، لقد رأت دموعاً، وكانت متحيرة، لكنها الآن وجدت إجابة اللغز، إنه الحزن.

أغلقت سيدة الخدم الباب وهبطت السلم، كان ذلك تطوراً كبيراً، لقد تمكنت الطفلة من التعبير، وعلى الأرجح كانت تلك بداية شيء أعظم، أيمكن أن تتمكن الطفلة من الفهم في أحد الأيام؟ فتحت باب المطبخ وانضمت إلى "جون" مجدداً في يأسه.

راودنى حلم في تلك الليلة.

كنت أتمشى في حديقة السيدة "وينتر"، وقابلت أختي.

بدت مشرقة ومدت جناحيها الشاسعين الذهبيين، كأنها تحتضنني، وملأني ذلك سعادة، لكن حين اقتربت منها رأيت عينيها مصابتين بالعمى، ولم تستطع أن تراني، فملأ اليأس قلبي.

حين استيقظت، ضمنت نفسي على هيئة كرة حتى هدأت الحرارة المستعرة في جسدي.

مكتبة
t.me/t_pdf

"ميرلي" وعربة الرضيع

بيت السيدة "وينتر" منعزلٌ جدًا، وحياة سكانه منفردة للغاية، لدرجة أنني تفاجأت خلال أسبوعي الأول هناك بسماع صوت عربة تصل على الحصى أمام المنزل، وبالنظر عبر نافذة المكتبة، رأيت باب سيارة سوداء كبيرة يُفتح ولمحت رجلاً طويلاً أسود الشعر، اختفى الرجل في المدخل وسمعت صوت رن الجرس.

رأيتَه مجددًا في اليوم التالي، كنت في الحديقة، ربما على بعد ثلاثة أمتار من الشرفة الأمامية، حين سمعت خشخشة الإطارات على الحصى، ظلمت واقفة، ثم تراجعَت إلى الداخل، كنت واضحة تمامًا لمن يريد أن ينظر، لكن حين يتوقع الناس ألا يروا شيئًا، فإنهم عادة لا يرون شيئًا، فلم يرنِ الرجل.

كان وجهه حادًا، ظلل حاجباه الكثيفان عينيه، في حين ميز بقية وجهه سكون كأنه فاقد الحس، وصل إلى سيارته ليحضر حقيبته، وأغلق الباب بعنف وصعد ليرن الجرس.

سمعت صوت فتح الباب، لم يتبادل و"جوديث" ولو كلمة واحدة، واختفى داخل المنزل.

لاحقًا في ذلك اليوم، أخبرتنى السيدة "وينتر" قصة "ميرلي" وعربة الأطفال.

مع نمو الطفلين استكشفا بيئتهما أكثر وأكثر، وعرفتا سريعًا كل المزارع والحدائق في محيطهما، لم تفهما على أي نحو مفهوم الحدود، ولا فكرة الملكية، لذا تجولتا حيث شاءتا، فتحتا أبوابًا ولم تهتما دائمًا بإغلاقها، تسلفتا الأسيجة حين وقفت في طريقهما، حاولتا فتح أبواب المطابخ، وحين نجحتا -وعادة ما كانتا تنجحان، فسكان أنجلفيلد لم يهتموا كثيرًا بإقفال الأبواب- كانتا تدخلان، لم تتورعا عن تناول أي شيء يبدو لذيذًا في غرفة المؤن، ونامتا لساعة على الأسرة في الطابق العلوي إن شعرتا بالتعب، وأخذتا القدور الصغيرة والملاعق لإخافة الطيور في الحقول.

استاءت العائلات المحلية من الأمر، ومقابل كل اتهام من أحدهم، يقول أحد إنه رأى الفتاتين في الوقت ذاته في مكان آخر بعيد، أو على الأقل رأى واحدة منهما، أو على الأقل هكذا ظنوا، حينئذ تذكروا كل قصص الأشباح القديمة، فلا يوجد بيت قديم بلا قصص، ولا يوجد بيت قديم بلا أشباح، وحقيقة أنهما توأمتان كانت تضيء بعدًا خاصًا من الرعب، فهناك شيء غير مريح بشأنهما، أو هكذا اتفق الجميع، وسواء أكان ذلك بسبب الفتاتين نفسيهما أو لسبب ما آخر، فإن ذلك أدى إلى العزوف عن الاقتراب من البيت القديم، وقد سرى ذلك بين الكبار مثلما سرى بين الأطفال، خوفًا مما قد يروونه هناك.

لكن في النهاية تفوق الإزعاج الذي تسببه غارات الفتاتين على الخوف من قصص الأشباح، وزادت النساء غضبًا، ففي مرات عديدة كانت النساء تحاصرهما متلبستين، وتصرخ بهما، كان الغضب يغير ملامح وجوههن، وتُفتَح أفواههن وتُغلق بسرعة جدًا ما يجعل الفتاتين تضحكان، لم تفهم النساء سبب ضحك الفتاتين، لم يعرفن أن سرعة خروج الكلمات من أفواههن وتخطبها هو ما يحير الفتاتين، ظنن أنه ليس إلا سلوكًا شيطانيًا خالصًا وصرخن أكثر، في مرة وقفت الفتاتان لتتفرجا على مشهد غضب أهل القرية، ثم التفتتا وسارتا مبتعدتين بكل بساطة.

حين عاد أزواجهن من الحقول، تذمرت النساء، وقلن إن شيئًا يجب أن يُفعل، فيقول الرجال: "أنت تتجاهلين أنهما طفلتا البيت الكبير"، فترد النساء: "البيت الكبير أو غيره، يجب ألا يُسمح للأطفال بالجموح بلا قيود هكذا، هذا ليس صحيحًا ويجب التصرف"، فيجلس الرجال أمام أطباق البطاطس واللحم يهزون رؤوسهم ولا يفعلون شيئًا. استمر ذلك حتى حادثة عربة الرضيع.

امرأة بالقرية تدعى "ماري جايمسن"، زوجة "فريد جايمسن" أحد عمال المزرعة، عاشت مع زوجها ووالديه في أحد المنازل الريفية، كانا متزوجين حديثًا، وقبل زواجهما كان اسمها "ماري لى"، ما يفسر الاسم الذي ابتكرته الطفلتان لها بلغتهما الخاصة: أطلقتا عليها "ميرلى"، وقد كان اسمًا جيدًا لها، أحيانًا قد تذهب وتلاقى زوجها في الحقول، حيث يجلسان تحت أحد الأسيجة في نهاية اليوم ويدخن هو سيجارة، إنه رجل طويل بنى اللون له قدمان كبيرتان، وقد اعتاد لف ذراعه حول خصرها ودغدغتها والنفخ أسفل مقدم فستانها ليضحكها، حاولت ألا تضحك لتغيظه، لكنها كانت تريد الضحك بشدة، وفي النهاية تضحك.

كانت لتعتبر امرأة عادية لولا ضحكتها هذه، شعرها داكن أكثر من أن تعتبر شقراء، وذقنها كبير وعيناها صغيرتان، لكنها تميزت بتلك الضحكة، صوتها جميل لدرجة أنك إن سمعته، كأنك رأيتها بعينيك عبر أذنك وقد تغيرت ملامحها، إذ تختفى عيناها أعلى خديها الممتلئين كأنهما قمرين، وفجأة، في غياب عينيها، تلاحظ فمها، شفيتها الممتلئتين بلون الكرز، وأسنانها- من المؤكد أن لا أحد في آنجلفيلد لديه مثل هذه الأسنان- ولساناً وردياً صغيراً مثل قطعة صغيرة، وذلك الصوت، إنها موسيقى جميلة متموجة لا تتوقف تنبعث من حنجرتها مثل نبع المياه من تيار تحت الأرض، صوتها صوت السعادة، وهو تزوجها من أجل ذلك، حين تضحك، كان صوته يرق، ويضع شفثيه على رقبته وينطق اسمها: "مارى"، مراراً وتكراراً، فتدغدغها اهتزازات صوته على جلدها وتضحك بلا توقف.

خلال الشتاء، في حين لا تبرح الفتاتان الحداثق، رزقت "ميرلى" برضيع، فقضت أول أيام الربيع الدافئة في الحديقة، تعلق ملابس الرضيع على حبل، وخلفها عربة الرضيع، لا أحد يعلم من أين أتت بها، ففتيات القرية لا يحظين بمثل هذه الأشياء، ولا شك بأن للعربة مالك أو مالكين سابقين، واشترته العائلة بثمن بخس (مع أنها بلا شك تبدو لفئة طيبة جداً)، دلالة على أهمية هذا الطفل والحفيد الأول، على أية حال، في حين تنحنى "ميرلى" لتأخذ سترة أخرى صغيرة، وقميصاً آخر صغيراً، وتثبتهما على الحبل، كانت تغنى كالعصافير المزققة حولها، وبدا أن أغنيتهما موجهة إلى عربة الرضيع السوداء الجميلة، عجلاتها فضية ومرتفعة جداً، لذا مع أنها كبيرة وسوداء ومستديرة، فإنها توحى بالسرعة وخفة الوزن.

أطلت الحديقة على الحقول خلفها، وفرق سياج بينها، لم تعرف "ميرلى" أن وراء السياج يوجد زوج من الأعين الخضراء لا يحيد عن عربة الرضيع.

ينتج الرضع الكثير من الملابس اللازم غسلها، و"ميرلى" أم مجتهدة ومخلصة، تخرج إلى الحديقة يوميًا لتعلق ما غسلته وتأخذ ما جف، ومن نافذة المطبخ، وهى تغسل الحفاضات والسترات في الحوض، أبقت عينيها على عربة الرضيع الرائعة في الشمس، بدا أنها تخرج سريعًا كل خمس دقائق لتعدل غطاء العربة، أو لتزود الرضيع ببطانية إضافية، أو ببساطة لتغنى.

لم تكن "ميرلى" الوحيدة التى كرسَتْ جهودها لخدمة العربة، فقد فُتنت "إيميلين" و"آديلاين" بها.

خرجت "ميرلى" في أحد الأيام من تحت الشرفة الخلفية ومعها سلة المغسولات تحت ذراعها، ولم تجد العربة، توقفت فجأة، وفتحت فمها ورفعت يديها إلى خديها، سقطت السلة سريعًا في حوض زهور، وانقلبت الأقمصة والجوارب على النباتات والزهور، لم تنظر "ميرلى" ولو لمرة نحو السياج ونباتات العلق، بل نظرت يسرة ويمنة كأنها لا تصدق ما تراه، وتابعت النظر يسرة ويمنة، والذعر يتصاعد بداخلها، وفي النهاية أطلقت صرخة، أو ضجيجًا مجلجلًا ارتفع إلى السماء الزرقاء كأنه يشقها إلى نصفين.

تطلع السيد "جريفين" من بقعة زراعة الخضراوات خاصته على بعد ثلاثة منازل وجاء إلى السياج، وعبست الجدة "ستوكس" الجارة أمام حوض المطبخ وخرجت إلى شرفتها، نظرا مندهشين إلى "ميرلى"، متسائلين إن كانت جارتهم الضحوك قادرة على إطلاق مثل هذا الصوت، ونظرت هى إليهما بحدة، مصدومة، كأن صرختها اختصرت حياة كاملة من الكلمات.

في النهاية قالتها: "لقد اختفى رضيعي".

بمجرد أن نطقت تلك الكلمات شرعوا بالتصرف، فقفز السيد "جريفين" عبر ثلاثة أسيجة في مرة واحدة، وجذب "ميرلى" من ذراعها

وقادها في جولة إلى مقدم منزلها قائلاً: "اختفى؟ أين اختفى؟" كذا اختفت الجدة "ستوكس" من شرفتها الخلفية وتردد صوتها في الأنحاء من الحديقة الأمامية، تنادى طلباً للمساعدة.

ثم تصاعدت الجلبة: "ما الأمر؟ ماذا حدث؟"

"اختطف! من الحديقة! في عربة الرضيع!"

"أنتما الاثنان اذهبا بهذا الاتجاه، وأنتم من هنا".

"فليذهب أحد للبحث عن زوجها".

حدث كل تلك الجلبة والاضطراب أمام المنزل.

أما في الخلف فكان كل شيء هادئاً، تمايلت مغسولات "ميرلي" تحت أشعة الشمس، واستقرت مجرفة السيد "جريفين" في سكينة على التربة المحروثة جيداً، ولامست "إيميلين" مكابح العربة الفضية بنشوة هادئة متهورة، ورفعتها "آديلاين" حتى تتمكن من تحريك ذلك الشيء.

أسمتا العربة بلغتهما "فووم".

جرت الفتاتان العربة بطول الواجهة الخلفية للمنازل، تبين أن الأمر أصعب مما ظنتا، فبداية، العربة أثقل مما تبدو عليه، كما أنهما جرتاها على أرض غير مستوية، وطرف الحقل مائل قليلاً ما أمال العربة بدرجة ما، بإمكانهما جعل العجلات الأربع على المستوى نفسه، لكن الأرض المحروثة حديثاً لينية أكثر هناك، وقد غرزت العجلات وسط كتل الطين، كانت معجزة أنهما استمرت بالتقدم بعد أول عشرين متراً، فقد علقت الأشواك ونبات العليق في المكابح وأبطأت العربة، لكن في الواقع لم يكن ذلك مزعجاً لهما، إذ دفعتا بكل ما أوتيتا من قوة لإيصال تلك العربة إلى البيت، وبذلتا كل قوتهما، لكن بالكاد بدا عليهما الشعور بكل ذلك المجهود، دُميت أصابعهما

السما، طارت في مسار منحنى وخلفها زرقعة السما، حتى هبطت بعنف لتلتقطها الأرض، وعندها سُمع صوت انكسار شيء، صوت يدعو للقرف، وبعد تردد صوت ابتهاج "آديلاين" في السما، أصبح فجأة كل شيء هادئًا جدًا.

جرت "إيميلين" بسرعة نحو قاع التل، العجلة المواجهة للسما منبعجة ونصفها مفقود، والعجلة الأخرى لا تزال تدور، ببطء، بعدما فقدت كل زخمها.

امتدت ذراع بيضاء من تجويف العربة السوداء المحطمة، واستقرت بزاوية غريبة على الأرض الحجرية، وعلى اليد توجد بقع من نبات العليق وخدوش أحدثتها الأشواك.

جثت "إيميلين"، وبدأ كل شيء مظلمًا داخل تجويف العربة المحطمة.

لكن حدثت حركة، زوج من الأعين الخضراء يبادلها النظرات.
قالت: "فووم"، وابتسمت.

انتهت اللعبة، وحان وقت العودة إلى المنزل.

بصرف النظر عن القصة نفسها، قليلًا ما تحدثت السيدة "وينتر" خلال لقاءاتنا، ففي أول أيامى هناك اعتدت أن أسألها: "كيف حالك؟" حالمًا أصل إلى المكتبة، لكنها كانت تكتفى بالإجابة: "مريضة، ماذا عنك؟" بنبرة تشي بسوء المزاج، كأننى حمقاء لسؤالى، لم أجب عن سؤالها قط، وهى لم تنتظر ردى، لذا سريعًا ما بلغت أحاديثنا نهايتها، كنت أدلف المكتبة بخفة، قبل دقيقة بالضبط من موعدنا، وأبلغ مكانى على المقعد بالجانب الآخر من الموقد، وأخرج دفترى من حقيبتى، ثم بلا أيّة مقدمات، تلتقط طرف قصتها من حيث تركته،

لم يحكم الوقت نهاية هذه الجلسات، أحيانًا قد تتحدث السيدة "وينتر" حتى تصل إلى النهاية الطبيعية لحكاية اليوم، فتنتطق الكلمات الأخيرة، ويكون لصوتها عند نهاية الحكايات وقع لا يخفى، يتبع ذلك صمت غير مبهم مثل المساحة البيضاء في نهاية كتاب، فأدوّن ملاحظة أخيرة في دفترى، وأطوى غلافه، وأجمع أغراضى وأرحل، ولكن فى أحيان أخرى كانت تتوقف بلا مقدمات، فى منتصف مشهد، وأحيانًا فى منتصف جملة، فأتطلع إليها لأرى وجهها الشاحب حادًا كأنها تضع قناعًا من التحمل، فى أول مرة رأيتها على هذه الحال سألتها: "أهناك شئ يمكننى فعله؟" لكنها اكتفت بإغلاق عينيها والإشارة إلى بالانصراف.

حين انتهت من حكاية "ميرلين" وعربة الرضيع، وضعت قلمى ودفترى فى حقيبتى وانتصبت، قلت: "سأغيب لبضعة أيام".
كان ردها صارمًا: "لا".

"أخشى أن هذا ضرورى، كنت أتوقع أن أبقى هنا لبضعة أيام فقط فى البداية، وها أنا هنا منذ أكثر من أسبوع، ليست معى أغراض كافية لإقامة مطولة".

"سيأخذك (موريس) إلى البلدة لتشتري كل ما تحتاجين إليه".
"أحتاج إلى كتبى..."

أشارت إلى رفوف مكتبتها.

هزرت رأسى: "آسفة لكننى حقًا يجب أن أغادر".

"آنسة (ليا)، يبدو أنك تظنين أن لدينا كل ما يلزمنا من الوقت، ربما لديك أنت، لكن دعينى أذكرك، أنا امرأة منشغلة، لا أريدك أن تخبرينى مجددًا عن المغادرة، فلتكن هذه المرة الأخيرة".

عضضت شفتى وشعرت للحظة أننى مجبرة على الإذعان، لكننى استجمعت شجاعتي: "أذكرين اتفاقنا؟ الحقائق الثلاث؟ أحتاج إلى التحقق منها".

ترددت هى، "ألا تصدقيننى؟"

تجاهلت سؤالها، "ثلاث حقائق يمكننى التحقق منها، لقد وعدتنى".

زمت شفتيها بغضب، لكنها وافقت.

"بإمكانك المغادرة يوم الاثنين لمدة ثلاثة أيام لا أكثر، (موريس) سيوصلك إلى المحطة".

كنت فى منتصف كتابتى لقصة "ميرلين" وعربة الرضيع حين سمعت طرقًا على باب غرفتى، لم يحن وقت العشاء بعد، لذا تفاجأت، "جودث" لم تقاطع وقت عملى من قبل.

قالت: "هلا تأتين إلى المرسم؟ الطبيب (كليفتون) هنا ويريد التحدث إليك".

حالمًا بلغت الغرفة، انتصب الرجل الذى رأيته حين وصل إلى المنزل، لا أفضل المصافحة لذا كنت ممتنة حين بدا أنه قرر ألا يمد يده، لكن ذلك تركنا بلا تمهيد للحديث.

"فهمت أنك كاتبة السيرة الذاتية للسيدة (وينتر)، صحيح؟"

"لست متأكدة".

"لست متأكدة؟"

"إن كانت تخبرنى الحقيقة، فأنا كاتبة سيرتها الذاتية، وإلا فأنا مجرد كاتبة إملاء".

"هممم"، وسكت برهة، "هل لذلك أهمية؟"

"بنظر من؟"

"بنظرك".

لم أعرف، لكننى أعرف أن سؤاله وقح، لذا لم أجب عنه.

"أفترض أنك طبيب السيدة (وينتر)، صحيح؟"

"صحيح".

"لم طلبت مقابلتى؟"

"فى الواقع الأمر متعلق بالسيدة (وينتر)، هى من طلبت منى مقابلتك، تريدنى أن أتأكد من أنك على دراية تامة بحالتها الصحية".
"حسنًا".

بوضوح علمى لا تشوبه أى انفعالات عاطفية، باشر توضيح حالتها لى، وأخبرنى بكلمات قليلة اسم العلة التى تقتلها، والأعراض التى تعانيها، ودرجة ألمها وأفضل ساعات اليوم لها بمساعدة الأدوية وأسوأها، ذكر عددًا من الحالات المرضية الأخرى التى تعانى منها، والتى كانت خطيرة كفاية فى حد ذاتها، لكن الأمر أن المرض الآخر سينال منها أولاً، وأوضح قدر ما استطاع التقدم المحتمل للمرض، والحاجة إلى ترشيد زيادات جرعة الدواء لإبقاء أى شئ احتياطيًا للمستقبل، حين، مثلما قال تحديدًا، تحتاج إليه حقًا.

سألته حين انتهى من الشرح: "كم لديها من الوقت؟"

"لا أستطيع أن أجزم، لو كان شخصًا آخر مكانها لمات بالفعل، السيدة (وينتر) قوية حتى النخاع، ومنذ أن أتيت..."، قطع جملته، واستشعرت أنه مثل من يجد نفسه دون قصد على وشك تقديم اعتراف.

"منذ أن أتيت...؟"

تطلع إلى وبدا متحيرًا، لكنه حسم قراره: "منذ أن أتيت، يبدو أنها تركز بعض التحسن، تقول إنه التأثير المخدر لحكي القصص".

لم أكن واثقة بشأن استنتاجي من هذه المعلومة، وقبل أن أفكر في الأمر، تابع الطبيب: "أتفهم أنك ستغادرين..."

"ألهذا طلبت منك أن تتحدث إلي؟"

"كل الأمر أنها تريدك أن تفهمي أن الوقت هو العامل الأهم".

"يمكنك إبلاغها أنني فهمت".

انتهت مقابلتنا، وأمسك لي الباب حتى أخرج، وبعدما تجاوزته، وجه حديثه إليّ مجددًا، كانت همسة غير متوقعة: "الحكاية الثالثة عشرة...؟ لا أفترض أنها..."

لمحت في وجهه الساكن دائمًا، باستثناء تلك اللحظة، التوق المتهلف المحموم الخاص بالقراء.

قلت: "لم تذكرها، وحتى إن ذكرتها، لن تكون لدى حرية أن أخبرك".

هدأت عيناه وسرت رعشة من فمه إلى زاوية أنفه.

"يومك سعيد يا آنسة (ليا)".

"يومك سعيد أيها الطبيب".

الطبيب "مودسلى" وزوجته

فى يومى الأخير حكى لى السيدة "وينتر" قصة الطبيب والسيدة "مودسلى".

ترك الأبواب مفتوحة والتجول فى منازل الآخرين شىء، والتجول برضيع فى عربته شىء آخر تمامًا، حقيقة أن الرضيع، حين عُثر عليه، كان سالمًا رغم اختفائه المؤقت، لم تكن الحقيقة الأهم، فقد خرجت الأمور عن السيطرة، ودعت الحاجة إلى فعل شىء ما.

لم يشعر أهل القرية بأنهم قادرون على الحديث مع "تشارلى" مباشرة بهذا الشأن، فقد أدركوا أن أمورًا غريبة كانت تحدث فى المنزل، وكانوا شبه خائفين من الذهاب إلى هناك، من الصعب الجزم إن كان ذلك تأثير "تشارلى" أم "إيزابيل" أم الشبح الذى شجعهما على الانعزال، بدلاً من ذلك، تحدثوا مع الطبيب "مودسلى"، وهو ليس الطبيب الذى ربما تسبب فشله فى الوصول سريعًا فى موت والدته

"إيزابيل" في أثناء الولادة، بل هو رجل آخر كان قد عمل في القرية لمدة ثمان أو تسع سنوات بحلول ذلك الوقت.

لم يكن الطبيب "مودسلي" شابًا، فمع أنه كان في منتصف الأربعينات، فإنه يعطى انطباعًا بصغر سنه، ليس طويلًا، ولا يتمتع بجسد قوى للغاية، لكنه يحظى بهالة من الحيوية والقوة، ساقاه طويلتان قياسًا إلى جسده، واعتاد أن يمد الخطى دون أن يبدو عليه بذل الجهد، بإمكانه المشي أسرع من الجميع، فأصبح معتادًا على أن يتحدث ويلتفت فجأة ليجد مسائره وراءه ببضعة أمتار، يلهثون محاولين اللحاق به، تضاهي تلك الطاقة الجسدية حيوية عقلية عظيمة، يمكنك سماع صدى قوة عقله في صوته، الذي كان هادئًا مع كونه سريعًا، ويجيد العثور على الكلمة المناسبة للشخص المناسب في الوقت المناسب، يمكنك أيضًا أن ترى ذلك في عينيه: لونهما بنى داكن ولامعتان جدًا، مثل أعين الطيور، يقظة وعازمة وفوقها حاجبان قويان ومهندمان.

تمتع "مودسلي" بموهبة نشر حيويته حوله، وهذه ليست سيئة للطبيب، فبمجرد أن يخطو على الطريق، أو أن يطرق الباب، يبدأ مرضاه بالشعور بالتحسن، ولقد أحبوه على نحو خاص، كأنه منشط في حد ذاته، أو هكذا اعتبره الناس، يهتم إذا ما عاش مرضاه أو ماتوا، وحين يعيشون -وهي الحال دائمًا تقريبًا- يهتم بجودة عيشهم.

حمل الطبيب "مودسلي" حبًا عظيمًا للأنشطة العقلية، المرض في نظره أشبه باللغز، تهجره الراحة حتى يحله، اعتاد المرضى زيارته لهم في الصباح الباكر جدًا بعدما قضى الليل مفكرًا في أعراضهم، ليسألهم سؤالًا واحدًا إضافيًا، وبمجرد أن يتوصل إلى التشخيص، يلوح أمامه لغز العلاج ليحله، كان يستشير الكتب بالتأكيد، وهو عارف تمامًا بالعلاجات المعتادة، لكنه تمتع بعقل مبتكر ظل يتفكر بشيء ببساطة

احتقان الحنجرة من منظور مختلف، فيبحث أكثر وباستمرار عن أية معلومة ولو صغيرة، قد لا تمكنه من معالجة احتقان الحنجرة فقط، بل وفهم ظاهرة احتقان الحنجرة من منظور جديد تمامًا، إنه نشيط وذكي ولطيف، إنه طبيب جيد على نحو استثنائي، وشخص أفضل من المتوسط، ولكن كحال كل البشر، لديه بقعة عمية.

ضم وفد أهل القرية والد الطفل وجده وصاحب الحانة، وهو رجل يبدو ضجرًا ولا يحب أن يبقى بعيدًا عن قلب الأحداث، رحب الطبيب "مودسلي" بالثلاثي واستمع بانتباه في حين حكى اثنان منهم ما لديهما، بدأت الحكاية بترك الأبواب مفتوحة، ووصلا إلى المشكلة المزعجة الخاصة بالقدر المفقودة ووصلا بعد دقائق معدودة إلى ذروة القصة: اختطاف الرضيع في عربته.

واختتم "فريد جايمسن" الشاب: "إنهما بلا ضابط ولا رابط".

وأضاف "فريد جايمسن" العجوز: "خارجتان عن السيطرة".

سأل الطبيب "مودسلي" الرجل الثالث: "وما رأيك؟" بعدما ظل "ويلفريد بونر" الذي التزم مكانه الجانبي والصمت حتى الآن.

خلع السيد "بونر" قبعته وأخذ نفسًا بطيئًا له صفير: "لست متخصصًا في الطب، لكن يبدو لي أن الفتاتين ليستا طبيعيتين"، وصحب كلماته بنظرة ذات دلالة، ثم تحسبًا لئلا يكون مقصده قد فهم، نقر على رأسه ثلاث مرات.

نظر الرجال الثلاثة بقلق إلى أحذيتهم.

رد الطبيب: "اتركوا الأمر لي، سأحدث إلى العائلة".

غادر الرجال، لقد فعلوا ما بإمكانهم، والأمر الآن بيد الطبيب، الذي أصبح الآن كبير القرية.

ومع أنه قال إنه سيتحدث إلى العائلة، فما فعله الطبيب حقًا هو أنه تحدث مع زوجته.

علقت زوجته بعدما حكى القصة: "أشك أن الطفلتين قصدتا أي أذى بذلك، أنت تعرف الأطفال، اللعب بالرضيع أكثر إمتاعًا بكثير من اللعب بدمية، لكنهما ما كانتا لتؤذيها، ومع ذلك، يجب أن تؤمرا بالآ تكررا ذلك، مسكينة (ماري)"، ورفعت عينيها عما تحيكه والتفتت إلى زوجها.

السيدة "مودسلي" جذابة على نحو استثنائي، لها عينان بنيتان كبيرتان برموش طويلة ملتوية على نحو جميل، وشعرها الداكن الذي لم تصل إليه أي من درجات الرمادي تظمه إلى الخلف بطريقة بسيطة للغاية لا تظهر إلا جمالاً حقيقياً، وحين تمشي، كان لجسدها جمال أنثوى ناضج.

عرف الطبيب أن زوجته جميلة، لكنهما تزوجا منذ فترة طويلة حتى أصبح الأمر لا يشكل فارقاً بنظره.

"يظنون في القرية أن الفتاتين متأخرتان ذهنيًا".

"بالتأكيد لا!"

"هكذا يظن (ويلفريد بونر) على الأقل".

هزت رأسها متعجبة، "إنه خائف منهما لأنهما توأمان، مسكين (ويلفريد)، إنه الجهل المتوارث، أشكر الرب على أن الأجيال الأصغر أكثر تفتحًا".

الطبيب رجل علم، ومع أنه عرف أن من غير المرجح إحصائياً أن تعاني الطفلتان من أي تأخر عقلي، فقد قرر ألا يستبعد هذا الاحتمال حتى يراهما، ولكنه لم يتفاجأ بأن زوجته، التي يحرم دينها أن تظن

السوء بأى شخص، قد تصدق أن تلك الشائعة مجرد غميمة بلا أساس سليم .

تمتم: "واثق بأنك على حق"، بنبرة غامضة وشت بثقته بأنها على خطأ، لقد أقلع عن محاولة إقناعها بتصديق ما هو حقيقى فقط، فقد نشأت على نوع من التدين لا يميز بين ما هو حقيقى وما هو صحيح.

سألته: "ماذا ستفعل إذا؟"

"سأذهب وأقابل العائلة، (تشارلز آنجلفيلد) أشبه قليلاً بالزاهد المنزوى، لكنه بالتأكيد سيقابلنى إن ذهبت".

أومأت السيدة "مودسلى" برأسها، وهى طريقتهما فى عدم موافقة زوجها، مع أنه لم يدرك ذلك، "ماذا عن الأم؟ ماذا تعرف عنها؟"
"القليل جداً".

وتابع الطبيب تفكيره فى صمت، وتابعت السيدة "مودسلى" الحياكة، وبعد ربع ساعة، قال الطبيب: "ما رأيك أن تذهبى إليهم يا (ثيودورا)؟ الأم قد تفضل أن تلتقى امرأة أخرى وليس رجلاً، ما رأيك؟"

وبعد ثلاثة أيام وصلت السيدة "مودسلى" إلى المنزل وطرقت الباب الأمامى، مندهشة من عدم الرد، عبس وجهها -فقد أرسلت رسالة بأنها ستأتى- وتجولت حول المنزل حتى وصلت إلى الخلف، كان باب المطبخ موارباً فدخلت بعد طرق سريع، لم تجد أحداً هناك، تطلعت السيدة "مودسلى" حولها، على المائدة ثلاث تفاحات، لونها بنى ومتجعدة وفى طريقها للانهييار، وقماشة صحن سوداء بجوار حوض ترتفع الأطباق المتسخة بداخله، ونافذة قذرة للغاية لا تميز عبرها الليل من النهار، اشم أنفها الأبيض الرقيق الهواء داخل

المنزل، فأخبرها بكل ما تحتاج إلى معرفته، زمت شفتيها، ويبست كفتيها، وأطبقت قبضتها على مقبض حقيبتها الذي على هيئة هيكل سلحفاة وانطلقت في حملتها بالمنزل، تنقلت من غرفة إلى أخرى بحثًا عن "إيزابيل"، تلاحظ في طريقها القذارة والفوضى والوسخ المنتشر في كل مكان.

تشعر سيدة الخدم بالتعب بسهولة، ولا تستطيع أن تنظف السلام جيدًا، وبصرها آخذ في الضعف، وكثيرًا ما تظن خطأ أنها نظفت أشياء، أو تخطط لتنظيفها ثم تنسى، وبصراحة إنها تعرف أن لا أحد يهتم، لذا ركزت معظم جهودها على إطعام الطفلتين، وكانتا محظوظتين لأنها نجحت في ذلك، لذا كان المنزل قذرًا ومغبرًا، ولو مال إطار إحدى الصور المعلقة، يظل مائلًا لمدة عقد، وإن لم يجد "تشارلي" سلة القمامة في مكتبه، فإنه يكتفى برمي الأوراق على الأرض حيث كانت السلة، وقد اكتشف سريعًا أن الأمر أيسر أن يخرج القمامة مرة سنويًا عن أن يخرجها مرة أسبوعيًا.

لم تعجب السيدة "مودسلي" بما رآته على الإطلاق، استاءت أمام الستائر نصف المغلفة، وتنهدت أمام الأدوات الفضية الباهتة، وهزت رأسها اندهاشًا حين رأت القدور على السلام والأوراق الموسيقية المنثورة على الأرض بطول المدخل، وفي المرسم انحنت على نحو تلقائي لالتقاط ورقة لعب، ورقة الثلاثة من البستوني⁽¹⁾، التي كانت ملقاة أو منسية في وسط أرضية الغرفة، لكن حين تطلعت حولها بحثًا عن بقية المجموعة، كانت كالتأهة، فلا شيء هناك سوى الفوضى، عادت بنظرها يانسة إلى الورقة وقد أدركت الآن أنها مغطاة بالغبار، وكونها امرأة حساسة تجاه النظافة وصعبة الإرضاء، غلبتها رغبة في أن تترك الورقة في مكان ما، ولكن أين؟ لمدة ثوانٍ قليلة، شل الذعر حركتها،

(1) أوراق اللعب ذات رمز القلب.

وأحسّت بالحصار بين الرغبة في إنهاء العلاقة بين قفازها الذى يبدو جديداً وورقة اللعب المغبرة اللزجة قليلاً، وعدم استعدادها لوضع الورقة في مكان غير مكانها، وفي النهاية، برعشة واضحة على كتفيها، وضعتها على ذراع الكرسي الجلدى، وخرجت من الغرفة بارتياح.

بدت المكتبة أفضل حالاً، بالطبع هى مغبرة، والسجاد رث، لكن الكتب نفسها بدت في مكانها الصحيح، وهو أمر مميز، ولكن حتى في المكتبة، وفي اللحظة التى ظنت فيها أن هناك ذرة حس بالنظام لدى تلك العائلة القذرة الفوضوية، صادفت سريراً مؤقتاً، السرير مدسوس في زاوية مظلمة بين مجموعتين من الرفوف، وهو عبارة عن بطانية تسكنها البراغيث ووسادة قذرة، في البداية ظننته سرير قطعة، ثم بالنظر مجدداً، لاحظت طرف كتاب ظاهر من تحت الوسادة، فأخرجته ووجدته رواية "جين أير".

مرت من المكتبة إلى غرفة الموسيقى حيث وجدت الفوضى نفسها التى في كل مكان، الأثاث منسق بشكل غريب كأن الهدف منه تسهيل لعب الغمضة، الشيزلونج الطويل موجه نحو الحائط، ويوجد كرسي نصفه مخفي بواسطة خزانة جُرت من مكانها تحت النافذة ووراءها مساحة من السجاد عريضة وممسوحة، حيث الغبار أقل كثافة واللون الأخضر أكثر وضوحاً، وعلى البيانو تحتوى زهرية على سيقان نباتات مسودة وجافة، وحولها دائرة منتظمة من بتلات الأزهار الشبيهة بالرماد، مدت السيدة "مودسلى" يدها نحو إحدى البتلات والتقطها، فتفتت تاركة بقعة قذرة لونها بين الأصفر والرمادى بين أصابع قفازها الأبيض.

يبدو أن السيدة "مودسلى" تركت نفسها لتهوى على مقعد البيانو.

لم تكن زوجة الطبيب امرأة شريرة، بل كانت مقتنعة كفاية بأهميتها، لدرجة اعتقادها بأن الرب مطلع على كل ما تفعله ويستمع

إلى كل ما تقوله، وقد كانت مأخوذة جدًا بفكرة التخلص من الفخر الذي قد تشعر به تجاه قداستها، ما كان يمنعها بدرجة ما من أن تلاحظ أى عيوب قد تكون لديها، كانت تريد إصلاح الكون، ما يعنى أن السوء الذى فعلته، قد فعلته دون إدراكها.

ماذا كان يدور بعقلها حين جلست على مقعد البيانو تحملى إلى الخواء؟ هؤلاء أناس لم يحافظوا على الحياة في زهرياتهم، لا عجب أن طفليتهما نسيان التصرف! بدا فجأة أن مدى المشكلة انكشف أمامها من خلال الأزهار الميتة، وقد خلعت قفازيها وحركت أصابعها على مفاتيح البيانو السوداء والرمادية بعقل شارد.

تردد في الغرفة أقصى ما يمكن تخيله من الأصوات المزعجة، أبعد ما تكون عن صوت البيانو، يعود هذا جزئيًا إلى الإهمال الذى أصاب البيانو، إذ لم يُستخدم ولم تُضبط نغماته لأعوام، كما أن اهتزاز أوتار الآلة مصحوب لحظًا بضوضاء أخرى، لا تقل نشاطًا عن صوت البيانو، صوت أشبه بهسهسة قوية، صرير من نوع جامع، مثل قطعة وجدت ذيلها تحت قدمك.

أحدث ذلك الصوت زلزالًا داخل السيدة "مودسلى" أخرجها من خيالاتها، حين سمعت ذلك العواء، حملت إلى البيانو غير مصدقة ووقفت ويداها على خديها، وفي خضم ذهولها، كان لديها أقل من لحظة لتدرك أنها ليست وحدها.

مسكينة السيدة "مودسلى".

لم يسعفها الوقت لتدرك أن الشيء المتشح بالبياض أمامها يلوح مهددًا بآلة كمان، وأن هذا الكمان يهوى سريعًا وبشدة على رأسها، وقبل أن تستوعب أيًا من هذا، بلغ الكمان جمجمتها، وغمرها الظلام وهوت أرضًا بلا وعى.

ذراعاها ممددتان بلا هيئة محددة، ومنديلها الأبيض الأنيق لا يزال مدسوسًا داخل حزام ساعتها، بدا كأن الحياة ضلت الطريق إلى جسدها، وهبطت سحب الغبار الصغيرة التي ارتفعت من السجاد متبخرة.

ظلت مكانها لنصف ساعة كاملة، حتى عادت سيدة الخدم من المزرعة حيث كانت تجمع البيض، ولمحت بالصدفة جسمًا داكنًا، حيث لم تر من قبل أى أجسام داكنة.

لم يوجد أى أثر لكائن متشح بالبياض.

وأنا أفرغ الأحداث من ذاكرتي، بدا لي أن صوت السيدة "وينتر" يملأ غرفتي بدرجة الواقعية نفسها التي ملأ بها المكتبة، لديها طريقة في الحديث تنقش الأحداث في ذاكرتي، وتجعلها موثوقة كأنها تسجيل صوتي، لكن في لحظة قولها: "لم يوجد أى أثر لكائن متشح بالبياض"، سكنت لوهلة، وأتوقف أنا الآن لوهلة، قلمي يحوم على الصفحة، أفكر في ما حدث بعدها.

كنت مستغرقة في القصة، لذا احتجت إلى لحظة لأنقل تركيزي من مشهد زوجة الطبيب الممددة أرضًا إلى راوية القصة نفسها، وحين فعلت ذلك أصابني الفزع، فشحوب وجه السيدة "وينتر" العادي أفسح المجال للون بين الأصفر والرمادي، وجسدها، الذي يجب ذكر أنه متصلب دائمًا، بدا في تلك اللحظة أنه يحمي نفسه من هجوم ما خفي، لاحظت رجفة حول فمها، وظننت أنها على وشك خسارة معركة السيطرة على شفيتها، وأن تجهّمًا مكبوتًا اقترب من الظفر بوجهها.

انتصبت من مقعدى فزعة، لكننى ليست لدى فكرة عما يجب فعله.

صحت عاجزة: "سيدة (وينتر)، ماذا بك؟"

أظننى سمعتها تقول: "إنه ذئبى"، لكن الجهد الذى بذلته لتتحدث كان كافيًا لترتجف شفتاها مجددًا، أغلقت عينيها، وبدأ أنها تصارع لضبط أنفاسها، وبينما كنت على وشك الإسراع لإيجاد "جوديث"، استعادت السيدة "وينتر" سيطرتها، وهذا صعود وهبوط صدرها، وتوقف ارتعاش وجهها، ومع أنها لا تزال شاحبة كالملوث، فتحت عينيها وتطلعت إلى.

قالت بوهن: "الآن أفضل..."

عدت ببطء إلى مقعدى.

"أظننى سمعتك تقولين شيئًا عن ذئب".

"نعم، إنه الوحش الأسود الذى ينخر عظامى كلما وافته الفرصة، إنه يتسكع فى الزوايا وخلف الأبواب معظم الوقت، لأنه يخاف هذه"، وأشارت إلى الحبوب البيضاء على الطاولة المجاورة لها، "لكنها لا تستمر للأبد، الساعة قاربت الثانية عشرة وقد بدأ تأثيرها فى الخفوت، إنه يتنفس عند رقبتى، بعد مرور نصف ساعة سيغرز أسنانه وحوافره فى جسدى، حتى الساعة الواحدة، حينئذ يمكننى تناول قرص آخر وسيضطر إلى الرجوع إلى زاويته، نحن فى حالة ترقب دائم لعقارب الساعة، أنا وهو، يعجل هجومه خمس دقائق كل يوم، لكننى لا أستطيع أن أتناول أقراصى قبل موعدها بخمس دقائق، فيبقى الوضع على ما هو عليه".

"لكن الطبيب بالتأكيد..."

"بالتأكيد، يعدل الجرعة مرة أسبوعيًا أو مرة كل عشرة أيام، لكن هذا ليس كافيًا أبدًا، وهو لا يريد أن يقتلنى بالدواء، لذا فحين أموت، سيكون الذئب هو من قتلنى".

نظرت إلى، أو لأكون دقيقة، تراجعت.

"الأقراص هناك، انظري، وهذه كأس المياه، إن أردت، يمكنني إنهاء كل هذا بنفسى، وقتما أريد، فلا تأسفى لحالى، لقد اخترت هذا الطريق لأن لدى ما يجب فعله قبلها".

أومات: "حسنًا".

"إدًا فلنفعل اللازم، أين وصلنا؟"

"زوجة الطبيب، فى غرفة الموسيقى، مع الكمان".

وتابعنا عملنا.

لم يكن "تشارلى" معتادًا على التعامل مع المشكلات.

كانت لديه مشكلات، الكثير منها، ثمة ثقب فى السقف، وزجاج نوافذ مكسور، وطيور تتحلل فى غرف العليا، لكنه تجاهلها جميعًا، أو ربما كان غائبًا جدًا عن العالم لدرجة أنه لم يلحظها، وحين بلغ تغلغل الشتاء مستوى سيئًا، اكتفى ببساطة بغلق غرفته واللجوء إلى غيرها، ففى النهاية، البيت كبير كفاية، يتساءل المرء إن كان قد أدرك بعقله بطيء الاستيعاب أن الآخرين يصونون منازلهم، لكن مجددًا، الخراب بيئة "تشارلى" الطبيعية، وشعر بأنها بيته.

لكن أن تبدو زوجة طبيب كالميتة فى غرفة الموسيقى، فهذه ليست مشكلة يمكنه تجاهلها، إلا لو كانت واحدة من سكان المنزل، لكن المشكلة أنها غريبة، لهذا فالأمر مختلف، يجب فعل شيء ما، مع أنه ليس لديه فكرة عما قد يكونه ذلك الشيء، فحملق إلى زوجة الطبيب والكرب بادٍ عليه وهى ترفع يدها إلى رأسها المضطرب وتتأوه، قد يكون غيبًا، لكنه عرف ما يعنيه ذلك، هناك كارثة فى الطريق.

بعثت سيدة الخدم "جون ذا ديج" بحثًا عن الطبيب، ووصل في الوقت المناسب، بدا لوهلة أن الهواجس المترتبة للكارثة لم يكن لها أساس سليم، بعدما تبين أن زوجة الطبيب ليست متأذية بشدة، بل بالكاد ارتج دماغها، رفضت جرعة من البراندي، وقبلت بالشاي، وبعد وهلة كانت سليمة مثلما جاءت، قالت: "كانت امرأة، امرأة متشحة بالبياض".

علقت سيدة الخدم: "هذا هراء"، مطمئنة لها ورافضة لادعائها في آن، "لا توجد بالمنزل امرأة متشحة بالبياض".

لمعت الدموع في عيني السيدة "مودسلي" البنيتين، لكنها تمسكت بروايتها: "نعم، امرأة ذات جسد محدد قليلًا، هناك على الشيزلونج الطويل، لقد سمعت البيانو وانتصبت و..."

سألها الطبيب "مودسلي": "هل رأيته طويلاً؟"

"لا، فقط للحظة".

قاطعتها سيدة الخدم: "حسنًا، أترون؟ هذا غير معقول"، ومع أن صوتها كان متعاطفًا، فإنه كان صارمًا أيضًا، "ليست هناك امرأة متشحة بالبياض، لا بد أنك رأيت شيئًا".

ثم وللمرة الأولى، سُمع صوت "جون ذا ديج": "بالفعل يُقال إن هذا البيت مسكون".

للحظة تطلع المجتمعون إلى الكمان المكسور الذي تُرك على الأرض، وفكروا في النتوء الذي يبرز على صدغ السيدة "مودسلي"، لكن قبل أن يستجيب أحد لتلك النظرية، ظهرت "إيزابيل" في المدخل، نحيفة وممشوقة القوام، ترتدي فستانًا لونه ليموني باهت، وشعرها معقود أعلى دماغها بشكل عشوائي وأشعث، وعيناها جامحتان رغم جمالهما.

سأل الطبيب زوجته: "أيمكن أن تكون هذه المرأة التي رأيته؟"

قارنت السيدة "مودسلى" "إيزابيل" بالصورة التى ببالتها، كم من الدرجات تفصل بين الأبيض والأصفر الباهت؟ أين تحديدًا الخط الفاصل بين الجسد النحيف والجسد المحدد؟ كيف قد تؤثر ضربة على الرأس على ذاكرة الإنسان؟ ترددت، ثم قررت حاملًا رأيت العينين الزمرديتين وجدتها مطابقة لما فى ذاكرتها.

"نعم، إنها هى".

تجنبت سيدة الخدم و"جون ذا ديج" تبادل أية نظرات.

منذ تلك اللحظة، كانت "إيزابيل" محط اهتمام الطبيب، ناسيًا زوجته نفسها، نظر إليها من كذب وبرفق، والقلق يلوح فى عينيه وهو يطرح عليها السؤال تلو الآخر، حين رفضت الإجابة ظل محتفظًا بهدوئه، لكن حين كلفت نفسها عناء الإجابة -أحيانًا بتلاعب، وأحيانًا بترم، وأحيانًا بحماقة- استمع بعناية، يومئ وهو يدون ملاحظاته فى مذكرته الطبية، تناول رسغها لقياس نبضها، ولاحظ مدعورًا الجروح والندبات التى ميزت الجزء الداخلى من ساعدها.

"أتفعل هذا بنفسها؟"

تمت سيدة الخدم الصادقة بتردد: "نعم"، فزم الطبيب شفثيه قلقلًا.

التفت إلى "تشارلى": "يمكن أن نتحدث على انفراد يا سيدى؟" نظر إليه "تشارلى" بلا أى تعبير، لكن الطبيب جذبته من مرفقه: "ربما فى المكتبة؟" وقاده بحدة إلى خارج الغرفة.

فى المرسم انتظرت سيدة الخدم وزوجة الطبيب وتظاهرتا بعدم الانتباه إلى الأصوات الآتية من المكتبة، صدرت همهمة ليست لصوتين، بل لصوت واحد، هادئ ومحكم، وحين سكت، سمعنا "لا"، ثم "لا!" مجددًا بصوت "تشارلى" المرتفع، ثم مجددًا النبرات الهادئة للطبيب، بعد بعض الوقت، سمعنا اعتراضات "تشارلى" المتكررة قبل أن ينفتح

الباب ويخرج الطبيب، يبدو جاداً ومهزوزاً، ومن ورائه أتي صراخ قوى من اليأس والضعف، لكن الطبيب اكتفى بأن جفل وأغلق الباب وراءه.

قال لسيدة الخدم: "سأتولى الترتيبات اللازمة لإدخالها المصحّة، وكذا توصيلها، هل الساعة الثانية مناسبة؟"

أومأت برأسها وهي مرتبكة، ونهضت زوجة الطبيب لتغادر. في الساعة الثانية جاء ثلاثة رجال إلى المنزل، واقتادوا "إيزابيل" خارجاً إلى عربة يجرها حصانان في المدخل، سلمت نفسها إليهم مثل الحمل، وجلست في مقعدها بإذعان، لم تنظر حتى إلى الخارج قط مع تقدم الحصانين ببطء في الممر نحو البوابات.

أما الطفلتان فكانتا ترسمان دوائر بأصابع أرجلهما وسط حصى الممر. وقف "تشارلي" على السلم يتابع العربة وهي تتضاءل، يبدو كطفل تؤخذ منه لعبته المفضلة، ويعجز عن تصديق أن هذا يحدث فعلاً، لم يدرك الأمر بعد.

راقبته من الردهة سيدة الخدم و"جون ذا ديغ" بقلق، ينتظران أن يدرك ما حدث.

بلغت العربة البوابات واختفت عربة، استمر "تشارلي" في التحديق إلى البوابات المفتوحة لثلاث أو أربع أو خمس ثوانٍ، ثم انفتح فمه، دائرة واسعة ترتعش وتنتفض، كشفت لسانه المرتعش، واحمرار حنجرته، وخيوط اللعاب على قمة تجويف مظلم، تفرجنا مذهولين، منتظرين تلك الضوضاء المروعة التي ستخرج من الفم الفاجر المرتج، لكنه لم يكن جاهزاً للخروج بعد، تعاظم الصوت خلال ثوانٍ طويلة، فقد ظل يتراكم بداخله حتى بدا أن جسده بالكامل ممتلئ بصوت مكبوت، وبعد طول انتظار هبط على ركبتيه على السلم وصدرت

عنه تلك الصرخة، لم تكن الجأرة الشديدة التي توقعناها، بل كانت شجرة أنفية رطبة.

رفعت الفتاتان أعينهما عن دوائرهما للحظة، ثم عادتا إليها بلا مبالاة، زم "جون ذا ديج" شفّيته وابتعد عائداً إلى الحديقة والعمل، لم يكن لديه ما يفعله هناك، وذهبت سيّدة الخدم إلى "تشارلي"، ووضعت يدها المواسية على كتفه وحاولت إقناعه بالدخول إلى المنزل، لكنه كان كالأصم أمام كلماتها، واكتفى بالشجر والصرير مثل طفل خاسر.

وهذا كل ما في الأمر.

هذا كل ما في الأمر؟ هذه الكلمات تعليق ختامي مخفف على نحو غريب على اختفاء والدّة السيّدة "وينتر"، بدا واضحاً أن السيّدة "وينتر" لم تقدر كثيراً مهارات الأمومة لدى "إيزابيل"، بالفعل بدت كلمة "أم" غائبة من قاموسها، ربما الأمر مبرر: فمما لاحظته، كانت "إيزابيل" أقل النساء اهتماماً بالأمومة، لكن من أنا لأصدر أحكاماً على علاقة الآخرين بأمهاتهم؟

أغلقت دفّترى، ودسست قلمي في الحلزون ووقفت.

ذكرتها: "سأغيب لثلاثة أيام، سأعوم يوم الخميس".

وتركتها وحيدة مع ذنبها.

مكتب "ديكنز"

انتهيت من كتابة ملاحظات ذلك اليوم، أصبحت دسته أقلام الرصاص كلها ثلثة، وأمامى مهمة شحذ طويلة، أدخلت رؤوس الأقلام فى المبراة واحدًا تلو الآخر، إن أدت مقبض المبراة ببطء وتساوٍ، قد تحصل أحيانًا على لفافة طويلة من خشب الأقلام، والتي ستلتف على نفسها وتتدلى مرة واحدة إلى سلة المهملات، لكن فى تلك الليلة كنت متعبة، وظلت اللفافات تنكسر تحت ثقل وزنها.

فكرت بشأن القصة، بدأت أعجب بسيدة الخدم و"جون ذا ديج"، أثار "تشارلى" و"إيزابيل" أعصابى، ورأيت أن لدى الطبيب وزوجته أفضل الدوافع، لكن تدخلهما فى حياة الفتاتين لن تُحمد عواقبه.

أما الفتاتان نفسيهما فقد حيرتاني، عرفت رأى الآخرين بشأنهما، اعتقد "جون ذا ديج" أنهما لا يتحدثان على نحو سليم، واعتقدت سيدة الخدم أنهما لا تدركان أن الآخرين أحياء، وظن أهل القرية أنهما تعانيان من مشكلة عقلية ما، ما لم أعرفه -وأثار فضولى أكثر

من أى شيء آخر- هو ما ظننته راوية القصة، حين تحكى حكايتها، تكون السيدة "وينتر" مثل الفئار الذى يضىء لما حوله ويغرق هو فى الظلام، كانت هى النقطة العمياء فى قلب الأحداث، تتحدث بالضمير "هم"، ومؤخرًا تحدثت بالضمير "نحن"، وما حيرنى هو غياب الضمير "أنا".

أعرف ردها إن سألتها بشأن ذلك: "آنسة (ليا)، بيننا اتفاق"، سألتها بالفعل عن تفصيلة أو اثنتين بقصصها، ومع أنها قد تجيب من حين إلى آخر، فإنها كانت تذكرنى بلقائنا الأول حينما لا تريد الإجابة: "بلا أية حيل ولا أسئلة، ولن تسترقى النظر إلى الصفحات الأخيرة".

تصالحت مع فكرة أن أظل فضولية لفترة طويلة، ومع ذلك وفى حين يراودنى الفضول، حدث شيء فى ذلك المساء سلط ضوءً مميزًا على تلك النقطة.

رتبت مكتبى وشرعت فى تحقيق أشياءى حين سمعت طرقًا على بابى، فتحت ووجدت "جوديث" فى الممر.

"تساءل السيدة (وينتر) إن كانت لديك دقيقة لمقابلتها أم لا"، كانت تلك ترجمة "جوديث" المهذبة لأمر "أحضرى الآنسة (ليا)"، لم أشك بذلك.

طويت بلوزتى وهبطت إلى المكتبة.

كانت السيدة "وينتر" جالسة فى وضعها المعتاد ونيران الموقد مستعرة، لكن بقية الغرفة مظلمة.

سألتها من الممر: "أتودين أن أضىء بعض الأنوار؟"

سمعت إجابتها من بُعد: "لا"، فتقدمت نحوها، كانت الستائر مفتوحة والسماء المظلمة ذات النجوم المنثورة منعكسة فى المرايا.

حين وصلت إلى جانبها، أرائى ضوء الموقد الراقص أن السيدة "وينتر" شاردة الذهن، جلست في مقعدي بصمت، يهددني دفء النيران، وأحملك إلى سماء الليل المنعكسة في مرايا المكتبة، مر ربع ساعة وهى متأملة وأنا أنتظر.

ثم تكلمت.

"أرأيت من قبل تلك الصورة لـ(ديكنز) في مكتبه؟ أظن أن من رسمها رجل يدعى (بوس)، لدى نسخة منها في مكان ما، سأبحث عنها من أجلك، على أية حال، في الصورة، كان قد جذب كرسيه بعيداً عن مكتبه ويغلبه النعاس، عيناه مغلقتان، وذقنه الملتحي على صدره، ينتعل خفيه، وحول رأسه تحوم شخصيات من كتبه مثل دخان سيجار، بعض الشخصيات متزاحمة فوق الأوراق على مكتبه، وشخصيات أخرى منجرفة وراءه، أو طافية في اتجاهها للنزول، كأنها تظن نفسها قادرة على المشي بأقدامها على الأرض، ولم لا؟ إنها مرسومة بالخطوط الثقيلة نفسها التى رُسم هو بها، فلم لا تكون حقيقية مثله تمامًا؟ تبدو حقيقية أكثر من الكتب على الرفوف، الكتب المرسومة بأخف درجات الخطوط، وتتلاشى في بعض النقاط إلى لا شيء كالأشباح.

"لماذا ذكرتُ الصورة الآن؟ لا بد أنك تتساءلين، أتذكرها جيداً لأنها تبدو صورة للطريقة التى عشت بها حياتي، لقد أغلقت باب مكتبى في وجه العالم وحبست نفسى مع شخصيات من مخيلتى، لمدة ست سنوات تقريباً كنت أتجسس بلا عقاب على حياة أشخاص خياليين، اختلست النظر بلا خجل إلى قلوبهم وخزانات حمائماتهم، ونظرت من فوق أكتاف لأتبع حركة أقلام الريشة وهى تكتب رسائل الحب والوصايا والاعترافات، لقد تفرجت في حين يحب المحبون، ويقتل القتلة، ويلعب الأطفال لعبة التظاهر، فتحت السجون والمواخير أبوابها لى، وأوصلتنى السفن الشراعية وقوافل الإبل عبر البحر والرمال،

ومرت قرون وسقطت قارات كاملة طاعة لأوامري، لقد تجسست على آثام الأقوياء، وشهدت نبل الودعاء، لقد انحنيت بشدة على النائمين في أسرهم، لدرجة أنهم ربما أحسوا بأنفاسي على وجوههم، لقد رأيت أحلامهم.

يزدحم مكتبي بشخصيات تنتظر أن تكتب، أشخاص خياليين، يتوقون إلى حياة، يجذبون كمي ويبيكون: (أنا التالي! هيا إنه دوري!) وأكون مضطرة إلى الاختيار، وبمجرد أن أختار، يقبع الآخرون في هدوء لعشرة أشهر أو عام، حتى أصل إلى نهاية القصة، ويبدأ الضجيج مجدداً.

وفي الكثير من الأحيان، خلال كل هذه السنوات من الكتابة، كنت أرفع رأسي عن الورقة - في نهاية فصل، أو خلال استراحة هادئة للتفكير بعد مشهد موت، أو أحياناً أكون أبحث عن الكلمة المناسبة ليس إلا- فأرى وجهًا في مؤخر الحشود، وجهًا مألوفًا، له بشرة شاحبة، وشعر أحمر، يحملق بثبات وبعينين خضراوين، أعرف تمامًا من هي، ومع ذلك أتفاجأ دائماً لرؤيتها، في كل مرة تنجح في الظهور لي على حين غرة، عادة تفتح فمها لتحدث إلي، لكن طوال عقود كانت أبعد من أن أسمعها، علاوة على أنني بمجرد أن أعي وجودها أتجنب الحملقة إليها وأدعي أنني لم أرها، وأظن أن ذلك لم ينطلي عليها.

"يتساءل الناس عما يجعلني غزيرة الإنتاج، إنها هي، إن شرعت بكتابة كتاب جديد بعد خمس دقائق من إنهاء الأخير، فهذا لأن ترك ما بين يدي على مكتبي يعنى التقاء عيني وعينيها".

"مرت الأعوام، وزادت أعداد كتبي على رفوف المكتبات، وبالتالي قلت أعداد الشخصيات السابحة في أجواء مكتبي، ومع كل كتاب أكتبه، تهدأ ثرثرة الأصوات، ويقل إحساسي بالصخب في رأسي، تضاءلت أعداد الوجوه التي تستجدي اهتمامي، ودائمًا، كانت هي موجودة

في مؤخر الحشد، وتكون أقرب مع انتهاء كل كتاب، ذات العينين الخضراوين، تنتظر".

"جاء يوم إكمالي للمسودة الأخيرة لكتابي الأخير، كتبت العبارة الأخيرة، وأضفت النقطة الأخيرة، عرفت ما أنا بصدد مواجهته، انزلق القلم من يدي وأغلقت عيني، سمعتها تتكلم، أو ربما كان ذلك أنا: (إدًا، لم يتبقَّ غيرنا الآن)".

"جادلتها لبعض الوقت، قلت لها: (ذلك لن ينجح أبدًا، إنه قديم جدًا، وأنا لم أكن إلا طفلة، لقد نسيت"، مع أنني كنت أتذكر.

"(لكن أنا لم أنس، أتذكرين حين...)

"حتى أنا أعرف ما هو حتمي حين أراه، أنا أتذكر".

سكنت الذبذبات الخافتة في الهواء، قاطعت تأملي للنجوم والتفت إلى السيدة "وينتر"، عيناها الخضراوان تحمقان إلى ركن في الغرفة كأنهما في تلك اللحظة تريان الطفلة خضراء العينين ذات الشعر النحاسي.

"هذه الطفلة هي أنت".

"أنا؟" تحولت عينا السيدة "وينتر" ببطء من الطفلة الشبح إلى، "لا، هذه ليست أنا، إنها..."، وترددت، "إنها شخص اعتدت أن أكونه، لم تعد تلك الطفلة موجودة منذ وقت طويل جدًا، لقد انتهت حياتها في ليلة الحريق بالتأكيد، كأنها هلكت في النيران، المرأة التي ترينها أمامك الآن لا تساوي شيئًا".

"لكن مسيرتك المهنية، وقصصك..."

"حين لا يساوي المرء شيئًا، يُضطر إلى الابتكار، مملًا الفراغ".

ثم جلسنا في صمت نتابع نار الموقد، وبين الحين والآخر تحك السيدة "وينتر" كف يدها بعقل شارد.

تابعت بعد بعض الصمت: "مقالك عن الأخوين (لانديير)".
التفتُ إليها على مضض.

"لماذا اخترتهما موضوعًا للمقال؟ لا بد أن شيئًا ما لفت انتباهك على نحو خاص، أو أن لديك بعض الإعجاب الشخصي بالقصة".
هزرت رأسي: "لا، ليس هناك شيء مميز بشأن الاختيار".

ثم لم يتبق سوى سكون النجوم وطققة النار.
لا بد أن ساعة أو ما يقاربها قد مرت حتى تكلمت مرة ثالثة،
حين كانت النيران أهدأ.

"(مارجريت)", أعتقد أن هذه هي المرة الأولى التي تدعوني فيها
باسمى الأول، "حين تغادرين غدًا..."
"ماذا؟"

"ستعودين، أليس كذلك؟"

من الصعب استبيان تعبير وجهها في ضوء اللهب الراقص المحتضر،
ومن الصعب تحديد مدى علاقة الإرهاق والمرض بالعرشة في صوتها،
لكن بدا لي في اللحظة التي سبقت إجابتي - "نعم، بالتأكيد سأعود" -
أن السيدة "وينتر" خائفة.

في الصباح التالي أقلنى "موريس" إلى المحطة واستقللت القطار إلى
الجنوب.

التقاويم

من أين قد أبدأ بحثي إلا من بيتي، متجري؟

أنا مفتونة بالتقاويم القديمة، منذ طفولتي، أية لحظة يضرب فيها الملل أو القلق أو الخوف كانت ترسلني إلى تلك الرفوف لأتجول سريعاً في صفحات الأسماء والتواريخ والملاحظات، بين أغلفة تلك الكتب، لُخصت حيوات سابقة في سطور حيادية على نحو قاسٍ، إنه عالم يحمل فيه الرجال البارونية والأسقفية ويتولون وزارات البرلمان، والنساء لسن إلا زوجاتهم وبناتهم، لم يوضح أى شيء تفضيلات هؤلاء في وجبة الإفطار، ولا من أحبوا أو الأشكال التي اتخذتها مخاوفهم في الظلام بعدما يطفئون الشموع، لم تكن هناك ولو معلومة شخصية واحدة، فما الذى أثر في بهذه الملاحظات الشحيحة عن حيوات الأموات؟ ليست إلا حقيقة أنهم كانوا بشرًا، وأنهم عاشوا، وأنهم الآن أموات.

حين أقرؤها، كانت توقظ شيئًا بداخلي، شيئًا بداخلي وليس أنا، يصحو ذلك الجزء الذي فارق الحياة ويلاطفني حين أقرأ تلك القوائم. لم أفسر لأحد قط حبي الشديد للتقاويم، لم أقل حتى إنني أحبها قط، لكن والدي لاحظ تفضيلي لها، فكان يحرص على شراء هذا النوع من المجلدات كلما رآه في مزاد، فيقضي كل أعلام الأموات في البلاد من أجيال عدة سابقة حياتهم التالية الهادئة على رفوف طابقنا الثاني، وأنا بصحبته.

تصفحت قوائم الأسماء في الطابق الثاني وأنا منحنية على كرسي النافذة، وجدت جد السيدة "وينتر"، "جورج أنجلفيلد"، لم يكن بارونًا، ولا وزيرًا، ولا أسقفًا، لكن مع ذلك اسمه موجود، فللعائلة أصول أرستقراطية، وتمتعت بالألقاب في مرحلة ما، لكن قبل بضعة أجيال حدث انقسام في العائلة، فسلكت الألقاب مسارًا، وسلكت الأموال والأموال مسارًا آخر، وكان جدها على مسار الأملاك، ومع أن التقاويم نزعت إلى تتبع الألقاب فقط، فإن الصلة كانت قريبة كفاية لتمنحه مكانًا، لذا كان موجودًا: "أنجلفيلد، جورج"، إلى جانب تاريخ مولده، يقيم في منزل "أنجلفيلد" في أوكسفورد شاير، زوجته "ماتيلدا مونييه" من مدينة ريمس الفرنسية، وله ابن وحيد، "تشارلز"، وحين تتبعته عبر تقاويم الأعوام التالية، وجدت تغيرًا بعد عقد من الزمن: له ابن وحيد، "تشارلز"، وابنة وحيدة، "إيزابيلا"، وبعد صفحات قليلة، وجدت توثيقًا لموت "جورج أنجلفيلد"، وتحت اسم "مارش، رولاند"، وجدت زواج "إيزابيلا".

للحظة شعرت بأنها فكرة مسلية أنني اضطررت إلى قطع كل تلك المسافة إلى يوركشاير لأسمع قصة السيدة "وينتر"، في حين أنها كانت هنا طوال الوقت في التقاويم، على بعد بضعة أمتار من سريري، لكن بعدها بدأت أفكر على نحو سليم، ماذا تثبت هذه السجلات

الورقية؟ فقط أن أشخاصًا مثل "جورج" و"ماتيلدا" وطفليهما "تشارلز" و"إيزابيل" قد عاشوا، ولا شيء ينفي أن السيدة "وينتر" وصلت إليهم مثلما فعلت أنا، عبر تصفح كتاب، تلك التقاويم يمكن العثور عليها في المكتبات بأي مكان، وهى متاحة لمن يريد تصفحها، ألا يمكن أنها توصلت إلى مجموعة من الأسماء والتواريخ، ونسجت حولها قصة لتسلي نفسها؟

لدى مشكلة أخرى إلى جانب هذه الشكوك، مات "رولاند مارش"، وموته توقف السجل الورقى الخاص بـ"إيزابيل"، إن عالم التقاويم غريب، ففي العالم الحقيقى، تتفرع العائلات مثل الأشجار، وتنتقل الدماء الممتزجة بالزواج من جيل إلى التالى، ناسجة شبكة علاقات أوسع من ذى قبل، وعلى الجانب الآخر، تمر الألقاب من رجل إلى آخر، وهذا التقدم الخطى المحدود هو ما تفضل التقاويم تتبعه، وعلى جانبى خط الألقاب، يوجد بضعة إخوة وأبناء إخوة وأبناء عمومة أصغر سنًا وقربين كفاية لتشملهم التقاويم، هؤلاء ربما يصبحون لوردات أو بارونات، ومع أن ذلك غير مذكور صراحة، فإن أمامهم فرصة لنيل الألقاب، فقط لو حدثت السلسلة الصحيحة من المأساويات، ولكن بعد عدد محدد من التفرعات فى شجرة العائلة، سقطت الأسماء من تلك الهوامش عبر الأثير، وأى مزيج من السفن المحطمة وكوارث الطاعون والزلازل لن يكون قويًا كفاية ليعيد أقارب الدرجة الثالثة هؤلاء إلى الصدارة، فالتقاويم لها حدودها، لذا توقف الأمر عند "إيزابيل"، فهى امرأة، ولم تلد رجالاً، وزوجها (الذى ليس لوردًا) مات، ووالدها (الذى ليس لوردًا أيضًا) مات، نبذها التقويم وابنتيها، غرقت ثلاثتهن فى محيط شاسع من الأشخاص العاديين، الذين تعد ولادتهم وموتهم وزواجاتهم، كحال ما يحبون وما يخافون وتفضيلاتهم فى وجبة الإفطار، أتفه كثيرًا من أن تستحق الأجيال القادمة معرفته.

لكن "تشارلى" رجل، وقد تمّدد التقويم حتى يذكره هو فقط، مع أن تضاؤل الأهمية كان بالفعل يلقي بظلاله عليه، المعلومات عنه شحيحة، اسمه "تشارلز آنجلفيلد"، وُلد، وعاش في "آنجلفيلد"، لم يتزوج، ولم يمِت، فبقدر ما اهتم التقويم، كانت تلك المعلومات كافية.

استعنت بمجلد بعد الآخر، ولم أجد إلا ذلك الوصف السطحي لحياته، ومع كل مجلد جديد كنت أقول لنفسى إن هذه ستكون السنة التى سيستبعدونه فيها، لكن فى كل سنة أجده، "تشارلز آنجلفيلد"، لا يزال من "آنجلفيلد، ولا يزال عزبًا، فكرت مجددًا بشأن ما قالته لى السيدة "وينتر" عن "تشارلى" وأخته، وعضضت شفتى من التفكير بشأن ما يشير إليه طول عزوبته.

ثم وجدت مفاجأة حين كان فى أواخر الأربعينات، اسمه، وتاريخ مولده، ومحل إقامته، واختصار غريب - "إل دى دى" - لم ألحظه من قبل.

لجأت إلى جدول الاختصارات ووجدته:

"إل دى دى": إعلان وفاة بالقانون.

وبالعودة إلى موضع ذكر "تشارلى"، حملقت إليه طويلًا عابسة، كأننى إذا حملقت كفاية، سيُحل اللغز فى الورقة نفسها.

فى ذلك العام، أعلنت قانونًا وفاة "تشارلى"، وبقدر ما فهمت فإن إعلان الوفاة بالقانون هو ما تؤول إليه الأمور حين يختفى شخص وبعد فترة محددة يُسمح لعائلته، لأغراض توزيع الميراث، بافتراض أنه متوفى، على الرغم من عدم توافر دليل أو جثة، راودنى شعور بأن الشخص يجب أن يختفى بلا أثر لمدة سبعة أعوام قبل أن يمكن اعتباره متوفى، ربما مات فى أى وقت خلال تلك الفترة، وربما لم يمِت بعد، بل هو مختفى، أو تائه أو هائم على وجهه، بعيدًا عن أى شخص يعرفه، متوفى بالقانون، لكن ذلك لم يعنِ بالضرورة أنه متوفى حقًا،

تساءلت، أيّة حياة هذه التى تنتهى بهذه الطريقة الغامضة غير المريحة؟ إنه إعلان وفاة بالقانون.

أغلقت التقويم، وأعدته إلى مكانه على الرف، وهبطت إلى المتجر لأعد الكاكاو.

"ماذا تعرف عن الإجراءات القانونية اللازمة لإعلان وفاة شخص؟" رفعت صوتى بالسؤال إلى والدى وأنا واقفة أمام قدر الحليب على الموقد.

وجاء رده: "أظن أننى لا أعرف عنها أكثر منك".

ثم ظهر عند المدخل وأعطانى بطاقة مطوية الأطراف تخص أحد زبائننا، "هذا الرجل لديه الإجابة، إنه أستاذ قانون متقاعد، يعيش الآن فى ويلز، لكنه يأتى كل صيف لتصفح الكتب والتنزه على ضفة النهر، إنه رجل لطيف، لم لا ترسلين إليه رسالة؟ ربما تسألينه أيضًا إن كان يريد أن أبقى له نسخة من كتاب (مبادئ العدالة الطبيعية) باللاتينية أم لا".

بعدما أعددت الكاكاو، عدت إلى التقويم لأجد كل ما يمكن إيجاده عن "رولاند مارش" وعائلته، اتخذ عمه الفن هواية، وحين انتقلت إلى قسم تاريخ الفن لأتبع عمه، عرفت أن البورتريهات خاصته اعتُبرت لفترة قصيرة ذروة الموضة الفنية، فى حين تُعتبر الآن عادية، ضم مجلد عن فن التصوير الإنجليزي نسخة من لوحة مبكرة لـ "لويس أنشونى مارش" عنوانها " (رولاند)، ابن أخ الفنان"، الأمر غريب أن تتطلع إلى وجه ولد لم يصبح رجلاً بعد بحثٍ عن ملامح امرأة مسنة، ابنته، تفرست لدقائق بملامحه الجسدية وشعره الأشقر اللامع، ووضعية رأسه الكسول.

أغلقت الكتاب، وفكرت فى أننى أضيع وقتى، إن بحثت ليلاً نهاراً لن أجد أثراً للفتاتين اللتين يفترض أنه والدهما.

فى أرشيف بانبرى هيرالد

فى اليوم التالى استقلت القطار إلى بانبرى، إلى مكتب صحيفة بانبرى هيرالد.

دلى شاب إلى الأرشيف، قد تبدو كلمة الأرشيف مثيرة للإعجاب بنظر شخص لم يتعامل معها كثيرًا، لكن بنظرى، بعدما قضيت عطلاتى لسنوات فى غرف مشابهة، لم أفتأ حين دلفت إلى ما كان بالأساس خزانة كبيرة بالطابق السفلى بلا نوافذ.

أوضحت للشاب بإيجاز: "أبحث عن حريق منزل فى آنجلفيلد، حدث منذ نحو 60 عامًا".

قادنى الشاب إلى الرف الخاص بتلك الفترة.

"سأرفع الصناديق من أجلك إذا سمحت".

"وصفحات تقييم الكتب أيضًا منذ نحو أربعين عامًا، لكننى لست متأكدة فى أى سنة".

"صفحات تقييم الكتب؟ لم أعلم أن الصحيفة كانت تصدر صفحات لتقييم الكتب"، حرك السُّلم، وجلب مجموعة أخرى من الصناديق، ووضعها بجوار المجموعة الأولى على طاولة ممتدة تحت ضوء ساطع. قال مبتهجًا: "لديك كل ما ستحتاجين إليه"، وتركني لأبدأ.

عرفت أن حريق أنجلفيلد كان على الأرجح غير مفتعل، فقد انتشر على نطاق واسع خلال تلك الفترة أن يخزن الناس الوقود، وهو سبب امتداد الحريق وشراسته، لم يكن أحد بالمنزل باستثناء ابنتي أخت المالك، وكلتاهما هربت ودخلت المشفى، وقد كان يُعتقد أن المالك نفسه مسافر خارج البلاد، (تساءلت عن دلالة كلمة "يُعتقد"، ودونت ملاحظة سريعة بالتواريخ: انقضت ست سنوات أخرى قبل إعلان الوفاة بالقانون)، واختتم العمود ببعض التعليقات على الأهمية المعمارية للمنزل، وذكر أنه لم يعد صالحًا للسكن بوضعه الحالي.

نسخت الخبر وبحثت بالعناوين الرئيسة في الأعداد اللاحقة في حال وردت بها متابعات، لكنني لم أجد شيئًا، فأبعدت الأوراق واتجهت إلى الصناديق الأخرى.

قال: "أخبريني الحقيقة"، الشاب ذو البذلة التقليدية الذي أجرى مقابلة مع "فيدا وينتر" لصحيفة بانبرى هيرالد منذ أربعين عامًا. ولم تنسَ هي كلماته أبدًا.

لم أجد أثرًا للمقابلة، لم أجد حتى أثرًا لما يمكن أن يطلق عليه صفحة لتقييم الكتب، كل ما اتصل بالأدب هو تقييمات بين الحين والآخر لكتب تحت عنوان: "كتب قد تعجبك..." كتبها محررة اسمها "مس جينكنسوب"، التقطت عيناى اسم السيدة "وينتر" مرتين في تلك الفقرات، فمن الواضح أن "مس جينكنسوب" قد قرأت روايات السيدة "وينتر" واستمتعت بها، فكان ثناؤها متحمسًا ومستحقًا، ولو كانت

بأسلوب غير أكاديمي، لكن بدا واضحًا أنها لم تلتقِ الكاتبة قط، وأنها لم تكن الرجل ذو البذلة البنية.

أغلقت العدد الأخير وطويته بعناية في صندوقه.

الرجل ذو البذلة البنية شخصية خيالية، حيلة للإيقاع بي، الطعم الذي يلقم به الصياد خيطه ليجذب السمكة إليه، وما من وصف لهذا سوى أنه متوقع، ربما رفع آمالي أنني تأكدت من وجود "جورج" و"ماتيلدا"، و"تشارلي" و"إيزابيل"، على الأقل كان هؤلاء أشخاصًا حقيقيين، أما الرجل ذو البذلة البنية فكان خيالاً.

اعتمدت قبعتي وارتيديت قفازي، غادرت مكاتب بانبري هيرالد وخرجت إلى الشارع.

بينما أنا أتمشي بطول الشوارع الشتوية باحثة عن مقهى، تذكرت رسالة السيدة "وينتر" لي، وتذكرت كلمات الرجل ذي البذلة البنية، وكيف أن صداها ترددت تحت العواض الخشبية بحجرتي، ومع ذلك، فإنه نسج من خيالها، كان يجب أن أتوقع ذلك، فهي غازلة للخيوط، حاكية للقصص، ناسجة للخرافات، كاذبة، والرجاء الأقوى تأثيراً في - أخبريني الحقيقة - قاله رجل لم يكن حتى حقيقياً.

لم تُعني الكلمات على أن أصف لنفسي مرارة خيبة أمل.

الحطام

استقلت الحافلة من بانبرى.

قال السائق: "أنجلفيلد؟ لا، ليست لدينا أى خطوط إلى أنجلفيلد، أو ليس بعد، قد يتغير الأمر بعد بناء الفندق".

"أينون فندقًا هناك؟"

"يهدمون بعض الحطام القديم، وسيقيمون مكانه فندقًا فخماً، قد يمدون خط حافلة إليه، من أجل العاملين، لكن أفضل طريق لك الآن أن تصل إلى محطة هير آند هاوندز على طريق تشينيز وأن تمشي من هناك، أعتقد أن المسافة كيلومتر ونصف تقريباً.

لم تحو أنجلفيلد على الكثير، بل تتكون من شارع وحيد كُتب على لافتته الخشبية ببساطة منطقية "ذا ستريت"⁽¹⁾، مررت بأبنية حجرية صغيرة، مبنية على هيئة أزواج، وبين الحين والآخر يبرز ملمح

(1) أي "الشارع" بالإنجليزية.

مميز - شجرة صنوبر كبيرة، أرجوحة أطفال، دكة خشبية - لكن في الغالب كان كل منزل، بسقفه القش المزخرف بعناية، وجمالونه⁽¹⁾ البيضاء والبراعة الفنية المبسطة في بناء أحجارها، يعكس تصميم المنزل المجاور كأنه مرآة.

تطل الأبنية الحجرية الصغيرة على الحقول، وتحددها الأسيجة وترصعها الأشجار، ومع تقدمى رأيت خرافًا وأبقارًا، ثم منطقة مشجرة بكثافة، والتي تقع بعدها، وفقًا لخريطتى، حديقة الغزلان، لم أجد رصيفًا بشكله المعتاد، لكن هذا لا يهم كثيرًا بسبب نقص حركة السيارات، في الواقع، لم أر أى علامات على الحياة البشرية قط حتى تجاوزت آخر بناء حجرى صغير ووصلت إلى مجمع مكتب البريد والمتجر العام.

خرج من المتجر طفلان يرتديان معطفين أصفرين واقين من المطر وجريا نحو الطريق يسبقا والدتهما التى توقفت عند صندوق البريد، امرأة ضئيلة وجميلة، وتعانى لتلصق طوابع على مظاريف دون أن تسقط الصحيفة المطوية تحت ذراعها، أما الطفل الأكبر، وهو فتى، فقد شب بقدميه ليرمى غلاف حلواه في السلة الملحقة بعمود على جانب الطريق، أراد أن يأخذ غلاف حلوى أخته، لكنها قاومتها: "أستطيع فعلها! أستطيع فعلها!" فشبت هى الأخرى ومدت ذراعها، متجاهلة اعتراضات أخيها، ثم رمت الورقة نحو فم السلة، لكن نسيما التقطها وعبر بها الطريق.

"لقد حذرتك!"

التف الطفلان وانطلقا في سباق، واهتززا محاولين التوقف حين رأياني، زوجان من الرموش الشقراء هبطا على زوجين من الأعين البنية متطابقة الشكل، وفكّان هبطا بالطريقة نفسها تعبيرًا عن المفاجأة.

(1) الجمولون: مصطلح في الهندسة المعمارية يُقصد به أسقف المنازل المثلثة.

ليسا توأمين، لكنهما متشابهان للغاية، توقفت لألتقط الغلاف وقدمته إليهما، تقدمت الفتاة لأخذه، لكن أخاها الأكثر حذرًا مد ذراعه أمامها وهتف: "ماما!"

رأت المرأة الشقراء ما حدث من موقعها عند صندوق البريد، "لا بأس يا (توم)، دعها تأخذه"، فأخذت الفتاة الغلاف من يدي دون أن تنظر إلي، قالت الأم: "قلا شكرًا"، وفعل الطفلان ذلك بصوت محبوس، ثم أدارا ظهرهما إلى وجريا بعيدًا والامتنان بادٍ عليهما لعدم ضياع الغلاف، في تلك المرة رفعت المرأة ابنتها لتبلغ السلة، ونظرت إلى مجددًا وهي تفعل ذلك، تتطلع إلى كاميرتي بفضول مستتر.

"أنجلفيلد" ليست مكانًا أستطيع الاختفاء فيه.

قدمت المرأة ابتسامة متحفظة: "استمتعي بنزهتك"، ثم استدارت لتلحق بطفليها، اللذين كانا بالفعل يجريان بطول الشارع نحو الأبنية الحجرية.

تابعتهم وهم يتعدون.

جرى الطفلان، ينقضان ويغوص كل منهما في الآخر، كأنهما مربوطان بحبل خفى، يبدلان اتجاهيهما بشكل عشوائي، ويغيران سرعتهما بشكل غير متوقع، ولكن بتزامن تخاطري، كأنهما راقصان، تقودهما الموسيقى الداخلية نفسها، غصنان يحركهما النسيم نفسه، بدا الأمر باهرًا ومألوفًا على نحو مثالي، وددت أن أبقى لمشاهدتهما، لكنني خفت أن يستديرا ويريانى أحرق إليهما، فانسحبت بعيدًا.

بعد بضع مئات الأمتار، أصبحت أرى بوابات الأبنية الحجرية الصغيرة، البوابات نفسها لم تكن مغلقة، بل ملحومة بالأرض وبعضها ببعض بواسطة لفافات ملتوية من أشجار اللبلاب، التي شقت طريقها عبر المعدن كثير التفاصيل، وأعلى البوابات، استقر قوس حجرى باهت يطل على الطريق، يمتد جانباه إلى بناءين صغيرين بكل منهما غرفة

واحدة ولهما نوافذ، في إحدى النوافذ غُلقت ورقة، وبما أنني مصابة بإدمان القراءة المزمن، لم أستطع المقاومة، فارتقيت الحشائش الطويلة المبتلة لأقرأها، لكنها كانت إشعاراً مهجوراً، صمد الشعار الملون الخاص بشركة إنشاءات، لكن تحته توجد بقعتان لونهما رمادي باهت على شكل صورتين فوتوجرافيتين، وشبح توقيع لونه أذكن قليلاً فقط، كان له شكل الكتابة، لكن قراءته أضحت مستحيلة بعد شهور من التعرض لضوء الشمس.

كنت أستعد لمسيرة طويلة حول تلك الحدود لأجد طريقاً إلى الداخل، لكنني لم أخط إلا خطوات قليلة حين وجدت بوابة خشبية صغيرة في جدار بلا شيء يغلقها سوى مزلاج، فدخلت في لحظة.

كان ذلك الطريق الخاص مفروشاً في الماضي بالحصي، لكنه الآن تتخلله أرض عارية وعشب غير مشذب، الطريق على شكل منحني طويل يؤدي إلى حجر صغير وكنيسة حجرية لها بوابة مسقوفة، ثم ينحني في الاتجاه الآخر، وراء امتداد من الأشجار والشجيرات التي حجبنا المشهد وراءها، والحدود الشجرية نامية بإفراط على كل جانب، أغصان شجيرات مختلفة مشتبكة تحاول إيجاد مساحة لنفسها، وعلى الأرض تحتها ترحف الحشائش نحو أية مساحة تجدها.

مشيت نحو الكنيسة، لقد أعيد بناؤها في العصر الفيكتوري، لكنها حافظت على تواضع العصور الوسطى، صغيرة وأنيقة، ويشير برجها إلى السماء دون مبالغة، الكنيسة متمركزة عند قمة منحني الحصي، وكلما اقتربت تنحرف عيني عن البوابة المسقوفة ونحو الأفق الذي ينكشف على الجانب الآخر، ومع كل خطوة يتسع الأفق أكثر، حتى ظهرت أخيراً الكتلة الحجرية الباهتة التي هي منزل "أنجلفيلد"، وعند ذلك توقفت فجأة.

يتخذ المنزل زاوية غريبة، حين تأتي عبر الطريق الخاص، تجد زاويته أمامك، ولا يبدو واضحًا أيّة جهة من المنزل هي جهته الأمامية، بدا كأن المنزل عرف أنه يجب أن يلقي زواره القادمين بجهته الأمامية، لكن في اللحظة الأخيرة لم يستطع كبح ميله إلى الالتفات والتحديث إلى حديقة الغزلان والغابة في نهاية الشرفات، فلم يُستقبل الزائر بابتسامة مرحبة، بل بلا مبالاة.

أما التفاصيل الأخرى لمظهر المنزل فلم تزدّه إلا غرابة، هو بناء غير متناظر الأبعاد، له ثلاثة جملونات كبيرة، يرتفع كل منها إلى أربعة طوابق، وهي بارزة عن هيكل المنزل، اثنتا عشرة نافذة طويلة واسعة هي مظهر النظام والتناغم الوحيد الذي تقدمه واجهة المبنى، في حين تتخذ النوافذ ترتيبًا عشوائيًا في بقية واجهاته، فلا توجد نافذتان متاليتان متشابهتان، وفوق الطابق الثالث، حاول درابزين أن يحفظ تماسك هذا المعمار المتباين داخل نطاق واحد، لكن في أنحاء متفرقة تجد حجرًا بارزًا، أو جملونًا جزئيًا، أو نافذة غريبة، كلها لا تساعد في تحقيق ذلك التماسك، فتختفى تلك التفاصيل من ناحية لتظهر على الجانب الآخر، وفوق هذا الدرابزين تشكل سطح المنزل عسلي اللون من خط غير متساوٍ من الأبراج وأبراج الزاوية ومداخل المدفئة.

أيبدو حطامًا؟ معظم أحجار المنزل الذهبية بدت نظيفة كيوم استخراجها، بالتأكيد بدا البناء الحجري الدقيق الخاص بأبراج الزاوية بآليًا قليلًا، والدرابزين متداعٍ في بعض المواضع، لكن مع ذلك، بالكاد يبدو كالحطام، لما رأيته حينئذ، ووراءه السماء الزرقاء، والطيور تحوم حول أبراجه، والعشب الأخضر حوله، لم يكن صعبًا قط أن أتخيله مسكونًا.

ثم ارتدبت نظارتي، وحينها أدركت الواقع.

النوافذ خالية وإطاراتها إما متفسخة وإما محترقة، وما اعتبرته سابقاً ظلالاً على النوافذ على الجانب الأيمن كان آثار الحريق، والطيور المنقضة في السماء أعلى المنزل لا تهبط وراء المنزل، بل بداخله، فالسقف غير موجود، هذا ليس منزلاً، إنه مجرد هيكل.

خلعت نظارتي مجدداً وتحول إلى منزل سليم من العصر الـ"إليزابيثي"، هل يراود المرء شعور بتهديد كثيب لو طُليت السماء بلون أزرق داكن، وغطى القمر السماء فجأة؟ ربما، لكن أمام سماء اليوم الزرقاء الصافية، كان المشهد عبارة عن براءة صافية.

امتد حاجز بطول الطريق الخاص، وعُلقت عليه لافتة: "خطر، ممنوع الاقتراب"، لاحظت مفصلاً في السياج حيث تلتقى أجزاؤه معاً، فرفعت أحد ألواحها وتسَلَّلت إلى الداخل، وأنزلته ورأى.

وصلت إلى الواجهة متجنباً لامبالاة المنزل، وبين الجملونين الأول والثاني وجدت ست درجات واسعة ومنخفضة تؤدي إلى باب مزدوج مغطى بالألواح، عند مقدمة الدرجات استقر عمودان منخفضان يحملان قطين عملاقين منحوتين من مادة ما داكنة وملمعة، التموجات التي تكسو جسميهما منحوتة بواقعية شديدة، لدرجة أنني حين مررت أصابعي على إحداهما، توقعت بدرجة ما أن أجد فراءً، لكنني اندهشت حين وجدت صلابة الحجر الباردة.

نافذة الطابق الأرضي عند الجملون الثالث هي المميّزة بأدكن آثار الحريق، وقفت على قطعة ساقطة من البناء، فأصبحت طويلة كفاية لأتطلع عبر النافذة، وما رأيته أيقظ شعوراً بالانزعاج داخل صدري، يوجد مفهوم شائع ومألوف لدى كل الناس عن كلمة الغرفة، ومع أن غرفتي أعلى المتجر، وغرفة طفولتي في منزل والدي، وغرفتي في منزل السيدة "وينتر" مختلفة عن بعضها تماماً، فإنها تتشارك عناصر محددة، عناصر موجودة في كل مكان ولكل الناس، فحتى عند التخميم

المؤقت، يرفع السكان شيئًا للحماية من الطقس، وتوجد مساحة ليدخلها الساكن ويتحرك بها ويغادرها، وشيء يسمح لك بالتمييز بين الداخل والخارج، لكن هناك لم أجد أيًا من هذا.

كانت العارضات الخشبية منهارة، بعضها منهار عند أحد جانبي المنزل فقط، ما يجعلها تقطع مساحته بشكل مائل لتستقر على ركام أحجار البناء المتهدمة والأخشاب وغيره مما لم أميزه من مواد البناء التى ملأت الغرفة حتى مستوى النافذة، وحُشرت أعشاش الطيور فى أركان وزوايا مختلفة، لا بد أن الطيور جلبت معها بذور النباتات، وغمرت الثلوج والأمطار المكان مع ضوء الشمس، ما جعل النباتات تنمو بشكل ما وسط الحطام: فقد رأيت الأفرع الشتوية البنية لشجيرات القصور، ونباتات البيلسان نامية بشكل طويل وهزيل تبحث عن الضوء، وتسلفت أشجار اللبلاب الجدران كأنها ورق حائط، مددت عنقى متطلعة إلى الأعلى، وكأننى أرى نفقًا مظلمًا، أربعة جدران لا تزال سليمة، لكن بدلاً من أن أرى سقفاً، كان هناك أربعة عارضات سميكة، بينها مسافات غير متساوية، وبعدها المزيد من المساحة الفارغة حتى عارضات الطابق التالى، ثم المشهد نفسه مجدداً، وفى نهاية النفق ضوء، إنها السماء.

حتى الأشباح لن تصمد هنا.

من شبه المستحيل تصور أن فى وقت ما كانت هنا ستائر وأثاث ولوحات، وأن الثريات أضاءت ما تضيئه الآن الشمس، ماذا كانت هذه الغرفة؟ المرسم أم غرفة الموسيقى أم غرفة الطعام؟

حدقت بعينين نصف مغلقتين إلى كتلة الأشياء المكدسة فى الغرفة، ولفت شيء نظرى وسط فوضى الأشياء المبهمة التى كانت فى وقت ما بيتًا، فى البداية ظننته عارضة سقطت بنصفها فقط، لكنه لم يكن سميكًا كفاية، وبدا أنه كان معلقًا بالجدار، ثم رأيت قطعة أخرى

مشابهة، ثم غيرها، بدا أن تلك الألواح الخشبية بها مفاصل خشبية بينها مسافات متساوية، كأن قطعًا أخرى من الأخشاب كانت معلقة بها بزوايا قائمة، بل ووجدت في ركن أحد تلك الأجزاء سليمة.

وخز ما أدركته لحظتها عمودى الفقرى.

فتلك العارضات كانت رفوفًا، وهذا الركाम من الطبيعة والمعمار المنهار كان مكتبة.

وفي لحظة كنت قد تسلفت عبر النافذة التى بلا زجاج.

تقدمت بحذر، أختبر موطنى خطوتى التالية قبل أن أخطوها، حدقت إلى الزوايا والشقوق المظلمة، لكننى لم أجد أى كتب، ليس الأمر أننى توقعت أن أجدها، فهى لن تصمد أمام مثل هذه الأوضاع أبدًا، لكننى لم أستطع منع نفسى من البحث عنها.

ركزت بضع دقائق على التقاط الصور، صور لإطار النافذة التى بلا زجاج، وألواح الأخشاب التى اعتادت حمل الكتب، وباب البلوط الثقيل فى إطاره الضخم.

فى محاولة لالتقاط أفضل صورة للموقد الحجرى الكبير، أملت خصرى إلى الجانب قليلاً، وحينها توقفت لوهلة، ازدردت ريقى، ولاحظت نبضى المرتفع قليلاً، أكان هذا بسبب شيء سمعته؟ أم شعرت به؟ هل تحرك شيء فى أحشاء الحطام تحت قدمى؟ لكن لا، لم يكن هذا شيئاً، ومع ذلك، شققت طريقى بحذر نحو طرف الغرفة، حيث توجد حفرة فى البناء كبيرة كفاية لأعبر من خلالها.

كنت فى المدخل الرئيس، هنا توجد الأبواب المزدوجة المرتفعة التى رأيتها من الخارج، نجت السلام من الحريق، فهى مصنوعة من الحجر، أجريت مسحًا شاملاً للمكان من أسفل إلى الأعلى، أصبح الدرايزين الآن مغطى بالبلاب، لكن مع ذلك يبدو معماره الصلب

واضحًا: منحني رشيق يتسع إلى دوران يشبه القوقعة عند قاعدته، السلم كله شبيه بعلامة اقتباس أحادية فخمة.

يؤدي السلم إلى معرض، لا بد أنه امتد في الماضي بطول الردهة كاملة، على أحد الجانبين لا توجد إلا حافة مدببة من ألواح الأرضية، وهبوط نحو الأرضية الحجرية تحتها، في حين أن الجانب الآخر شبه مكتمل، امتدت آثار درابزين بطول المعرض، ثم يوجد ممر، الممر له سقف شوّهه الحريق لكنه سليم، كذا الأرضية، بل وحتى الأبواب، هذا أول جزء أراه من المنزل ويبدو عليه أنه نجا من الدمار العام، بدا أن مكانًا ما في المنزل قابل للسكن.

التقطت قليلًا من الصور ثم انتقلت بحذر إلى الممر، أختبر كل لوح جديد بقدمي قبل أن أنتقل بوزني عليه.

فتح مقبض الباب الأول على هبوط شديد، وأغصان وسماء زرقاء، بلا جدران ولا سقف ولا أرضية، فقط هواء خارجي منعش.

جذبت الباب لأغلقه مجددًا، وتقدمت تدريجيًا عبر الممر، عازمة على ألا أفقد أعصابي بسبب أخطار هذا المكان، تقدمت مراقبة خطواتي طوال الوقت، حتى وصلت إلى الباب الثاني، أدت المقبض وتركت الباب لينفتح.

كانت هناك حركة!

أختي!

كدت أتقدم خطوة نحوها!

كدت.

ثم أدركت أنها امرأة، كانت داكنة بسبب الغبار ومشوّهة بفعل نقاط سوداء بدت مثل الحبر.

نظرت إلى الأرض التي كنت على وشك أن أخطو عليها، لم تكن هناك ألواح، بل هبوط عمقه نحو سبعة أمتار نحو ألواح حجرية صلبة.

أدركت الآن حقيقة ما رأيته، لكن نبضات قلبي تابعت جنونها، رفعت عيني مجددًا، ورأيته، فتاة لقيطة بيضاء الوجه لها عينان داكنتان، وجسد متردد يرتجف داخل الإطار القديم.

لقد رأنتي، وقفت تمد يديها إلى باشتياق، وكأن كل ما على فعله هو أن أتقدم نحو يديها، ألن يكون أبسط الحلول عمومًا أن أفعل ذلك وأن أضمها أخيرًا؟

لكم من الوقت وقفت هناك، أتفرج عليها وهي تنتظرنني؟ همست: "لا"، لكن ذراعيها ظلتا مفتوحتين لي، "أنا آسفة"، فهبطت ذراعاها ببطء.

ثم رفعت هي كاميرا والتقطت صورة لي.

شعرت تجاهها بالأسف، فالتصوير عبر الزجاج لا يلتقط شيئًا أبدًا، أنا أعرف ذلك، فقد جربته.

وقفت ويدي على مقبض الباب الثالث، لقد تحدثت السيدة "وينتر" عن قاعدة الثلاثة، لكنني لم أعد في مزاج ملائم لقصتها، فبيتها الخطر بأبطاره الداخلية ومرآته المخادعة لم يعودا مثيرين للاهتمام بنظري.

سأغادر، هل أذهب لالتقاط صور للكنيسة؟ ولا حتى هذا، سأذهب إلى متجر القرية، وسأهاتف تاكسي ليقلني إلى المحطة ومنها إلى بيتي.

سأفعل كل هذا بعد دقيقة، وحتى ذلك، أردت أن أبقى على هذا الوضع، رأسي مائل قبالة الباب، وأصابعي على المقبض، غير مبالية بما وراءه، وأنتظر جفاف دموعي وهدوء قلبي.

انتظرت.

عندها بدأ المقبض في الدوران من تلقاء نفسه بين أصابعي.

العملاق الودود

ركضت.

قفزت فوق الفجوات التى بألواح الأرضية، وهبطت درجات السلم الثلاثة بقفزة واحدة، لم أجد موضعاً لقدمي واندفعت مستندة بالدرابزين، قبضت على بعض أفرع اللبلاب، وتعثرت، وأنقذت نفسي، وتابعت تقدمي مترنحة، إلى المكتبة؟ لا، إلى الاتجاه الآخر، عبر ممر مقنطر، أمسكت أفرع أشجار القصور والبيلسان بملايسى، وكدت أتعث مرات عدة وأنا أخوض عبر ركام المنزل المتهدم.

وأخيراً، هويت إلى الأرض، وهو ما كان حتمياً، وهربت صرخة قوية من بين شفتي.

"عزيزتي، عزيزتي، هل أفرعتك؟ يا إلهي".

حملت عبر الممر المقنطر.

كنت ملقاة على أرض المعرض حين رأيت ما لم يكن هيكلاً عظيماً
أو وحشاً من مخيلتي، بل رجلاً عملاقاً، وقد هبط السلام بسلاسة،
وخطا عبر الركाम على الأرض على نحو دقيق وبلا قلق، ووقف إلى
جوارى يكسو وجهه أشد تعابير القلق.

"يا إلهي".

لا بد أن طوله متران إلا سنتيمترات قليلة، وهو عريض، عريض
لدرجة أن البيت يبدو متقلصاً حوله.

"لم أقصد قط.. كنت أفكر فقط.. لأنك كنت هنا منذ بعض الوقت
و.. لكن هذا غير مهم الآن، فالمهم يا عزيزتي هو، هل أنت بخير؟"

شعرت أمامه بأنني تقلصت إلى حجم طفلة، لكن على الرغم من
ضخامته، هناك شيء طفولي يتعلق بهذا الرجل، وجهه أضخم من
أن يصاب بالتجاعيد، إذ له وجه ملائكي مستدير، وهالة من الشعر
المجعد لونه بين الفضي والأشقر استقرت بأناقة حول رأسه الآخذ في
الصلع، عيناه مستديرتان مثل إطار نظارته، طيبتان ولهما شفافية
زرقاء.

لا بد أنني بدوت دائخة، وربما شاحبة أيضاً، ركع على ركبته إلى
جانبي والتقط رسغى.

"يا إلهي، كانت تلك عثرة قوية، لو كنت فقط.. كان يجب ألا..
النبض مرتفع قليلاً، مممم".

شعرت بوخز في قصبتي، ومددت يدي لأتحقق من مزق في ركة
بنطالي، وعادت أصابعي دامية.

"يا إلهي، أصبت قدمك يا عزيزتي أليس كذلك؟ هل هي مكسورة؟
أستطيعين تحريكها؟" حركت قدمي، وكسا الارتياح وجه الرجل.

"حمداً للرب، ما كنت لأسامح نفسي أبداً، والآن، ابقى هنا وأنا.. سأحضر فقط.. سأعود بعد دقيقة"، وانطلق، تراقصت قدماه برقة حول حواف الأخشاب المدببة، ثم صعد السلم سريعاً متخطياً عدة درجات في المرة الواحدة، في حين يحلق الجزء العلوي من جسده بهدوء في الأعلى، كأنه غير متصل بحركة القدمين الدقيقة في الأسفل. أخذت نفساً عميقاً وانتظرت.

قال عائداً: "لقد شغلت غلاية المياه"، وأحضر معه حقيبة إسعافات أولية مناسبة، لونها أبيض وعليها صليب أحمر، وأخرج منها غسولاً مطهرًا وبعض الشاش.

"قلت لنفسى دائماً إن يوماً ما أحد سيتأذى في هذا المكان العتيق، واحتفظت بهذه الحقيبة لسنوات، الحذر خير من الأسف، صحيح؟ يا إلهي، يا عزيزتي!" جفل متألماً في حين ضغط الضمادة الواخزة على جرح قصبتي، "استجمعي شجاعتك، حسناً؟" سألته: "ألديك كهرباء هنا؟" إذ حيرني الأمر.

"كهرباء؟ لكن المكان عبارة عن حطام"، وحملني إلى مندهشاً من سؤال، وكأن تعثري ربما أدى بي إلى ارتجاج دماغى أفقدني المنطق. "الأمر فقط أنني ظننتك قلت إنك شغلت غلاية المياه".

"أوه، فهمت! لا! لدى موقد للتخييم، كانت لدى قارورة لحفظ الحرارة، لكن..." ورفع أنفه معبراً عن تأففه: "الشاي من قارورة حفظ الحرارة ليس جيداً جداً، أليس كذلك؟ والآن، هل الوخز قوى جداً؟" "قليلاً فقط".

"أحسن، كانت تلك عثرة قوية، والآن إلى الشاي، أتريدينه مع الليمون والسكر؟ أخشى أنه لا يوجد حليب، فليست لدى ثلاجة".

"سيكون الليمون رائعًا".

"حسنًا، كوني مرتاحة، لقد توقف المطر، أنشرب الشاي في الخارج؟"
ذهب إلى الباب المزدوج القديم الضخم في مقدم المنزل ورفع مزلاجه،
انفتح الباب بصرير أقل مما قد توقعت، وبدأت أحاول الوقوف.
"لا تتحركي!"

تبخر العملاق باتجاهي، وانحنى والتقطني، شعرت بنفسى أرفع
في الهواء وأحمل بسلاسة إلى الخارج، وضعني على أحد الجانبين على
ظهر إحدى القطتين السوداوين اللتين أعجبت بهما قبل ساعة.
"انتظري هنا، وحين أعود سنحظى بشاي رائع!" وعاد إلى المنزل،
انسل ظهره الضخم صاعدًا السلم واختفى في مدخل الممر والغرفة
الثالثة.

"أمرتاحة؟"

أومات.

"رائع"، ابتسمت كأن الأمر رائع بالفعل، "والآن، لتتعرف، اسمي
(لاف)، (أوريليوس ألفونس لاف)، تمكك مناداتي (أوريليوس)، ونظر
إلى بترقب.

"(مارجريت ليا)".

"(مارجريت)"، وابتسم، "رائع، رائع جدًا، والآن كلي".

بين أذني القطّة الكبيرة، فتح منديل مائدة ببطء، وبداخلها كانت
شريحة داكنة ولزجة من كعكة، مقطعة بشكل سخي، قضمت قطعة
منها، كانت كعكة مثالية ليوم بارد: مُطيبة بالزنجبيل ومسكرة لكنها
ساخنة، صفى الرجل الغريب الشاي في كوب شاي صينيين رقيقين،
وقدم لي وعاء مكعبات السكر، ثم أخرج كيسًا مخمليًا أزرق من
جيب قميصه، وفتحه، استقرت على المخمل ملعقة فضية عليها

حرف "إيه" ممدد بشكل منمق يزين المقبض، أخذته، وقلبت الشاي خاصتي، ورددتها إليه.

وأنا آكل وأشرب، جلس مضيفي على القطة الثانية، التي اتخذت مظهرًا قططيًا غير متوقع تحت حزامه الضخم، أكل في صمت، وبشكل مرتب وبتركيز، وشاهدني أكل أيضًا، متلهفًا إلى تعبيرى عن تقديري للطعام.

قلت: "هذا رائع، أهو منزلي الصنع؟"

المسافة بين القطتين نحو 3 أمتار، ولنتكلم اضطررنا إلى رفع أصواتنا قليلًا، ما أعطى المحادثة طابعًا مسرحيًا، كأننا نؤدي عرضًا ما، وبالفعل كان لدينا جمهور، ففي ضوء النهار الذي غسله المطر، وقرب حد الغابات، وقفت غزالة تتطلع إلينا بفضول، لا ترمش، منتبهة، أنفها يرتعش، وحين أدركت أنني رأيتها، لم تقدم على أية محاولة للهروب، بل قررت عكس ذلك، ألا تكون خائفة.

مسح ريفي أصابعه بمنديله، ثم نفذه وطواه أربع مرات، "هل أعجبتك إذًا؟ أعطتني السيدة (لاف) الوصفة، إننى أخبز هذه الكعكة منذ كنت طفلًا، السيدة (لاف) كانت طاهية رائعة، امرأة رائعة في كل شيء، بالطبع هى متوفاة الآن، لم تمت مبكرًا، مع أنني كنت أتمنى لو.. لكن ذلك لم يحدث".

"نعم فهمت"، مع أنني لست متأكدة إن كنت قد فهمت، أكانت السيدة "لاف" زوجته؟ مع أنه قال إنه يخبز كعكته منذ كان طفلًا، بالتأكد لا يقصد والدته؟ فلم قد يدعو والدته السيدة "لاف"؟ لكن يوجد أمران واضحًا: أنه أحبها، وأنها ميتة، قلت: "آسفة لذلك".

تقبل تعازى بوجه حزين، ثم أشرق وجهه، "لكنها ذكرى لطيفة، أليس كذلك؟ أقصد الكعكة".

"بالتأكيد، أكان ذلك منذ زمن بعيد؟ رحيلها؟"

فكر قليلاً: "منذ عشرين سنة تقريباً، مع أنني أشعر أنه أكثر، أو أقل، يتوقف الأمر على كيفية نظر المرء للأمر".

أومات، ويبدو أنني لم أكن الأذكي.

جلسنا صامتين للحظات، تطلعت إلى حديقة الغزلان، عند حافة الغابة، حيث يظهر المزيد منها، واللاقي تحركت مع ضوء الشمس بعرض الحديقة العشبية، وتضاءل الوخز في قدمي، وشعرت بتحسن.

قال الغريب: "أخبريني.."، وشعرت أنه احتاج إلى استجماع الشجاعة اللازمة ليسأل سؤاله: "هل لك والدة؟"

شعرت ببعض المفاجأة، فالناس عادة لا يلحظون وجودي لمدة كافية حتى يسألوني أسئلة شخصية.

"أتمنعين؟ سامحيني لسؤالي، لكن.. كيف أشرح لك؟ العائلة أمر.. لكن إن كنت لا تفضلين.. أنا آسف".

"لا بأس"، قلتها ببطء، "لا أمانع"، وقد كنت غير ممانعة بالفعل، ربما بسبب سلسلة الصدمات التي مررت بها، أو تأثير هذا المحيط الغريب، لكن بدا أن أي شيء قد أقوله عن نفسي هنا، ولهذا الرجل، سيظل للأبد في هذا المكان، معه، وبلا أيّة قيمة في أي مكان آخر، ما سأقوله لن تكون له أي عواقب، لذا أجبت سؤاله: "نعم، لي والدة".

"والدة! كيف.. أوه، كيف..."، ظهر تعبير مكثف بشكل لافت في عينيه، حزن أو اشتياق، أعلنها بقوة: "ماذا قد يكون ألطف من أن يكون لك والدة!"، وكان واضحاً أنها دعوة لقول المزيد.

سألته: "أليست لك والدة؟"

التوى وجه "أوريليوس" بشكل لحظي، "للأسف.. أردت ذلك دائماً.. أو والدًا، في الواقع، خلال طفولتي، اعتدت أن أدعى، اختلقت عائلة

كاملة، بل وأجيالاً منها! كان الأمر ليضحكك!" لم يكن بوجهه أى شيء يدعو للضحك وهو يحكى، "لكن فى ما يتعلق بالوالدة الحقيقية.. والدة فعلية معروفة.. بالتأكيد، فكل إنسان له والدة، أليس كذلك؟ أنا أعرف ذلك، سؤالى عن إذا ما كنت تعرفينها، وكنت آمل دائماً أن فى يوم ما.. لأن الأمر ليس مستبعداً، أليس كذلك؟ لذا لم أفقد الأمل قط".

"نعم".

"الأمر مؤسف للغاية"، وهز كتفيه محاولاً أن يبدو متصالحاً مع الأمر، لكنه لم يكن، "كنت ساحب أن تكون لى والدة".

"سيد (لاف)..."

"(أوريليوس)، إذا سمحت".

"يا (أوريليوس)، حين يتعلق الأمر بالوالدات، لا تسير الأمور دائماً بقدر السرور الذى تفترضه".

"حقاً؟" بدا أن لتلك الجملة وقع اكتشاف عظيم عليه، حملق إلى من كئيب: "تقصدين الخلافات على التوافه؟"

"ليس هذا تحديداً".

عبس وجهه: "سوء الفهم؟"

هزرت رأسى.

بدا مذهولاً: "أسوأ؟" بحث عن المشكلة فى السماء، وفى الغابة، وأخيراً، فى عيني.

قلت له: "الأسرار".

"الأسرار!" واتسعت عيناه لتشكلا دائرتين صحيحتين، هز رأسه مرتبكاً، ومحاولاً محاولة مستحيلة لسبر غور ما أقصده، وقال فى

النهاية: "اعذريني، لا أعرف كيف أساعدك، فأنا أعرف أقل القليل عن العائلات، وجهلى أوسع من البحر، أنا آسف بشأن الأسرار، وواثق بأنك محقة في شعورك هذا".

أدفاً التعاطف عينيه وناولنى منديلاً أبيض مطوياً بعناية.

قلت: "أنا آسفة، لا بد أنها صدمة متأخرة".

"أظن هذا".

في حين جففت عيني، نظر هو بعيداً عنى نحو حديقة الغزلان، السماء تُظلم ببطء، وتتبعث نظرتة فرأيت تلاً باللون الأبيض: إنه جلد الغزلان الأبيض وهى تقفز بخفة لتختبئ بالأشجار.

قلت له: "ظننتك شبحاً أو هيكلًا عظيمًا حين شعرت بدوران مقبض الباب".

"هيكل عظمى! أنا! هيكل عظمى!" بدرت منه ضحكة مكتومة وهو مسرور، واهتز لها جسده بالكامل مرحًا.

"لكن تبين أنك عملاق".

"نعم، تمامًا! عملاق"، مسح دموع الضحكة عن عينيه وقال: "هناك شبح كما تعرفين، أو هكذا يقولون".

أعرف ذلك، كدت أصرح بأننى رأيتة، لكن بالتأكيد لم يكن يتحدث عن شبحى: "هل رأيت الشبح؟"

"لا" وزفر، "ولا حتى ظله".

جلسنا صامتين لوهلة، يفكر كل منا فى الأشباح الخاصة به.

هتفت: "يزداد الطقس برودة".

"هل ساقك بخير؟"

مكتبة

t.me/t_pdf

"أعتقد ذلك"، وهبطت منزلقة عن ظهر القطة وحاولت الوقوف عليها، "نعم، إنها أفضل كثيرًا الآن".
"رائع، رائع".

كانت أصواتنا همسات في الضوء الآخذ في الخفوت.

"من كانت السيدة (لاف) تحديدًا؟"

"إنها السيدة التي تبنتني ومنحتني اسمها، وأعطتني كتاب وصفاتها، لقد أعطتني كل شيء، حقًا".
أومات.

ثم التقطت كاميرتي: "في الواقع، أعتقد أنني يجب أن أنطلق، يجب أن أحاول النقاط بعض الصور للكنيسة قبل يذهب الضوء تمامًا، شكرًا جزيلاً على الشاي".

"يجب أن أنطلق أنا الآخر خلال دقائق، سعدت كثيرًا بلقائك يا (مارجريت)، هل ستأتين مجددًا؟"

سألت متشككة: "أنت لا تعيش هنا، أليس كذلك؟"

ضحك، وكانت ضحكته حلوة وغنية وغامضة، مثل الكعكة.

"معذرة، لا، لدى منزل هناك"، وأشار نحو الغابة، "أتى إلى هنا في فترات العصر فقط حتى.. سأكتفى بقول حتى أفكر، حسنًا؟"
"سيهدمونه قريبًا، أفترض أنك تعرف ذلك".

"أعرف"، وملس القطة بعقل شارد وبحنان: "الأمر مخزٍ، أليس كذلك؟ سأفتقد المكان القديم، في الواقع، ظننت أنك أحدهم حين سمعت خطواتك، مساحة أراضٍ أو شيء كهذا، لكنك لست كذلك".

"لا، لست مساحة أراضٍ، أكتب كتابًا عن شخصية عاشت هنا".

"فتيات (أنجليلد)؟"

"نعم".

أوما "أوريليوس" بشكل مجتر: "كانتا توأمين، تخيلي ذلك"، وللحظة سرحت عيناه بعيدًا.

سألني وأنا ألتقط حقيبتى: "هل ستأتين مجددًا يا (مارجريت)؟"
"أنا ملزمة بذلك".

مد يده إلى جيبه وأخرج بطاقة، "(أوريليوس لاف)، مقدم أطعمة إنجليزية تقليدية لحفلات الزفاف والتعميد والمناسبات، وأشار إلى العنوان ورقم الهاتف، "اتصلي بي حين تأتين مجددًا، يجب أن تأتى إلى البيت الحجرى وسأعد لك شايًا لذيذًا".

قبل أن نفترق، أخذ "أوريليوس" يدي وربت عليها على نحو مريح وتقليدى، ثم انسل جسده الضخم برشاقة صاعدًا الامتداد العريض من السلام وأغلق الباب الثقيل وراءه.

سرت ببطء بامتداد الطريق الخاص نحو الكنيسة، عقلى مزدحم بهذا الغريب الذى قابلته للتو، وصادقته، ذلك تصرف لا يشبهنى تمامًا، وبينما أنا أعبر البوابة المسقوفة، فكرت فى أنه ربما كنت أنا الغريبة، أكانت تلك خيالاتى، أم أننى لست على طبيعتى تمامًا منذ قابلت السيدة "وينتر"؟

المقابر

تأخرت كثيراً على الضوء، وفات أوان التصوير، لذا أخرجت دفترى وشميت في ساحة الكنيسة، كانت أنجلفيلد مجتمعاً قديماً لكنه صغير، ولم يكن بها عدد كبير جداً من المقابر، وجدت قبر "جون ذا ديج"، الذى يروى شاهد قبره أنه "اجتمع بحديقة الرب"، وامرأة اسمها "مارثا دان"، "خادمة مخصصة للرب إلهنا"، التى يتزامن تاريخا ولادتها ووفاتها مع ما توقعته لسيدة الخدم، نسخت الاسمين والتواريخ وشواهد القبور في مفكرتى، وجدت على أحد القبور زهوراً جديدة، باقة مبهجة من الأقحوان البرتقالى، فاقتربت لأستطلع اسم المتوفى الذى يتذكره أحدهم بهذا الدفء، فوجدته "جوان مارى لاف"، وشاهد قبرها "لن تُنسى أبداً".

مع أننى بحثت، لم أجد اسم "أنجلفيلد" فى أى مكان، لكن لم يحيرنى الأمر لأكثر من دقيقة، فعائلة المنزل لن تُدفن فى قبور عادية بساحة الكنيسة، بل تحظى قبورهم بمكانة أعظم، تميزها التماثيل

وتُنقش قصص طويلة على ألواحها الرخامية، وستكون في الداخل، في المصلى الكنسى.

بدأت الكنيسة كنييسة، النوافذ القديمة، وقطع الزجاج المخضرة الصغيرة المحمولة في إطار من الأقواس الحجرية السمكية، تسمح بدخول ضوء كثيب يضيء بضعف الأقواس والأعمدة الحجرية الباهتة، والقناطر المبيضة بين عارضات السقف السوداء وصفوف المقاعد التى صُنعت من أخشاب ناعمة مصقولة، حين تأقلمت عيناي مع الضوء الضعيف، تطلعت إلى الآثار والأحجار التذكارية التى فى المصلى الضئيل، توجد شواهد قبور كل آل "أنجلفيلد" الذين ماتوا منذ قرون هنا، سطر مسهب تلو الآخر من المديح، محفور بطريقة ثمينة على الرخام المكلف، سأعود فى يوم آخر لفك شفرة نقوش الأجيال السابقة، لكن اليوم سأبحث عن بضعة أسماء فقط.

موت "جورج أنجلفيلد" بلغ الإسهاب فى وصف أفراد العائلة نهايته، إذ بدا أن "تشارلى" و"إيزابيل" -لو افترضنا أنهما كانا أصحاب القرار- لم يبذلا مجهودًا كبيرًا فى تلخيص حياة وموت والدهما للأجيال القادمة، "ارتاح من الأحزان الدنيوية، هو الآن مع مخلصه"، هكذا كانت رسالة شاهد قبره المقتضبة، ولُخص دور "إيزابيل" فى هذا العالم ورحيلها عنه بالتعبيرات الأكثر عادية: "أم وأخت محبوبة للغاية، لقد ذهبت إلى مكان أفضل"، لكننى نسختها فى مفكرتى على أية حال، وأجريت حسابات سريعة، إنها أصغر منى! ليست صغيرة السن لدرجة مأساوية مثل زوجها، لكن مع ذلك، هذا ليس سنًا للموت.

كدت ألا أجد قبر "تشارلى"، فبعدما رأيت كل شاهد قبر آخر فى المصلى، كدت أستسلم، حين لمحت عيناي أخيرًا شاهدًا صغيرًا مظلمًا، إنه صغير للغاية ومظلم، لدرجة أنه بدا مصممًا هكذا بغرض الإخفاء، أو على الأقل للدلالة على عدم الأهمية، لم توضع أوراق ذهبية لتحمى

الحروف من الاختفاء، لذا وأمام عجزى عن قراءة الشاهد بالعين، رفعت يدي وتحسست النقش على طريقة "برايل" بأطراف أصابعي، كل كلمة على حدة.

تشارلى آنجلفيلد.

لقد انتقل إلى الليل المظلم.

نأمل ألا نراه مجددًا.

لم تُنقش أى تواريخ.

شعرت ببرودة مفاجئة، وتساءلت عن اختيار هذه الكلمات، أهى "فيدا وينتر"؟ وما الدافع وراءها؟ بدا لي أن هناك مساحة لقدر محدد من غموض التعبير في هذا الشاهد، أهذا بسبب حزن الفاجعة؟ أم أنه وداع المنتصر لمن نجوا من الكثير من الأحداث السيئة؟

أغادر الكنيسة وأتمشى ببطء على امتداد الطريق الخاص بالمفروش بالحصى إلى بوابات المنزل الصغير، حينئذ شعرت بتحديث خفيف إلى ظهري بلا أى ثقل تقريبًا، كان "أوريليوس" قد غادر، فمن هذا إذًا؟ ربما هو شبح "آنجلفيلد"؟ أو العينان المحترقتان للمنزل نفسه؟ على الأرجح ليس إلا غزالًا، يتابعنى متخفيًا بظلال الغابة.

"الأمر مخزٍ"، قالها والدى فى المتجر ذلك المساء، "أنت لا تستطيعين المجئء إلى البيت لبضع ساعات".

اعترضت مدعية الجهل: "أنا فى البيت"، لكننى عرفت أنه يتحدث عن والدتى، والحقيقة أننى لم أستطع تحمل تهليلها التافه، ولا اللون الباهت المميز لمنزلها، لقد عشت فى الظل، وصادقت كآبتى، لكن فى منزل والدتى عرفت أن حزنى غير مرحب به، ربما كانت لتحب ابنة متكلمة مبهجة، ربما يساعد تهليلها فى طرد مخاوف والدتى، لكن الواقع

أنها تخاف نوبات صمتي، كنت أفضل أن أبقى بعيدة، أوضحت: "ليس لدى الكثير من الوقت، السيدة (وينتر) قلقة حيال أننا يجب أن نتقدم سريعًا في العمل، كما أن أسابيع قليلة فقط متبقية على عيد الميلاد، سأعود حينذاك مجددًا".

قال: "نعم، إن عيد الميلاد قريب".

بدا حزينًا وقلقًا، وعرفت أنني السبب، وأسفت لأنني لا أستطيع فعل شيء حيال ذلك.

"جمعت بضعة كتب لأخذها معي للسيدة (وينتر)، ووضعت ملاحظة على بطاقتها في دليل كتب المتجر".

"لا مشكلة بذلك".

في تلك الليلة، شعرت بضغطة على طرف سريري تجرني إلى الاستيقاظ، إنها الزوايا الحادة للعظام الضاغطة على لحمي عبر الأغشية.

إنها هنا! تعالى إلى أخيرًا!

كل ما على فعله هو أن أفتح عيني وأنظر إليها، لكن الخوف يشلني، كيف ستبدو؟ مثلي؟ طويلة ونحيفة ولها عينان داكنتان؟ أم أنها -وهو ما أخشاه- جاءت إلى من القبر مباشرة؟ ما الفظائع التي أنا على وشك إشراك نفسي بها، أو بالأحرى إعادة نفسي إليها؟

يتلاشى الخوف.

لقد استيقظت.

اختفى الضغط من على الأغشية، كانت تلك أضغاث أحلام، لست واثقة إن كان ذلك قد أراحني أم أحبطني.

قمت من سريري وحقبت أشياء، وفي عتمة فجر الشتاء مشيت إلى المحطة لأستقل أول قطار إلى الشمال.

المنتصف

وصول "هيوستن"

حين غادرت يوركشاير كان نوفمبر في مطلقه، وبحلول عودتي كانت أواخره، قبيل بداية ديسمبر.

يصيبني ديسمبر بالصداع ويقلص شهيتي الضئيلة أصلاً، يجعلني أقرأ بلا هوادة، يبقيني مستيقظة ليلاً بظلامه البارد الرطب، تبدأ ساعة ما بداخلي بالدوران في أول أيام ديسمبر، تعد الأيام والساعات والدقائق، تعد تنازلياً حتى يوم محدد، ذكرى يوم بدأت حياتي وانتهت: يوم ميلادي، أنا لا أحب ديسمبر.

في هذا العام، تفاقم شعور التشاؤم بسبب الطقس، وحامت سماء ثقيلة ضاغطة أعلى المنزل، محدثة شففاً معتماً دائماً، حين وصلت وجدت "جوديث" تهرول من غرفة إلى أخرى، تجمع لمبات المكاتب واللمبات العادية ولمبات القراءة من غرف الضيوف التي لم تُستخدم قط، وتستخدمها في المكتبة والمرسم وجناحي، تفعل أي شيء لإبعاد

الظلال المظلمة التى تخفت فى كل ركن، وتحت كل كرسي، وفى جنبات الستائر وطيّات الأثاث.

لم تطرح السيدة "وينتر" أى أسئلة عن غيابي، ولم تخبرني أى شيء عن تقدم مرضها، لكن حتى بعد غياب قصير كهذا، بدا تدهور حالتها واضحًا لي، فقد سقطت الملابس الكشميرية فى ما يبدو أنه ثنایا فارغة حول جسدها المتضائل، وعند أصابعها بدا أن قطع الياقوت والزمرد قد تمددت، لقد أصبحت يداها نحيفتين جدًّا، واتسع الخط الأبيض الرقيق الذى كان واضحًا فى فرق شعرها قبل أن أغادر، زحف نحو الجانبين، مخفّفًا الدرجات اللامعة إلى درجات أبهت من اللون البرتقالى، لكن على الرغم من هشاشتها الجسدية، بدت مشحونة بقوة ما، طاقة ما، تغلبت على المرض والسن وجعلتها قوية، بمجرد أن وصلت إلى الغرفة، قبل حتى أن أجلس وأخرج مفكرتي، بدأت الحديث، ملتقطة خيط القصة من حيث تركته، كأن القصة أوشكت على الفيضان ولن تستطيع احتواءها أكثر من ذلك.

برحيل "إيزابيل"، سرى شعور فى القرية بأن شيئًا ما يجب فعله من أجل الطفلتين، عمرهما الآن ثلاثة عشر عامًا، وهو عمر لا يجب أن تُتركا فيه بلا متابعة، تحتاجان إلى تأثير امرأة ما، ألا يجب أن تُرسلا إلى مدرسة ما؟ ولكن أيّة مدرسة تلك التى ستقبل طفلتين مثل هاتين؟ وحين تبين أن خيار المدرسة غير ممكن، قرّر أنه يجب تعيين معلمة منزلية.

عُثر على معلمة منزلية، اسمها "هيوست"، "هيوست بارو"، ليس اسمًا جميلًا، لكن هى نفسها ليست فتاة جميلة.

رتب الطبيب "مودسلى" الأمر بالكامل، فى حين أن "تشارلى" المحبوس فى كآبته بالكاد مدرك لما يحدث، و"جون ذا ديج" وسيدة الخدم مجرد خادمين فى المنزل ولم يُطلب رأيهما، تواصل الطبيب مع السيد "لوماكس"، محامى العائلة، وثمرت الترتيبات اللازمة كلها بين كليهما بمساعدة من مدير البنك، وكان الأمر مقضيًا.

بقلة حيلة وسكون، تشاركنا جميعًا الشعور بالترقب، كل لديه مزيج خاص من المشاعر تجاه الأمر، سيدة الخدم تنتابها مشاعر مختلطة؛ تشعر بشك غريزى تجاه تلك الغريبة التى ستفتح مساحتها، ويتصل بهذا الشك الخوف من أن تشعر بالنقص، فقد كانت مسئولة عن الطفلتين لسنوات وتعرف حدود قدرتها، كذا شعرت بالأمل، الأمل أن تلك القادمة ستغرس حس الانضباط لدى الطفلتين، وتفرض الأخلاق وسلامة العقل على المنزل، فى الواقع، لديها رغبة شديدة فى حياة مستقرة تدار جيدًا لدرجة أن قبيل وصول المعلمة بدأت بإصدار الأوامر، وكأننا من نوع الأطفال الذى قد يدعن، ولا داعى لتأكيد أننا لم ندعن.

أما مشاعر "جون ذا ديج" فكانت أقل اختلاطًا، بل فى الواقع عدائية بالكامل، فلا ينجر إلى التساؤلات الطويلة التى تراود سيدة الخدم عما ستثول إليه الأمور، ورفض بصمت متحجر أن يشجع التفاؤل الذى بدأ يمد جذوره فى قلبها، فكانت تقول: "إن كانت هى الشخص المناسب..."، أو "لا أحد يعرف إلى أى مدى يمكن أن تتحسن الأمور..." لكنه كان يحملق عبر نافذة المطبخ ويعزف عن المشاركة حين اقترح الطبيب أن يأخذ عربة الأحصنة ليقبل المعلمة من المحطة، كان رده وقفًا بكل صراحة: "ليس لدى وقت للتبخر بطول المقاطعة وراء معلمة لعينة"، فاضطر الطبيب إلى ترتيب اللازم ليوصلها بنفسه، منذ حادثة الحديقة لم يعد "جون" مثلما كان، والآن، بمجىء هذا التغيير، قضى ساعات وحده، يسهب التفكير فى مخاوفه وبواعث قلقه

بشأن المستقبل، تحمل تلك القادمة عينين وأذنين جدّدًا، في منزل لم ينظر ولم يسمع فيه أحد شيئًا على نحو سليم لسنوات، اعتاد "جون ذا ديج" التكتّم، وتنبأ بالمشكلات.

استشعر كل منا الرهبة بطريقته الخاصة، كلنا باستثناء "تشارلي"، في يوم وصولها، كان "تشارلي" الوحيد الذى على طبيعته، مع أنه كان منعزلًا ومتجنبًا الأنظار، فإن وجوده كان مثبتًا بأصوات البعثة والأصوات المدوية التى تهز البيت بين الحين والآخر، جلبه تعودنا عليها جميعًا لدرجة أننا بالكاد أصبحنا نلاحظها، ونتيجة تهجده لعودة "إيزابيل"، لم يعد لديه أيّة فكرة عن اليوم أو الوقت، ووصول المعلمة لم يعنِ له أى شيء.

كنا نتسكع في ذلك الصباح بإحدى الغرف الأمامية في الطابق الأول، يمكن اعتبارها غرفة نوم، فقط لو كان السرير واضحًا تحت كومة الخردة التى تراكمت عليه كأنها تراكمت على مدار عقود، "إيميلين" تعبت بأظفارها في خيوط التطريز الفضية التى امتدت بطول الستائر، وحين نجحت في تحرير أحد الخيوط، وضعته خلسة في جيبها استعدادًا لتضيفه لاحقًا إلى مجموعتها الفنية التى تخفيها تحت سريرها، لكن شيء ما قطع تركيزها، أحد ما أت، وسواء أعرفت معنى ذلك أم لا، فإن ذلك الشعور بالانتظار الذى سيطر على المنزل قد طالها.

كانت "إيميلين" أول من سمع عربة الأحصنة، شاهدا من النافذة الوافدة الجديدة تترجل، وتمسد الكسرات المتراكمة على تنورتها بضربتين خفيفتين من كفها، وتنظر حولها، تطلعت إلى الباب الأمامي، وإلى يسارها، وإلى يمينها، ثم إلى أعلى، حينها تراجعت أنا، على الأرجح ظننتنا خدعة ضوئية أو ستارة نافذة رفعها النسيم عبر زجاج النافذة المكسور، أيّا كان ما رآته، لا يمكن أن يكون نحن.

لكننا رأيناها، حدقنا عبر ثقب "إيميلابن" الجديد في الستائر، لم نكن واثقتين من شعورنا، طول "هيوست" متوسط، كذلك بنيتها، شعرها ليس أصفر ولا بنى، وهو لون بشرتها، ترتدى معطفًا وفستانًا وتنتعل حذاءً، وتعتمر قبعة: كلها لها اللون نفسه غير المميز، ووجهها مجرد من أية سمات مميزة، ومع ذلك، حدقنا إليها، حدقنا إليها حتى ألمتنا أعيننا، كل مسام وجهها العادى مضيئة، شيء ما في ملابسها وفي شعرها مشرق، شيء ما في أمتعتها مشع، شيء ما جعلها متوهجة، مثل مصباح، شيء ما جعلها غريبة.

لم تكن لدينا فكرة عن حقيقة هذا الشيء، لم نتخيل شيئًا مثله من قبل.

لكننا عرفناه لاحقًا.

"هيوست" نظيفة، إنها مغسولة ومصبنة ومشطوفة وملمعة بالكامل.

يمكن تخيل انطباعها عن آنجلفيلد.

بعد دخولها المنزل بربع ساعة جعلت سيدة الخدم تدعونا، تجاهلنا النداء، وانتظرنا لنرى ما سيحدث لاحقًا، انتظرنا، وانتظرنا، لم يحدث شيء، وكانت تلك أول مرة تفسد الأمر علينا، فقط لو كنا توقعنا ذلك لاختلف الأمر، تصبح كل خبرتنا في الاختباء بلا قيمة إن لم تأت لتبحث عنا، وبالفعل لم تأت، ظللنا في الغرفة، وزاد مللنا، ثم كدنا الفضول الذى زرع نفسه فينا على الرغم من مقاومتنا، أصبحنا منتبهتين للأصوات الصادرة من الطابق السفلى: صوت "جون ذا ديج"، وجمر الأثاث، وبعض القرع والطرق، ثم ساد الهدوء، وفي وقت الغداء، نودينا ولم نلب، وفي السادسة نادتنا سيدة الخدم مجددًا: "أيتها الطفلتان، تعاليا لتناول العشاء مع معلمتكما الجديدة"، لكننا ظللنا في الغرفة، لم يأت أحد، وكانت تلك بداية شعورنا بأن الوافدة الجديدة قوة يُحسب لها حساب.

لاحقًا بلغنا صوت استعداد المنزل للنوم، سمعنا خطوات على السلم، إنها سيدة الخدم تقول: "أمل أنك ستكونين مرتاحة يا آنسة"، ثم صوت المعلمة: "متأكدة أنني سأكون مرتاحة يا سيدة (دان)، شكرًا لتعبك".

"بشأن الفتاتين يا آنسة (بارو)..."

"لا تقلقى بشأنهما يا سيدة (دان)، ستكونان بخير، تصبحين على خير".

وبعد صوت هبوط سيدة الخدم المستمر على السلم، بات كل شيء هادئًا.

هبط الليل ونام البيت إلا نحن، فمحاولات السيدة تعليمنا أن الليل للنوم باءت بالفشل، كحال جميع دروسها الأخرى لنا، ونحن لم نخش الظلام، تنصتنا خارج باب غرفة المعلمة ولم نسمع شيئًا سوى خشخشة خافتة لفأر تحت ألواح الأرضية، فهبطنا السلم إلى خزانة المؤن.

الباب لا يُفتح، هذا القفل لم يُستخدم قط في حياتنا، لكن في تلك الليلة خان العهد، ووجدنا عليه آثار تزييت.

انتظرت "إيميلين" بصبر وانشده أن ينفتح الباب، مثلما انتظرت دائمًا من قبل، واثقة بأنها في أية لحظة ستجد خبزًا وزبدة ومربي لتأخذها.

لكن ما من داع للهلع، فجيب مئزر سيدة الخدم موجود، وهناك سيكون المفتاح، هناك توجد المفاتيح دائمًا، حلقة تجمع مفاتيح صدئة غير مستخدمة للأبواب والأقفال في أنحاء المنزل، وأقل عبث بها سيعرفنا أى مفتاح يفتح أى قفل.

لكن الجيب كان خاليًا.

اضطربت "إيميلين"، وأصابها هذا التأخير بالذهول.

تتطور المعلمة لتشكل تحديًا حقيقيًا لكنها لن تنال منا بهذه الطريقة، سنخرج، يمكننا دائمًا أن ندخل أحد البيوت من أجل وجبة خفيفة.

دار مقبض باب المطبخ ثم توقف، لم يمكننا أي قدر من الجذب والعبث من فتحه؛ إنه مغلق بقفل.

وُضعت ألواح على النافذة المكسورة في المرسم، وأوصد شيش النافذة في غرفة الطعام، تبقت أمامنا فرصة واحدة أخرى، ذهبنا إلى الردهة والباب المزدوج الكبير، وتخلفت "إيميلين" المرتبكة قليلًا في السير، فهي جائعة، لماذا كل هذا العناء مع الأبواب والنوافذ؟ وكم تبقى من الوقت قبل أن تملأ بطنها بالطعام؟ كان بصيص من ضوء القمر، لونه أزرق بفعل الزجاج الملون الذي يغطي نوافذ الردهة، كافيًا لنرى البراغى الضخمة الثقيلة الأبعد من أن نطالها، والتي زُيتت وانزلقت في أماكنها أعلى الباب المزدوج.

لقد حُبسنا.

قالت "إيميلين": "يام يام"، إنها جائعة، وحين تجوع "إيميلين" يجب إطعامها، الأمر بهذه البساطة، لقد كنا في ورطة، أمامنا الكثير من الوقت، لكن في النهاية استوعب عقل "إيميلين" الصغير المسكين أن الطعام الذي تاقّت إليه لن تحصل عليه، بانّت بعينها نظرة ارتباك، وفتحت فمها وصرخت.

امتد دوى صرختها ليصعد السلم الحجري، وتحول إلى الممر على اليسار، وصعد مجموعة أخرى من الدرجات وانزلق عبر باب غرفة المعلمة الجديدة.

سريعًا انضمت له ضوضاء أخرى، ليس جر القدمين الأعمى الخاص
بسيده الخدم، بل الخطوات البندولية الخاصة بالآنسة "هيوست بارو"،
هبطت مجموعة من الدرجات بخطوات حادة غير متعجلة، وقطعت
طريقًا، ووصلت إلى المعرض.

اختبأت أنا بين طيات الستائر الطويلة قبل لحظة من ظهورها
أعلى السلم الذي حوّل إلى معرض، كان ذلك منتصف الليل، وقفت
على قمة السلم، لها بنية صغيرة مكنتزة، ليست سمينة ولا نحيفة،
تقف على قدمين ثابتتين، يعلو ذلك الجسد وجه هادئ وحازم،
بثوب نومها الأزرق المحزم بقوة وشعرها الممشط بأناقة، بدت بشكل
مؤكد كأنها نامت واقفة ومستعدة للصباح، شعرها خفيف وملصق
برأسها، ووجهها يعطى انطباعًا ببطء الفهم، وأنفها قصير وممتلئ،
إنها عادية، إن لم تكن أسوأ من عادية، لكن تأثير الشحوب على وجه
"هيوست" لا يشبه ولو من بعيد تأثيره على أية امرأة أخرى، إنها
تجذب العين.

كانت "إيميلين" الواقفة أسفل السلم تنتحب جوعًا قبل لحظات،
لكن في اللحظة التي ظهرت فيها "هيوست" بكل بهائها، توقفت عن
البكاء وحملت على نحو أهدأ، كأن ما ظهر أمامها هو حامل
تتكس عليه الكعكات.

قالت "هيوست" وهي تهبط: "من الرائع رؤيتك، والآن من أنت؟
(آديلاين) أم (إيميلين)؟"

وقفت "إيميلين" مشدوهة بفم مفتوح وصامتة.

تابعت المعلمة: "لا يهم، أتريدين بعض الطعام؟ وأين أختك؟
أتريد البعض أيضًا؟"

قالت "إيميلين": "يام"، ولم أعرف ما إذا قالت ذلك لأنها كلمة
الطعام أم بسبب "هيوست" نفسها.

تطلعت "هيوست" حولها، باحثة عن التوأمة الأخرى، بدت الستائر لها كأنها مجرد ستائر، لأن بعد نظرة متعجلة حولت كل انتباهها إلى "إيميلين"، قالت: "تعالى معى"، وابتسمت وأخرجت من جيبتها الأزرق مفتاحًا، لونه أزرق فضى، ومصقول لدرجة اللمعان، وقد تلاًأ بشكل مغرٍ تحت الضوء الأزرق.

وفى المفتاح بالغرض؛ إذ قالت "إيميلين": "لامع"، ودون معرفة ماهيته أو السحر الذى يستطيع فعله، تبعت المفتاح - و"هيوست" معه - عبر الممرات الباردة إلى المطبخ.

بين طيات الستارة، أفسحت آلام جوعى الطريق للغضب، "هيوست" ومفتاحها! "إيميلين"! كان الأمر أشبه بإعادة لواقعة عربية الأطفال، إنه "الحب".

تلك هى الليلة الأولى، وكانت انتصارًا لـ "هيوست".

لم تؤثر قذارة المنزل على معلمتنا النظيفة جدًا مثلما قد يتوقع المرء، بل حدث العكس؛ إذ بدا أن أشعة الضوء القليلة، الجافة والمغبرة، التى نجحت فى اختراق النوافذ المتسخة والستائر الثقيلة، تسقط دائماً على "هيوست"، جمعت الأشعة لنفسها وعكستها نحو الظلام، الذى أصبح منتعشًا ومفعماً بالحيوية بفضل اتصاله بـ "هيوست" شيئًا فشيئًا، امتد البصيص من "هيوست" نفسها إلى المنزل، فى أول يوم عمل كامل لها، لم تتأثر سوى غرفتها؛ إذ أنزلت الستائر وأغرقتها فى حوض ملىء بالمياه والصابون، وعلقتها على حبل حيث أيقظت الشمس والرياح رسمة الزهور الوردية والصفراء التى لم يتوقع أحد وجودها وحين تركتها لتجف، نظفت النافذة بصحيفة وخل لتسمح للضوء بالمرور، وحين رأت نتيجة ما تفعله، مسحت الغرفة من الأرض إلى السقف، وبحلول الليل كانت قد أوجدت ملاذًا آمنًا من النظافة بين تلك الجدران الأربعة، وهذه مجرد بداية.

فرضت "هيوست" النظافة العامة على ذلك المنزل بالصابون والمبيض، وبالطاقة والعزم هذا المنزل الذي كان سكانه لمدة أجيال يتناقلون بلا نظر وبلا هدف، ولا يسعون وراء شيء سوى الهوس القذر لدى كل منهم، أتت "هيوست" كأنها معجزة ستنظف البيت عن آخره، لمدة ثلاثين عامًا، قيسَت الحياة داخل المنزل بالحركة البطيئة لذرات الغبار التي تظهر في شعاع شمس مرهق يدخل بين الحين والآخر، والآن تقيسها قدما "هيوست" الصغيرتان بالدقائق والثواني، وبحفيف قوى لممسحة، اختفت تلك الذرات.

وبعد النظافة جاء دور النظام، وكان المنزل نفسه هو أول من شعر بالتغيير، أجرت معلمتنا الجديدة جولة شاملة للغاية؛ انطلقت من أسفل إلى أعلى، تتجههم وتعبس عند كل طابق، لم تُفَلت منها أيّة خزانة أو كوة، فقد حملت ورقة وقلماً وفحصت كل غرفة، تدون مكان كل بقعة رطبة ونافذة لها صرير، وتبحث عن الصرير في الأبواب والأواح الأرضية، وتجرب المفاتيح القديمة في الأقفال القديمة، وتدون على كل منها مكان قفله، تركت الأبواب مقفلة وراءها، ومع أن هذه لم تكن إلا أول حملة تنظيف شاملة، مجرد حملة تحضيرية من أجل حملة الترميم الرئيسية، فإنها أحدثت تغييراً في كل غرفة دخلتها، كومة من الأغطية في زاوية مطوية ومرتبعة على كرسي، كتاب أخذته ووضعته تحت ذراعها لتعيده إلى المكتبة لاحقاً، شدت الستائر لتكون مستقيمة، حدث كل هذا باستعجال ملحوظ، لكن دون أدنى علامة على التسرع، بدا أنها لم تحتج إلا إلى أن تلقى نظرة على غرفة حتى يتراجع فيها الظلام، وحتى تبدأ الفوضى في الانتظام بخجل، وحتى تنسحب الأشباح سريعاً، وبهذه الطريقة، خضعت كل الغرف للـ "هيوستة".

العليا بالفعل أوقفته من المفاجأة، فهبط فكها وبدأت مذعورة تجاه حالة تجويف السقف، لكن حتى وسط هذه الفوضى، كانت لا تُفهر، فاستجمعت قواها، وزمت شفيتها، وشطبت وكشطت في ما

أمامها بحيوية أكبر، وفي اليوم التالي جاء بناء كنا نعرفه من القرية، رجل متأن في مشيته، حين يتكلم بمد الحروف المتحركة ليريح فمه قبل الحرف الساكن التالي، يتولى ست أو سبع وظائف في آن، ونادراً ما يكمل أيًا منها، يقضي أيام عمله في تدخين السجائر والتحديث إلى المهمة التي أمامه وهو يهز رأسه كأنه يستسلم للقدر، صعد سلمنا بطريقته الكسولة التقليدية، لكن بعد أن قضى خمس دقائق مع "هيستر"، سمعنا مطرقة تنطلق بأقصى سرعة وبلا توقف، لقد حمسته.

في غضون بضعة أيام أصبحت هناك أوقات للطعام، وأوقات للنوم والاستيقاظ، وبعد بضعة أيام أخرى، أصبحت هناك أحذية نظيفة للتنقل داخل المنزل، وأحذية نظيفة ذات رقبة للخروج، ليس هذا فقط، بل ونُظفت الفساتين الحريريّة ورُتقت، وعُدلت لتناسب جسد الفتاتين أكثر، وعُلقت بعيدًا من أجل شيء ما "أفضل"، وظهرت فساتين جديدة من القطن الأخضر والأزرق بياقات وأحزمة بيضاء من أجل الاستخدام اليومي.

أُشرفت "إيميلين" تحت ظل النظام الجديد، فأصبحت تتغذى جيدًا في أوقات منتظمة، ويُسمح لها باللعب -تحت رقابة مشددة- بمفاتيح "هيستر" اللامعة، بل ووطورت شغفًا تجاه الاستحمام، قاومت في البداية، وصرخت ورفضت في حين تعريها "هيستر" وسيدة الخدم وتنزلاها في حوض الاستحمام، لكن حين رأت نفسها في المرآة بعدها، وجدت نفسها نظيفة وشعرها مضفر بأناقة ومربوط بربطة فراشة خضراء، انشدهت وراحت في نشوتها، أعجبها أن تكون متألثة، واعتادت "إيميلين" كلما كانت في حضرة "هيستر"، أن تدرس وجهها خلسة، باحثة عن ابتسامة، وحين تبتسم "هيستر" -وهذا نادر- تحديق "إيميلين" إلى وجهها سعادة، ولم يمر الكثير من الوقت حتى تعلمت أن ترد الابتسامة.

أشرق أعضاء آخرون بالمنزل أيضًا؛ فقد فحص الطبيب عيني سيدة الخدم، وأخذت إلى متخصص أعين بعد الكثير من التذمر، وحين عادت استطاعت أن ترى مجددًا، وسُرت سيدة الخدم جدًا لرؤية المنزل بحالة النظافة الجديدة، لدرجة نسيان كل السنوات التي عاشتها في الكآبة، واستعادت شبابها كفاية لتنضم لـ "هيستر" في هذا العالم الجديد الشجاع، وحتى "جون ذا ديج"، الذي أطاع أوامر "هيستر" بكآبة وأبقى عينيه الداكنتين دائمًا وبصرامة متفاديتين للنظر إلى عينيها المشرقتين اللتين تريان كل شيء، لم يستطع مقاومة التأثير الإيجابي لطاقتها في المنزل، فمن دون مقدمات أخذ مجزاته ودخل الحديقة التوبيارية للمرة الأولى منذ الكارثة، وهناك كثف جهوده إلى جانب جهود الطبيعة المستمرة لإصلاح آثار هجمة الماضي.

كان "تشارلي" الأقل تأثرًا على نحو مباشر، فقد ابتعد عن طريقها، وهذا ناسب كليهما، لم تكن لديها رغبة في فعل أي شيء سوى عملها، ونحن كنا عملها، عقلينا، وجسدينا، وروحينا، لكن الوصي علينا يقع خارج مجال اختصاصها، فتركته وشأنه، هي ليست "جين أير"، وهو ليس السيد "روتشستر"، وفي مواجهة طاقتها المهندمة لكل ما حولها، تراجع هو إلى الحضانة القديمة في الطابق الثاني وراء باب مقفل بصرامة، حيث تعفن هو وذكرياته معًا وسط القذارة، بنظره، كان تأثير "هيستر" محدودًا بتحسّن في نظامه الغذائي، وبقبضة أصرم على أمواله التي نهبها التجار ورجال الأعمال منعدمي الضمائر في مواجهة السيطرة الأمنية والواحية لسيدة الخدم، ولم يلحظ هو أيًا من هذه التغييرات للأفضل، ولو كان لاحظها فإننى أشك في أنه قد يهتم.

لكن "هيستر" بالفعل أبقت الطفلتين تحت السيطرة، وبعيدًا عن الأنظار، ولو فكر في الأمر بأي شكل لامتنّ لما فعلته، ففي عهد "هيستر"، لم يعد هناك داعٍ للجيران العدائين ليأتوا للشكوى بشأن التوأمين، ولا حاجة إلى زيارة المطبخ لطلب شطيرة من سيدة الخدم،

والأهم من كل ذلك، أن لا حاجة إلى مغادرة تلك المساحة من الخيال التي سكنها مع "إيزابيل"، مع "إيزابيل" فقط، دائماً مع "إيزابيل"، فما تغلى عنه من مساحة سيطرته اكتسبه في صورة حرية، لم يسمع قط عن "هيستر"، لم يرها قط، بل إنها حتى لم تخط ولو خطوة واحدة داخل عقله، كانت مرضية له تماماً.

انتصرت "هيستر"، ربما كانت تبدو مثل ثمرة البطاطس، لكن ما من شيء لا تستطيع تلك الفتاة فعله بمجرد أن تضعه نصب عينيه.

سكنت السيدة "وينتر" لوهلة، استقرت عيناها على زاوية الغرفة، حيث قدم ماضيها نفسه إليه بواقعية أكثر من الحاضر ومنى، ارتجفت زوايا فمها وعينيها بنصف تعبيرات من الحزن والألم، لمعرفتي بمدى هشاشة الخيط الذي يربطها بماضيها، كنت قلقة تجاه قطعه، وقلقت بالدرجة نفسها بشأن أن توقف حكى قصتها.

طال السكوت.

سألها برقة: "وأنت؟ ماذا عنك؟"

رمشت بشكل مبهم: "أنا؟ نعم لقد أحببتها، وهذه كانت المشكلة".

"المشكلة؟"

رمشت مجدداً، اعتدلت في مقعدها ونظرت إلى بعينين جديدتين وحادتين، لقد قطعت الخيط.

"أعتقد أن هذا كفاية اليوم، يمكنك الانصراف".

صندوق الحياة

بوصولنا إلى قصة "هيوست" رجعت سريعًا إلى روتيني، في الصباح أستمع إلى السيدة "وينتر" تحكي لي قصتها، وبالكاد أنتبه إلى مفكرتي، ولاحقًا في غرتي، أمام رزم الورق وأقلام الرصاص الحمراء الاثنى عشر ومبراتي الوفية، أفرغت ما حفظته عن ظهر قلب، مع تدفق الكلمات من طرف قلبي على الصفحة، استحضرت صوت السيدة "وينتر" في أذني، ولاحقًا، حين أقرأ بصوت مرتفع ما كتبت، أشعر بوجهي يعيد ترتيب نفسه ليمثل تعبيراتها، ارتفعت يدي اليسرى وهبطت محاكية حركاتها التأكيدية، وترقد يميني في حجري كأنها مشوّهة، تحولت الكلمات إلى صور في دماغي، "هيوست"، نظيفة وأنيقة ومحاطة ببريق فضي، هالة تحيط بجسدها كله وتتسع طوال الوقت، تلف أولاً غرتها، ثم المنزل، ثم مكانه، تحولت سيدة الخدم من كائن بطني في الظلام إلى شخصية لها عيان تندفعان برشاقة في الأنحاء، مشرقة بنور الإبصار، وتسمح "إيميلين" لنفسها تحت تأثير هالة "هيوست" اللامعة، بأن تتغير من متشردة قذرة تعاني سوء التغذية، إلى طفلة نظيفة

حنون ممثلة الجسد، حتى الحديقة التوبيارية كان لها نصيب من ضوء "هيوست"، إذ أشرق على أفرع أشجار الصنوبر المتلفة، وأحلت بها الازدهار الأخضر المنعش، بالتأكيد هناك "تشارلي"، الذى يتحرك كالأخرق فى الظلام، ويُسمع ولا يُرى، و"جون ذا ديج"، البستاني ذو الاسم الغريب، الذى يطيل التفكير عند حدودها، ويمنع أن يُجذب إلى ضوءها، و"آديلاين"، الغامضة مظلمة القلب.

احتفظت بصندوق حياة لكل مشروعات السير الذاتية خاصتى، صندوق يحوى بطاقات تصنيف توضح تفاصيل -الاسم، والوظيفة، والتواريخ، ومحل السكن، وأيئة معلومات أخرى تبدو مهمة- كل الشخصيات الهامة فى حياة صاحب السيرة الذاتية، لا أعرف قط ما سأفعله بصناديق الحياة تلك، حسب حالتى المزاجية، إما تبدو لى ذكرى تسعد الموتى (أتخيلهم يقولون وهم يتطلعون عبر الزجاج إلى: "انظروا! إنها تدوننا فى بطاقتها! وقد ظننا أننا متنا منذ مئتى عام!") وإما حين يكون الزجاج مظلمًا جدًا وأشعر أننى عالقة ووحيدة للغاية فى هذا الجانب منه، تبدو كأنها شواهد قبور ورقية صغيرة، جامدة وباردة، والصندوق نفسه له موات المدافن نفسه، طاقم شخصيات السيدة "وينتر" قليل جدًا، وبينما أخلط الشخصيات بين يدي، أفزعتنى مدى هشاشتها، لقد قُدمت لى قصة، لكن على حد معلوماتى، أعرف أقل بكثير مما سأحتاجه.

أخرجت بطاقة بيضاء وبدأت أكتب.

"هيوست بارو".

معلمة.

منزل "آنجلفيلد".

ولدت: ؟

ماتت: ؟

توقفت، فكرت، أجريت بعض الحسابات على أصابعي، كانت
سن الفتاتين ثلاثة عشر عامًا فقط، و"هيوست" لم تكن عجوزًا، فبكل
تلك الحيوية، لا يمكن أن تكون عجوزًا، أكانت سنهما ثلاثين عامًا؟ ماذا
لو كان خمسة وعشرين فقط؟ اثنا عشر عامًا فقط تكبر بها عن
الفتاتين.. أكان هذا ممكنًا؟ تساءلت، السيدة "وينتر"، في سبعيناتها
وتحتضر، لكن هذا لا يعنى بالضرورة أن شخصًا أكبر منها سيكون
ميتًا، إلى أي مدى هذا مرجح؟

لم أجد أمامي إلا شيئًا واحدًا.

أضفت ملاحظة أخرى إلى البطاقة، وشدت تحتها خطأ.

اعثرى عليها

هل قراري أن أبحث عنها هو ما جعلني أراها في حلم في تلك
الليلة؟

بنية عادية بقميص نوم محزم بأناقة، على السلم الذى أصبح
معرضًا، تهز رأسها وتزم شفيتها أمام الجدران التى شوحتها النيران،
وألواح الأرضية المكسورة المدببة، وأشجار اللباب التى تلتف لتشق
طريقها صعودًا على الدرابزين الحجرى وسط كل تلك الفوضى، كم
بدا كل شيء واضحًا بالقرب منها، كم بدا مريحًا، اقتربت، مجذوبة
إليها مثل الفراشة، لكن حين دخلت دائرتها السحرية، لم يحدث شيء،
كنت لا أزال في العتمة، دارت عينا "هيوست" السريعتان هنا وهناك،
تستوعب كل شيء، واستقرت على جسد يقف ورائي، توأمتي، أو هكذا
فهمت في الحلم، لكن حين تجاوزتني عيناها، كانت كأنها لا ترائي.

استيقظت، انتابت جانبي رجفة ساخنة مألوفة، واستدعيْتُ صورًا
من حلمي لفهم مصدر خوفي، لا شيء بـ"هيوست" نفسها يخيفني، لا
شيء يوترني في المرور السلس لعينيها على وجهي وعبره، ما رأيته في
الحلم ليس هو السبب، بل ما أنا عليه هو ما يجعلني أرتجف في

سريرى، لو لم تترنى "هيستر"، فلا بد أن السبب أننى شبح، ولو كنت شبحًا، فأنا ميتة، وكيف لا؟

قمت وذهبت إلى المرحاض لأغتسل من مخاوفي، نظرت إلى يدي تحت المياه متجنبًا المرأة، لكن المشهد أمامي ملأني رعبًا، ففى حين أن يدي موجودتان هنا أجدهما على الجانب الآخر أيضًا، حيث هما ميتين، والعينان اللتان أراهما، عيناي، ميتين في مكانيهما أيضًا، وعقلي الذى فكر بهذه الأفكار، أليس ميتًا أيضًا؟ سيطر على رعب عميق، ما هذا الكائن الغريب الذى هو أنا؟ أى فظاعة هذه التى تقسم شخصًا بين جسدين قبل ولادته، ثم تقتل أحدهما؟ وما الذى تبقى منى؟ نصف ميتة، منفية في عالم الأحياء نهارًا، في حين أن في الليل تتعلق روحى بتوأمتى في غياهب النسيان المظلمة.

أشعلت نيرانًا مبكرة في الموقد، وأعددت كوب كاكاو، ولففت نفسي بثوب نوم وأغطية لأكتب رسالة إلى والدى، كيف حال المتجر؟ وكيف حال أمى؟ وكيف حاله؟ وتساءلت، كيف يبحث أحد عن شخص؟ هل المحققون الخاصون موجودون في الحقيقة أم في الكتب فقط؟ أخبرته بالليل الذى أعرفه عن "هيستر"، أيمكن تدشين بحث بهذا القدر القليل من المعلومات؟ أيمكن لمحقق خاص أن يتولى مهمة كالتى ببالى؟ إن كان لا، فمن قد يفعل ذلك؟

أعدت قراءة الرسالة، حكيمة ومفعمة بالحياة، ولا تشي بأى من مخاوفي، حينها كان الفجر يبرز، وقد توقف الارتجاف، وقرئًا ستأتى "جوديث" بالإفطار.

عين أشجار الصنوبر

ما من شيء لا تستطيع المعلمة فعله بمجرد أن تضعه نصب عينيها.
هكذا بدا الأمر في البداية على أية حال.

لكن بعد فترة بدأت الصعوبات في الظهور، أولها كان جدالها مع سيدة الخدم، فبعد أن ترتب "هيستر" الغرف وتنظفها وتركها مقفلة وراءها، كانت تكتشف أنها غير مقفلة، فاستدعت سيدة الخدم وسألتها: "ما الحاجة إلى ترك الغرف مفتوحة وهى غير مستخدمة؟ نتيجة ذلك أن تدخل الفتاتان كيفما يحلو لهما وتحديثان الفوضى حيث كان النظام، إنه عبء إضافي غير ضروري لك ولى".

بدت سيدة الخدم موافقة تمامًا، وتركتها "هيستر" راضية جدًا، لكن بعد أسبوع وجدت الأبواب مفتوحة مجددًا حين يُفترض أن تكون مقفلة، فاستدعت سيدة الخدم مجددًا عابسة، فى هذه المرة لن تقبل بوعود غامضة، وهى عازمة على التوصل إلى حقيقة الأمر.

أوضحت سيدة الخدم: "إنه الهواء، ومن دون حركة الهواء، يصبح المنزل رطبًا على نحو سخيّف".

أعطت "هيوست" سيدة الخدم محاضرة مقتضبة بمصطلحات بسيطة عن دورات الهواء والرطوبة وصرفتها، واثقة بأنّها حلت المشكلة هذه المرة.

بعد أسبوع لاحظت مجددًا أن الأبواب غير مغلقة، هذه المرة لم تستدع سيدة الخدم، بل فكرت، لهذه المشكلة أبعاد أكبر مما ترى، وقررت أنها ستراقب سيدة الخدم، وستكتشف بالملاحظة سر عدم إقفال الأبواب.

أما المشكلة الثانية فكانت مع "جون ذا ديج"، شكوكه حولها لم تخفّ عليها، لكن هذا لم يصدّها؛ فهي شخص غريب في المنزل، والأمر بيدها أن تظهر أن وجودها يصبّ بمصلحة الجميع ولا يتسبب بالمشكلات، وعرفت أنها مسألة وقت قبل أن تكسب وده، لكن مع أنه بدا يعتاد وجودها، كانت شكوكه بطيئة في الاختفاء على نحو غير متوقع، وفي أحد الأيام اختمرت شكوكه لتكوّن شعورًا آخر، تحدثت معه لأمر عادي للغاية، إذ رأت في حديقتهما -أو هكذا أكدت- طفلًا من القرية كان من المفترض أن يكون في المدرسة، فأرادت أن تعرف: "من هذا الطفل؟ من والداه؟"

رد "جون": "لا شأن لي بالأمر"، بفضاظة فاجأتها.

ردت بهدوء: "لا أقول إن لك علاقة بالأمر، لكن الطفل يجب أن يكون في المدرسة، واثقة بأنك ستتفق معي على هذا، لو فقط أخبرتنى من هو سأحدث مع والديه ومعلمته بشأن الأمر".

هز "جون ذا ديج" كتفيه بلا مبالاة وعزم الانصراف، لكنها ليست امرأة تُصد بهذه الطريقة، دارت حوله وتوقفت أمامه، وكررت طلبها،

ولم لا؟ إنه طلب منطقى للغاية، وقد طرحته بطريقة متحضرة، فلماذا يرفض؟

لكنه رفض ولم يقل سوى: "أطفال القرية لا يأتون إلى هنا".

تابعت: "لكن ذلك الطفل أتى".

"إنهم يبقون بعيدين خوفاً".

"هذا سخيف، مم قد يخافون هنا؟ كان الطفل يعتمر قبعة عريضة الحواف، ويرتدى بنطالاً رجائياً قصه ليلائمه، كان مظهره مميزاً جداً، بالتأكيد تعرفه".

جاء رده مستخفاً: "لم أر مثل هذا الطفل"، ومرة أخرى عزم الانصراف.

لا يميز "هيوست" شيء أكثر من المثابرة: "لكنك بالتأكيد رأيته..."

"بعض العقول فقط هى التى ترى ما ليس موجوداً يا آنسة، وأنا رجل عاقل لا أرى شيئاً حيث لا يوجد شيء، وإن كنت مكانك يا آنسة، سأفعل الأمر نفسه، يومك سعيد".

عند ذلك انصرف، وفي هذه المرة لم تحاول "هيوست" منعه، بل وقفت مكانها ببساطة، تهز رأسها حيرة وتساؤلاً حيال ما قد أصاب الرجل، يبدو أن منزل "أنجلفيلد" ملىء بالألغاز، ومع ذلك، لم تحب "هيوست" شيئاً أكثر من تمرين ذهنها، إذ تصل سريعاً إلى حقيقة الأمور.

التبصر والذكاء من المواهب الاستثنائية لـ "هيوست"، لكن ما يضاهاى مواهبها هو حقيقة أنها لم تكن تعرف من تواجه تحديداً، مثال على ذلك عاداتها أن تترك الفتاتين لتمارسا حيلهما لفترات قصيرة فى حين تباشر هى أعمالها فى مكان آخر، فكانت فى البداية تراقب الفتاتين من كئيب، وتلاحظ أنماط نشاطهما وراحتهما، وحين أخبرتها نتائج تحليلها أنهما تسترخيان بهدوء فى المنزل لمدة ساعة، كانت تركهما بلا

مراقبة، في إحدى تلك المرات، كان لديها غرض خاص في بالها، إذ جاء الطبيب وأرادت التحدث معه على انفراد.

مغفلة "هيوست"، فلا خصوصية حيث يوجد الأطفال.

قابلته عند الباب الأمامي: "إنه يوم لطيف، هلا نتمشى في الحديقة؟"

انطلقا نحو الحديقة التوبيارية، غير مدركين أن أحداً يتبعهما.

استهل الطبيب: "لقد صنعت معجزة يا آنسة (بارو) لقد تحولت (إيميلين)".

ردت: "لا".

"نعم، أؤكد لك، لقد تجاوزت توقعاتي، أنا منبهر".

أحنت "هيوست" رأسها وحولت جسدها عنه بزاوية بسيطة، صمت الطبيب معتبراً رد فعلها من صور التواضع، ظاناً أنها مستغرقة الآن في ما أغدق عليها من تقدير، أتاح له الصنوبر المجزوز حديثاً شيئاً ليعجب به في حين تستعيد المعلمة رباط جأشها، من الجيد أنه كان مستغرقاً في الأشكال الهندسية للصنوبر، فلولا ذلك لكان ملح وجهها الساخر وأدرك خطأه.

اعتراضها بكلمة "لا" كان بعيداً عن الابتسامة الأنثوية المتكلفة التي تصورها الطبيب، لقد كانت إقراراً صريحاً لحقيقة، بالتأكيد تحولت "إيميلين"، ففي وجود "هيوست"، كيف قد يحدث غير ذلك؟ ما من شيء إعجازي في ذلك، وهذا ما قصدته بقولها "لا".

لكنها لم تتفاجأ بالتعطف الذي شاب تعليق الطبيب، فهذا ليس عالم يُرجح فيه أن تلاحظ علامات العبقرية على المعلمات المنزليات، لكن مع ذلك أظن أنها شعرت بخيبة الأمل، فقد ظنت أن الطبيب هو الشخص الوحيد في آنجلفيلد الذي قد يفهمها، لكنه لم يفهمها.

التفتت نحو الطبيب ووجدت نفسها تواجه ظهره، كان واقفاً ويداها في جيبه، وكتفاه مستقيمتان، متطلعاً إلى نهاية أشجار الصنوبر وبداية السماء، كان الشيب يزحف على شعره الأنيق، ورأت دائرة تامة الاستدارة من فروة الرأس الوردية قطرها أربع سنتيمترات على قمة رأسه.

قالت "هيوست": "(جون) يصلح الخراب الذي أحدثته الفتاتان".

"ماذا جعلهما يصنعاه؟"

"في حالة (إيميلين) الإجابة سهلة: (آديلاين) دفعتهما إلى ذلك، أما عن سبب فعل (آديلاين) ذلك، فهذا سؤال أصعب جداً، أشك في أن تكون هي نفسها تعرف، معظم الوقت تحركها اندفاعاتها، التي تبدو بلا أي وعي، وأياً كان السبب، فإن النتيجة كانت مدمرة لـ(جون)، لقد رعت عائلته هذه الحديقة لأجيال".

"هذا عمل بلا قلب والأفطع أن تأتيه طفلة".

تغير تعبير وجهها، لكن الطبيب لم يره، من الواضح أنه لم يعرف الكثير عن الأطفال: "بالتأكيد بلا قلب، مع أن الأطفال قادرين على القسوة الشديدة، لكننا فقط لا نحب أن نظن بهم ذلك".

ببطء شرعاً يمشيان بين الأشكال التوبيارية، يعجبان بأشجار الصنوبر وهما يتحدثان عن عمل "هيوست"، تبعتهما جاسوسة صغيرة، تنتقل من حمى شجرة صنوبر إلى أخرى محافظة على مسافة آمنة تفصلها عنهما، لكن تجعلهما دائماً ضمن حدود سمعها، تحركا يسرة ويمنة، وأحياناً يلتفتا ليتجها من حيث أتيا، كانت أشبه رقصة مطولة بين الأركان.

"أتصور أنك راضية عن نتائج جهودك مع (إيميلين) يا آنسة (بارو)؟"

"نعم، بعد عام آخر أو حول ذلك من اهتمامي بها، لا أرى سببًا لكي لا تتخلى عن الفظاظاة للأبد، وأن تصبح الفتاة اللطيفة التي تعرف هي كيف تكونها في أفضل حالاتها، لن تكون ذكية، لكن مع ذلك، لا أرى سببًا لكيلا تعيش حياة مرضية وهي منفصلة عن أختها، ربما حتى قد تتزوج، فكل الرجال لا يبحثون عن الذكاء عند اختيار زوجة، و(إيميلين) حنون جدًا".

"جيد، جيد".

"لكن مع (إيميلين) الأمر مختلف تمامًا".

بلغا طريقًا مسدودًا، قرب شجرة على هيئة مسلة، وفي جانبها قطع حاد، تطلعت المعلمة إلى الأفرع الداخلية ولمست أحد الأغصان الجديدة ذات الأفرع الخضراء الزاهية التي تنمو من الساق القديمة نحو الضوء وتنهدت.

"(آديلاين) تحيرني أيها الطبيب (مودسلي)، سأقدر رأيك الطبي بشأنها".

شكرها الطبيب بنصف انحناء مهذبة: "سأساعدك بكل الوسائل الممكنة، ما الذي يزعجك بشأنها؟"

"لم أعرف قط طفلة مربكة مثلها"، وسكتت برهة، "اعذر بطئى فلا توجد طريقة موجزة لتوضيح الغرابة التي لاحظتها فيها".

"خذى وقتك، لست متعجلًا".

أشار الطبيب إلى دكة منخفضة، في ظهرها سياج من الأشجار جُز ليشكل قوسًا مموّجًا على نحو متقن، من النوع الذى يظهر عادة على اللوح الأمامى من سرير مزخرف ببراعة، جلسا ووجدتا نفسيهما يواجهان الجانب الجميل من إحدى أكبر القطع الهندسية بالحديقة، علق الطبيب: "انظري، إنها على شكل مجسم له اثنا عشر وجهًا".

تجاهلت "هيستر" تعليقه وبدأت شرحها.

"(آديلاين) طفلة عدائية وعدوانية، إنها تمقت وجودي في المنزل وتقاوم كل جهودي لفرض النظام، وجباتها غير منتظمة، وترفض الطعام إلى أن ينال منها الجوع وحينها فقط تأكل، لكنها تكتفى بأقل لقمة، يجب أن تُحمم بالقوة، ورغم نحولها، فإن إبقاءها تحت المياه يتطلب شخصين، وأي عاطفة أبعدها لها تقابله بلا مبالاة شديدة، تبدو عاجزة عن إدراك كامل النطاق الطبيعي للمشاعر البشرية، وبصراحة أيها الطبيب (مودسلي)، سألت نفسي إذا ما كانت بالأساس قادرة على العودة إلى طبيات الطبيعة الإنسانية المشتركة".

"هل هي ذكية؟"

"إنها ماهرة، وخبيثة، لكن لا يمكن استثارته لتهم بأي شيء يتجاوز نطاق أمنياتها ورغباتها وشهواتها".

"وفي غرفة الدراسة؟"

"بالتأكيد تدرك أن بوجود فتاة مثلها في غرفة الدراسة لا يكون الأمر كحال الأطفال الطبيعيين، فلا أدرُس الحساب، ولا اللاتينية، ولا الجغرافيا، ومع ذلك، ولصالح النظام والروتين، فإنني أجعلهما تحضران ساعتين يوميًا، مرتين يوميًا، وأدرُس لهما عبر حكي الحكايات".

"وهل تفهم هذه الدروس؟"

"كم أتمنى لو كنت أعرف لهذا السؤال إجابة! إنها جامحة للغاية أيها الطبيب (مودسلي)، يجب أن تُحبس في الغرفة عبر خدعة ما، وأحيانًا أضطر إلى جعل (جون) يجلبها بالقوة، تفعل أي شيء لتجنب الدراسة، تلوح بذراعيها أو تصلب جسدها لتجعل حملها عبر الباب صعبًا، جلوسها وراء مكتب يعد -عمليًا- مستحيلًا، في غالب الأحيان يُضطر (جون) إلى تركها ببساطة على الأرض، فهي لن تنظر ولن

تستمع إلى في غرفة الدراسة، بل تنسحب إلى عالم ما داخلي خاص بها".

أنصت الطبيب وأوماً: "إنها حالة صعبة، يسبب سلوكها لك قلقاً أكبر وتخشين أن نتائج جهودك قد تكون أقل نجاحاً معها بالمقارنة بأختها، ومع ذلك"، وكانت ابتسامته ساحرة، "اعذريني يا آنسة (بارو) إن كنت لا أرى سبباً لتأكيدك أنها تخدعك، على العكس، تفصيلك لسلوكها وحالتها العقلية أكثر تماسكاً مما قد يقوله طالب طب إن أعطى المعطيات نفسها".

تطلعت إليه ببرود: "لم أصل إلى الجزء المحير بعد".

"نعم".

"هناك وسائل نجحت مع أطفال مثل (آديلاين) في الماضي، وهناك إستراتيجيات خاصة لدى أمل بها، ولن أتردد في تنفيذها حيث..."

ترددت "هيوست" وفي هذه المرة كان الطبيب ذكياً كفاية لينتظرها أن تتابع كلامها، حين تابعت، كان كلامها بطيئاً، وفكرت في كلماتها بعناية.

"كأن هناك غشاوة داخل (آديلاين)، غشاوة لا تعميها عن الإنسانية فقط، بل وعن نفسها أيضاً، وأحياناً تخف الغشاوة، وأحياناً تختفي، وأحياناً أخرى تظهر (آديلاين)، ثم تعود الغشاوة وتعود هي كما كانت".

نظرت "هيوست" إلى الطبيب، تراقب تعبيرات وجهه، وقد عبس وجهه، لكن أعلى وجهه العابس، حيث يتراجع شعره، بشرته وردية غير متجعدة، "كيف تكون خلال تلك الفترات؟"

"العلامات الخارجية ضئيلة جدًا، فلمدة أسابيع لم أدرك تلك الظاهرة، وحتى بعدما أدركتها انتظرت قليلًا قبل أن أكون واثقة كفاية لأخبرك".

"فهمتك".

"أولاً هناك تنفسها، إنه يتغير أحيانًا، وأعرف أن على الرغم من أنها تدعى أنها في عالم خاص بها، هي تستمع إلي، ويذاها..."

"يذاها؟"

"عادة ما تكونان متباعدتين وجامدتين هكذا"، وأرته بيديها، "لكن أحيانًا ألاحظ أنهما مسترخيتان، هكذا"، وأرخت يديها، "يبدو أن اندماجهما في القصة قد جذب انتباهها، وهو ما أضعف دفاعاتها، فتسترخي وتنسى ما تظهره من رفض وتحذُّ، لقد عملت مع الكثير جدًا من الأطفال صعبى المراس أيها الطبيب (مودسلى)، ولدى خبرة معتبرة، وما رأيته منها يصل إلى هذا الحد: على عكس كل التوقعات، قد يكون بها اضطراب".

لم يعلق الطبيب على الفور بل فكر، وبدت "هيستر" ممتنة لبذله هذا الجهد.

"أهناك أى غمط لظهور هذه العلامات؟"

"ما من شيء أكيد لى حتى الآن... لكن..."

يميل برأسه مشجعًا إياها على الكلام.

"على الأرجح أنها هراء، لكن هناك قصصًا ما..."

"قصص؟"

"قصة (جين أير) مثلاً، حكيت لهما نسخة قصيرة من الجزء الأول على مدار عدة أيام، وبالطبع لاحظتُ الأمر حينها، و(ديكنز) أيضاً، لم يكن للحكايات التاريخية والمواعظ قط التأثير نفسه".

عبس الطبيب: "وهل هذا مستمر؟ هل قراءة (جين أير) دائماً تؤدي إلى التغيرات نفسها التي وصفتها؟"
"لا، وهنا المشكلة".

"ممم، فماذا تنوين؟"

"هناك أساليب للتعامل مع الأطفال الأنانيين والعنيدين مثل (آديلاين)، يمكن أن يكون النظام الصارم الآن كافياً لكيلا تدخل مصحة لاحقاً في حياتها، ولكن هذا النظام، الذي سيشمل فرض روتين صارم وإبعاد الكثير مما يثيرها، سيكون ضرره الأكبر على..."

"على الطفلة التي نراها عبر الغشاوة؟"

"بالتحديد، في الواقع فإن بنظر هذه الطفلة، ليس هناك أسوأ من ذلك".

"وتلك الطفلة داخل الغشاوة، أي مستقبل ترين لها؟"

"إنه سؤال مبكر، لكن يكفى أن أقول إنني حالياً لا أؤيد أن نضيعها منا، فمن يعرف ماذا قد تصبح؟"

جلسا في صمت، يتطلعان إلى الأشكال الهندسية المصنوعة من أوراق الأشجار المقابلة لهما ويفكران في المشكلة التي أوضحتها "هيستر"، إنما وفي غفلة منهما، تحملق إليهما المشكلة نفسها عبر الفراغات بين الأفرع وهي متخفية جيداً بين الأشجار.

أخيراً تكلم الطبيب: "لا أعرف بشأن أية حالة طبية تسبب آثاراً نفسية كالتى تصفيتها، ولكن، قد يكون هذا جهلاً منى"، انتظرها أن تعترض، لكنها لم تفعل، "هممم، برأىي سيكون منطقيًا أن أفحص

الطفلة فحصًا شاملاً حتى أثبتت من حالتها الصحية عمومًا، العقلية والجسدية، وهذه خطوة أولى".

ردت "هيستر": "هذا ما فكرت فيه، والآن..." فتشت في جيبها، "هذه ملاحظاتي، ستجد وصفًا لكل حالة شهدتها، مع بعض التحليل الأولي، ربما تبقى بعد الفحص الطبي لنصف ساعة لتخبرني بانطباعاتك الأولية، يمكننا حينها أن نقرر الخطوة التالية".

تطلع إليها ببعض الذهول، لقد خرجت عن دورها كمعلمة منزلية، وكانت تتصرف كأنها خبيرة زميلة! وضعت "هيستر" نفسها في موقف صعب.

ترددت، أيمكنها التراجع؟ هل فات الأوان؟ لكنها حسمت قرارها، ستخاطر بكل ما يلزم، فقالت له بخبث: "هذا ليس المجسم ذا الاثنى عشر وجهًا، بل هو رباعي الأوجه المثلثة".

انتصب الطبيب من على الدكة وتقدم نحو الشكل التوبياري، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.. تحركت شفتاه وهو يعد.

توقف قلبي، هل سيسير حول الشجرة ليُتم عده للأوجه والزوايا؟ هل سينعثر بي؟

لكنه وصل إلى ستة وتوقف، أدرك أنها على حق.

كانت هناك لحظة فضولية سريعة حين لم يفعل كل منهما شيئًا إلا التطلع إلى الآخر، كان وجهه متحيرًا، ما هذه المرأة؟ وبأى حق تحدثت إليه بهذه الطريقة؟ إنها مجرد معلمة منزلية بدينة قصيرة ولها وجه يشبه البطاطس، أليس كذلك؟

حملقت إليه في صمت، تشلُّها الحيرة البادية على وجهه.

بدا في تلك اللحظة أن العالم يميل قليلاً عن محوره، وأبعد كل منهما نظره عن الآخر محرّجًا.

كسرت "هيوست" الصمت: "الكشف الطبى".

اقترح: "ربما بعد ظهر الأربعاء؟"

"بعد ظهر الأربعاء مناسب".

وحينها عاد دوران العالم إلى محوره.

سارا عائدين إلى المنزل، وعند الانعطاف التى فى الطريق، ودعها الطبيب.

وخلف أشجار الصنوبر، عضت الجاسوسة الصغيرة أظفارها وتساءلت.

خمس نوتات

إجهاذ مزعج يغطى عينى، رأسى خفيف كالورقة، لقد عملت طوال اليوم ونصف الليل، والآن أخشى أن أخلد إلى النوم.

أيتلاعب عقلى بى؟ يبدو أننى أسمع نغمة، نعم، بالكاد تعتبر نغمة، خمس نوتات تائهة، فتحت النافذة لأؤكد، نعم، أصبحت واثقة بأنّ ثمة صوتًا آتيًا من الحديقة.

أستطيع فهم الكلمات، أعطنى جزءًا ممزقًا أو تالفًا من نص وسأنتبأ بما يجب أن يسبقه وما يجب أن يليه، وإن لم أستطع، فسأستطيع على الأقل أن أقلل الاحتمالات إلى الخيارات الأكثر ترجيحًا لكن الموسيقى ليست لغتى، أهذه النوتات الخمس افتتاحية تهويده للأطفال؟ أم نهاية حزينة لمريثة؟ من المستحيل أن أحدد، فبلا بداية ولا نهاية تؤطر النوتات، وبلا لحن يضعها فى مكانها المناسب، بدا أى ما يربط تلك النوتات ببعضها أنه متزعزع وعلى شفا الانهيار، ففى كل مرة تُضرب النوتة الأولى، تمر لحظة من القلق ريثما يتأكد لها ما إذا

كانت رفيقتها ما زالت موجودة أم انحرفت، وفقدت للأبد في مهب الريح، وكذا مع الثالثة والرابعة، أما الخامسة، فلا تبث أى ارتياح، بل تبث شعوراً بأن عاجلاً أو آجلاً ستنهار الروابط الهشة التى تربط هذه النوتات العشوائية، مثلما فعلت روابطها ببقية اللحن، وحتى هذا الفراغ الأخير سيذهب للأبد، تذروه الرياح مثل آخر أوراق شجرة شتوية.

تختفى النوتات بعند كلما حاول عقلى الواعى استدعاءها، وتأتى إلى من حيث لا أدري حين لا أفكر بها، سادرك وأنا غارقة فى عملى مساءً أنها كانت تكرر نفسها فى بالى لبعض الوقت، أو فى السرير حين أتقلب بين النوم واليقظة، سأسمع النوتات عن بعد، تغنى أغنياتها المبهمة لى.

لكننى سمعتها للتو، نوتة وحيدة أولاً، غرقت رفيقاتها فى الأمطار التى تضرب النافذة، قلت لنفسى إنها ليست شيئاً هاماً واستعددت للعودة إلى النوم، لكن فى تلك اللحظة، لحظة ركود العاصفة الممطرة، طفت ثلاث نوتات على المياه.

الليل حالك جداً، والسما مظلمة للغاية لدرجة أن صوت المطر وحده هو ما مكننى من تخيل الحديقة، صوت الدق هو صوت المطر على النوافذ، وصوت الزوابع الرقيقة العشوائية هو صوت هبوط الأمطار على الحشائش، أما صوت التقاطر فهو صوت هبوط المياه عبر المزاريب إلى المصارف، أسمع قطرة وراء الأخرى، المياه تهبط من على أوراق الأشجار إلى الأرض، ووراء كل هذا، وتحتة، وبينه، لو لم أكن مجنونة أو أحلم، تسلفت النوتات الخمس، لا لا لا لا لا.

انتعلت حذائى ذا الرقبة وارتديت معطفى وخرجت إلى الظلمة.

عجزت أن أرى يدي أمام وجهي، لا شيء يُسمع إلا خوض حذائي في الحشائش، لكن عندها التقطت أثر النوتات، صوت خشن غير موسيقي، ليس آلة موسيقية، بل صوت بشري ناشز وواهن.

تتبع النوتات ببطء وتتوقفات متكررة، سرت بطول الحدود الطويلة للحديقة، وحدث إلى داخلها حين بلغت البركة، أو على الأقل هكذا أعتقد أنني ذهبت، ثم ضللت طريقي، تقدمت متعثرة بتربة لينة حيث ظننت أن هناك طريقًا، ولم ينته بي الأمر بجانب أشجار الصنوبر مثلما ظننت، بل وسط بقعة من الشجيرات التي تصل إلى ركبتى ولها أشواك تشبثت بملابسي، منذئذ فقدت الأمل في تحديد موقعي، وتهاديت بأذني فقط، متبعة النوتات كأنها خيط أريادني⁽¹⁾ عبر متاهة لم أعد أميز معالمها، صدر الصوت بمعدلات غير منتظمة، وفي كل مرة كنت أتقدم نحوه، حتى أوقفني الصمت، منتظرة أية إشارة، تُرى لكم من الوقت تخبطت في الظلام بعد ذلك؟ ربع ساعة؟ نصف ساعة؟ كل ما أعرفه أنني في نهاية هذا الوقت وجدت نفسي عدت مجددًا أمام الباب نفسه الذي خرجت عبره من المنزل، لقد تحركت -أو حركني أحد- في دائرة كاملة.

كان الصمت نهائيًا للغاية، ماتت النوتات، وحلت محلها الأمطار التي هطلت مجددًا.

بدلاً من الدخول، جلست على الدكة، وأرخيت رأسي على ذراعي المشبوكين، أشعر بتقاطر الأمطار على ظهري، وركبتى وشعري.

بدأ الأمر يبدو غريبًا أنني تجولت في الحديقة أطارد شيئًا بلا قيمة إلى هذه الدرجة، ونجحت في إقناع نفسي، تقريبًا، بأنني لم أسمع إلا صنع خيالي، ثم تحولت أفكاري نحو اتجاهات أخرى، تساءلت عن

(1) أسطورة أريادني مبنية على قصة أمير شاب تغلب على متاهة كهف عبر ترك طرف حيط عند مدخله وإرجائه كلما تقدم.

موعد إرسال والدى لنصيحته بشأن البحث عن "هيستر"، فكرت بشأن آنجلفيلد، وعبست: ماذا سيفعل "أوريليوس" حين يُهدم المنزل؟ التفكير بشأن آنجلفيلد جعلنى أفكر فى الشبح، وجعلنى أفكر فى شبحى، والصورة التى التقطها له، التى أتلّفها اللون الأبيض، قررت أننى سأهاتف والدتى فى اليوم التالى، لكنه قرار آمن، فلا أحد سيحاسبك على قرار اتخذته فى منتصف الليل.

مكتبة
t.me/t_pdf

ثم أرسل إلى عمودى الفقرى إنذارًا.
شئ ما موجود هنا والآن بجانبى.
انتصبت سريعًا وتطلعت حولى.

الظلام دامس، ما من شئ ولا أحد لأراه، ابتلع الظلام كل شئ، حتى شجرة البلوط الضخمة، وانكمش العالم من حولى إلى عيين تراقبائى وجنون جامح فى قلبى.

ليست السيدة "وينتر"، لن تكون هنا، ليس فى هذا الوقت من الليل.

فمن إذًا؟

شعرت بها قبل أن أشعر بها، تلك اللمسة على جانبى، جاءت وذهبت...

إنه القط، "شادو".

نكزنى مجددًا، وحك خده بضلوعى مجددًا، وماء ببطء إلى حد ما ليعلن عن وجوده، مددت يدى وداعبته وقلبى يحاول العودة إلى إيقاعه، خرخر القط.

قلت له: "إنك مبتل تمامًا، تعالَ أيها السخيف، هذه ليست ليلة مناسبة للخروج من المنزل".

تبعنى إلى غرفتى، ولعق نفسه حتى جف وأنا لففت شعرى فى منشفة، وغططنا فى النوم معًا على السرير، وللمرة الأولى، لم تزرنى أحلامى، ربما بسبب حماية القط.

كان اليوم التالى مملاً وكثيفاً، بعد مقابلتى المعتادة، اصطحبت نفسى فى نزهة بالحديقة، حاولت فى ضوء أول فترة العصر أن أعيد تتبع مسارى فى جناح الليل، كانت البداية سهلة كفاية، سرت حتى نهاية حدود الحديقة الطويلة وعندها حدث إلى داخل الحديقة مع البركة، لكن بعدها ضللت طريقى، تحيرت حين تذكرت أننى خطوت على التربة المبتلة اللينة لأحد أحواض الأزهار، لأن كل الأحواض منبوشة ومنظمة كأنها جديدة، ومع ذلك، أجريت بعض التخمينات غير المنظمة، واتخذت قراراً أو اثنين عشوائياً، واصطحبت نفسى فى مسار دائرى تقريباً، ربما يتتبع مسار نزهتى الليلة، أو ربما لا، أو جزء منها على الأقل.

لم أر شيئاً غير عادى، إلا لو حسبت حقيقة أننى مررت بـ"موريس"، وللمرة الأولى تحدث معى، كان راکعاً على جزء من تربة منبوشة، يسويها وينعمها ويصلحها، شعر بى أقترب على الحشائش خلفه، وتطلع إلى متذمراً: "الثعالب اللعينة"، والتفت مجدداً إلى عمله.

عدت إلى المنزل وبدأت تفرغ ملاحظاتى عن مقابلة الصباح.

التجربة

جاء يوم الفحص الطبى وحضر الطبيب "مودسلى" أمام المنزل، وكالعادة لم يكن "تشارلى" هناك للترحيب بالزائر، أخبرته "هيستر" بشأن زيارة الطبيب بالطريقة المعتادة (رسالة متروكة على صينية خارج جناحه)، ولأنها لم تجد للأمر أى صدى، افترضت وهى محقة أنه لم يهتم بتأثا لذلك.

كانت المريضة فى واحدة من حالاتها المزاجية المتجهمة لكن بلا مقاومة منها، سمحت بأن تُقَاد إلى الغرفة حيث جرى الفحص، واستسلمت للكرز والفحص، وحين طُلب منها أن تفتح فمها وتخرج لسانها رفضت، لكن على الأقل حين أدخل الطبيب أصابعه فى فمها وفصل بيده فكها العلوى عن فكها السفلى ليفحص الداخل، لم تعضه، انسابت عيناها بعيداً عنه وعن أدواته، بدت واعية به ويفحصه وهو أمر نادر الحدوث، ولكن لم تمكن استمالتها لتكلم ولو كلمة واحدة.

وجد الطبيب "مودسلى" أن مريضته مصابة بنقص الوزن وبشعرها قمل، في ما عدا ذلك كانت سليمة جسدياً من كل النواحي، لكن حالتها النفسية أصعب في التشخيص، أكانت الطفلة -مثلما لمح "جون ذا ديج"- مختلة عقلياً؟ أم أن سلوك الفتاة ناتج عن إهمال الوالدين وغياب النظام؟ هذا رأى سيدة الخدم التى تميل دائماً -في العلن على الأقل- إلى العفو عن الفتاتين.

لم يكن هذان الخياران الوحيدين في ذهن الطبيب حين فحص التوأم الجامحة، ففي الليلة الماضية بيته، والغليون في فمه، ويده على الموقد، كان مستغرقاً في التفكير بصوت عالٍ بشأن الحالة (وقد استمتع باستماع زوجته له، فهذا يلهمه بلاغة أعظم)، يعدد مواقف سوء السلوك التى سمع بها، كالسرقة من بيوت القرويين، وتخريب الحديقة، والعنف الذى تُنزله بـ"إيميلين"، وانبهارها بأعواد الكبريت، كان يفكر ملياً في التفسيرات المحتملة، حين اقتحم عقله صوت زوجته الناعم: "ألا تعتقد أنها ببساطة شريرة؟"

لوهلة أعجزته مفاجأة أنها قاطعته عن أن يجيب.

قالت: "إنه مجرد اقتراح"، ملوحة بيدها تحثه على تجاهل عبارتها، تكلمت برقة، لكن هذا بالكاد مثل فارقاً، فحقيقة أنها تكلمت من الأساس كانت كافية لتعطى لكلماتها وزناً.

ثم كانت "هيوستر".

قالت له: "ما يجب أن تضعه باعتبارك هو أن في غياب أى تعلق قوى بالأهل، وبلا أى إرشاد قوى من أى جهة أخرى، تَشَكُل كامل نمو الطفلة حتى اليوم من خلال تجربة التوأم، أختها هى الشئ الوحيد الثابت والدائم في وعيها، وبالتالي فإن عالمها بالكامل يتشكل من خلال منظور علاقتهما".

وبالطبع هى محقة جدًا، لم تكن لديه فكرة عن من أى كتاب أتت "هيوست" بهذه الفكرة، لكنها بالتأكيد قرأتها بتمعن، لأنها شرحت الفكرة على نحو منطقى للغاية، استمع إليها وهو مندهش جدًا من صوتها الرقيق الغريب، فعلى الرغم من طبقة الأنثوية بالفطرة، له قوة ذكورية ليست بالقليلة، كانت واضحة، ولديها عادة مسلية أن تعبر عن آرائها بالنبرة الآمرة الموزونة نفسها التى تشرح بها نظرية ما ذات مكانة قرأت عنها، وحين تسكت لحظة لتتنفس فى نهاية جملة، تلقى عليه نظرة سريعة -أحس الأمر مربكًا فى أول مرة، لكنه الآن يعتبره طريقًا جدًا- لتعرفه إذا ما كان مسموحًا له بالكلام أم أنها تنوى متابعة حديثها.

"يجب أن أجرى بعض الأبحاث"، هكذا أخبر هيوست حين تقابلا لمناقشة أمر المريضة بعد الفحص، "وبالتأكيد سأدرس بتمعن أهمية كونهما توأمين".

أومات هيوست وقالت: "هكذا أرى الأمر، يمكن أن ترى التوأمين بطرق عدة كأن مجموعة من الصفات انقسمت بينهما، فالشخص العادى السليم يشعر بنطاق كامل من المشاعر المختلفة، ويظهر تنوعًا كبيرًا فى السلوكيات، أما التوأمين، فيمكن القول إن لديهما نطاق من المشاعر والسلوكيات مقسوم على اثنين، لكل منهما مجموعة، إحداها جامحة وميالة إلى نوبات الثورة الجسدية، والأخرى كسول ومستسلمة، واحدة تفضل النظافة، والأخرى تشتهى القذارة، واحدة لديها شهية بلا نهاية للطعام، والأخرى تستطيع أن تجوع نفسها لأيام، والآن، إن كانت هذه القطبية -يمكن أن نتجادل لاحقًا بشأن مدى وعيها بوجودها- مصيرية لشعور (آديلاين) بشخصيتها، ألا يبدو الأمر غير مفاجئ أن تقمع داخل نفسها كل شيء يقع برأيها ضمن حدود (إيميلين)؟" كان السؤال بلاغيًا، فهى لم تلمح للطبيب بأنه يمكنه التكلم بعد، لكنها أخذت نفسًا موزونًا وتابعت: "والآن فكر

في صفات الفتاة التي في الغشاوة، إنها تستمع إلى القصص، وقادرة على الفهم والتأثر بلغة غير لغة التوأمتين، وهذا يشير إلى استعداد للانخراط مع أشخاص آخرين، لكن من منهما حُصصت لها مهمة الانخراط مع الآخرين؟ إنها (إميلين)! لذا تضطر (آديلاين) إلى قمع هذا الجزء من طبيعتها البشرية".

حولت "هيستر" وجهها إلى الطبيب وأشارت بنظرة إلى أنه دوره ليتحدث.

أجاب بحذر: "إنها فكرة مثيرة للفضول، لا بد أنني فكرت في العكس، أن كونهما توأمين يجعلك تتوقعين أنهما متشابهتان أكثر مما هما متناقضتان".

قاطعته سريعاً: "لكننا نعرف من الملاحظة أن الأمر ليس هكذا".
"هممم".

لم تتكلم، لكن تركته يفكر، حدق هو إلى الجدار المصمت، يفكر بعمق وهي تلقى نظرات خاطفة قلقة تجاهه، محاولة التنبؤ بوقع نظريتها عليه من وجهه، ثم كان مستعداً للتصريح بما بباله:

"فكرتك هذه مثيرة للاهتمام"، ورسم ابتسامة ودية لتخفيف وقع رفضه، "لكنني لا أذكر قط قراءتي عن مثل هذا الانقسام في الشخصية بين توأمين في أية وثائق".

تجاهلت ابتسامته ونظرت إلى عينيهِ ببرود: "لا هذا ليس في الوثائق، كان يمكن أن يوجد في كتب معينة، لكنه غير موجود".

"وهل قرأت مثل تلك الكتب؟"

"بالتأكيد، لا أتخيل أن أصرح برأبي بأي موضوع دون التأكد من مرجعي أولاً".

"أوه".

"تذكرنى هذه الحالة بحالة (توأى بيرو) المذكورة فى أحد الكتب، مع أن الكاتب لا يذكر الاستنتاج الكامل الذى قد يخلص القارئ إليه".
"أذكر المثل الذى تقصدينه..." وحينها بدأ يلين قليلاً، "نعم! أرى الآن العلاقة بينهما! أتساءل إذا ما كانت دراسة حالة (براسينبى) لها أى أهمية هنا؟"

"لم أتمكن من الحصول على نسخة كاملة من الدراسة، أتمكنك إعارتها لى؟"

وحينها بدأ.

أمام انبهار الطبيب بفطنة ملاحظات "هيستر"، أعارها دراسة حالة (براسينبى)، وحين ردتها، وجد ورقة ملحقة بها تضم ملاحظات وأسئلة مصوغة ببلاغة، وفى غضون ذلك، كان هو قد حصل على عدد من الكتب الأخرى والمقالات لتكملة مكتبته عن التوائم، إضافة إلى مقالات منشورة حديثاً ونسخ من أعمال قيد التنفيذ من متخصصين عدة، وأعمال أجنبية، واكتشف بعد أسبوع أو اثنين أن كان بإمكانه توفير وقته عبر تمرير كل ذلك إلى "هيستر" أولاً، وأن يقرأ الخلاصة المختصرة والذكية التى كتبها فقط، وفى ما بينهما، قرأ كل شيء تمكن قراءته، وعاداً إلى ملاحظاتها، كلاهما جمع ملاحظاته، ملاحظاته الطبية، وملاحظاتها النفسية، هناك توضيحات غزيرة بخط يده فى هوامش مخطوطاتها، وهى بدورها دونت ملاحظات أكثر على مخطوطاته، وأحياناً كانت ترفق مقالاتها المفحمة فى أوراق منفصلة. قرأ، وفكر، وكتب، والتقى، وتناقشا، واستمرا فى ذلك حتى عرفا كل ما تمكن معرفته عن التوائم، لكن تبقى شيء لم يعرفاه، وهو الشيء الوحيد الهام.

قال الطبيب: "كل هذا العمل، وكل هذه الأوراق، ولم نقرب بعد"، ومرر يده عبر شعره بطريقة عصبية، لقد أخبر زوجته أنه سيعود

في السابعة والنصف، وأنه سيتأخر، "هل بسبب (إميلين) تقمع (آديلاين) الفتاة في الغشاوة؟ أعتقد أن إجابة هذا السؤال تقع خارج نطاق المعرفة الحالية"، وتنهد، وطرح قلمه على المكتب، بنصف انزعاج، ونصف استسلام.

"أنت محق، إنها خارجة"، يمكن أن تسامحها لأنها تبدو سريعة الغضب: فقد استغرق الأمر أربعة أسابيع ليتوصل إلى الاستنتاج الذي قالته له في البداية، فقط لو كان مستعدًا للاستماع إليها.

التفت إليها.

قالت بهدوء: "هناك طريقة واحدة فقط لنعرف".

رفع حاجبه.

"خبرتي وملاحظاتك تقودني إلى الاعتقاد بأن هناك مجالاً لمشروع بحثي أصلي هنا، بالتأكيد بما أنني مجرد معلمة منزلية ستواجهني صعوبة في إقناع جهة نشر مناسبة بنشر أي شيء سأتوصل إليه، سيلقون نظرة على مؤهلاتي ويظنون أنني لست إلا امرأة سخيفة لديها أفكار تتجاوز تخصصها"، هزت كتفيها وأطرقت عينيها إلى الأرض: "ربما هم محقون، وهذه حقيقتي، ولكن"، وتطلعت بعينيها بمكر، "رجل له خلفية ومعرفة مناسبة، بالتأكيد سيجد هنا مشروعًا مغريًا".

بدا الطبيب في البداية متفاجئًا، ثم استغرق في التفكير، بحث أصلي! الفكرة تبدو معقولة، وفاجأته أيضًا حقيقة أن في هذه اللحظة وبعد تراكم قراءاته خلال الأشهر الأخيرة، هو بالتأكيد الطبيب الأكثر اطلاعًا بشأن التوائم في البلاد! من غيره يعرف ما يعرفه؟ علاوة على ذلك، من غيره لديه دراسة الحالة المثالية بين يديه؟ بحث أصلي؟ لم لا؟

تركته يستمتع بالفكرة لبضع دقائق، وحين رأت أن اقتراحها قد انغرس في قلبه، غمغمت: "بالتأكيد إن احتجت إلى مساعدة، سيسرني أن أساعد بأي طريقة ممكنة".

"هذا لطف بالغ منك"، وأوماً، "بالطبع، لقد عملت مع الطفلتين.. الخبرة العملية.. لا تُقدر بثمن.. لا تُقدر بأي ثمن".

ترك المنزل وعاد إلى بيته بعقل خفيف، فلم يلحظ أن العشاء قد برد، وأن زوجته بمزاج سيئ.

جمعت "هيوست" الأوراق من على المكتب وتركت الغرفة، خطواتها المنتظمة وإغلاقها الباب بحزم أعطيا انطباعاً بالرضا.

بدأت المكتبة خاوية، لكن هذا غير صحيح.

فهناك فتاة تعض أظفارها وتفكر وهي مستلقية بطولها أعلى رفوف الكتب.

بحث أصلي.

هل بسبب (إيميلين) تقمع (آديلاين) الفتاة في الغشاوة؟

لم يتطلب الأمر عبقرياً ليستنتج ما سيحدث.

فعلاً ذلك ليلاً.

"إيميلين" لم تثر حين أخذها من سريرها، لا بد أنها شعرت بالأمان بين ذراعي "هيوست"، ربما ميزت رائحة الصابون خلال نومها وهي محمولة إلى خارج الغرفة وبطول الممر، أياً كان السبب، فإنها لم تدرك في تلك الليلة ما يحدث، لكن استيقاظها على الحقيقة كان على بُعد ساعات.

لكن الأمر كان مختلفاً مع "آديلاين"، فقد استيقظت فجأة ولم تجد أختها، اندفعت نحو الباب لكنها وجدته قد أقفل بالفعل.

بيدي "هيوست" السريعتين، وأدركت كل ما يحدث سريعًا، وشعرت به، أحست بشعور البتر، لم تصرخ، ولم تسدد لكلماتها إلى الباب، ولم تخدش القفل بأظفارها، لقد غادرتها كل طاقة الغضب، سقطت إلى الأرض، انهارت إلى كومة صغيرة أمام الباب، وبقيت مكانها طوال الليل، ألواح الأرضية العارية وخزت عظامها البارزة، لكنها لم تشعر بالألم، لا توجد نار تدفئة بالغرفة، ورداء نومها رقيق، لكنها لم تشعر بالبرد، لم تشعر بشيء، كانت محطمة.

حين أتيا إليها في الصباح التالي، لم يثرها صوت المفتاح في القفل، ولم تتحرك حين أزاحها الباب المفتوح من طريقه، عيناها ميتتان، وبشرتها شاحبة كالموت، إنها باردة للغاية، ربما هي جثة، لولا فقط رعشة شفتيها التي لا تتوقف، تكرر تعويذة صامتة، ربما تقول: "إيميلين"، "إيميلين".

رفعت "هيوست" "آديلاين" بين ذراعيها، بلا صعوبة، كانت سن الطفلة حينئذ أربعة عشر عامًا، لكنها لم تكن إلا جلدًا على عظم، كل قوتها في إرادتها، وحين ذهبت إرادتها، كان ما تبقى لا يذكر، هبطا بها السلم بسهولة كأنها وسادة من الريش على وشك أن تطير.

قاد "جون" السيارة صامتًا، فموافقته أو عدمها لم تشكل فارقًا، إذ تولت "هيوست" اتخاذ القرارات.

أخبرا "آديلاين" أنها ذاهبة لرؤية "إيميلين"، وهي كذبة لم تكن ضرورية، كان بإمكانهما أخذ "آديلاين" إلى أي مكان وهي لن تقاومهم، إنها تشعر بالضيق، غائبة عن نفسها، هي لا شيء ولا أحد من دون أختها، ما أخذه إلى منزل الطبيب كان مجرد هيكل بشري، وتركوها هناك.

وفي المنزل، نقلوا "إيميلين" من السرير بغرفة "هيوست" إلى سريرها من دون إيقاظها، ونامت لساعة أخرى، وحين فتحت عيناها كانت

متفاجئة قليلاً باختفاء أختها، ومع مرور الصباح زادت مفاجأتها، متحولة إلى قلق في فترة العصر، فتشت المنزل، فتشت الحدائق، ذهبت إلى أبعد ما تجرؤ عليه في الغابة، والقرية.

في وقت شاي الظهيرة، وجدتتها "هيستر" عند حافة الطريق، محدقة إلى الاتجاه الذي قد يأخذها، لو سارت فيه، إلى عتبة بيت الطبيب، لكنها لم تجرؤ على السير فيه، وضعت "هيستر" يدها على كتف "إيميلين" وجذبتهما، وأخذتهما إلى المنزل، وبين الحين والآخر، توقفت "إيميلين"، مترددة، تريد العودة، لكن "هيستر" أخذت بيدها وأرشدتها بحزم إلى طريق البيت، تبعتهما "إيميلين" بخطوات مستسلمة، ومرتبكة، بعد الشاي وقفت إلى جوار النافذة وتطلعت إلى الخارج، ازداد خوفها مع تلاشي الضوء، لكن لم يكن إلا حين أقفلت "هيستر" الأبواب وبدأت روتين نوم "إيميلين" أن أصابها الهلع.

بكت طوال الليل، شهقات متقطعة بدا كأنها ستستمر للأبد، فما انكسر في لحظة لدى "آديلاين"، استغرق أربعاً وعشرين ساعة مؤلمة لينكسر لدى "إيميلين"، لكن حين جاء الفجر، كانت هادئة، لقد انتحبت وارتجفت حتى النسيان.

إبعاد كلتا الفتاتين عن الأخرى ليس إبعاداً عادياً، تخيل أن تنجو من زلزال، وبعدهما تنجو، تجد العالم قد فقد معالمه المميزة، الأفق مكانه مختلف، والشمس لونها مختلف، لا شيء تبقى من الأرض التي عرفتها "إيميلين"، أنت على قيد الحياة بنظرك، لكن الحياة لم تعد كما كانت، لا عجب أن الناجين من مثل هذه الكوارث كثيراً ما يتمنون لو هلكوا مع الهالكين.

جلست السيدة وينتر تحديق إلى الفراغ، شعرها النحاسى الشهير يخفت إلى لون مشمشى فاتح، لقد هجرت بخاخ شعرها وحالت لفافاته المتماسكة إلى كتلة متشابكة ناعمة بلا ملامح، لكن وجهها كان جامدًا وجسدها متيبسًا، كأنها تقوى نفسها في مواجهة رياح عاتية لم يشعر بها أحد غيرها، وببطء أدارت عينيها إلى عيني.

سألتنى: "أأنت بخير؟ (جوديث) تقول إنك لا تأكلين كثيرًا".

"هكذا أنا دائمًا".

"لكنك تبدين شاحبة".

"ربما متعبة قليلًا".

أنهينا قصة اليوم مبكرًا، أظن أن كلينا لم يرد الاستمرار.

هل تصدقين وجود الأشباح؟

في المرة التالية التي رأيته فيها، بدت السيدة "وينتر" مختلفة، أغلقت عينيها بضجر واستغرقت أكثر مما تستغرق عادة لتستحضر الماضي وتبدأ في الكلام، شاهدتها وهي تجمع خيوط القصة، ولاحظت أنها نزعت رموشها الصناعية، رأيت تظليل العينين الأرجواني المعتاد، وخط العين الأسود الكبير، لكن في غياب الرموش الطويلة بدت على نحو غير متوقع كطفلة كانت تلعب بصندوق مستحضرات تجميل والدتها.

لم تسر الأمور مثلما توقعت "هيستر" والطبيب، لقد استعدا لـ "أديلاين" التي سوف تصرخ وتغضب وتضرب وتثور، أما "إميلين"، فقد اعتمدت على عاطفتها تجاه "هيستر" لتصلحها على غياب أختها المفاجئ، باختصار، توقعا سلوك الفاتين الذي عرفاه ولكن كل منهما

على حدة، وبالتالي تفاجأ في البداية بانهيار الطفلتين إلى دمتين بلا حياة.

ليستا بلا حياة تمامًا، فالدم استمر بالسريان ببطء في عروقهما، وابتلعتا الحساء الذى يوضع بفميهما في أحد المنزلين بواسطة سيدة الخدم، وفي الآخر بواسطة زوجة الطبيب، لكن البلع لا إرادى، وهما بلا شهية، وأعينهما المفتوحة خلال اليوم لا ترى، ولا تحظى براحة النوم في الليل، مع أنها مغلقة، إنهما مفصoltان، تشعران بالوحدة، إنهما في غياهب الضياع، كالبتر، لكن المبتور ليس عضوًا، بل روحيهما.

هل شكك العالمان في نفسيهما؟ هل توقفا وتساءلا إذا ما كان ما يفعلانه صحيحًا؟ هل سلط جسدا الفتاتين المرتخين غير الواعين ضوءً من الشك على مشروعهما الجميل؟ بالتأكيد لم يكونا قاسيين برغبتهما، لكنهما كانا أحمقين، ضللهما ما عرفاه، وطموحهما، والعمى المخادع للذات.

أجرى الطبيب اختبارات، ووقفت "هيستر" لتلاحظ، وتقابلا يوميًا لمقارنة ملاحظاتهم، ومناقشة ما اعتبراه في البداية على نحو متفائل تقدمًا، جلسا معًا وراء مكتب الطبيب، أو في مكتبة "أنجلفيلد"، رأسيهما منكبين على الأوراق التى سجلت كل تفصيلة في حياة الطفلتين، السلوك، النظام، النوم، حيرهما غياب الشهية، والميل إلى النوم طوال الوقت، ذلك النوم الذى لم يكن نومًا، اقترحا نظريات لتفسير التغيرات التى طرأت على الطفلتين، لم تسر التجربة على ما يرام مثلما توقعنا، بل في الواقع بدأت على نحو كارثى، لكن العالمان تغافلا عن احتمالية أنهما ربما يتسببان بأذى، بل فضلا التمسك بالاعتقاد بأنهما معًا يمكن أن يصنعا معجزة.

استمد الطبيب الكثير من الرضا من حادثة فكرة العمل للمرة الأولى منذ عقود مع عقل علمى من الدرجة الأولى، وتعجب من

قدرة تلميذته على فهم مبدأ علمي ثم تطبيقه بأصالة وفكر احترافي في غضون دقيقة، لم يمر الكثير من الوقت قبل أن يعترف لنفسه بأنها تعد زميلة أكثر من كونها تلميذة، وسرت "هيستر" بفكرة أن أخيراً عقلها يتغذى ويواجه التحديات على نحو كافٍ، خرجت من اجتماعاتهما اليومية متقدة بالحماس والسرور، لذا فإن عماهما لم يكن إلا أمراً طبيعياً، وكيف يُنتظر منهما أن يفهما أن ما ينفعهما إلى هذا الحد يمكن أن يتسبب بأذى كبير للفتاتين اللتين تحت رعايتهما؟ إلا لو ربما، وفي المساء في حين يجلس كل منهما وحيداً لتدوين ملاحظات اليوم، رفعاً عنيهما تجاه الطفلة الساكنة ذات العينين الميتين الجالسة على الكرسي في الزاوية ومرر الشك بعقليهما، ربما، لكن إن حدث ذلك، فإنهما لن يسجلانه في ملاحظتهما، ولن يتحدثا بشأنه.

استغرقا كثيراً في جهودهما المشتركة لدرجة أنهما لم يلحظا أن مشروعهما الضخم لا يحرز أي تقدم، فـ"إيميلين" وـ"آديلاين" كانتا كالمشلولتين، والفتاة في الغشاوة لم تظهر مطلقاً، لم يردعهما غياب أي اكتشافات، واستمر العالمان في عملهما: رسما الجداول والرسوم البيانية، واقتراحا نظريات وطورا تجارب موسعة لاختبار النظريات، ومع كل فشل، قالوا لنفسيهما إنهما قد استبعدا شيئاً من مجال التجارب، وانتقلا إلى الفكرة اللاحقة التالية.

شاركت سيدة الخدم وزوجة الطبيب أيضاً، ولكن بطريقة مباشرة، فالعناية الجسدية بالفتاتين مسئوليتهما، ترفعان الملاعق إلى فمى الفتاتين بالحساء بلا مقاومة منهما ثلاث مرات يومياً، تلبسان الفتاتين، وتحممانهما، وتغسلان ملابسهما، وتمشطان شعرهما، كل منهما لديها أسبابها لرفض المشروع، كل منهما لديها أسبابها للسكوت بشأن أفكارها، أما "جون ذا ديج" فكان بعيداً عن كل هذا، لم يطلب أحد رأيه، لكن ذلك لم يمنعه من الإدلاء به يومياً لسيدة الخدم في المطبخ: "لن يعود هذا بأي خير، حقاً، لا خير مطلقاً".

حينئذ جاءت لحظة ربما كان يجب أن يستلما عندها، كل خططهما لم تتوصل إلى شيء، وفقد أي أثر لأيّة حيلة جديدة يريدان تجربتها، مع أنهما عذبا عقليهما في سبيل ذلك، عند تلك اللحظة تحديداً، اكتشفت "هيوست" علامات تحسن بسيطة لدى "إيميلين"، إذ أدارت الطفلة رأسها نحو نافذة، ووجدتها "هيوست" تتشبث بدمية ما لامعة، ولا تنفصل عنها أبداً، وبالتنصت عبر الأبواب (وهو بالمناسبة ليس سلوكاً سيئاً إن مورس باسم العلم)، اكتشفت "هيوست" أنها حين ترك الطفلة وحيدة، كانت تهمس لنفسها بلغة التوأمين القديمة.

قالت للطبيب: "إنها تهدئ نفسها عبر تخيل وجود أختها".

بدأ الطبيب نظام ترك "آديلاين" وحدها لفترات تمتد لساعات ويتنصت عبر الباب حاملاً مفكرة وقلمًا في يديه، ولم يسمع شيئاً.

ذكرت "هيوست" والطبيب نفسيهما بالحاجة إلى الصبر في حالة "آديلاين" الأكثر خطورة، وهنّأ نفسيهما على التحسن في حالة "إيميلين"، ولاحظا بتفاؤل زيادة شهية "إيميلين"، واستعدادها للوقوف، والخطوات الأولى لها من تلقاء نفسها، لاحقاً كانت تتجول في المنزل والحديقة مجدداً بشيء من عشوائيتها القديمة، وبالطبع، اتفقت "هيوست" والطبيب على أن التجربة أصبحت الآن في مسارها لتحقيق نتيجة! من الصعب معرفة ما إذا كانا قد توقفا للحظة للتفكير في أن ما اعتبراه "تحسناً" هو في الواقع عودة "إيميلين" إلى عاداتها التي أظهرتها قبل بدء التجربة.

لم تتوقف حركة "إيميلين" على التجول العشوائي، ففي يوم مخيف، تبعت أنفها إلى خزانة مملئة بملابس قديمة اعتادت أختها ارتدائها، وحملتها إلى وجهها، واشتمت تلك الرائحة العفنة الحيوانية، ثم غطت نفسها بها بسرور، كان الأمر غريباً، لكن الأسوأ لم يأت بعد؛ فبعدما ارتدت ملابسها، لمحت نفسها في المرآة وظنت أن الانعكاس هو أختها،

فجرت نحوه بتهور، كان صوت اصطدامها عاليًا كفاية لتأق سيدة الخدم مسرعة، حيث وجدت "إيميلين" تنتحب بجوار المرأة، لا تبكي لتألمها، بل من أجل أختها المسكينة التي تكسرت إلى قطع صغيرة وتنزف.

أخذت "هيستر" منها الملابس وأمرت "جون" بحرقها، وللمزيد من الحذر، طلبت من سيدة الخدم أن تدير كل المرايا لتواجه الجدران، أصاب ذلك "إيميلين" بالحيرة، لكن لم يحدث مثل هذه الحوادث مجددًا.

إنها ترفض التكلم، فعلى الرغم من كل الهمس المنعزل الذي تهمسه وراء الأبواب المغلقة، الذي يكون دائمًا بلغة التوأمين القديمة، تعذر إقناع "إيميلين" بقول كلمة واحدة بالإنجليزية إلى سيدة الخدم أو لـ "هيستر"، كان ذلك شيئًا يستدعى الاجتماع والتشاور، فعقدت "هيستر" والطبيب اجتماعًا مطولاً في المكتبة، خلاصاً في نهايته إلى أن لا داعي للقلق، "إيميلين" يمكن أن تتكلم، وستتكلم، إنها مسألة وقت فقط، ورفضها للكلام، وحادثتها المرأة، هى خيبات أمل بالطبع، لكن العلم قد يخيب الأمل أحيانًا، المهم هو التقدم المحرز حتى الآن! أليست "إيميلين" قوية كفاية ليُسمح لها بالخروج من المنزل؟ وقد قضت وقتًا أقل هذه الأيام في التلكؤ عند جانب الطريق، عند الحاجز الخفى الذى لم تجرؤ على تجاوزه، تحقق في اتجاه منزل الطبيب، الأمور تسير بأفضل نحو يمكن توقعه.

تقدم؟ لم يكن ذلك ما أملاه في البداية، لم يكن ذلك شيئًا يُذكر بالمقارنة بما حققته "هيستر" مع "إيميلين" حين وصلت، لكنه كان كل ما توصلوا إليه، وقد استغللاه لأقصى درجة ممكنة، ربما يشعران سرًا بالارتياح، فماذا يمكن أن تكون نتيجة النجاح الحاسم؟ النجاح الحاسم

سيلغى كل أسباب تعاونهما المستمر، ومع أنهما كانا غافلين عن تلك الحقيقة، فإنهما لم يكونا ليريداها.

لن ينهيا التجربة من تلقاء نفسها أبدًا، أبدًا، سيتطلب الأمر شيئًا آخر، شيئًا خارجيًا، لوضع نهاية لها، شيء جاء بلا مقدمات.

"ماذا حدث؟"

مع أنها نهاية وقتنا معًا، ومع أنها بدت كنيبة منسحبة مثلما تبدو حين يقترب موعد دوائها، ومع أنني كنت ممنوعة من الأسئلة، لم أستطع منع نفسي.

على الرغم من ألمها، كان هناك بريق أخضر من الشقاوة في عينيها مع ميلها إلى الأمام بثقة.

"أتصدقين وجود الأشباح يا (مارجريت)؟"

هل أصدق وجود الأشباح؟ ماذا عساي أن أقول؟ أومأت.

تراجعت السيدة "وينتر" في مقعدها راضية، وأصبح لدى الانطباع المؤلف إلى حد ما بأنني بحث بأكثر مما ظننت.

"(هيستر) لم تصدق، فالأمر ليس علميًا، لذا، ولعدم تصديقها بوجودهم، فإنها تضطرب للغاية إن رأت شيئًا".

هكذا آلت الأمور:

في نهار مشرق، بعد أن أنهت "هيستر" أعمالها وتبقى لها الكثير من وقت الفراغ، تركت المنزل مبكرًا وقررت أن تسلك الطريق الطويل إلى بيت الطبيب، كانت السماء زاهية بشكل رائع، والهواء

منعشًا ونقيًا، وشعرت بأنها مليئة بطاقة شديدة لم تعرف لها اسمًا، لكن ذلك جعلها تتوق إلى ممارسة نشاط مرهق.

الطريق حول الحقول قادها إلى مرتفع بسيط، ليس بارتفاع هضبة لكنه كشف لها مشهدًا رائعًا من الحقول والأراضي حولها، كانت في منتصف الطريق إلى منزل الطبيب تقريبًا، تشد الخطى بنشاط، وقد ارتفع نبضها لكن بلا أدنى شعور بالإرهاق، لديها شعور قوى بأن بإمكانها التحليق فقط لو أرادت، حين رأت شيئًا جمدها مكانها.

رأت في الأفق "إيميلين" و"آديلاين" تلعبان معًا في أحد الحقول، لا تخطئهما العين، لديهما عرفان من الشعر الأحمر، وزوجان من الأحذية السوداء، إحدى الطفلتين ترتدي الفستان القطنى الأزرق الذى ألبسته السيدة لـ"إيميلين" في هذا الصباح، والأخرى ترتدي الأخضر. هذا مستحيل.

لكن لا، "هيستر" مؤمنة بالعلم، إنها تراهما، وبالتالى هما موجودتان، لا بد أن هناك تفسيرًا لذلك، هربت "آديلاين" من بيت الطبيب، وقد تخلى عنها سباتها فجأة مثلما جاء، واستغلت فرصة وجود نافذة مفتوحة أو مجموعة مفاتيح متروكة بلا رقيب، وهربت قبل أن يلاحظ أحد تعافيهما، وهذا كل ما فى الأمر.

ما العمل؟ الجرى نحوهما سيكون بلا جدوى، فهى ستضطر إلى الاقتراب منهما عبر مساحة ممتدة من الحقول المفتوحة وستريانهما وتهربان قبل حتى أن تقطع نصف المسافة، لذا ذهبت مسرعة إلى بيت الطبيب.

وصلت فى لمح البصر، تطرق الباب بصبر نافد، فتحت لها السيدة "مودسلى"، زامة شفيتها أمام الجلبة التى أحدثتها، لكن "هيستر" ببالتها أشياء أهم من الاعتذار، فتجاوزتها مندفعة إلى باب العيادة، ودخلت دون استئذان.

تطلع الطبيب، واندھش لرؤية وجه زميلته فائراً من الجرى، وشعرها، الذى يكون عادة منمقاً جداً، خارجاً عن السيطرة، كانت تلهث، أرادت أن تتكلم، لكن لوهلة لم تستطع.

سألها وهو ينهض عن كرسيه ويلتف حول المكتب ليضع يديه على كتفيها: "ماذا حدث؟"

قالت لاهثة: "(آديلاين)! لقد تركتها تخرج!"

عبس الطبيب مرتبكاً، لف "هيستر" بكتفها حتى أصبحت تواجه الجانب الآخر من الغرفة.
حيث وجدت "آديلاين".

التفتت "هيستر" مجدداً إلى الطبيب: "لكننى رأيتها للتو! مع (إيميلين)! عند حافة الغابات بعد حفل (أوتس)..."، حين بدأت الكلام كان صوتها قوياً كفاية، لكن القوة تخلت عنه حين بدأت تتسائل.

قال الطبيب: "هدئى من روعك، اجلسى، خذى رشفة ماء".

حاولت هيستر أن تفسر الأمر: "لا بد أنها ركضت، كيف يمكن أنها خرجت وعادت بهذه السرعة؟"

"لقد كانت فى هذه الغرفة خلال الساعتين الماضيتين، منذ الإفطار، لم تُترك دون مراقبة طوال ذلك الوقت"، ونظر إلى عيني "هيستر" المنفعلتين وأضاف: "لا بد أنها طفلة أخرى، من القرية"، محافظاً على ليافته الطبية.

"لكن..." وهزت "هيستر" رأسها: "كانت ترتدى ملابس (آديلاين)، ولها شعر (آديلاين)".

تحولت "هيستر" لتنظر إلى "آديلاين" مجدداً، عيناها المفتوحتان كانتا غير مباليتين بالعالم، لم تكن مرتدية الفستان الأخضر الذى رآته

"هيستر" منذ بضع دقائق، بل الفستان الأزرق الأنيق، وشعرها لم يكن مفكوكًا، بل مضفرًا.

ملأت الحيرة عيني "هيستر" اللتين عادتا إلى الطبيب، وتنفسها لم يكن مستقرًا، ولا يوجد تفسير عقلائي لما رأيته، كان شيئًا غير علمي، وقد عرفت "هيستر" أن العالم يتحرك على نحو علمي تمامًا، يمكن أن يكون هناك تفسير واحد: "لا بد أنني جننت"، أو هكذا همست، اتسع بؤبؤا عينيها وارتجف أنفها: "لقد رأيت شيئًا!"

امتلات عيناها بالدموع.

أثار ذلك لدى الطبيب شعورًا غريبًا أن يرى زميلته خاضعة لمثل هذه الحالة من الانفعال العشوائي، ومع أن العالم بداخله هو من أعجب في البداية بـ "هيستر" لبرود أعصابها ورجاحة رأيها، فإن الرجل بداخله، بغريزته وحيوانيته، هو الذي استجاب لانهايارها عبر مد ذراعيه حولها ووضع شفثيه بقوة على شفثيها بتطويق شهواني.

لم تستجب "هيستر".

التنصت عبر الباب ليس تصرفًا سيئًا لو تم باسم العلم، وقد كانت زوجة الطبيب عاملة متحمسة حين يتعلق الأمر بدراسة زوجها، القبلية التي أدهشت الطبيب و"هيستر" لم تفاجئ السيدة "مودسلي" مطلقًا، التي كانت تتوقع شيئًا كهذا منذ فترة.

دفعت الباب واندفعت إلى داخل العيادة في نوبة من الطهارة الغاضبة.

قالت لـ "هيستر": "شاكرك إن خرجت من هذا المنزل في الحال، يمكنك إرسال (جون) بعربة الأحصنة ليأخذ الطفلة".

ثم التفتت إلى زوجها: "سأتحدث معك لاحقًا".

انتهت التجربة، وانتهت أشياء أخرى عديدة.

أحضر "جون" "آديلاين"، ولم يرَ الطبيب ولا زوجته في المنزل، لكنه عرف من الخادمة بشأن أحداث الصباح.

وفي البيت، أعاد "آديلاين" إلى سريرها القديم في الغرفة القديمة وترك الباب مواربًا.

رفعت "إيميلين" في أثناء تجولها في الغابة رأسها، وتنشقت الهواء، وتحولت مباشرة إلى البيت، دخلت عبر باب المطبخ، وصعدت السلم دون التفات، تتجاوز درجتين في كل خطوة وانطلقت بلا تردد نحو الغرفة القديمة، وأغلقت الباب وراءها.

و"هيوستن"؟ لم يرها أحد تعود إلى المنزل، ولم يسمعها أحد ترحل، لكن حين طرقت سيدة الخدم على بابها في الصباح التالي، وجدت غرفتها الصغيرة الأنيقة فارغة، وهي قد رحلت.

استفقت من سحر القصة في مكتبة السيدة "وينتر" ذات الزجاج والمرايا.

سألت: "إلى أين ذهبت؟"

نظرت إلى السيدة "وينتر" ببعض العبوس: "ليست لدى فكرة، وما أهمية ذلك؟"

"لا بد أنها ذهبت إلى مكان ما".

نظرت إلى القاصة بطرف عيناها: "آنسة (ليا)، لا يفيد أن تتعلقي بهذه الشخصيات الثانوية، إنها ليست قصصهم، إنهم يأتون، ويذهبون، وحين يذهبون فإنهم يختفون، وهذا كل ما في الأمر".

أزلقت قلمي داخل حلزون مفكرتي ومشيت إلى الباب، لكن حين وصلت إليه، التفت.

"إِذَا، فَمَنْ أَيْنَ أَتَتْ؟"

"يا إلهي! لم تكن إلا معلمة منزلية! إنها غير هامة، أؤكد لك".

"لا بد أن كان لها توصيات، مثل عملها السابق، أو حتى رسالة تقدم للعمل عليها عنوان منزلها، ربما جاءت عبر وكالة؟"

أغلقت السيدة "وينتر" عينيها، وظهر على وجهها تعبير عن المعاناة الطويلة: "السيد (لوماكس)، محامي عائلة (آنجلفيلد)، ستكون لديه كل التفاصيل، أنا متأكدة، ليس معنى ذلك أنها ستفيدك، فهذه قصتي، وأنا يجب أن أعرف، مكتبه بشارع ماركت في بانبري، سأوصيه بالإجابة عن كل أسئلتك".

كتبت رسالة إلى السيد "لوماكس" في تلك الليلة.

ما بعد "هيوستر"

في الصباح التالي، حين جاءت "جودث" بصينية الفطور، أعطيتها رسالتي إلى السيد "لوماكس"، وأعطتني رسالة لي من جيب منزرها، ميزت فيها خط يد والدي.

دائمًا ما تطمئنني رسائل والدي، وهذه الرسالة لم تكن استثناءً، تمنى أن أكون بخير، هل أحرز تقدمًا في عملي؟ لقد قرأ رواية دنماركية غريبة وممتعة جدًا من القرن التاسع عشر سيخبرني بشأنها حين أعود، وفي مزاد صادف مجموعة من رسائل القرن الثامن عشر لم يبد أحد مهتمًا بشرائها، هل أريدها؟ لقد اشتراها تحسبًا، المحققون الخاصون؟ حسنًا، ربما، لكن ألن ينفذ باحث في الأنساب المهمة المطلوبة؟ بل وربما حتى أفضل؟ هناك رجل يعرفه لديه كل المهارات المطلوبة، وبالتفكير في الأمر فإنه مدين لوالدي بمعروف: أحيانًا يأتي إلى المتجر ليستخدم التقاويم، إن أردت مباشرة الأمر، فها هنا عنوانه، وأخيرًا -وكالعادة- الكلمات الثلاث الجافة مع أنها حسنة النية: والدتك ترسل محبتها.

هل قالت ذلك حقًا؟ لا أعرف، والدى قال "سأكتب رسالة إلى (مارجريت) عصر اليوم"، وردت هى - باعتيادية؟ أم بحب؟- "أرسل لها محبتى".

لا، لم أستطع تصور ذلك، هذه إضافة من والدى، مكتوبة دون علمها، لماذا كلف نفسه عناء إضافتها؟ ليسعدنى؟ ليحدث ذلك حقيقة؟ هل يفعل هذه الجهود غير المشكورة ليعزز صلتنا من أجل أم من أجلها؟ إنها مهمة مستحيلة، أنا والدى مثل قارتين تتباعدان ببطء ولكن بلا تراجع، ووالدى، بناء الجسور، يوسع باستمرار الصرح الهش الذى بناه ليبقى على تواصلنا.

مكتبة

t.me/t_pdf

العزيزة الآنسة "ليا"،

لم أكن أعرف أن "إيفان ليا" له ابنة، لكننى أصبحت أعرف، تسرنى معرفتك، وتسرنى أكثر مساعدتك، إعلان الوفاة القانونى هو ما تظنينه تحديدًا: افتراض قانونى بوفاة شخص لا علم بمكان وجوده لفترة طويلة من الوقت، وفي ظروف تجعل الوفاة الافتراض الوحيد المعقول، الهدف الأساسى منه هو تمكين تمرير ممتلكات الشخص المفقود إلى ورثته.

لقد أجريت بعض الأبحاث اللازمة وتعقبت الوثائق المتعلقة بالقضية التى تهملك تحديدًا، يبدو أن السيد "آنجلفيلد" كانت له عادات انعزالية، ويبدو أن تاريخ وظروف اختفائه غير معلومة، لكن العمل المثابر والمتعاطف الذى أجراه شخص اسمه السيد "لوماكس" نيابة عن الورثة (ابنتا أخته) سمحت بإتمام الإجراءات الشكلية على أتم وجه، الممتلكات قيمة، على الرغم من انكماشها بدرجة ما بفعل حريق جعل المنزل غير صالح للسكن، لكنك سترين كل هذا بنفسك فى النسخ التى أرسلتها لك من الوثائق ذات الصلة.

سترين أن المحامى نفسه وقع نيابة عن أحد المستفيدين، وهذا شائع حين يكون المستفيد غير قادر لسبب ما (مثل المرض أو أى مانع آخر) على العناية بشئونه.

تطلب الأمر أشد درجات الانتباه لألاحظ توقيع المستفيدة الأخرى، إنه غير مقروء تقريبًا، لكننى نجحت فى ذلك فى النهاية، هل صادفت أحد أكثر أسرار العصر خفاء؟ لكن ربما أنت تعرفين كل هذا؟ هل هذا ما أثار اهتمامك بهذه القضية؟

لا تخافى! أنا رجل شديد الحذر! أخبرى والدك أن يعطينى خصمًا على كتب القانون، ولن أبوح بكلمة!

المخلص،

"وليام هنرى كادوالدر".

نظرت مباشرة إلى أسفل النسخة الأنيقة التى أرسلها البروفيسور "كادوالدر"، هذه مساحة توقيع ابنتى أخت "تشارلى"، ومثلما قال، وقع السيد "لوماكس" نيابة عن "إيميلين"، أخبرنى هذا أنها على الأقل قد نجت من الحريق، وفى السطر الثانى، الاسم الذى كنت أنتظره: "فيدا وينتر"، وبعده بين قوسين عبارة: "المعروفة سابقًا باسم (آديلاين مارش)".

إنه دليل.

"فيدا وينتر" هى "آديلاين مارش".

كانت تخبرنى الحقيقة.

وبوضع هذا في الاعتبار، ذهبت إلى موعدى في المكتبة، واستمعت ودونت في مفكرتى الصغيرة في حين تذكر السيدة "وينتر" ما حدث في أعقاب مغادرة "هيوست".

قضت "آديلاين" و"إميلين" الليلة الأولى واليوم الأول في غرفتهما، في السرير، كل منهما بين ذراعى الأخرى وأعينهما تتبادلان الحديث، هناك اتفاق ضمنى بين السيدة و"جون ذا ديج" على معاملتهما كأنهما في فترة نقاهة، وعلى نحو ما، كانتا بالفعل في فترة نقاهة، لقد جُرحتا، فاستلقيتا على السرير، أنفاهما متلامسان، وتحقق كل منهما إلى الأخرى بعينين حولوين، من دون كلمة، من دون ابتسامة، ترمشان بتناغم، كان ذلك التحديق المتبادل لمدة أربع وعشرين ساعة أشبه بنقل الدماء لمصابى الحوادث، فشفيت الصلة التى انقطعت، ومثل أى جرح يُشفى، ترك ندبة.

وفي أثناء ذلك، كانت السيدة في حيرة بشأن ما حدث لـ"هيوست"، و"جون"، الذى يمانع تخييب أملها بشأن المعلمة المنزلية، لم يقل شيئاً، لكن صمته لم يكن إلا مشجعاً لها على التساؤل بصوت مرتفع، واختتمت أسئلتها ببؤس: "أفترض أنها ستخبر الطبيب إلى أين ستذهب، يجب أن أعرف منه متى ستعود".

ثم تحدث "جون"، بفضفاضة: "لا تذهبي لتسأليه إلى أين ذهبت! لا تسأليه عن شيء إطلاقاً، ونحن لن نراه هنا مجدداً".

أبعدت السيدة نظرها عنه عابسة، ماذا حدث للجميع؟ لماذا "هيوست" غير موجودة؟ لماذا "جون" مستاء؟ والطبيب -الذى كان زائراً مستمراً للمنزل- لماذا لن يأتى مجدداً؟ تحدث أشياء تتجاوز نطاق فهمها، يكثر جداً هذه الأيام، ولفترات أطول، أن يراودها شعور بأن

خطبًا ما أصاب العالم، في أكثر من مرة بدا أنها تستيقظ في بالها لتجد أن ساعات كاملة قد مرت دون أن تترك أثرًا في ذاكرتها، أشياء بدت منطقية تمامًا للآخرين، لم تبد كذلك لها دائمًا، وحين تطرح أسئلة لتحاول أن تفهم، ترى في أعين الناس نظرات غريبة يدارونها سريعًا، نعم، شيء غريب يحدث، وغياب "هيوستن" غير المبرر ليس إلا جزءًا منه.

"جون"، على الرغم من أسفه لحزن السيدة، كان مرتاحًا لرحيل "هيوستن"، إذ بدا أن رحيل المعلمة المنزلية قد أزاح همًا كبيرًا عنه، فدخل المنزل بحرية أكبر، وفي المساء قضى ساعات أطول مع السيدة في المطبخ، حسب طريقة تفكيره، فقدان "هيوستن" لم يمثل أية خسارة، فهي لم تضاف إلا تحسنًا واحدًا إلى حياته - شجعتة على العمل مجددًا في الحديقة - وقد فعلت هذا على نحو رقيق جدًا، وخفى جدًا، لدرجة أن الأمر أصبح بسيطًا جدًا أن يعيد ترتيب أفكاره حتى أقنعه عقله بأن ذلك كان قراره وحده، حين أصبح واضحًا أنها رحلت إلى الأبد، جلب حذاءه ذا الرقبة من الكوخ وجلس يلعبه بجانب الموقد، يرفع ساقيه على الطاولة، فمن سيمنعه الآن؟

وفي الحضانة، بدا أن غضب "تشارلي" وحنقه قد غادراه، تاركين مكانهما إرهابًا محزنًا، يمكن أحيانًا أن تسمع جره البطيء لقدميه على الأرض، وأحيانًا، لو ألصقت أذنك بالباب، تسمعه يبكي بشهقات متعبة كطفل تعيس سنه عامان، أيمن، بطريقة ما غامضة في أعماقها مع كونها علمية، أن تكون "هيوستن" قد أثرت فيه عبر الأبواب المقفلة وكبحت أسوأ أوجهه بأسه؟ لم يبد الأمر مستحيلًا.

فلم يكن البشر فقط هم من تفاعلوا مع غياب "هيوستن"، بل وتفاعل المنزل لحظيًا، أول شيء كان الهدوء الجديد، لم تعد تُسمع نقرات قدمي "هيوستن" صاعدة وهابطة السلم وبطول الممرات، ثم

توقف أيضًا طرق العمال على سطح المنزل، فبناء السقف، بعدما اكتشف عدم وجود "هيوست"، اختمر لديه الشك سليم الأساس أن مقابل عمله لن يُدفع له من دون أحد لتقديم الفواتير لـ "تشارلي" مباشرة، فحقب معداته ورحل، وعاد مرة ليأخذ سلامه، ولم يره أحد مجددًا.

عاد المنزل مجددًا في اليوم الأول من الصمت إلى مساره الطويل البطيء نحو التدهور، وكأن شيئًا لم يقاطعه قط، التفاصيل الصغيرة أولاً: بدأ التراب يزحف من كل شق في كل شيء في كل الغرف، وسربت الأسطح الغبار، وغطت النوافذ نفسها بأول طبقة من الأوساخ، كل تغييرات "هيوست" أصبحت ظاهرة فقط، فقد تطلب الحفاظ عليها عناية يومية، وتذبذبت مواعيد نظافة السيدة في البداية، ثم انهارت تمامًا، بدأت الطبيعة الحقيقية الدائمة للمنزل في فرض نفسها مجددًا، وجاء الوقت الذي تشعر فيه بالتماسك القديم للأوساخ على أصابعك إن التقطت أي شيء بالمنزل.

عادت الأشياء أيضًا سريعًا إلى حياتها القديمة، فكانت المفاتيح أول ما تجول من الأشياء، كانت تتسلل خلال الليل إلى خارج الأقفال وتغادر سلاسلها، ثم تجمعت في حبة مغبرة في الفراغ تحت لوح أرضية مرتخ، والشمعدانات الفضية، التي لا تزال تحتفظ بآثار تلميع "هيوست"، شقت طريقها من رف الموقد بالمرسم إلى مخزن كنوز "إيميلين" تحت السرير، وتركت الكتب رفوف المكتبة وصعدت السلام حيث استقرت في الزوايا وتحت الأرائك، ونزعت الستائر إلى إغلاق نفسها، وحتى الأثاث استفاد لأقصى درجة من غياب الرقابة وتجول، تقدمت أريكة قليلًا من مكانها المقابل للحائط، وتحرك مقعد نصف متر تقريبًا، كل الأدلة على وجود شبح في المنزل أعادت تأكيد وجوده.

سطح المنزل الذى يُجرى إصلاحه تصبح حالته أسوأ قبل أن يرى أى تحسن، وبعض الثقوب التى تركها البناء كان أكبر من التى جُلب لإصلاحها، فلن تواجه مشكلة فى أن تستلق على أرضية العليا وتشعر بأشعة الشمس تداعب وجهك، لكن الأمطار كانت شائناً آخر، فبدأت ألواح الأرضية فى الضعف، وقطرت المياه عبرها إلى الغرف تحتها، كانت هناك بقع تعرف أنك لا يجب أن تخطو عليها، حيث الأرضية مرتخية جداً تحت قدميك، ولاحقاً، ستتهار وسترى عبرها الغرفة السفلية، وكم سيمر من الوقت قبل أن تستلم أرضية تلك الغرفة وترى المكتبة؟ وهل تستلم أرضية المكتبة؟ أمكن فى يوم ما أن تقف فى القبو وتتطلع عبر أربعة طوابق من الغرف لترى السماء؟

المياه، مثل الآلهة، تتحرك بطرق غامضة، بمجرد دخولها إلى منزل، فإنها تطيع قوانين الجاذبية بطرق غير مباشرة، داخل الجدران وتحت الأرضيات تجد لنفسها مجارى ومسارات، إنها تتسرب وتقطر فى اتجاهات غير متوقعة، وتظهر حيث لا تتوقعها، توجد خرق فى كل مكان بالمنزل لتمتص المياه، لكن لا أحد قط يعصرها، ووضعت القدور والأوعية لتجمع نقاط المياه، لكنها فاضت قبل أن يتذكر أحد تغييرها، الرطوبة المستمرة أسقطت الدهان عن الحوائط وبدأت تأكل الأسمنت، وفى العليا، توجد جدران مرتخية لدرجة أن بيد واحدة يمكنك هزها كأنه ضرس رخو.

والفتاتان وسط كل هذا؟

لقد أحدثت "هيوستن" والطبيب جرحاً بالغاً، بالتأكيد لن تعود الأمور لسابق عهدها قط، ستتشارك الفتاتان دائماً ندبة، وآثار الفصل بينهما لن تُحى نهائياً أبداً، لكنهما شعرتا بالندبة على نحو مختلف، ففى النهاية، "آديلاين" راحت سريعاً فى حالة من فقدان الذاكرة بمجرد أن أدركت ما فعلته "هيوستن" والطبيب، فقدت نفسها فى اللحظة نفسها

التي فقدت فيها أختها، وليست لديها أى ذكرى عن الوقت الذي مر بعيداً عن أختها، وبقدر ما تعرف، فإن الظلمة التي تخللت فقدانها لأختها والعثور عليها مجدداً دامت لسنة أو ربما لثانية، ليس أن الأمر يهم الآن، لأنه انتهى، وهي عادت للحياة مجدداً.

الأمر كان مختلفاً لـ"إميلين"، فلم تحظَ بارتياح فقدان الذاكرة، لقد عانت أكثر ولفترة أطول، كل لحظة من الأسابيع الأولى كانت عذاباً، كانت كالبتراء في الأيام التي تسبق التخدير، نصف مجنونة بفعل الألم، مندهشة أن الجسد البشرى يمكنه الشعور بكل هذا الألم دون أن يموت، لكن ببطء، بدأت تتحسن، خلية وراء الأخرى، بقدر ما في ذلك من ألم، وجاء وقت لم يعد جسدها بالكامل يحترق ألماً، بل قلبها فقط، ثم جاءت فترة يستطيع فيها قلبها، لبعض الوقت على الأقل، أن يشعر بأحاسيس أخرى غير الحزن، باختصار، تأقلمت "إميلين" مع غياب أختها، تعلمت أن تعيش بعيدة عنها.

ومع ذلك فإنهما اتصلتا مجدداً وأصبحتا توأمين مجدداً، لكن "إميلين" لم تعد الأخت نفسها مثلما كانت، وهذا شيء لم تلحظه "آديلاين" في الحال.

في البداية، لم تشعرا إلا ببهجة اللقاء مجدداً، كان افتراقهما مستحيلاً، فحيث تذهب إحداهما، تتبعها الأخرى، وفي الحداثق تتحلقان حول الأشجار القديمة، تلعبان أدواراً بلا نهاية من الغمضة، كأنها تكرار لم تملّه "آديلاين" قط لتجربتهما الأخيرة في الفقد واللقاء، أما بنظر "إميلين" فإن التجديد بدأ سريعاً بالخفوت، وتسلسل بعض الخصومات القديمة، إذ أرادت "إميلين" أن تسلك طريقاً، وأرادت "آديلاين" الآخر، فتعاركتا، وكالسابق كانت عادة "إميلين" هي من تستسلم، ولكن في نفسها الجديدة السرية، أصبحت تمانع ذلك.

مع أن "إميلين" كانت في وقت ما معجبة بـ "هيوستن"، فإنها لم تفتقد لها، إذ تضاءل حبها لها خلال التجربة، فقد عرفت في النهاية أن "هيوستن" هي من فصلتها عن أختها، وليس هذا فقط، بل إن "هيوستن" كانت مستغرقة جدًا في تقاريرها واستشاراتهما العلمية لدرجة أنها أهملت "إميلين"، ربما دون إدراك الأمر، خلال تلك الفترة، حين تجد نفسها في وحدة غير معتادة، كانت "إميلين" تجد طرق لتشتيت نفسها عن حزنها، اكتشفت طرقًا للتسلية أصبحت تستمتع بها في حد ذاتها، ألعاب لم تتوقع أن تتخلى عنها فقط لأن أختها رجعت.

لذا في اليوم الثالث بعد اللقاء، تركت "إميلين" الغمضة في الحديقة، وهامت إلى غرفة البلياردو حيث أبقت مجموعة من أوراق اللعب، وبدأت لعبتها وهي مستلقية على بطنها في منتصف الطاولة الخضراء، كانت نوعًا من أنواع لعبة "سوليتير"، النوع الأبسط والأكثر طفولية، وهي تفوز في كل مرة، فقد كانت اللعبة مصممة بحيث لا تخسر، وفي كل مرة كان الفوز يسعدها.

في منتصف اللعبة، أدارت وجهها، لم تسمع شيئًا بالمعنى الحرفي، لكن أذنها الداخلية، التي كانت مضبوطة باستمرار على موجات أختها، أخبرتها أن "آديلاين" تناديهما، تجاهلت "إميلين" الأمر، فقد كانت مشغولة، وسترى "آديلاين" لاحقًا حين تنتهي من اللعب.

بعد ساعة، اندفعت "آديلاين" إلى داخل الغرفة وعيناها تشعان غضبًا، ولم يكن لدى "إميلين" شيء تفعله لتدافع عن نفسها، صعدت "آديلاين" إلى الطاولة وانطلقت كالصاروخ نحو "إميلين" تحركها هستيريا الغضب.

لم ترفع "إميلين" إصبعًا لتدافع عن نفسها، ولم تبك، لم تصدر صوتًا، لا خلال الهجوم، ولا بعده.

حين أفرغت "آديلاين" شحنة غضبها، توقفت لعدة دقائق تتفرج على أختها، كان الدم يسيل على الغطاء الأخضر، وأوراق اللعب مبعثرة في كل مكان، كتفا "إيميلين" يرتفعان ويهبطان بسرعة مع أنفاسها وهي تحتضن نفسها كالكرة.

استدارت "آديلاين" وابتعدت.

ظلت "إيميلين" مكانها على الطاولة، حتى جاء "جون" ليجدها بعد ساعات، أخذها إلى السيدة، التي غسلت الدماء عن شعرها، ووضعت كمادة على عينها، وداوت كدماتها بخلاصة بندق الساحرة. علقت: "ما كان هذا ليحدث لو كانت (هيستر) هنا، أتمنى حقًا أن أعرف متى ستعود".

رد "جون": "لن تعود"، محاولاً احتواء انزعاجها، ولم يعجبه أيضًا أن يرى الطفلة هكذا.

"لا أفهم لمَ ترحل بهذه الطريقة، بلا أى كلام، ماذا يمكن أن يكون قد حدث؟ أفترض أنه حدث طارئ ما، لدى عائلتها..."

هز "جون" رأسه، فقد سمع هذا عشرات المرات، تلك الفكرة التي تتعلق بها السيدة، أن "هيستر" ستعود، لكن القرية كلها تعرف أنها لن تعود، لقد سمعت خادمة "مودسلى" كل شيء، وزعمت أنها رأت كل شيء أيضًا، والمزيد غيره، وبحلول هذا الوقت يستحيل أن تجد شخصًا بالغًا في القرية غير واثق بأن المعلمة ذات الوجه العادى كانت في علاقة زنا مع الطبيب.

كان حتميًا أن في يوم ما ستصل شائعات "سلوك" (كناية القرية عن سوء السلوك) "هيستر" إلى مسامع السيدة، في البداية شعرت بالصدمة، ورفضت فكرة أن "هيستر" - "هيستر" التي عرفت - يمكن أن تأتى مثل هذا الفعل، لكن حين أبلغت "جون" بما يُقال غاضبة، لم يفعل شيئًا

إلا تأكيده، وذكرها بأنه ذهب إلى منزل الطبيب في ذلك اليوم، ليجلب الطفلة، وسمع القصة من فم الخادمة مباشرة في يوم حدوثها، علاوة على ذلك، لماذا قد تغادر "هيستر" فجأة، بلا تحذير، لو لم يحدث شيء غير معتاد؟

وتمتت: "عائلتها، حدث طارئ..."

"أين الرسالة إذًا؟ كانت لترسل رسالة، لو كانت ستعود، أليس كذلك؟ كانت لتوضح الأمر، هل وصلتك أي رسالة؟" هزت السيدة رأسها.

"حسنًا إذًا"، اختتم "جون" حديثه، عاجز عن إخفاء الرضا في صوته، "فعلت شيئًا لم يكن يفترض بها فعله، ولن تعود، لقد ذهبت إلى الأبد، صدقيني".

دار الكثير في ذهن السيدة، ولم تعرف ماذا تصدق، أصبح العالم مكانًا مربكًا جدًا.

رحل!

طالت آثار رحيل "هيستر" الجميع، إلا "تشارلي"، بالتأكيد هناك تغيرات، وجبات الطعام المغذية التي كانت توضع خارج غرفته حين الإفطار والغداء والعشاء في وجود "هيستر"، أصبحت شطائر، أو قطعة لحم بارد وثمره طماطم، أو وعاء من البيض المخفوق المتخثر، وتظهر تلك الوجبات في أوقات متباعدة وبمعدلات زمنية غير متوقعة، حينما تتذكر السيدة، لم يمثل الأمر فرقًا لـ "تشارلي"، فإن جاع وكان الطعام عنده، قد يأكل لقيمات من قطعة لحم الأمس، أو طرف جاف من رغيف خبز، ولكن إن لم يكن الطعام هناك فإنه لن يأكل، وجوعه لم يضايقه، فقد كان لديه جوع أقوى ليقلق بشأنه، إنه جوهر حياته، وهو شيء لم تغيره "هيستر" بمجنيها ورحيلها.

ومع ذلك فقد طال التغيير "تشارلي"، ولكن لم تكن له علاقة بـ "هيستر".

فمن حين لآخر، تصل رسالة إلى المنزل، ومن حين لآخر يفتحها أحد، بعد بضعة أيام من تعليق "جون ذا ديج" عن عدم تلقى أى رسائل من "هيوستن"، وجدت السيدة نفسها فى الردهة ولاحظت كومة صغيرة من الرسائل تجمع الغبار عليها على الحصىرة تحت صندوق البريد، ففتحتها.

رسالة من موظف البنك الذى يدير شئون "تشارلى": هل يبحث عن فرصة للاستثمار؟

الثانية فاتورة من البنائين لعملهم على سطح المنزل.

هل الثالثة من "هيوستن"؟

لا، الثالثة من المصححة، لقد ماتت "إيزابيل".

حملت السيدة إلى الرسالة، ماتت! "إيزابيل"! هل هذا حقيقى؟ تقول الرسالة إنها قضت بسبب الإنفلونزا.

يجب إخبار "تشارلى"، لكن السيدة خافت من مجرد احتمالية ذلك، فقررت أن من الأفضل أن تتكلم مع "ديج" أولاً، فوضعت الرسائل جانباً، لكن لاحقاً، حين كان "جون" جالساً على مقعده عند طاولة المطبخ، صبت شايّاً طازجاً فى كوبه، ولم يكن للرسالة أثر فى ذاكرتها، لقد لحقت بغيرها من اللحظات الضائعة المتكررة باطراد، التى عاشتها وشعرت بها لكنها غير مسجلة فى ذاكرتها، ومن ثم ضاعت، ومع ذلك، بعد بضعة أيام، كانت تمر عبر الردهة بصينية الخبز واللحم المقدد المحترقين، ووضعت الرسائل فى الصينية مع الطعام على نحو آلى، مع أنها لم تتذكر مطلقاً محتوياتها.

ثم مرت الأيام ولم يبدُ أن شيئاً قد حدث مطلقاً، باستثناء أن طبقات الغبار زادت، وتراكمت الأوساخ على زجاج النوافذ، وزحفت

أوراق اللعب أكثر خارج صندوقها في المرسوم، وأصبح نسيان أن في يوم من الأيام كانت "هيستر" هنا أسهل كثيرًا.

"جون ذا ديغ" هو من لاحظ في صمت الأيام أن شيئًا قد حدث.

إنه رجل يحب الأماكن المفتوحة، وليس معتادًا على العيش داخل المنزل، ومع ذلك فقد عرف أن في وقت ما لن تصلح الأكواب لشرب الشاي من دون غسلها أولاً، كذا عرف أن الطبق الذي حمل لحمًا نيئًا يجب ألا يحمل بعده مباشرة لحمًا مطبوخًا، ولاحظ كيف تسير أمور السيدة: فهو ليس غبيًا، كلما تصاعدت كومة الأطباق والأكواب المتسخة، كان يغسلها بنشاط، إنه مشهد غريب وهو واقف أمام الحوض بحذائه ذي الرقبة وقبعته، يبدو أخرق للغاية وهو ممسك بالخرقة والأواني الصينية بعدما كان يبدو بارعًا بأوانيهِ الفخارية ونباتاته الغضة، وقد انتبه إلى أن عدد الأكواب والأطباق يتقلص، وقرئًا لن يتبقى منها كفاية، أين ذهبت الأواني المفقودة؟ فكر في لحظتها في السيدة وهي تشق طريقها العشوائي صعودًا بطبق للسيد "تشارلي"، هل رآها قط تعود بطبق فارغ إلى المطبخ؟ لا.

صعد السلم، ورأى خارج الباب المقفل أطباقًا وأكوابًا مرتبة في طابور طويل، وفر الطعام الذي لم يمسه "تشارلي" وليمة لذيذة للذباب الذي طن فوقه، وأصدر رائحة قوية لا تسر، لكم من الأيام كانت السيدة تترك الطعام هنا دون ملاحظة أن طعام اليوم السابق لم يُمس؟ أحصى عدد الأطباق والأكواب، وعبس، وحينها عرف.

لم يطرق الباب، فما الفائدة؟ واضطر إلى أن يذهب إلى كوخه ليجلب عارضة خشبية قوية كفاية ليستخدمها كناطحة للباب، كانت ضوضاء نطح الباب المصنوع من البلوط، وأصوات الصرير والتحطيم في حين تتكسر المفصلات المعدنية وتنفصل عن الخشب، كافية لتجمعنا كلنا عند الباب، وحتى السيدة نفسها.

حين سقط الباب المنطوح، وهو نصف مكسور عند مفصلاته، سمعنا طنين الذباب، وتصاعدت رائحة نتنة دفعت "إيميلين" والسيدة بعيداً بضع خطوات، حتى "جون" غطى فمه بيده وشحب قليلاً، "لا تتقدمين"، أمرنا بذلك وهو يدلف إلى الغرفة، وتبعته بفارق بضع خطوات.

تقدمنا بحذر عبر مخلفات الطعام المتعفن على أرضية الحضانة القديمة، ما أثار سحباً من الذباب في الهواء مع مرورنا، كان "شارلي" يعيش كالحيوان، وجدنا أطباقاً قذرة يغطيها العفن على الأرض، وعلى رف الموقد، وعلى الكراسي وعلى الطاولة، باب غرفة النوم نصف مفتوح، فدفع "جون" الباب بحذر بطرف الخشبة الناطحة الذي لا يزال في يده، فمر فأر متفاجئ مسرعاً على أقدامنا، كان مشهداً مروّعاً، المزيد من الذباب والطعام المتحلل، والأسوأ: كان الرجل مريضاً، فغطت بقعة من القىء الجاف المنقط بالذباب السجادة على الأرض، وعلى الطاولة المجاورة للسرير، تكومت مناديل دامية وإبرة الحياكة القديمة الخاصة بالسيدة.

كان السرير خالياً إلا من ملءات قذرة مطوية تلطخها الدماء وغيرها من القبايح البشرية.

لم نتكلم، حاولنا ألا نتنفس، وحين اضطررنا، استنشقنا عبر أفواهنا، ولكن الهواء الكريه المشبع بالمرض لم يفارق حلوقنا وجعلنا نتهوع، لكننا لم نرَ الأسوأ بعد، فهناك غرفة أخرى، اضطر "جون" إلى استجماع قوته ليفتح باب المرحاض، ولكن قبل حتى أن يفتح الباب بالكامل، استشعرنا بشاعة ما ينتظرنا، فقبل أن تخترق الرائحة فتحتى أنفى، بدا أن جلدى يشمها، ونشع العرق البارد على كامل جسدى، كرسي المرحاض يبدو سيئاً بما يكفى، ومع أن غطاءه مغلق فإنه لم يتمكن تماماً من احتواء القذارة الفائضة التى كان من المفترض أن يغطيها،

لكن ذلك لم يكن شيئاً يُذكر، لأن في حوض الاستحمام -تراجع "جون" خطوة سريعة إلى الوراء، وكان ليخطو علىّ لو أننى لم أراجع خطوتين في اللحظة نفسها- كانت هناك مخلفات داكنة من النفايات الجسدية السائلة، رائحتها جعلتنا أنا و"جون" نتسابق نحو الباب، نخطو على فضلات الفئران والذباب، وخرجنا إلى الممر، وهبطنا السلم، ثم خرجنا من المنزل.

تقيأت، بدت بقعة قيئى الأصفر على العشب الأخضر طازجة ونظيفة ومسكرة.

قال جون: "لا بأس"، وهدهد ظهري بيد لا تزال ترتجف.

أما السيدة، التى تبعتنا بخطواتها المهرولة، فقد اقتربت منا على العشب، تسيطر الأسئلة على وجهها، ماذا يمكن أن نقول لها؟

وجدنا دم "تشارلى"، وجدنا خراء "تشارلى"، وبول "تشارلى"، وقىء "تشارلى"، لكننا لم نجد "تشارلى" نفسه؟

قلنا لها: "إنه ليس هناك، لقد رحل".

عدت إلى غرفتى أفكر فى القصة، إنها مثيرة للفضول من جوانب عدة، بالتأكيد هناك اختفاء "تشارلى"، الذى يمثل تحولاً مثيراً للأحداث، وقادنى ذلك إلى التفكير فى التقاويم، وذلك الاختصار المثير للفضول: "إل دي دى"، لكن ليس هذا كل ما فى الأمر، هل أدركت هى أننى لاحظت؟ لم أبد أية إشارات خارجية، لكننى لاحظت، لقد قالت السيدة "وينتر" اليوم "أنا".

وجدت مغلفًا بنيا كبيرا في غرفتي، على صينية بجوار شطيرة اللحم.

عاد ساعي البريد ومعه رد السيد "لوماكس" المحامي على رسالتي، ألحق برسالته القصيرة، والمهذبة، نسخًا من عقد عمل "هيوستن"، الذي رمقته بنظرة سريعة ووضعتة جانبًا، ورسالة توصية من سيدة من نابولي اسمها "ليدي بلايك"، تشيد بمواهب "هيوستن"، والأهم من كل هذا، رسالة قبول عرض التوظيف، مكتوبة بيد الموظفة العجيبة نفسها.

العزيز الطبيب "مودسلي"،

شكرًا على عرض التوظيف الذي قدمته لي بكرم منك.

يسرني أن أتولى هذه الوظيفة في أنجلفيلد يوم التاسع عشر من أبريل مثلما اقترحت.

لقد استفسرت وعرفت أن القطارات تسافر إلى بانبري فقط، ربما يمكنك أن ترشدني إلى أفضل طريق يوصلني إلى أنجلفيلد من هناك، سأصل إلى محطة بانبري في الساعة العاشرة والنصف.

المخلصة،

هيوستن بارو

هناك حزم في كتابة "هيوستن" للحروف الكبيرة القوية، واتساق في درجة ميل الحروف، وانطباع بسلاسة جريان القلم في دوائر حرفي الـ "جى" والـ "واى"، حجم الحروف متوسط: صغير كفاية لتوفير الحبر والأوراق، وكبير كفاية ليكون واضحًا، لم تحوِ الرسالة أى زخارف، ولا موجات ولا تعثرات ولا زخارف دقيقة، نبع جمال هذه الكتابة من

الشعور بالنظام والتوازن والتناسب الذى حكم كل حرف، تلك يد ماهرة ونظيفة، إنها كلمات لم ترسمها إلا "هيوسترون".

فى أعلى اليمين يوجد عنوان فى لندن.

قلت إن هذا جيد، يمكننى الآن أن أصل إليك.

تناولت ورقة وقبل أن أبدأ التفريغ، كتبت رسالة إلى متخصص الأنساب الذى رشحه والدى، إنها رسالة طويلة: إذ يجب أن أقدم نفسى، فهو بلا شك لا يعرف أن السيد "ليا" له ابنة، اضطررت إلى التلميح بلطف إلى مسألة التقاويم لتبرير استغلالى لوقته، وكان على سرد كل ما أعرفه عن "هيوسترون": نابولى، لندن، أنجلفيلد، لكن خلاصة رسالتى كانت بسيطة: اعثر عليها.

ما بعد "تشارلى"

لم تعلق السيدة "وينتر" على رسائلى مع المحامى، مع أننى واثقة بأنها على علم بمحتواها، مثلما أنا واثقة بأن الوثائق التى طلبتها ما كانت لتصل إلى لولا موافقتها، تساءلت إن كانت لتعتبر الأمر غشًا، وإن مثل ذلك "استراقًا للنظر إلى الصفحات الأخيرة" الذى رفضته بشدة، لكن يوم تلقيت مجموعة من الرسائل من السيد "لوماكس" وأرسلت طلب المساعدة إلى باحث الأنساب، لم تعلق ولو بكلمة، بل التقطت طرف قصتها من حيث تركته، كأن كل تلك المراسلات البريدية غزيرة المعلومات لم تكن تحدث.

كان "تشارلى" الخسارة الثانية، أو الثالثة لو احتُسبت "إيزابيل"، مع أننا فقدناها بكل الأشكال العملية قبل عامين، وخسارتها بالكاد تُحتسب.

تأثر "جون" باختفاء "تشارلي" أكثر من "هيوستر"، ربما كان "تشارلي" منعزلاً، أو غريب الأطوار، أو مترهبناً، لكنه كان سيد المنزل، كان يخربش توقيعه على ورقة أربع مرات سنوياً، بعد أن يُطلب منه ذلك للمرة السادسة أو السابعة، فيفرج البنك عن الأموال التي تبقى على الحد الأدنى من الحياة في هذا المنزل، والآن رحل "تشارلي"، فما مصير المنزل؟ ماذا سيفعلون ليحصلوا على الأموال؟

مر "جون" ببضعة أيام مروعة، وأصر على تنظيف جناح الحضانة -"وإلا ستصيبنا كلنا بالأمراض"- وحين لم يعد يستطيع تحمل الرائحة، جلس على السلم بالخارج، يستنشق الهواء النظيف مثل رجل نجا من الغرق، وفي المساء يستحم طويلاً، يستخدم صابونة كاملة يحك بها جلده حتى يتوهج لونه الوردي، حتى إنه أوصل الصابون إلى داخل أنفه.

كذا شارك في الطهو، فقد لاحظنا كيف أن السيدة تفقد مسارها في منتصف إعدادها للطعام، الخضراوات تغلى حتى تصبح كالعجين، ثم تحترق في أسفل القدر، لم يخل المنزل قط من رائحة الطعام المتفحم، ثم في يوم من الأيام وجدنا "جون" في المطبخ، اليدان اللتان اعتدنا على كونهما قدرتين تحصدان البطاطس من الأرض، أصبحتا الآن تشطفان الثمرة الصفراء بالمياه، وتقشرها، وتحرك أغذية القدور على الموقد مصدرة صليلاً، أكلنا لحمًا جيّدًا أو أسماكًا مع الكثير من الخضراوات، وشربنا شايًا ساخناً ثقيلاً، جلست السيدة في مقعدها بزاوية المطبخ، دون أى شعور واضح بأن هذه كانت مهامها، وبعد الاستحمام حين يهبط الليل، يجلس كلاهما إلى مائدة المطبخ للحديث، مخاوفه لا تتغير أبداً، ماذا سيفعلان؟ كيف سيصمدان في الوضع الحالي؟ ماذا سيكون مصيرنا كلنا؟

قالت السيدة: "لا تقلق، سيعود".

سيعود؟ تنهد "جون" وهز رأسه، لقد سمع هذا من قبل: "إنه ليس موجوداً أيتها السيدة، لقد رحل، هل نسيت بالفعل؟"
"رحل!"، وهزت رأسها وضحكت كأنه أخبرها نكتة.

لحظة عرفت حقيقة رحيل "تشارلي"، مر الخبر بوعيتها للحظات، لكنه لم يجد مكاناً ليجلس، فالممرات والردهات والسلام التي في عقلها، التي تربط أجزاءه بعضها ببعض، وكذا تفرقها بعضها عن بعض، كانت متهدمة، فعندما تلتقط طرف خيط فكرة، تتبعها عبر الثقوب في الجدران، وتنزلق في أنفاق انفتحت قد قدميها، وتصل إلى نهايات غامضة تجعلها متحيرة: ألم يكن هناك...؟ ألم تكن هي...؟ فحين فكرت في أن "تشارلي" محبوس في الحضانة، وقد خبله الحزن على حبه لأخته الميتة، سقطت عبر باب مسحور في الزمان دون حتى أن تدرك ذلك، وأوصلها الباب إلى ذكرى والده، حين كان ثاكلاً حديثاً ومنعزلاً في المكتبة حزناً على زوجته الميتة.

قالت بغمزة: "أعرف كيف أخرجه من هناك، سأخذ الطفلة إليه، سيفي هذا بالغرض، بل سأذهب لأتفقد الطفلة الآن".

لم يوضح لها "جون" مجدداً أن "إيزابيل" ماتت، لأن ذلك لن يؤدي إلا إلى مفاجئة مفاجئة، ومطالبة بأن تعرف كيف ولماذا ماتت، "مصحة؟" هكذا ستتعجب وتندهش، "لكن لماذا لم يخبرني أحد أن الأنسة (إيزابيل) في مصحة؟ يا لوالدها المسكين! كم كان شغوفاً بها! سيأتي هذا الخبر بأجله"، وستتوه لساعات في ممرات الماضي المحطمة، ثكلى على مأساويات عفا عليها الزمن كأنها لم تحدث إلا البارحة، غافلة عن أحزان اليوم، لقد مر "جون" بهذا مرات عدة، ولن يتحمل مرة جديدة.

رفعت السيدة نفسها ببطء من المقعد، تجر القدم وراء الأخرى متألمة، ذاهبة لترى الرضيعة التي في السنوات الضائعة من ذاكرتها،

كبرت وتزوجت وأنجبت توأمين وماتت، ولم يوقفها "جون"، فهي ستنسى وجهتها قبل حتى أن تصل إلى السلم، لكنه يضع رأسه بين كفيه ويتنهد وراءها.

ما العمل؟ بشأن "تشارلي"، وبشأن السيدة، وبشأن كل شيء؟ هذا شغله الشاغل، بحلول نهاية الأسبوع، كانت الحضانة نظيفة وقد ظهرت خطة ما في أمسيات التشاور، لم ترد أي أخبار عن "تشارلي" من قريب ولا من بعيد، لم يره أحد يذهب، ولم يعرف أحد خارج المنزل أنه قد رحل، فبالنظر إلى أسلوب حياته الشبيه بالمتربنين، يرجح ألا يلاحظ أحد غيابه، تساءل "جون" إن كان ملزمًا على أي نحو بأن يخبر أحدًا -الطبيب؟ المحامي؟- بشأن اختفاء "تشارلي"، قلب السؤال في باله مرارًا وتكرارًا، وفي كل مرة توصل إلى الرفض إجابة، فالرجل له الحق الكامل في مغادرة منزله إن اختار ذلك، وأن يرحل دون أن يبلغ موظفيه بوجهته، لم ير "جون" أية فائدة من إخبار الطبيب، الذي لم يجلب تدخله السابق في شئون المنزل سوى العلل، أما المحامي...

هنا تباطأ وتعقد تفكير "جون" عالي الصوت، فمن دون "تشارلي"، من سيوافق على عمليات السحب من البنك؟ لقد عرف دون أن يسأل أن تدخل المحامي سيكون ضروريًا إن طال اختفاء "تشارلي"، لكن مع ذلك كانت ممانعته طبيعية، فسكان "آنجلفيلد" عاشوا مولين ظهورهم للعالم لسنوات، و"هيوستن" هي الوحيدة الدخيلة التي دخلت عالمهم، وانظر إلى ما آل إليه أمرها! إلى جانب ذلك فإن "جون" يكن ارتيابًا غريزيًا تجاه المحامين، لا يوجه "جون" تهمة محددة إلى السيد "لوماكس"، الذي يوحى مظهره بأنه رجل محترم وعاقل، ومع ذلك فإنه لم يجد في نفسه ثقة كافية بفكرة أن ينتظر حل المشكلة المنزلية من شخص يتكسب ممارسو مهنته من حشر أنوفهم في شئون الآخرين الخاصة، وإلى جانب ذلك، إن شاعت معلومة غياب "تشارلي"، مثلما

شاعت معلومة غريبة سلوكه، هل سيسر المحامى أن يوقع على أوراقه البنكية، فقط حتى يستمر "جون" والسيدة في دفع فواتير البقالة؟ لا، فقد عرف ما يكفى عن المحامين ليدرك أن الأمر لن يكون بهذه البساطة، عبس "جون" إثر تخيله للسيد "لوماكس" في المنزل، وهو يفتح الأبواب، ويفتش الخزائن، ويلقى نظرة على كل ركن مظلم وكل ظل اختار مكانه بحذر في عالم "أنجلفيلد"، سيكون ذلك بلا نهاية.

كذا فإن المحامى سيحتاج إلى زيارة واحدة ليعرف أن السيدة ليست على ما يرام، وسيصر على استدعاء الطبيب، وستتول السيدة نفس مآل "إيزابيل"، ستؤخذ بعيدًا، كيف سيأتى هذا بأى نفع؟

لا، لقد تخلصوا للتو من دخيلة، وهذا ليس وقتًا مناسبًا لدعوة دخلاء آخرين، ومن الآمن أكثر التعامل مع الشئون الخاصة على نحو خاص، ما يعنى، أن يتعامل معها بنفسه، بعدما عادت الأمور إلى حالها القديم.

لم يكن من داعٍ للتعجل، فعملية السحب الأخيرة كانت منذ أسابيع قليلة فقط، أى أنهم ليسوا مفلسين تمامًا، وقد رحلت "هيستر" دون أن تأخذ مستحققاتها، لذا فهذه الأموال أيضًا متاحة إذا لم تزدد الأحوال بؤسًا وترسل "هيستر" للمطالبة بها، وما من حاجة لشراء الكثير من الطعام: فهناك خضراوات وفواكه تكفى جيشًا في الحديقة، والغابة مليئة بأنواع الطيور، وإذا تطلب الأمر، أو إن طرأ شيء ما، أو وقعت مصيبة (لم يدرك "جون" قصده بذلك، أليس ما يقاسونه بالفعل مصيبة؟ أمكن أن ينتظرهم الأسوأ؟ لقد ظن ذلك بطريقة ما) فإنه يعرف شخصًا يمكن أن يأخذ بضع زجاجات نبيذ من القبو سرًا مقابل شلن أو اثنين.

قال للسيدة وهو يدخل سيجارة في إحدى الليالي في المطبخ: "سنكون على ما يرام لفترة، على الأرجح لأربعة أشهر إن كنا حذرين، لا أعرف ماذا سنفعل حينها، ولكن سنرى".

كانت تلك حجة لمحاولة طمأنة الذات خلال المحادثة، لقد فقد الأمل في تلقى أية إجابات مباشرة من السيدة، لكنه مارس عادة الحديث معها طويلاً ومن الصعب التخلي عنها بسهولة، لذا اعتاد الجلوس في الجهة المقابلة من المائدة في المطبخ، ومشاركة أفكاره وأحلامه ومخاوفه معها، وحين ترد -بتدفق عشوائي غير مترابط من الكلمات- تحيره ردودها، فيحاول إيجاد الرابط بين إجاباتها وسؤاله، لكن المتاهة التي في عقلها أكثر تعقيداً من أن يتمكن من التجول فيها، والخيط الذي ساقها من كلمة إلى أخرى انساب من بين أصابعها في الظلام.

ظل يورد الطعام من حديقة المطبخ ويطهو ويقطع اللحم على طبق السيدة ويضع ملء شوكة في فمها، ويفرغ أكوابها من الشاي البارد ويعد مكانها أخرى ساخنة، هو ليس نجاراً، لكنه ركب ألواحاً جديدة على الألواح المتعفنة هنا وهناك، وأبقى على قدور مياه المطر فارغة في الغرف الرئيسة، ووقف في العليا يتطلع إلى ثقب السقف ويحك رأسه ويقول بنظرة عازمة: "يجب أن نصلح هذا"، لكن تلك الفترة لم تكن غزيرة الأمطار، ولم تتساقط فيها الثلوج، فأمكن تأجيل هذه المهمة، هناك مهام كثيرة غيرها يجب إتمامها، فقد غسل ملاءات الأسرة والملابس، والتي تصبح جامدة ولزجة حين تجف بسبب بقايا قشور الصابون، وسلخ الأرانب ورتف الطيور وشواها، ومسح الحوض ونظفه، لقد عرف ما يجب فعله بعدما رأى السيدة تفعله مئات المرات.

بين الحين والآخر كان يقضى نصف ساعة في الحديقة، لكنه لم يستمتع بها، فالسرور الذى يدخله عليه وجوده في الحديقة طغى عليه القلق بشأن ما قد يحدث داخل المنزل في غيابه، وإلى جانب ذلك فإن العناية السليمة بالحديقة تتطلب وقتًا أكثر مما خصصه لها، وفي النهاية فإن الجزء الوحيد الذى اعتنى به حقًا هو حديقة المطبخ، وتخلّى عن البقية.

بمجرد أن اعتدنا الأمر، شعرنا بدرجة ما من الارتياح في وضعنا الجديد، وفر نبض القبو مصدرًا سرّيًا وأساسيًا لتمويل المنزل، وبمرور الوقت، بدأ أسلوب حياتنا يبدو قابلاً للاستدامة، الأفضل حقًا أن يظل "تشارلى" غائبًا، فهو إن ظل مفقودًا دون عودة، وغير ميت ولا حي، لن يسبب أذى لأى شخص.

لذا احتفظت بالمعلومة لنفسى.

في الغابة كوخ حقير، غير مستخدم منذ عقود، تكسوه الأشواك وتحاصره أعشاب القراص، حيث اعتاد "تشارلى" و"إيزابيل" أن يلتقيا، بعدما نُقلت "إيزابيل" إلى المصحّة، ظل تشارلى يتردد إلى هناك، عرفت ذلك، لأننى رأيته هناك، يتباكى، وينقش رسائل الحب على عظامه بتلك الإبرة القديمة.

إنه مكان واضح، لذا ذهبت إلى هناك مجددًا حين اختفى "تشارلى"، أشق طريقى بين نباتات العليق وغيرها من النباتات المتدلية التى غطت المدخل إلى الكوخ ذى الهواء المشبع بالتعفن، وهناك، وجدته في الظلام، ملقى في إحدى الزوايا وبجانبه مسدس، ونصف وجهه منفجر، ميزت النصف الآخر رغم الديدان، إنه "تشارلى" حقًا.

تراجعت من المدخل، غير عابثة لا بالأشواك ولا بنبات القراص، لم أطق انتظار أن أبتعد عن مجال رؤيته، لكن صورته ظلت معي، فركضت، وقد بدا مستحيلاً أن أهرب من تحديقه الأجوف ذي العين الواحدة.

أين أجد راحتي؟

هناك منزل أعرفه، منزل صغير بسيط في الغابة، سرقت الطعام من هناك مرة أو مرتين، فذهبت إلى هناك، اختبأت بجوار النافذة التقط أنفاسي، وأنا مدركة أنني كنت قريبة من الحياة العادية، وحين توقفت عن اللهاث لألتقط أنفاسي، انتصبت أتطلع إلى الداخل، ورأيت امرأة تحيك على مقعدها، وهدأني وجودها مع أنها لم تدر بوجودي، مثل جدة ما في حكاية خيالية، تطلعت إليها لأظهر عيني، حتى تلاشت صورة جثة "تشارلي" واستقر نبضي.

سرت عائدة إلى أنجلفيلد ولم أخبر أحداً، كان حالنا أفضل هكذا، وعلى أي حال، لن يحدث ذلك فرقاً لـ "تشارلي"، أليس كذلك؟ وكان هو أول أشباحي.

بدا لي أن سيارة الطبيب دائماً في مدخل منزل السيدة "وينتر"، حين وصلت إلى يوركشاير للمرة الأولى كان يتصل كل ثلاثة أيام، ثم أصبحت مكالماته يومية، والآن يأتي إلى المنزل مرتين يوميًا، درست السيدة "وينتر" بحذر، وعرفت حقائق عنها، السيدة "وينتر" مريضة، السيدة "وينتر" تحتضر ومع ذلك، حين كانت تخبرني قصتها، كان يبدو أنها تعتمد على بئر من القوة لا ينضب بالشيخوخة ولا المرض، فسرت تلك المعضلة بأن قلت لنفسى إن انتظام زيارات الطبيب تحديداً هو ما يجعلها تستمر على هذه الحال.

لكن لا بد أنها تتدهور على نحو خطير بطرق لا ألاحظها، فماذا قد يفسر إعلان "جوديث" المفاجئ في صباح أحد الأيام؟ إذ أخبرتنى فجأة تمامًا أن وعكة صحية تمنع السيدة "وينتر" من لقائي، وأنها لن تتمكن من استكمال مقابلتنا لمدة يوم أو اثنين، وبما أنني لن يكون لدى ما أفعله، يمكنني أخذ إجازة صغيرة.

"إجازة؟ بعد الجلبة التي أحدثتها بشأن سفرى فى المرة الأخيرة، كنت أستبعد تمامًا فكرة أن ترسلنى فى إجازة الآن، خصوصًا أن عيد الميلاد بعد أسابيع قليلة!"

لكن "جوديث" احمرت خجلًا، فهى لم تأت بمعلومات أكثر، شئ ما ليس على ما يرام، وأنا أزاح من الطريق.

عرضت "جوديث" مساعدتى: "يمكننى إعداد حقيبة لك إن كان ذلك يساعدك"، وابتسمت ابتسامة معتذرة، مدركة أنني عرفت أنها تخبئ شيئًا ما.

انزعاجى جعلنى فظة: "أستطيع أن أحقب أشياء".

"اليوم إجازة (موريس)، لكن الطبيب (كليفتون) يمكنه أن يوصلك إلى المحطة".

مسكينة "جوديث"، إنها تكره الخداع ولا تجيد الحيل.

"والسيدة (وينتر)؟ أريد مقابلة سريعة معها، قبل أن أرحل".

"السيدة (وينتر)؟ أخشى أنها..."

"لن تقابلنى؟"

"لن تستطيع مقابلتك"، وتدفق الارتياح إلى وجهها وتردد الصدق فى صوتها مع تمكنها أخيرًا من قول شئ حقيقى، "صدقينى يا آنسة (ليا)، إنها فقط لا تستطيع".

أيًا كان ما تعرفه "جوديث"، فإن الطبيب "كليفتون" أيضًا يعرفه.

"أين في كامبريدج يوجد متجر والدك؟" أراد أن يعرف ذلك و"هل يتاجر بكتب تاريخ الطب مطلقًا؟" أجبت باختصار، فأنا مهتمة بأسئلتى أكثر من أسئلته، وبعد بعض الوقت بلغت محاولاتهِ للدردشة السريعة آخرها، وحين بلغنا هاروجيت، كان الجو في السيارة مثقلًا بصمت السيدة "وينتر" الجائر.

"أنجلفيلد" مجدداً.

في اليوم السابق وأنا في القطار، تخيلت نشاطاً وضوضاء في آنجلفيلد: أصوات تصيح بالتعليمات وأذرع ترسل رسائل سيمافورية⁽¹⁾ متعجلة، رافعات، مدوية وبطيئة، وحجارة تحطم حجارة، لكن بدلاً من ذلك كان كل شيء صامتاً وثابتاً حين وصلت إلى بوابات المنازل الحجرية الصغيرة وتطلعت نحو موقع الهدم.

لم يكن هناك ما يُرى، فالضباب المعلق في الهواء أخفى كل شيء بعيد قليلاً، وحتى الطريق الخاص لم يكن واضحاً، كنت أرى قدمي في لحظة، وتختفي في اللحظة التالية، تقدمت رافعة رأسى دون أن أرى، متتبعة المسار مثلما أتذكره من زيارتي الأخيرة، ومثلما أتذكره من وصف السيدة "وينتر".

خريطته في عقلى كانت دقيقة: فوصلت إلى الحديقة في اللحظة التى توقعتها تحديداً، تنتصب الأشكال المظلمة لأشجار الصنوبر كأنها

(1) إشارات تُرسل باستخدام أعلام صغيرة ملونة.

في مشهد مسرحي يكسوه الغموض، مُسطح إلى بُعدين فقط بسبب الخلفية الفارغة، وقد طفا زوج من قِباب أشجار الصنوبر أعلى سحب الضباب مثل قبعات الرماة، وتلاشى الجذعان اللذان يحملان القبتين في الضباب الأبيض تحتهما، ستون عامًّا جعلت الشجرتين متضخمتين وأفقدتهما هيئتهما، لكن من السهل اليوم افتراض أن الضباب هو ما يخفف الحدة الهندسية للأشجار، وأنه حين يتلاشى، سيكشف عن الحديقة مثلما كانت قديمًا، بكل كمالها الهندسي، في أرض لا تستعد للهدم، وليست خرابًا، بل حول منزل سليم.

نصف قرن، عديم القيمة كالمياه المعلقة في هذا الهواء، مستعد للتبخر مع أول شعاع لشمس الشتاء.

قربت رسغي من وجهي لأعرف الساعة، لقد رتبت لأقابل "أوريليوس"، لكن كيف أجده وسط هذا الضباب؟ يمكن أن أتجول للأبد دون أن أراه، حتى ولو مر على مسافة ذراع. ناديت: "أمن أحد هنا؟" وجاء الرد بصوت رجل.

"نعم!"

يستحيل أن أعرف إن كان بعيدًا أم قريبًا: "أين أنت؟" تخيلت "أوريليوس" يحدق إلى الضباب بحثًا عن أي علامة. جاءت كلماته مكتومة: "أنا بجوار شجرة". "وأنا كذلك، لا أعتقد أننا بجوار الشجرة نفسه، صوتك بعيد للغاية".

"لكن صوتك قريب جدًا".

"حقًا؟ لم لا تبق مكانك وتظل تتكلم، وأنا سأجرك!"

"أنت محقة! إنها خطة ممتازة! لكن سأضطر إلى التفكير في شيء لأقوله، أليس كذلك؟ كم هو صعب الكلام حين يُطلب منك، في حين أنه يبدو سهلاً جداً بقية الوقت.. كم هذا الطقس كئيب، لم أر ضباباً مثل هذا من قبل".

ظل "أوريليوس" يفكر بصوت عالٍ، في حين خطوت أنا داخل سحابة وتبعث خيط صوته في الهواء.

كان هذا حين رأيت شيئاً ما، ظل انساب بجواري، شاحب في الضوء الرطب، أظن أنني أدركت أنه ليس "أوريليوس"، أحسست فجأة بنبض قلبي، ومددت ذراعي، يتقاسم الخوف والأمل مشاعري، تلمص الظل مني وانساب مبتعداً.

"(أوريليوس)؟" بدا صوتي مهتزاً في أذني.

"ماذا؟"

"أما زلت هناك؟"

"بالتأكيد".

بدا صوته في الاتجاه الخطأ تماماً، فماذا رأيت للتو؟ لم يكن ذلك "أوريليوس"، لا بد أنه تأثير الضباب، وقفت مكاني أحرق إلى الهواء الرطب، مستعدة لظهور الظل مجدداً، وخائفة مما قد أرى لو انتظرت.

انطلق صوت قوي من ورائي: "آها! ها أنت ذا!" إنه "أوريليوس"، قبض على كتفي بيديه مرتدياً قفازيه غير المكتملين واستدردت أنا نحوه: "يا إلهي يا (مارجريت)، أنت بيضاء مثل ورقة، تبدين كأنك رأيت شيئاً!"

تمشينا معًا في الحديقة، بدا "أوريليوس" بمعطفه أطول وأعرض من حقيقته، وبجانبه شعرت أنا بالضآلة داخل معطفى ضبابي اللون.
"ما أخبار كتابك؟"

"إنه مجرد ملاحظات حاليًا، ومقابلات مع السيدة (وينتر)، والكثير من الأبحاث".

"اليوم تجريين الأبحاث، أليس كذلك؟"

"نعم".

"أردت فقط التقاط بعض الصور، لكن يبدو أن الطقس ليس في صالحى".

"سترين بوضوح خلال ساعة، لن يستمر الضباب طويلًا".

وصلنا إلى ما يشبه الممشى، تصطف على جانبيه أشجار مخروطية عريضة للغاية لدرجة أنها تكاد تشكل سياجًا.

"لماذا تأتى إلى هنا يا (أوريليوس)؟"

تمشينا حتى نهاية الممر، ثم فى مساحة لم يبد أن بها شىء سوى الضباب، حين وصلنا إلى جدار من الصنوبر يبلغ ارتفاعه ضعف طول "أوريليوس" نفسه مشينا بمحاذاته، لاحظت لمعانًا على العشب وعلى أوراق الأشجار: لقد ظهرت الشمس، بدأت رطوبة الهواء فى التبخر واتسعت دوائر الرؤية بمرور كل دقيقة، قادنا حائط الصنوبر فى دائرة كاملة من المساحة الفارغة، إذ وصلنا إلى الممر نفسه الذى دخلنا منه.

بدا أن وقتًا طويلًا قد مر منذ طرحت سؤالى، لدرجة أننى لم أعد واثقة من أننى سألته، أجاب "أوريليوس": "لقد ولدت هنا".

توقفت فجأة، وتابع "أوريليوس" المشى، غير مدرك لتأثير كلماته على، مددت لبضع خطوات لألحق به.

"أوريليوس!" أمسكت بكم معطفه: "أهذا حقيقتي؟ هل ولدت هنا حقًا؟"

"نعم".

"متى؟"

ابتسم ابتسامة غريبة وحزينة: "في يوم مولدي".

أصررت بلا تفكير: "نعم، لكن متى؟"

"في يوم ما في يناير على الأرجح، ربما فبراير، ربما نهاية ديسمبر، قبل ستين عامًا تقريبًا، أخشى أنني لا أعرف أكثر من ذلك".

عبست، وتذكرت ما أخبرني إياه من قبل عن السيدة "لاف" وأن لا أم له، لكن ما الظروف التي تجعل طفلًا متبني يعرف القليل جدًا عن ظروف ولادته، لدرجة أنه لا يعرف يوم مولده؟

"أتقصد أن تقول إنك كنت طفلًا لقيطًا يا (أوريليوس)؟"

"نعم، هذا وصفى، لقيط".

لم تسعفني الكلمات.

"أظن أن المرء يعتاد الأمر"، وأسفت لأنه اضطر إلى تعزيتي في مصابه هو.

"هل اعتدت الأمر حقًا؟"

تطلع إلى بوجه فضولي، يفكر إلى أي حد سيخبرني: "في الواقع، لا".

بخطوات بطيئة وثقيلة كالمصابين، تابعنا نزهتنا، تلاشي الضباب تقريبًا، وفقدت أشكال الأشجار التوبيارية الساحرة سحرها، وبدت على حقيقتها، شجيرات وأسيجة غير مهذبة.

بادرت بالحديث: "إذًا فالسيدة (لاف) هي مَنْ..."

"وجدتني، نعم".

"ووالداك...".

"لا فكرة لدى".

"لكنك تعرف أنهما كانا هنا؟ في هذا المنزل؟"

دس "أوريليوس" يديه في جيبه، وشد كتفيه: "لا أنتظر من الآخرين التفهم، ليس لدى أي دليل، لكنني أعرف ذلك"، وألقى على نظرة سريعة، وحثثته أنا، بعيني، على أن يستمر.

"أحيانًا قد تعرفين بعض الأشياء، أشياء عن نفسك، أشياء تتجاوز مدى ذاكرتك، لا أستطيع أن أشرح الأمر".

أومات، وتابع "أوريليوس".

"ليلة العثور عليّ كان هنا حريق كبير، أخبرتني السيدة (لاف) بهذا حين كانت سني تسعة أعوام، اعتقدت هي أنها يجب أن تخبرني، بسبب رائحة الحريق بملابسي حين وجدتي، لاحقًا جئت لألقى نظرة، وانتظم مجيئي منذئذ، وبعدها بحثت في أرشيف الصحيفة المحلية، على أي حال..."

ميز صوته خفة لا تخفى، تلك الخفة المميزة حين يقول شخص شيئًا شديد الأهمية، إنها قصة عزيزة للغاية لدرجة أنها يجب أن تغطي باللامبالاة لإخفاء أهميتها، في حال تبين أن المستمع غير متعاطف.

"على أي حال، عرفت في اللحظة التي جئت فيها إلى هنا، قلت لنفسي هذا بيتي، لقد جئت من هنا، لا شك في هذا، أعرف ذلك".

ومع كلماته الأخيرة، كان "أوريليوس" قد سمح للخفة بالانسياب، وسمح للحماس بالتسلل، تنحنح: "بالتأكيد لا أتوقع أن يصدق أحد

هذا، ليس لدى دليل على ذلك، بل مجرد صدفة تواريخ، وذاكرة السيدة (لاف) الضبابية عن رائحة دخان، وقناعتي الشخصية".

قلت: "أنا أصدقك".

عض "أوريليوس" شفته وألقى إلى نظرة جانبية حذرة.

قادتنا أسرار، وهذا الضباب، على نحو غير متوقع إلى شبه جزيرة من الحميمية، ووجدت نفسي على وشك أن أخبره بما لم أخبر به أحدًا من قبل، قفزت الكلمات مستعدة إلى بالي، نظمت نفسها لحظيًا في شكل جمل، سطور طويلة من الجمل، لا تطيق صبرًا لتتطلق من فمي، كأن التخطيط لها قد تم قبل سنوات من تلك اللحظة.

كررتها: "أنا أصدقك"، ولساني مثقل بكل الكلمات المنتظرة: "راودني أنا أيضًا ذلك الشعور، أن أعرف أشياء لا يمكن أن أعرفها، من فترة تتجاوز مدى ذاكرتي".

وحينئذ ظهر مجددًا! حركة مفاجئة عند طرف عيني، ظهر واختفى في اللحظة نفسها.

"هل رأيت هذا يا (أوريليوس)؟"

تتبع تحديقي نحو الأشجار الهرمية ووراءها: "أرى ماذا؟ لا، لم أر شيئًا".

لقد اختفى، أو لم يكن هناك قط.

التفت إلى "أوريليوس"، لكنني فقدت ما استجمعت من جرأة، راحت لحظة الأسرار.

سأل "أوريليوس": "هل لك عيد ميلاد؟"

"نعم، لي عيد ميلاد".

تراجعت كل كلماتي التي لم أقلها إلى حيثما كانت طوال تلك السنوات.

"سأدونه إذًا"، قالها باسمًا، "بذلك سأتمكن من أن أرسل لك بطاقة معايدة".

تكلفت ابتسامة: "في الواقع، لقد اقترب".

فتح "أوريليوس" مفكرة زرقاء صغيرة مقسمة إلى أشهر.

أخبرته: "التاسع عشر"، ودون اليوم بقلم رصاص صغير جدًا، بدا كعود أسنان في يده الضخمة.

السيدة "لوف" وتقسيمة الكعب.

حين بدأت الأمطار تهطل رفعنا قلنسوتينا وهرولنا لنحتمى بالكنيسة، هزنا أنفسنا قليلاً في مدخلها لنسقط عن معطفينا قطرات المطر، ثم دخلنا.

جلسنا على أحد المقاعد الطويلة قرب المذبح وحملقت إلى السقف الباهت المقبب حتى شعرت بالغثيان.

قلت: "أخبرني عن فترة العثور عليك، ماذا تعرف عنها؟"

"أعرف ما أخبرتنى به السيدة (لوف)، يمكنني أن أحكيه لك، وبالطبع هناك ميراثي".

"لك ميراث؟"

"نعم، ليس بالشيء الكثير، ليس ما يقصده الناس عادة حين يتحدثون عن الميراث، لكن مع ذلك... في الواقع يمكنني أن أريه لك لاحقاً".

"سيكون هذا لطيفًا".

"نعم.. لأننى كنت أفكر فى أن الساعة التاسعة مناسبة لتناول الإفطار أكثر من تناول كعكة، أليس كذلك؟" قالها بتكشيرة ممانعة، تحولت إلى ابتسامة مشرقة مع كلماته التالية: "لذا فكرت فى دعوتك إلى تبصرة صباحية، فما رأيك بتناول كعكة وشرب القهوة؟ سيكون تناول شئ مفيدًا لك، وسأريك ميراثى فى غضون ذلك، مهما كانت ضالة ما سترينه".

قبلت الدعوة.

أخرج "أوريليوس" نظارته من جيبه وشرع بتلميعها مستخدمًا منديلًا بعقل شارد.

"والآن"، أخذ نفسًا عميقًا، وزفر ببطء، "السيدة (لاف) وقصتها، مثلما حكيت لى".

استقر وجهه موحيا بحياء غير متأثر، علامة على أنه على طريقة كل رواية القصص، كان يختفى ليفسح مجالاً لصوت القصة نفسها، ثم بدأ يسرد، ومن أول كلمة قالها، وفى جوهر صوته، كان صوت السيدة "لاف" هو ما سمعته، لقد استحضرها من القبر بواسطة ذكرى قصتها. إنها قصتها وقصة "أوريليوس"، وعلى الأرجح، قصة "إميلان" أيضًا.

=====

كانت السماء فى تلك الليلة حالكة السواد، والعاصفة تختمر فيها، والرياح تصفر فى أعالي الأشجار والأمطار غزيرة تكاد تكسر النوافذ، وأنا أحوك جوربًا رماديًا فى ذلك المقعد قرب النار، وهو الجورب الثانى، وكنت قد وصلت إلى تقسيمة الكعب، انتابتنى قشعريرة، ولكن ليس لأننى شعرت بالبرد، فلدى كومة جيدة من الحطب جلبتها من الكوخ منذ عصر اليوم، وقد أضفت جذعًا جديدًا للتو، لذا لم أكن

أشعر بالبرد، مطلقًا، لكنني قلت لنفسي يا لها من ليلة، أنا ممتنة لأنني لست روحًا مسكينة عالقة في الخارج بعيدًا عن بيتها في ليلة كهذه، والتفكير في تلك الروح المسكينة هو ما جعلني أقشعر.

كل شيء في الداخل هادئ، إلا من طقطقة النار بين الحين والآخر، وصليل إبرق الحياكة حين تصطكان، وتنهداتي، تستغرب تنهداتي؟ حسنًا هذا لأنني لم أكن سعيدة، فقد سقطت في فخ التذكر، وهي عادة سيئة لامرأة في الخمسين من عمرها، لدى موقد دافئ وسقف فوق رأسي وعشاء مذهو بداخلي، لكن هل أنا سعيدة؟ ليس أنا، لذا جلست هناك أتهدد أمام جوربي الرمادي، في حين استمر هطول المطر، وبعد بعض الوقت، قمت لأجلب شريحة من كعكة الخوخ من الخزانة، حلوة وناضجة ومخبوزة بالبراندي، أبهجتنى بلا نهاية، لكن حين رجعت وأمسكت بأدوات حياكتي، تحول نبض قلبي، أتعرف لماذا؟ لقد حكّت تقسيمة الكعب مرتين!

ضايقتني ذلك، ضايقتني حقًا، لأنني حائكة حذرة، لست متسرعة مثلما اعتادت أختي "كيّتي" أن تكون، ولست شبه عمياء مثل والدتي المسكينة حين قاربت الرحيل، لقد ارتكبت هذا الخطأ مرتين فقط في حياتي.

المرة الأولى التي حكّت فيها تقسيمة الكعب أكثر من اللازم كانت وأنا صغيرة، كنت جالسة بجوار نافذة مفتوحة في عصر يوم مشمس، استمتع برائحة كل شيء مزهر في الحديقة، كان ذلك جوربًا أزرق، أحوكه من أجل.. رجل شاب، رجلى الشاب، لن أخبرك باسمه، فلا حاجة إلى ذلك، في الواقع كنت مستغرقة في حلم يقظة، الأمر سخيّف، فساتين بيضاء وكعكات بيضاء والكثير من هذا الهراء، وفجأة نظرت إلى الأسفل ووجدت أنني حكّت تقسيمة الكعب مرتين، كان ذلك واضحًا كالشمس، تقسيمة الساق، ثم كعب، ثم المزيد من التقسيم

من أجل القدم ثم، كعب آخر، ضحكت بصوت عالٍ، لم يهمنى ذلك،
ففك الخياطة وإصلاحها سهل كفاية.

كنت قد سحبت الإبر بالفعل حين جاءت "كيتى" تركض في ممر
الحديقة: "ماذا بها؟" قلت ذلك لنفسى بسبب تعجلها، رأيت وجهها
شاحبًا ولونها متغيرًا، ثم توقفت فجأة لحظة رأيتى عبر النافذة،
حينها عرفت أنها ليست مشكلة لها، بل لى، فتحت فمها لكنها لم
تستطع حتى أن تنطق اسمى، كانت تبكى، ثم تحدثت أخيرًا.

وقع حادث، كان رجلى الشاب بالخارج مع أخيه، يصطادان بعض
الطيور حيث لا يجب أن يصطادا، رآهما أحد وخافا فجأة وركضا،
وصل "دانيال"، أخوه، إلى السور الخشبي أولاً وقفز، لكن رجلى الشاب
كان متعجلًا للغاية، علق مسدسه في السور، كان يجب أن يبطئ،
ويعطى نفسه الوقت اللازم، سمع وقع أقدام تطاردهما وأصابه
الهلع، حاول بقوة جذب مسدسه، لا يجب أن أحكى البقية، صحيح؟
يمكنك تخمين ما حدث.

فككت حياكتى، كل تلك العقد الصغيرة التى تحيك الواحدة منها
بعد الأخرى، صُفًا تلو الآخر، لتصنع جوربًا، فككتها كلها، الأمر سهل،
أخرج الإبر، وبشدة صغيرة ستنهار العقد، واحدة تلو الأخرى، وصُفًا
تلو الآخر، فككت الكعب الزائد وظللت أفكك فقط، القدم، الكعب
الأول، وتقسيمة الساق، كل تلك الحلقات تفكك نفسها وهى تسحب
الخيوط الصوفى، ثم لم يتبق ما يمكن فككه، فقط كومة من الصوف
الأزرق المتعرج كالخريطة فى حجرى.

لا يستغرق الأمر طويلًا لتحوك جوربًا، ويستغرق فككه وقتًا أقل
جداً.

أتوقع أننى لففت الصوف الأزرق على هيئة كرة لأصنع منه شيئًا
آخر، لكننى لا أتذكر ذلك.

في المرة الثانية التي حكّت فيها تقسيمة الكعب مرتين كنت بدأت أكبر بالسن قليلاً، كنت أجلس و"كيّتي" قرب الموقد معاً، مر عام منذ مات زوجها، وحوالي عام منذ انتقالها للعيش معي، ظننت أنها تتحسن كثيراً، أصبحت تبتسم أكثر، وتنمي اهتمامها ببعض الأشياء، أصبحت تسمع اسمه دون أن تبكي، جلسنا هناك وكنت أحوك زوجاً جميلاً من جوارب النوم من أجل "كيّتي" من أنعم أصواف الخراف، ولونه ردي ليتلاءم مع ثوب نومها، وكان لديها كتاب في حجرها، لكنها لم تكن تنظر إليه، لأنها قالت: "(جوان)، لقد حكّت تقسيمة الكعب مرتين".

أوقفت عملي، وكانت محقة، قلت: "أنا متفاجئة للغاية".

قالت إنها ما كانت لتتفاجأ لو كانت تلك حياكتها، فهي دائماً ما تحيك تقسيمة الكعب مرتين، أو تنسى أن تحيكها من الأساس، ففي أكثر من مرة كانت تحيك جوارب رجالية بلا كعوب، فقط ساق وقدم، ضحكنا، لكنها قالت إنها تفاجأت مما فعلته، إذ لم يكن معتاداً أن أكون شاردة الذهن جداً هكذا.

قلت لها إنني ارتكبت هذا الخطأ من قبل، مرة واحدة فقط، وذكرتها بما حكّيته لك للتو، كل ما تعلق برجلي الشاب، وبينما أنا مستغرقة في الذكريات بصوت عالٍ، فككت بحذر الكعب الثاني وبدأت في إصلاحه، يتطلب الأمر بعض التركيز، والضوء كان يخفت، فأنهيت قصتي، ولم تقل هي أيّ شيء، وظننت أنها تفكر في زوجها، فقد تحدثت عن خسارتي التي مرت عليها كل تلك السنين، وبالمقارنة فإن خسارتها حديثة جداً.

كان الضوء أخفت من أن أكمل القدم بشكل صحيح، فوضعت الجورب جانباً وتطلعت، قلت: "(كيّتي)؟ (كيّتي)؟" ولم أجد رداً، فكرت للحظة في أنها ربما نامت، لكنها لم تنم.

بدت ملامحها مسالمة جدًا بابتسامة على وجهها، كأنها كانت سعيدة لاجتماعها معه مجددًا، اجتماعها مع زوجها، لقد انتقلت إليه إليه وأنا أنظر إلى الجورب في الظلام، وأثرثر بشأن قصتي القديمة.

أزعجني الأمر في تلك الليلة ذات السماء الحالكة أن أكتشف أنني حكيت كعبًا ثانيًا، ففي أول مرة فعلت ذلك فقدت رجلى الشاب، وفي الثانية فقدت أختي، والآن الثالثة، لم يعد لدى أحد لأخسره، لم يتبق سوى الآن.

نظرت إلى الجورب، صوف رمادي، شيء بلا ملامح صنعته من أجل.

قلت لنفسى إنه ربما لا يهم، فمن يمكن أن يفتقدني؟ لن يعانى أحد إثر رحيلى، وهذه نعمة، ففي النهاية، على الأقل عشت حياة، على عكس رجلى الشاب، وتذكرت أيضًا النظرة على وجه "كيتى"، تلك النظرة المسالمة السعيدة، فكرت في أن الأمر ليس سيئًا تمامًا.

جلست أفكك الكعب الإضافي، قد تسألنى عن فائدة ذلك، حسنًا، لم أرد أن يجدنى أحد به، تخيلتهم يقولون: "المرأة المسنة السخيفة، لقد وجدوها وأدوات الحياكة في حجرها، وخمنوا ما فعلته! لقد حاكت تقسيمة الكعب مرتين"، لم أرد أن يقولوا ذلك، لذا فككته، وبينما أنا أباشر الفك، كنت أجهز نفسى في عقلى للرحيل.

لا أعرف لكم من الوقت ظللت على هذا الوضع، لكن في النهاية، وجدت ضوضاء طريقها إلى أذنى من خارج الباب، صرخة تشبه صرخة حيوان تائه، كنت شاردة بأفكارى، لا أتوقع حدوث أى شيء بين الآن ورحيلى، لذا لم أنتبه في البداية، لكننى سمعتها مجددًا، وبدت كأنها تنادىنى، لأن من غيرى عالق هنا في الفراغ كان سيسمعها؟ فكرت في أنها ربما قطعة، ضاعت من أمها أو شيء كهذا، ومع أننى كنت أستعد لمقابلة خالقى، ظلت صورة تلك القطعة الصغيرة، بفرائها المبتل، تشتتني، وفكرت في أن استعدادى للموت ليس سببًا كافيًا لأمنع عن

أحد مخلوقات الرب بعض الدفء والطعام، وقد أخبرك أيضًا أنني لم أمانع فكرة أن يجاورني في تلك اللحظة أي كائن حي، لذا ذهبت إلى الباب.

وماذا وجدت؟

رضيع! ملفوف ومتروك في المدخل يحميه من المطر، مدثر بالأقمشة، يموء مثل قطعة صغيرة، ذلك المخلوق الصغير المسكين، كنت تشعر بالبرد والجوع، بالكاد صدقت عيني، انحنيت وحملتك، ولحظة رأيتني توقفت عن البكاء.

لم أطل البقاء خارج المنزل، أردت طعامًا وبعض الكساء الجاف، لذا لا، لم أقف طويلًا في المدخل، ألقىت نظرة سريعة فقط، ولم أجد شيئًا هناك، ولا أحد مطلقًا، ليس إلا رياح تجعل الأشجار تصدر حفيفًا عند طرف الغابة، ودخان يتصاعد إلى السماء ناحية "أنجلفيلد"، وهذا غريب.

قبضتك إليّ، ودخلت وأغلقت الباب.

في المرتين اللتين حكيت فيهما تقسيمة الكعب مرتين، حام الموت حولي، وفي المرة الثالثة، طرقت الحياة بابي، علمني ذلك ألا أستغرق كثيرًا في تفسير الصدف، وعلى أية حال، لم يعد لدى بعد ذلك الكثير من الوقت للتفكير في الموت.

انشغلت بالتفكير فيك.

وعشنا في تبات ونبات.

مكتبة

t.me/t_pdf

ازدرد "أوريليوس" ريقه، أصبح صوته أجش ومكسورًا، خرجت الكلمات منه مثل تعويذة، كلمات سمعها آلاف المرات خلال طفولته، وتكررت داخله لعقود وهو بالغ.

حين انتهت القصة جلسنا صامتين، نتأمل المذبح، وفي الخارج استمر هطول المطر، غير متعجل، و"أوريليوس" ثابت كتمثال إلى جانبي، لكنني اعتقدت أن أفكاره ليست هادئة بأي شكل.

هناك الكثير مما يمكنني قوله، لكنني لم أقل شيئًا، انتظرت فقط ليعود إلى الحاضر وقتما يناسبه، وتكلم معي حين عاد.

"الأمر أن هذه ليست قصتي، أليس كذلك؟ أقصد، أنا فيها، وهذا واضح، لكنها ليست قصتي، إنها خاصة بالسيدة (لاف) والرجل الذي أرادت الزواج منه، وأختها (كيتي)، وحياتها، ومخبوزاتها، كل هذا قصتها هي، ثم حين ظنت أن كل شيء على وشك النهاية، وصلت أنا وجلبت معي بداية جديدة للقصة.

لكن هذا لا يجعلها قصتي، صحيح؟ لأنها قبل أن تفتح الباب.. قبل أن تسمع الصوت في تلك الليل.. قبل..."

سكت، وأنفاسه منقطعة، وقام بإشارة ليقطع جملته ويبدأ مجددًا: "لأنه حتى يجد أحد رضيعًا هكذا، وأن يجده فجأة، وحده تمامًا تحت المطر، فهذا يعني أنه، قبل ذلك -وحتى يحدث ذلك- بالضرورة..."

وقام بإشارة عصبية أخرى ماحية لكلامه، يحرك عينيه باتساع في أنحاء سقف الكنيسة كأنه سيجد في مكان ما الفعل الذي احتاج إليه، والذي سيملكه أخيرًا من أن يجد ما أراد قوله: "لأن إن وجدت السيدة (لاف)، فهذا لا يعني إلا أن قبل أن يحدث ذلك، لا بد أن أحدًا آخر، شخصًا آخر، أمًا أخرى..."

ها هو، ذلك الفعل.

تجمد وجهه من اليأس، وأوقفت يدها في منتصف إشارة عصبية بطريقة تشير إلى رجاء أو دعاء.

هناك أوقات يكون فيه الوجه والجسد البشري قادران على التعبير عما يتوق إليه القلب بدقة شديدة، لدرجة أنك تستطيع، مثلما يُقال، أن تقرأهما مثل كتاب، وأنا قرأت "أوريليوس".
لا تتخلي عني.

لمست يده بيدي، وعاد التمثال إلى الحياة.

همست: "ما من فائدة من انتظار توقف المطر، ستمطر طوال اليوم، ويمكن لصوري أن تنتظر، يمكننا أيضًا أن ننطلق".
قال: "نعم"، بنبرة خشنة في حلقه، "يمكننا أيضًا أن ننطلق".

الميراث

قال مشيراً إلى داخل الغابة: "إنها مسيرة كيلومترين ونصف في مسار مباشر، وتطول المسافة إن سلكنا الطريق الرئيس".

عبرنا حديقة الغزلان وكدنا نصل إلى طرف الغابة حين سمعنا أصواتاً، كان صوت امرأة يسبح عبر الأمطار، من طريق الحصى إلى أطفالها، وعبر الحديقة وصولاً إلينا، "قلت لك يا (توم)، المكان مبتل للغاية، لا يمكنهم العمل حين تمطر هكذا"، توقف الطفلان محبطين لرؤية الرافعات والآلات الساكنة، لم أستطع التفريق بينهما وهما يعتمران قبعتين واقيتين من المطر على رأسيهما الأشقرين، لحقت المرأة بهما، وتجمعت العائلة للحظة في اجتماع سريع للمعاطف الطويلة الواقية من المطر.

استغرق "أوريليوس" في نشوة مشاهدة تلك اللوحة الفنية العائلية.

قلت: "لقد رأيتهم من قبل، هل تعرفهم؟"

"إنهم عائلة تعيش في شارع (ذا ستريت)، بالمنزل ذى الأرجوحة، وتعتنى (كارين) بالغزلان هنا".

"ألا يزال الصيد يحدث هنا؟"

"لا، إنها تعتنى بالغزلان فقط، إنهم عائلة لطيفة".

تطلع إليهم حاسداً، ثم قطع انتباهه بهزة لرأسه: "السيدة (لاف) أحسنت معاملتى، وأحببتها، كل تلك الأشياء الأخرى..." وقام بحركة رافضة، والتفت إلى الغابة: "هيا بنا، لنذهب إلى المنزل".

استدارت العائلة ذات المعاطف الواقية من المطر نحو بوابات المنازل الحجرية الصغيرة، يبدو أنهم توصلوا إلى القرار نفسه.

سرت و"أوريليوس" عبر الغابة بود صامت.

لم تكن هناك أوراق أشجار لتحجب الضوء، والأفرع التى سودتها الأمطار بدت مظلمة بعرض السماء الرطبة، وحين مد "أوريليوس" ذراعه لإبعاد الأفرع الهابطة أضاف المزيد من قطرات المطر إلى تلك التى تهبط من السماء، بلغنا جذع شجرة ساقط وانحنينا إليه، محدقين إلى البركة المظلمة فى فراغه، التى خففت اللحاء المتعفن لتجعله أشبه بالفراء.

أعلن "أوريليوس": "إنه البيت".

كان منزلاً حجرياً صغيراً، مصمم للتحمل وليس للزينة، لكن مع ذلك مظهره جذاب، بخطوطه البسيطة والراسخة، قادنى "أوريليوس" فى جولة حول المنزل، هل سنه مئة أم مئتا عام؟ صعب أن أجزم، ليس من نوع المنازل التى قد تُحدث مئة عام تغييرات كبيرة به، باستثناء أن له امتداداً جديداً كبيراً فى الخلف، بكبر المنزل نفسه تقريباً، ويشغل مطبخ كامل مساحته تقريباً.

علق وهو يقودنى إلى الداخل: "هنا ملاذى الآمن".

فرن عملاق من الإستانلس، وجدران بيضاء، وثلاجتان ضخمتان،
إنه مطبخ حقيقى لطاه حقيقى.

سحب "أوريليوس" كرسيًا لى وجلست مقابل طاولة صغيرة قرب
خزانة للكتب، الرفوف ممتلئة بكتب الطبخ، بالفرنسية والإنجليزية
والإيطالية، لكن كتابًا واحدًا كان على الطاولة، على خلاف البقية،
كان عبارة عن مفكرة سميكة، أثلّم الزمن زواياها، ومغطاة بورق
بنى أصبح شفافًا بعد عقود من إمساكه بأصابع مزبدة، كتب أحد
بحروف كبيرة "وصفات" على الغلاف الأمامى، بطريقة مدرسية قديمة،
بعد بضع سنوات، رسم الكاتب علامة "إكس" على حرف الألف،
مستخدمًا قلمًا مختلفًا.

سألته: "أتسمح لى؟"

"بالتأكيد".

فتحت الكتاب وبدأت أتصفحه، كعكة "فكتوريا" الإسفنجية، وخبز
التمر والجوز، وكعكات غيرها، وكعكة الزنجبيل، وتارت "مايدز أوف
أونر"، وتارت "بيكويل"، والكعكة الغنية بالفواكه.. لاحظت تحسن
خط الكتابة مع طي الصفحات.

شغل "أوريليوس" الفرن، ثم جمع المقادير بخفة، بعد ذلك كان
كل شيء فى متناول يده، ومد ذراعه ليجلب غربالاً أو سكينًا دون أن
ينظر، تحرك فى مطبخه مثلما يغير السائقون غيارات السيارة: يد تمتد
بسلاسة، دون الكثير من الاهتمام، تعرف ما ستفعله تحديدًا، فى حين
أن عينيه لا تغادران قط بقعةً محددة أمامه: الوعاء الذى جمع فيه
المقادير، غربل الدقيق، وقطع الزبدة إلى مكعبات، وقشر برتقالة من
أجل النكهة، بدت حركاته كلها تلقائية كالتنفس.

قال: "أترين الخزانة؟ إلى يسارك؟ هلا فتحتها".

ظننته يريد أداة ما، ففتحت الخزانة.

"ستجدين داخلها حقيبة معلقة بوترد".

كانت أشبه بحقيبة أحادية الذراع، قديمة ولها تصميم غريب، جانبها ليسا مخيطين، بل مشبكان فقط، وقد رُبطت بمشبك وحزام جلدي عريض وطويل، مربوط بمشبك صدئ عند كل طرف، يُفترض أنه يسمح لحاملها بتعليقها مائلة على جسده، كان الجلد جافًا ومتشققًا، والقماش الذى ربما كان لونه ترابيًّا فى يوم ما، أصبح الآن باهتًا بلون السنين.

سألته: "ما هذا؟"

تركت عيناه الوعاء وتطلعت إلى لثوانٍ.

"إنها الحقيبة التى وُجدت فيها".

وعاد إلى مزج مكونات الطعام.

الحقيبة التى وُجد فيها؟ تنقلت عيناى ببطء من الحقيبة إلى "أوريليوس"، حتى وهو عاكف على عجينه، يتجاوز طوله مترًا وثمانين سنتيمترًا، تذكرت أننى ظننته أحد عمالقة قصص الأطفال حين رأيته أول مرة، اليوم لن يكفى الحزام للالتفاف حول وسطه، ولكن منذ ستين عامًا كان صغيرًا كفاية ليكون بداخلها، جلست مجددًا، مشوشة الذهن بأفكار حول ما يستطيع الزمن فعله، مَن تلك التى وضعت رضيعًا فى هذه الحقيبة منذ زمن بعيد؟ لفت قماشها حوله، وربطت المشبك فى مواجهة الطقس وشدت الحزام حول جسدها لحمله، فى ثانيا الليل، إلى منزل السيدة "لاف"؟ مررت أصابعى على المواضع التى لمستها هى، القماش، المشبك، الحزام، باحثة عن أى أثر لها، أو عن دليل بلغة "برايل" أو بحبر خفى أو شيفرة، والذى ستكشفه لمستى فقط لو كانت تعرف طريقة لذلك، لكنها لم تعرف.

علق: "إنها مستفزة، أليس كذلك؟"

سمعته يدفع شيئًا إلى داخل الفرن، ثم شعرت به ورائي، ينظر من أعلى كتفي.

"افتحها، يداي عليهما دقيق".

فككت المشبك وفتحت طيات القماش، كشفت عن دائرة مسطحة في منتصفها تشابك من الأوراق والخرق.

قال: "إنه ميراثي".

بدت تلك الأغراض ككومة من المخلفات غير المرغوب فيها التي تنتظر أن تُلقى في سلة القمامة، لكنه حلق إليها بتركيز طفلٍ يحملق إلى كنز دفين: "هذه الأغراض هي قصتي، تلك الأشياء تخبرني من أنا، الأمر يتوقف فقط على.. أن أفهمها"، حيرته كانت قوية، على الرغم من استسلامها، "لقد حاولت طوال حياتي أن أحل هذا اللغز، أظن أفكر، فقط لو أمكنني إيجاد طرف الخيط.. سيصبح الأمر منطقيًا، انظري إلى هذه كمثال..."

إنها قطعة ملابس من الكتان، كانت سابقًا بيضاء والآن صفراء، فصلتها عن بقية الأغراض ومددتها، مطرزة برسومات نجوم وأزهار باللون الأبيض أيضًا، وبها أربعة أزوار لؤلؤية، إنه ثوب نوم أو فستان رضية، غطى الدقيق أصابع "أوريليوس" العريضة، التي حام بها حول قطعة القماش الضئيلة، يريد لمسها، ولا يريد ترك علامة بالدقيق، الأكمام الضيقة تكفي الآن أحد أصابعه فقط.

علق "أوريليوس: "هذا ما كنت أرتيده".

"إنه قديم جدًا".

"أفترض أنه في مثل سني".

"أو أكثر".

"انظر إلى الرتق هنا.. وهنا، لقد رُتق أكثر من مرة، وهذا الزر مختلف عن البقية، لقد ارتدى رضع آخرون هذا قبلك".

حلقت عيناه من الخرقَة إلى وإلى الخرقَة مجددًا، متعطشة للمعرفة.

"وهذه أيضًا"، وأشار إلى ورقة مطبوعة، لقد مُزقت من كتاب، وهي مليئة بالثنايا، بدأت أقرأ ما بها بعدما أخذتها.

"... لم أدرك ما ينتويه في البداية، لكن حين رأيته يرفع الكتاب ويزنه ويقف مستعدًا لرشقه، وثبت جانبًا على نحو غريزي وأطلق صرخة ذعر..."

التقط "أورييليوس" طرف الجملة وتابع، لا يقرأ من الصفحة بل من ذاكرته: "... لكنني لم أكن سريعة كفاية، فقد رشق المجلد، وأصابني، فسقطت على الأرض، وارتطم رأسي بالباب، وجُرح".

بالتأكيد ميزت هذا النص، وكيف لا؟ وقد قرأته عدد مرات لا يعرفه إلا الرب، قلت متعجبة: "رواية (جين إير)".

"هل عرفتِه؟ نعم هذا صحيح، سألت رجلًا في المكتبة، لقد ألفتها كاتبة تدعى (تشارلوت) شيء ما، يبدو أنها كانت لها أخوات كثيرات".
 "هل قرأتها؟"

"بدأت، إنها عن فتاة صغيرة فقدت عائلتها، لذا أخذتها عائلة عمتها، ظننت أنها ستقودني إلى شيء ما، تلك المرأة -العمة- كريهة، ليست مثل السيدة (لاف) مطلقًا، في هذه الصفحة، يقذفها أحد أبناء عمتها بكتاب، لكن لاحقًا تلتحق بمدرسة، مدرسة مريضة، بها طعام مريع، لكنها تكتسب صديقة هناك"، ابتسم، متذكرًا ما قرأه: "لكن حينها فقط تموت صديقتها"، كسا الإحباط وجهه، "وبعد ذلك.. يبدو أنني فقدت الاهتمام، لم أقرأ النهاية، لم أستطع توقعها ستؤول الأمور

إليه بعد ذلك"، وهز كتفيه متخليًا عن حيرته: "هل قرأتها؟ ماذا حدث في النهاية؟ هل هى مهمة؟"

"تقع فى حب مديرها، وزوجته -المجنونة، التى تعيش فى المنزل، لكنها فى السر- تحاول أن تحرق المنزل حتى ينهار، فترحل (جين)، وحين تعود، تكون الزوجة ميتة، والسيد (رويشستر) كفيف، وتزوج به (جين)".

"آه"، تجعدت جبهته وهو يحاول تفكيك اللغز، لكنه استسلم: "ألا يبدو الأمر غير منطقي تمامًا؟ أو ربما البداية، الفتاة التى بلا أم، لكن بعد ذلك.. أتمنى لو يخبرنى أحد بمعنى ذلك، أتمنى لو يوجد أحد يستطيع فقط أن يخبرنى الحقيقة".

التفت إلى الصفحة الممزقة من الكتاب: "ربما ليس الكتاب هو المهم، بل هذه الصفحة فقط، ربما لها معنى سرى ما، انظرى".

داخل الغلاف الخلفى لكتاب وصفات طفولته وجدت صفوفًا وأعمدة من الأرقام والأعداد مكتوبة بيد طفولية كبيرة: "اعتدت الظن أنها شيفرة، وحاولت فكها، جربت الحرف الأول من كل كلمة، والحرف الأول من كل سطر، أو الثانى، ثم جربت استبدال حرف مكان الآخر"، وأشار إلى محاولاته الكثيرة، بعينين متحمستين، كأن لا تزال الفرصة قائمة لأن يرى شيئًا فوته من قبل.

أدركت أن لا أمل فى ذلك.

"ماذا عن هذا؟" التقطت الشيء التالى، ولم أستطع منع نفسى من القشعريرة، يبدو أنه كان من قبل ريشة، لكنه الآن شيء كريبه قبيح المنظر، إذ جفت زيوتها، وانفصلت شعيراتها عن بعضها لتشكل مسامير بنية جامدة بطول العمود المكسور.

هز "أوريليوس" كتفيه وهز رأسه بجهل عاجز، ورميت الريشة بارتياح.

ثم كان هناك شيء واحد آخر، فقال "أوريليوس": "والآن هذا..."، لكنه لم يكمل، كانت قصاصة ورق، ممزقة بخشونة، عليها لطخة حبر متلاشية ربما كانت في يوم كلمة، حملقت إليها من قرب.

تمتم: "أظن.. ظنت السيدة (لاف).. اتفق كلانا، في الواقع..." نظر إلى بعينين آملتين: "على أن هذا بلا شك اسمي".

وأشار: "لقد بللها المطر، لكن هنا فقط..." وقادني إلى النافذة، وأشار إلى أن أرفع القصاصة قبالة الضوء: "رسم يشبه حرف (إيه) في البداية، ثم حرف (إس)، هنا، عند النهاية، بالتأكيد هي متلاشية قليلاً بتأثير السنين، يجب أن تمنى النظر، لكن بإمكانك رؤيتها، صحيح؟" حملقت إلى اللطخة.

"صحيح؟"

قمت بحركة غامضة بدماغي، ليست إيماءة موافقة ولا هزة رفض.

"أترين! يكون الأمر واضحًا حين تعرفين عما تبحثين، أليس كذلك؟"

تابعت النظر، لكن أشباح الحروف التي رآها كانت خفية عن عيني.

أضاف: "وهكذا، استقرت السيدة (لاف) على تسميتي (أوريليوس)، مع أنني يمكن بالبساطة نفسها أن أكون (ألفونس)".

ضحك على نفسه، بحزن، على نحو غير مريح، والتفت مبتعدًا: "الشيء الوحيد المتبقى هو الملعقة، لكنك رأيته بالفعل"، مد يده إلى جيبه العلوي وأخرج الملعقة الفضية التي رأيته في اجتماعنا الأول، حين أكلنا كعكة الزنجبيل ونحن نجلس على القطتين العملاقتين اللتين تحاصران منزل "آنجليلد".

تساءلت: "والحقيبة نفسها، ماذا عنها؟"

قال على نحو مبهم: "إنها مجرد حقيبة"، رفعها إلى وجهه وشمها بركة: "كانت تحمل رائحة الدخان، لكن ليس حتى الآن"، ومررها إلى، وقربت أنفى إليها: "أترين؟ لقد تلاشت الرائحة".

فتح "أوريليوس" باب الفرن وأخرج صينية من البسكويت الذهبى الباهت وتركها لتبرد، ثم ملأ غلاية المياه وأعد صينية، كوبين، وصحنيهما، ووعاء السكر، وإبريق لبن وطبقين صغيرين.

مرر الصينية إلى: "خذى هذه"، وفتح باباً أظهر لمحة من غرفة صالون، كراسى قديمة مريحة، وأرائك مرسوم عليها ورود: "تصرفي كأنه بيتك، سأجلب بقية الأغراض خلال دقيقة"، وظل مولياً لى ظهره، ورأسه منحني وهو يغسل يديه: "سأنضم إليك حين أعيد هذه الأغراض إلى أماكنها".

دلفت إلى غرفة السيدة "لاف" الأمامية وجلست على كرسى قرب الموقد، تاركة إياه يعيد تخزين ميراثه -ميراثه الذى لا يمكن فك تشفيره والذى لا يقدر بثمن- بأمان.

غادرت المنزل بشيء يزعج رأسى، هل كان شيئاً مما قاله "أوريليوس"؟ صدى أو صلة ما استدعت انتباهى على نحو غامض لكن بقية القصة جرفتها بعيداً، لا يهم، فأيما ما كان ذلك، سيعود إلى. في الغابة توجد أرض مقطوعة الأشجار، تهبط الأرض عندها بزاوية حادة وتغطي المنحدر أشجار منخفضة غير منظمة، ثم ترتفع وتظهر الأشجار مجدداً، وبسبب ذلك، توفر بقعة مراقبة غير متوقعة تمكن منها رؤية المنزل، توقفت في تلك الأرض في طريق عودتى من منزل "أوريليوس".

كان المشهد حالكًا، بدا المنزل، أو ما تبقى منه، مسكونًا، بقعة رمادية أمام سماء رمادية، الطوابق العلوية على الجانب الأيسر قد تهدمت، وبقي الطابق الأرضي، العتبة الحجرية الداكنة ودرجات السلم المؤدى إليه ترسم حدود إطار الباب، لكن الباب نفسه كان قد اختفى، لم يكن ذلك يومًا مناسبًا للبقاء في العراء، وقد انتابتني القشعريرة لرؤية المنزل نصف المفكك، حتى القطتان الحجريتان هجرتاه، لقد أبعدتا نفسيهما عن الرطوبة كحال الغزالة، أما الجانب الأيمن فكان في غالبه لا يزال قائمًا، لكن يبدو أنه سيهدم تاليًا نظرًا لهيئة الرافعة، هل كل تلك الآلات ضرورية؟ وجدت نفسي أفكر في ذلك، قد يبدو أن الجدران ستذوب ببساطة تحت المطر، وتلك الحجارة التي لا تزال قائمة، باهتة وبلا قيمة مثل ورق الأرز، تبدو كأنها مستعدة للذوبان أمام ناظري لو ظلت واقفة طويلًا كفاية.

كانت كاميرتي متدلية حول عنقي، فككتها من تحت معطفي ورفعتها إلى عيني، أيمكن أن ألتقط المظهر المضمحل للمنزل عبر كل هذه المياه؟ شككت في ذلك، لكنني مستعدة للمحاولة.

كنت أضبط عدسة المسافات البعيدة حين لمحت حركة طفيفة عند طرف الصورة، إنه ليس شبحي، لقد عاد الطفلان، رأيا شيئًا في العشب، وانحنيا فوقه بحماس، ماذا كان؟ قنفذًا؟ ثعبانًا؟ دفعني الفضول إلى تعديل تركيز العدسة لأرى بوضوح أكثر.

مد أحد الطفلين يده داخل العشب الطويل ورفع اكتشافهما خارجه، كانت قبعة بناء صفراء، وبابتسامة سرور رمى قبعته الواقية من المطر - أمكنني الآن أن أرى أنه الفتى، وليس أخته - واعتمر القبعة الجديدة، وقف جامدًا كجندي، مبررًا صدره، رافعًا رأسه، وذراعيه إلى جانبيه، وجهه عازم على أن يحمي القبعة الكبيرة جدًا من الانزلاق، وحين ثبت على تلك الهيئة، حدثت معجزة صغيرة، شعاع من ضوء

الشمس وجد طريقه عبر فتحة في السحاب، وهبط على الفتى، مضيئاً إياه في لحظة مجده، ضغطت زر التصوير والتقطت الصورة، الفتى بالقبعة، وأعلى كتفه اليسرى لافتة "ممنوع الدخول"، والمنزل على يمينه في الخلفية، بقعة رمادية كثيفة.

اختفت الشمس، ورفعت عيني عن الطفلين لأدير الفيلم وأغطي الكاميرا لأحميها من المياه، وحين استدرت بعيني، كان الطفلان قد بلغا منتصف الطريق الخاص، يده اليسرى ممسكة بيدها اليمنى، كانا يدوران مرارًا وتكرارًا مع اقترابهما من بوابات المنازل الحجرية بخطوات واسعة متساوية، وبوزن متساوٍ، كأن كلاً منهما قوة مكافئة للآخر، وذيلًا معطفيهما يطيران خلفهما، وأقدامهما بالكاد تلمس الأرض، بديا كأنهما على وشك أن يرتفعا إلى الهواء ويطيرا.

"جين إير" والمحرقه

حين عدت إلى يوركشاير، لم أتلّق أى تفسير لإبعادى، حيثنى "جوديث" بابتسامة متكلفة، كآبة النهار تسالت تحت جلدها، وتجمعت فى صورة ظلال تحت عينيها، جذبت الستائر سنتيمترات قليلة فى الصالون، كاشفة عن جزء أكبر قليلاً من النافذة، لكن لم يشكل ذلك فارقاً فى الكآبة، قالت متعجبة: "طقس بغيض"، وفكرت فى أنها تبدو على وشك الانهيار.

شعرت كأن دهرًا قد مر مع أن لم يمر سوى أيام، فعادة خلال الليل وليس خلال النهار، يلقينا التأثير المكثب للسماء الثقيلة خارج الزمن، وصلت السيدة "وينتر" متأخرة إلى أحد اجتماعاتنا الصباحية، وكان وجهها شاحبًا للغاية، ولم أعرف إن كانت ذكرى فاجعة حدثت مؤخرًا هى ما أطفأ عينيها أم شىء آخر.

بعدما استقرت فى دائرة الضوء خاصتها، قالت: "أقترح جدولاً زمنيًا أكثر مرونة لاجتماعاتنا".

"بالتأكيد"، فقد عرفت بشأن لياليها السيئة من مقابلتى مع الطبيب، وأدركت متى يخفت تأثير الأدوية التى تأخذها لكبح ألمها، أو متى يكون تأثيرها غير سارٍ بالكامل بعد، ولذا اتفقنا على ألا آتى فى التاسعة من كل صباح، بل أنتظر طريقة على بابي.

فى البداية كانت الطريقة دائماً تأتى بين التاسعة والعاشر، ثم أصبحت تتأخر، بعدما غير الطبيب جرعتها من الدواء، اعتادت أن تطلبنى فى الصباح الباكر، لكن لقاءاتنا كانت أقصر، ثم استسلمنا لعادة أن نلتقى مرتين أو ثلاث مرات يوميًا، فى أوقات عشوائية، أحيانًا كانت تطلبنى حين تشعر بتحسن، وتحدث باستفاضة، وبالتفصيل، وفى أحيان أخرى، تستدعيني حين تكون متألمة، وحينها لم تكن صحبتى هى ما تريده حقًا بقدر ما كانت تريد الجانب التخديرى لحكى القصص.

أصبحت لقاءات الساعة التاسعة علامة زمنية أخرى فقدتها، استمعت إلى قصتها، وكتبتها، وحين نمت حلمت بها، وحين أكون مستيقظة تشكل القصة خلفية أفكارى، الأمر أشبه بأن أعيش بالكامل داخل كتاب، لم أحتج حتى إلى الخروج من غرفتى لآكل، لأن من الممكن أن أجلس عند مكتبى وأقرأ ما كتبته وأنا أكل الوجبات التى تجلبها "جوديث" إلى غرفتى، العصيدة تشير إلى أنه الصباح والحساء والسلطة يشيران إلى وقت الغداء، وشريحة اللحم والفطيرة تعنيان أنه المساء، أذكر تفكيرى مليًا لوقت طويل أمام طبق بيض مخفوق، ماذا يعنى هذا؟ قد يعنى أى شئ، فقد أكلت بضع لقيمات وأبعدت الطبق.

حدثت بضع وقائع مميزة خلال المرور الطويل غير المتميز للوقت، دونتها كلها فى ساعتها، منفصلة عن القصة، وهى تستحق أن تذكر هنا. وهذه واحدة.

كنت في المكتبة، أبحث عن رواية "جين أير"، ووجدت ما يقارب رقاً كاملاً من نسخها، إنها مجموعة خاصة بمحبة مجنونة: هناك نسخ حديثة رخيصة، بلا قيمة إن بيعت مستعملة، ونسخ نادراً ما ظهرت في السوق لدرجة أن من الصعب تحديد سعر لها، النسخة التي أبحث عنها عادية -مع أنها نسخة بعينها- من مطلع القرن، وبينما أتصفح، أدخلت "جوديث" السيدة "وينتر" إلى المكتبة وأجلستها في مقعدها قرب الموقد.

حين غادرت "جوديث"، سألتني السيدة "وينتر": "عم تبحثين؟"
"جين أير".

"أتحبين (جين أير)؟"

"نعم للغاية، وأنت؟"

"نعم".

ارتجفت.

"هل أذكى لهب الموقد من أجلك؟"

أخفضت جفنيها كأن موجة من الألم تعصف بها: "نعم، أعتقد ذلك".

بمجرد أن استعادت النار لهيبها قالت: "أليديك دقيقة؟ اجلسي يا (مارجريت)".

وبعد دقيقة من الصمت قالت:

"تخيلي حزام سير، حزام سير ضخماً وفي نهايته فرن عملاق، وتوجد عليه كتب، كل نسخ كل كتاب أحببته مطلقاً في حياتك، كلها مصفوفة، (جين أير)، (فيليت)، (ذات الرداء الأبيض)".

تابعت أنا: "و(مدل مارش)".

"شكرًا للإضافة، (مدل مارش)، وتخيلي مقبضًا عليه كلمتين، (تشغيل) و(إيقاف)، في هذه اللحظة المقبض يشير إلى (إيقاف)، وبجواره يقف شخص، يده على المقبض، على وشك أن يشغل السير، ويمكنك إيقافه، لديك مسدس في يدك، وكل ما عليك فعله هو الضغط على الزناد، ماذا تفعلين؟"

"لا، هذا سخف".

"يدير المقبض، ويشغل السير".

"لكن هذا موقف متطرف جدًا، إنه افتراضى".

"في البداية تسقط رواية (شيرلى) من الحافة".

"لا أحب مثل هذه الألعاب".

"والآن تأكل السنة اللهب (جورج ساند)".

تنهدت وأغلقت عيني.

"الرواية التالية (مرتفعات ويذرينج)، هل ستتركينها تحترق؟"

لم أستطع منع نفسي، رأيت الكتب، ورأيت العملية المستمرة لتغذية الفرن، وجففت.

"كيفما تشائين، لقد سقطت في اللهب، ستفعلين هذا مع (جين أير) أيضًا؟"

"جين أير"، فجأة جف فمي.

"كل ما عليك فعله هو أن تطلقى الرصاصة، لن أخبر أحدًا، لا يجب أن يعرف أحد بشأن هذا أبدًا"، وانتظرت، "إنها تبدأ في السقوط، بضع النسخ الأولى فقط، لكن هناك الكثير من النسخ، لديك لحظة لتقرر".

فركت إبهامي بعصية بحافة ظفر خشنة في إصبعي الوسطى.

"إنها تسقط بسرعة أكبر الآن".

لم تبعد ناظرها عنى.

"سقط نصفها، فكري يا (مارجريت)، سريعًا ستختفى كل نسخ (جين أير) للأبد، فكري".

رمشت السيدة "وينتر".

"سقط ثلثاها في النار، إنه شخص واحد يا (مارجريت)، شخص واحد ضئيل لا قيمة له".

رمشت.

"لا يزال هناك وقت، ما يكفي فقط، تذكرى، هذا الشخص يحرق الكتب، أيستحق حقًا أن يعيش؟"

رمشة تلو الأخرى.

"فرصتك الأخيرة".

رمشة تليها رمشتان.

لم تعد "جين أير" موجودة.

"مارجريت!" انقلب وجه السيدة "وينتر" من الغيظ وهى تتكلم، ضربت بيدها اليسرى على ذراع الكرسي، وحتى يدها اليمنى، على الرغم من إصابتها، انتفضت في حجرها.

لاحقًا، حين كتبت هذا، فكرت في أن هذا هو التعبير الأكثر عفوية الذى رأيته من السيدة "وينتر"، كان ذلك مقدارًا مفاجئًا من المشاعر المستثمرة في مجرد لعبة.

ومشاعرى؟ إنها مثيرة للخجل، لأننى كذبت، بالتأكيد أحب الكتب أكثر من البشر، وبالتأكيد أقدر "جين أير" أكثر من الغريب المجهول ويده التى على المقبض، وبالتأكيد كل أعمال "شكسبير" تساوى أكثر

من حياة بشرية، بالتأكيد، ولكن على خلاف السيدة "وينتر"، كنت أخجل من قول هذا.

في طريق خروجي، رجعت إلى رف "جين أير"، وأخذت المجلد الوحيد الذي طابق مواصفاتي، السن الصحيحة، ونوع الورق الصحيح، والخط الصحيح، وفي غرفتي، تصفحته حتى وجدت ما أبحث عنه.

"... لم أدرك ما ينتويه في البداية، لكن حين رأيته يرفع الكتاب ويوزانه ويقف مستعداً لرشقه، وثبت جانباً على نحو غريزي وأطلقت صرخة ذعر، لكنني لم أكن سريعة كفاية، فقد رشق المجلد، وأصابني، فسقطت على الأرض، وارتطم رأسي بالباب، وجُرح".

كان الكتاب سليماً، لا تنقصه ولو صفحة واحدة، لم يكن هذا المجلد الذي مُزقت منه صفحة "أوريليوس"، لكن على أية حال، لم يجب أن يكون هو؟ فلو جاءت صفحته من "آنجلفيلد" - لو كان ذلك صحيحاً - فإن تلك النسخة قد احترقت مع بقية المنزل.

الشيء الآخر الذي أتذكره من تلك الفترة كان حادثة الصورة الفوتوجرافية، ظهر طرد صغير في صينية إفطاري في صباح ما، موجه إلى بخط يد والدي الصغير، يحتوي على صوري لـ "آنجلفيلد"، فقد أرسلت إليه علبة الفيلم، وحمضها هو من أجلي، وجدت بضع صور واضحة من يومى الأول: نبات العليق ينمو وسط حطام المكتبة، واللبلاب يشق طريقه على السلم الحجري مثل الثعبان، توقفت عند صورة غرفة النوم حيث قابلت شبحي وجهاً لوجه، على الموقد القديم لم يوجد إلا وهج انعكاس وميض الكاميرا، ومع ذلك، أخذت تلك الصورة من وسط المجموعة ووضعتها داخل غلاف كتابي، لأحتفظ بها.

كانت بقية الصور من زيارتي الثانية، حين عارضني الطقس، معظمها لم يظهر شيئاً سوى تراكيب محيرة من الضبابية، ما تذكرته كان درجات من اللون الرمادي يغطيها اللون الفضي، يتحرك الضباب

مثل حجاب من الشاش، وأنفاسي عند نقطة التحول بين الهواء والمياه، لكن كاميرتي لم تلتقط أيًا من هذا، كذا لم يكن ممكنًا وسط البقع المظلمة التي شابت اللون الرمادي أن تميز حجرًا، أو جدارًا، أو شجرة، أو غابة، وبعد بضع من مثل تلك الصور، ضجرت من النظر، هبطت السلم إلى المكتبة مكدسة رزمة الصور في جيب سترتي.

كنا في منتصف المقابلة تقريبًا حين أحسست بصمت، كنت أحلم، تائهة كالعادة في عالم توأمة الطفولة الخاص بها، أعدت تشغيل تسجيل صوتها في بالي، وتذكرت تغيرًا في نبرة صوتها، وتذكرت حقيقة أنها قالت لي شيئًا، لكني لم أستطع تذكر الكلمات.

قلت: "ماذا؟"

كررت: "جيبك، يوجد شيء في جيبك".

"أوه.. إنها بعض الصور..." قلتها وأنا في حالة النسيان تلك في منتصف الطريق بين قصة ما وحياتك، حين تتيه بأفكارك، تابعت مغممة: "آنجلفيلد".

حين عدت من تيهي كانت الصور في يديها.

في البداية نظرت من كذب إلى كل منها، تضيق عينيها وراء نظارتها الطبية لتحاول تمييز الأشكال المبهمة، وفي حين تبعت صورة بلا ملامح الأخرى، تنهدت تنهيدة صغيرة بطريقة "فيدا وينتر"، تنهيدة أفادت أن توقعاتها المنخفضة قد تحققت بوفرة، وزمت فمها ليصبح خطأ مستقيمًا، وييدها السليمة بدأت تتصفح كومة الصور بفضول أكبر، لتظهر أنها لم تعد تتوقع أن ترى أي شيء ذي أهمية، كانت تقلب كل صورة على الطاولة بجوارها بعد أسرع نظرة ممكنة.

أذهلتنى الصور التي رفضتها وهي تهبط بمعدل منتظم على الطاولة، شكلت تلك الصور امتدادًا فوضويًا على الطاولة، تتخبط

فوق بعضها وتنزلق على سطح بعضها البعض الزلق بصوت له وزن كالكمات: "بلا فائدة، بلا فائدة، بلا فائدة".

ثم توقفت تلك النغمة، كانت السيدة "وينتر" تجلس بجمود عازم، ترفع إحدى الصور وتدرسها بعبوس، لقد رأت شيئاً، أو هكذا ظنت، ثم بعد لحظة طويلة، مدعية أنها لم تشعر بنظري إليها، وضعت الصورة خلف المجموعة المتبقية، ونظرت إلى البقية، وقلبتها على الطاولة مثل سابقاتها، حين ظهرت مجدداً الصورة التي أسرت انتباهها بالكاد نظرت إليها، لكنها أضافتها إلى الأخريات، وقالت ببرود شديد: "ما كنت لأجزم بأن هذه (آنجلفيلد)، لكن إن كنت تقولين ذلك..." ثم بحركة تبدو ساذجة، التقطت كومة الصور كلها ومدتها إلى، فأوقعتها.

غمغمت: "إنها يدي، اعذريني"، في حين أقي انحنيت لأجمع الصور، لكنني لم أنخدع.

والتقطت خيط حكايتها من حيث تركته.

لاحقاً تصفحت الصور مجدداً، ورغم أن وقوع الصور غير ترتيبها، لم يكن صعباً تحديد أية صورة صدمتها بهذه القوة، فوسط حزمة الصور المبهمة الرمادية، كانت هناك واحدة تتميز عن غيرها حقاً، جلست على طرف السرير، أنظر إلى الصور، أتذكر تلك اللحظات جيداً، انقشاع الضباب وتدفئة الشمس اجتماعاً في اللحظة المناسبة للغاية لتسمعا بشعاع ضوء بأن يسقط على ولد انتصب بجمود أمام الكاميرا، ذقنه مرفوع، وظهره مستقيم، وعيناه تكشفان معرفته القلقة بأن قبعته الصفراء الصلبة سوف تنزلق جانباً على رأسه في أية لحظة.

لم كانت مأخوذة جداً بهذه الصورة؟ فحصت الخلفية، لكن المنزل، الذي هُدم نصفه بالفعل، كان مجرد لطخة من اللون الرمادي أعلى

كتف الطفل اليمنى، وقربه، كل ما كان واضحًا هو شبكة حاجز الأمان وزاوية لافتة "ممنوع الدخول".

مكتبة

t.me/t_pdf

هل كان الفتى نفسه هو ما أثار انتباهها؟

حيرتني الصورة لنصف ساعة، لكن حين وضعتها جانبًا، لم أكن قد اقتربت حتى من أى تفسير، ولأنها حيرتني، دسستها داخل غلاف كتابي مع صورة فراغ في إطار مرآة.

بصرف النظر عن صورة الفتى ولعبة "جين أير" والمحرقه، لم يخترق الكثير غير ذلك المعطف الذى غطتني به قصتها، ما لم تضع القط في الاعتبار، فقد لاحظ ساعات نشاطي غير المعتادة، وجاء يحك مخبئه ببابي من أجل بعض الاهتمام في ساعات عشوائية من النهار والليل، ينهى فتاتًا من البيض أو السمك من طبقى، يحب أن يجلس على أكوام أوراقى، يشاهدنى أكتب، يمكن أن أجلس لساعات أهربش في أوراقى، أتجول في المتاهة المظلمة لقصة السيدة "وينتر"، لكن لا يهتم إلى أى مدى أنسى نفسى، إذ لم أفقد قط الشعور بأن أحدًا يراقبنى، وحين شعرت بالتيه على نحو خاص، بدت نظرة القط كأنها تخطو في تشوشى وتضوء طريقى إلى غرفتى، وملاحظاتى، ومبرة أقلامى، بل ونام معى على سريرى في بعض الليالى، وقد اعتدت على ترك ستائرى مفتوحة، حتى يتمكن إذا استيقظ من الجلوس على حافة النافذة ليتابع أشياء تتحرك في الظلام لا تراها العين البشرية.

وهذا كل ما في الأمر، لم يكن هناك شيء آخر بعيدًا عن تلك التفاصيل، فقط الشفق الأبدى والقصة.

الانهيار

رحلت "إيزابيل"، ورحلت "هيوستن"، ورحل "تشارلي"، وأخبرتني السيدة "وينتر" للتو عن المزيد من الخسارة.

في العلبة، أسندت ظهري إلى الجدار المتصدع، ضغطت عليه لجعله يستسلم، ثم تركته، مرارًا وتكرارًا، كنت أغري القدر، تساءلت عما قد يحدث لو انهار هذا الجدار؟ هل سينهار السقف؟ هل سيتسبب ثقل سقوطه في انهيار ألواح الأرضية؟ هل ستهبط قراميد وعارضات وحجارة السقف ساحقة السقف وصولاً إلى الأسرة والصناديق كأنه زلزال؟ ثم ماذا؟ هل سيتوقف الأمر عند ذلك؟ إلى أي مدى سيستمر؟ هزته مرة تلو الأخرى، مستهزئة بالجدار، متحدية إياه أن يسقط، لكنه لم يسقط، فحتى تحت الضغط، قد تذهلك قدرة جدار ميت على الصمود.

استيقظت في منتصف الليل، تلتقط أذني خشخشة، كانت الضوضاء قد انتهت بالفعل، لكنني لا أزال أحس بصداها يتردد في طبلي أذني وفي صدري، قفزت من سريرى وركضت إلى السلم، و"إميلين" في أعقابى.

وصلنا إلى السلم ذى معرض الصور في الوقت نفسه الذى وصل فيه "جون"، الذى ينام فى المطبخ، عند قاع السلم، وحملنا جميعاً، فى منتصف المدخل كانت السيدة تقف بثوب نومها، تنظر إلى الأعلى، عند قدمها كتلة حجرية ضخمة، وفوق رأسها، فتحة ذات إطار مدبب فى السقف، الهواء معبأ بغبار رمادى، يصعد ويهبط فى الهواء، بلا وجهة محددة للاستقرار، وفتات الطلاء، والأسمنت، والخشب لا تزال تهبط من الطابق العلوى، مع صوت يشبه انتشار الفئران، ومن حين لآخر شعرت بـ"إميلين" تقفز مع سقوط قراميد وألواح خشبية من الطوابق العلوية.

كانت درجات السلم الحجرية باردة، وحينئذ لكزت شظايا الخشب وقطع الطلاء والأسمنت قدمى، وقد وقفت السيدة مثل شبح فى منتصف حطام منزلنا المتهدم، مع استقرار دوامات الغبار حولها ببطء، وقفت بشعر ووجه بلون الغبار، ويدين بلون الغبار، وكذا ثيابا ثوب نومها الطويل كانت بلون الغبار، وقفت ثابتة بلا أية حركة وتطلعت إلى الأعلى، اقتربت منها، وشاركتها التطلع، حملنا عبر فتحة فى السقف، وأعلاها فتحة أخرى فى سقف آخر، ثم فتحة أخرى فى سقف آخر، رأينا ورق الحائط ذا الزهور فى غرفة النوم أعلننا، ورسمه مسارات اللبلاب الخاصة بالغرفة الأعلى، والجدران الرمادية الباهتة الخاصة بالعليا الصغيرة، وفوق كل هذا، فوق رأسينا، رأينا الفتحة فى السقف نفسه والسماء، لم تكن بها أى نجوم.

أخذت يدها: "هيا، لا نفع من التحديق إلى هناك".

قدها بعيدًا، وتبعتنى هى مثل طفلة صغيرة، قلت لـ"جون":
"سأوصلها إلى سريرها".

أومأ بوجه شاحب كالأشباح وقال بصوت حشرجه الغبار: "حسنًا"،
بالكاد استطاع أن ينظر إليها، وأشار إشارة بطيئة إلى السقف المحطم:
"وأنا سأصلح هذا"، كانت إشارته كالحركة البطيئة لرجل يغرق
ويجذبه التيار إلى الأسفل.

لكن بعد ساعة، حين أصبحت السيدة نظيفة، بثوب نوم جديد،
موضوعة في سريرها ونائمة، كان لا يزال هناك، تمامًا مثلما تركته،
محملًا إلى حيث كانت.

في الصباح التالي، حين لم تظهر السيدة في المطبخ، كنت أنا من
ذهبت لإيقاظها، ولم تستيقظ، غادرت روحها عبر فتحة السقف،
ورحلت.

قلت لـ"جون" في المطبخ: "لقد فقدناها، إنها ميتة".

لم يتغير وجهه، تابع التحديق عبر مائدة المطبخ كأنه لم يسمعنى،
قال أخيرًا: "نعم"، بصوت لم يتوقع أن يُسمع، "نعم".

بدا كأن كل شيء قد بلغ نهايته، وكانت لدى أمنية واحدة: أن
أجلس مثل "جون"، جامدة، أهدق نحو الفراغ ولا أفعل شيئًا، ولكن
الوقت لم يتوقف، لا أزال أشعر بنبض قلبى يطارد الثوانى، لا أزال أشعر
بالجوع ينمو في معدتي، والعطش في حلقى، كنت حزينة جدًا لدرجة
تمنى الموت، لكن بدلاً من ذلك كنت على قيد الحياة بشكل مخزٍ
وسخيف، على قيد الحياة للغاية لدرجة أنى أقسم إننى استطعت
الشعور بنمو شعري وأظفارى.

على الرغم من الثقل الذى لا يُحتمل على قلبى، لم أستطع أن
أستسلم للبؤس مثل "جون"، رحلت "هيستر"، ورحل "تشارلى"،

ورحلت السيدة، ورحل "جون" أيضًا على طريقته الخاصة، مع أنني أملت أن يجد طريق عودته، في أثناء ذلك، كانت الفتاة التي وراء الغشاوة مضطرة إلى الخروج من الظل، كان ذلك الوقت المناسب للنضج والتوقف عن اللعب.

قلت: "سأشغل غلاية المياه، ساعد كوب شاى".

هذا ليس صوتي، إنه صوت فتاة أخرى، فتاة ما عادية قادرة عاقلة وجدت طريقها إلى داخل جلدي وسيطرت على، بدا أنها تعرف ما يجب فعله، تفاجأت جزئيًا فقط، ألم أقض نصف حياتي أتفرج على أشخاص يعيشون حياتهم؟ أتفرج على "هيستر"، أتفرج على السيدة، أتفرج على القرويين؟

تفوقعت بهدوء داخل نفسي في حين تغلى الفتاة القادرة المياه، وتأخذ أوراق الشاي، وتقلب الشاي وتصبه، وضعت ملعقتي سكر في شاى "جون"، وثلاثة في شايبى، وحين أصبح جاهزًا شربته، وحين وصل الشاي الساخن الحلو إلى معدتي أخيرًا، توقفت اضطرابي.

الحديقة الفضية

قبل أن أستيقظ تمام الاستيقاظ راودنى شعور بأن هناك شيئاً مختلفاً، وبعد لحظة، قبل حتى أن أفتح عيني، عرفت ما هو، كان هناك ضوء.

رحلت الظلال التى تخفت فى غرفتى منذ بداية الشهر، ورحلت أيضاً الأركان الكثيبة وأجواء الحداد، النافذة مستطيل باهت، دلف منه اصفرار متألئى أضاء كل جوانب غرفتى، مر الكثير من الوقت منذ رأيت له لدرجة أننى شعرت بتدفق قوى للفرح، كأنها لم تكن مجرد ليلة التى انتهت، بل شتاء، بدا كأن الربيع قد حل.

القط على حافة النافذة، يتطلع بإمعان إلى الحديقة، سمعنى أتحرك، فقفز على الفور وخربش الباب ليخرج، جذبت ملابسى ومعطفى، وتسحبنا هابطين السلم معاً، إلى المطبخ، والحديقة.

أدركت خطاى فى اللحظة التى خطوت فيها خارج المنزل، هذا ليس النهار، وهذه ليست الشمس، بل ضوء القمر الذى سطع على

الحديقة، يشحذ أطراف أوراق الشجر بلون فضي، ويلمس أطراف التماثيل المنحوتة، وقفت ثابتة وحملت إلى القمر، كان تام الاستدارة، معلق بشحوب وسط سماء صافية، ولأنني افتتنت بالمشهد، كان بإمكانى أن أقف هناك حتى الفجر، لكن القط، بلا صبر، ضغط على كعبي طلباً لاهتمامى، وانحنيت لأمسده، بمجرد أن لمستته ابتعد، فقط ليتوقف على بعد أمتار قليلة، وينظر إلى أعلى كتفه.

رفعت ياقة معطفى، وغرزت يدي الباردتين في جيبى، وتبعته.

قادنى في البداية عبر المسار العشبي بين الحدود الممتدة، ولمع سياج الصنوبر زاهياً على يسارنا، وعلى يميننا كان السياج مظلماً في الظل، انعطفنا إلى حديقة الأزهار حيث بدت الشجيرات المهذبة مثل أكوام من الأغصان الميتة، لكن الحدود العريضة من الأشجار التى أحاطت بها بشكل إيزابيثى متعرج انحرفت داخله إلى ضوء القمر وخارجة منه، يظهر هنا لون فضي، وهناك لون أسود، تباطأت مرات عدة: فقد قابلت فرع لبلاب منفرد منحرف بزوايا ليلتقط ضوء القمر على نحو مثالى، وظهرت فجأة شجرة البلوط العظيمة التى بدت محفورة بدرجة وضوح غير بشرية أمام السماء الباهتة، لكننى لم أستطع أن أتوقف، فطوال الوقت كان القط يتقدمنى بخطوات عازمة متساوية، وذيله مرفوع مثل مظلة مرشد سياحى تبث إشارة "اتبعينى"، وفي الحديقة ذات الجدران، قفز على الجدار المحيط بالنافورة ومشى نصف محيطه متثدداً، ومتجاهلاً انعكاس القمر الذى أضاء في المياه مثل عملة لامعة في قاع البركة، وحين بلغ المدخل المقنطر إلى الحديقة الشتوية، هبط ومشى نحوه.

توقف لوهلة تحت القنطرة، وتطلع يمنة ويسرة بنظرة عازمة، ثم رأى شيئاً، فتسلل نحوه بعيداً عن الأنظار.

تقدمت على أطراف أصابعي لأقف حيث يقف بدافع من فضولي، ونظرت حولي.

تكون الحديقة الشتوية زاهية الألوان حين تراها في الوقت الصحيح من اليوم، وفي الوقت الصحيح من السنة، وتعتمد بدرجة كبيرة على أن يبث ضوء النهار الحياة فيها، وقد اضطرت زائرة منتصف الليل إلى أن تنظر بتمعن أكثر لترى معالمها الجذابة، كانت الحديقة مظلمة أكثر من أن تسمح برؤية الانتشار الواسع المنخفض لأوراق الخربق على التربة الداكنة، ولم يحن بعد موعد ازدهار أزهار الثلج، والطقس أبرد من أن يسمح لزهور الغار بأن تطلق رائحتها، لكن مع ذلك يوجد نبات بندق الساحرة، الذي قريباً ستتزين أفرعه بالشرايات الصفراء والبرتقالية المهتزة، لكن الآن، الأفرع نفسها هي أكثر ما يلفت الانتباه، الأشجار ناعمة وبلا أوراق، وتصميم الحديقة معقود بدقة وبه تعرج عشوائي، وتحيط به الأناقة.

عند آخرها، رأيت خيالاً لجسد بشري منحني على الأرض. تجمدت.

يلهث الجسد ويتحرك بمشقة، ويطلق نفخات لاهثة وهمهمات متعبة.

وخلال ثانية طويلة بطيئة، تسابقت الأفكار في عقلي لإيجاد تفسير لوجود إنسان آخر في حديقة السيدة "وينتر" ليلاً، أدركت بعض الأشياء لحظياً من دون الحاجة للتفكير بشأنها، بداية، هذا ليس "موريس" الذي يركع على ركبتيه هناك، مع أنه أكثر من يُحتمل أن أجده في الحديقة، لم يخطر ببالي قط أن أتساءل إن كان هو أم لا، ليس هذا هيكله النحيل، وهذه ليست حركاته الوثيدة، كذا فإنها ليست "جوديث"، "جوديث" الأنيقة الهادئة بأظفارها النظيفة، وشعرها

المثال وحذائها الملمع تنبش الحديقة في منتصف الليل؟ مستحيل، لم أحتج للتفكير بشأنيهما، ولذا لم أفعل.

بدلاً من ذلك، في تلك الثانية، ترنح عقلي ذهاباً وإياباً مئات المرات بين فكرتين.

إنها السيدة "وينتر".

لا يمكن أن تكون السيدة "وينتر".

إنها السيدة وينتر لأنها.. لأنها هي، أستطيع أن أجزم بذلك، أحسست بذلك، إنها هي وقد أدركت ذلك.

لا يمكن أن تكون هي، فالسيدة "وينتر" ضعيفة ومريضة، السيدة "وينتر" دائماً جالسة على مقعدها المتحرك، السيدة "وينتر" مريضة أكثر من أن تستطيع أن تنحني لقطف نبتة، فما بالك بالانحناء على الأرض الباردة لتنبشها بهذه الطريقة المجنونة.

إنها ليست السيدة "وينتر".

لكن على نحو ما، على نحو مستحيل، وعلى الرغم من كل شيء، إنها هي.

كانت الثانية الأولى طويلة ومربكة، وكانت الثانية، حين جاءت أخيراً، مفاجئة.

تجمد الجسد.. استدار.. وانتصب.. وعرفت.

إنهما عينا السيدة "وينتر"، بشكلهما الأخضر الخارق العبقري.

لكنه ليس وجه السيدة "وينتر".

ترقيع من الجلد المنقط الذي به ندوب، تتقاطع فيه شقوق أعمق مما قد يفعله الزمن، خدان مكنتزان غير متساويين، شفتان غير متوازنتين، نصفهما على شكل قوس مضبوط الزاوية يدل على

جمال سابق، والنصف الآخر عبارة عن ترقيع وتعرجات من اللحم الأبيض.

"إيميلين"! أخت السيدة "وينتر"! إنها على قيد الحياة، وتعيش في هذا المنزل!

اضطرب عقلي، واندفع الدم في أذني، وشلتني الصدمة، حملتني إلى دون أن ترمش، وأدركت أنا أنها أقل منى اندهاشًا، لكن مع ذلك، بدا أنها خاضعة للتعويدة نفسها مثلي، كلتانا ملقاة في بحر من الجمود. خرجت هي منه أولاً، رفعت يدها المظلمة المغطاة بالطين نحوي بحركة سريعة، وبصوت أجش نطقت مجموعة من الأصوات بلا معنى.

أبطأت الحيرة استجابتي، لم أستطع حتى أن أنطق اسمها بتلعثم قبل أن تستدير وتهزول مبتعدة، مائلة إلى الأمام، منحنية الكتفين، ثم ظهر القط من الظلال، وتمدد بهدوء وتبعها متجاهلاً إياي، اختفيا تحت القنطرة وبقيت وحيدة، أنا ورقعة من التربة المبعثرة. بالفعل إنها الثعالب.

بمجرد أن ذهب، ربما تمكنت من إقناع نفسي بأنني تخيلت ذلك، أنني كنت أسير نائمة، وأنني حلمت خلال نومي بأن توأم "آديلاين" ظهرت لي وهمست رسالة سرية غير مفهومة، لكنني عرفت أنه حقيقة، ومع أنني لم أعد أراها، فإنني استطعت أن أسمع غناءها وهي تغادر، تلك المعزوفة المثيرة للغضب ذات النوتات الخمس بلا لحن، لا لا لا لا لا.

وقفت أستمع إليها، إلى أن اختفت تمامًا.

ثم عدت إلى المنزل، بعدما أدركت أن قدمي ويدي تتجمد.

الأبجدية الصوتية

مرت سنوات كثيرة منذ تعلمت الأبجدية الصوتية، بدأ الأمر بجدول في كتاب لغويات بمتجر والدي، ما من سبب لاهتمامي في البداية، سوى أنني لم أجد ما أفعله في نهاية أسبوع ما، وقد فتنني الإشارات والرموز التي احتواها الجدول، وجدت به حروفًا مألوفة وغيرها غريبة، وجدت به حروف "إن" كبيرة تختلف عن مثيلاتها الصغيرة، وحروف "واي" كبيرة تختلف عن مثيلاتها الصغيرة، وحروف أخرى، حروف "إن" و"دي" و"إس" و"زيد"، لها أذبال ودوائر صغيرة غريبة ملحقة بها، ويمكن أن ترى حروف "إتش" و"آي" و"يو" كأنها حروف "تي"، أحببت تلك الأشكال الهجينة الجامعة الفخمة: فملأت صفحات بحروف "إم" تحولت إلى "جى"، وحروف "في" ارتفعت على نحو غير مستقر فوق حروف "أو" مثل الكلاب الراقصة على الكرات في السيرك، صادف والدي صفحات الرموز خاصتي وعلمني الصوت المرتبط بكل منها، وبحسب ما اكتشفت، يمكن في الأبجدية الصوتية

الدولية أن تكتب كلمات تبدو مثل المعادلات الرياضية، كلمات تبدو مثل شيفرة سرية، كلمات تبدو مثل اللغات المندثرة.

احتجت إلى لغة مندثرة، لغة يمكنني بواسطتها التواصل مع من اندثروا، اعتدت أن أكتب كلمة مميزة تلو الأخرى، اسم أختي، تعويذة، ثم أطوى الكلمة لتصبح أوريجامى مصغر دقيق، وأبقى أوراقى المطوية قريبة منى، وفي الشتاء عاشت في جيب معطفى، وفي الصيف دغدغت كعبي داخل جوربي، وفي المساء، غفوت متشبثة بها في يدي، وعلى الرغم من كل هذا الاهتمام، لم أحفظ دائماً مكان قصاصات الورق تلك، فقدتها، وصنعت غيرها، ثم وجدت تلك الضائعة، وحين حاولت والدتي اقتناص واحدة من بين أصابعى، ابتلعتهَا لأمنعها، مع أنها ما كانت لتستطيع قراءتها، لكن حين رأيت والدى يلتقط ورقة قديمة مطوية أصبح لونها رمادياً من بين الكراكيب في قاع درج، ويفتحها، لم أفعل شيئاً لإيقافه، وحين قرأ الاسم السرى، بدا الانكسار على وجهه، وكانت عيناه حين تطلعتا إلىّ مليئتين بالحزن.

كان ليتكلم، فتح فمه ليتكلم لكننى أمرته بالصمت برفع إصبعى إلى شفتى، ما كنت لأسمح له بأن ينطق اسمها، ألم يحاول هو أن يحبسها بعيداً، في الظلام؟ ألم يرد أن ينساها؟ ألم يحاول أن يبعدها عنى؟ فلا حق له فيها الآن.

اقتنصت الورقة من بين أصابعه، وغادرت الغرفة من دون كلمة، وعلى كرسى النافذة في الطابق الثانى، وضعت قصاصة الورق في فمى، تذوقت نكهتها الجافة الخشبية، وابتلعتهَا، لمدة عشرة أعوام، دفن والداى اسمها بالصمت، يحاولان النسيان، والآن سأحميها بصمتى الخاص، وسأذكرها.

كانت الأبجدية الصوتية واحدة من الينابيع العشوائية السرية للمعرفة عديمة الفائدة التى تبقت معى من طفولتى العامرة

بالكتب، إلى جانب نطقى الخطأ لكلمات مرحبًا والوداع وآسفة بسبع عشرة لغة، وقد رقي على تذكر الأبجدية اليونانية من البداية للنهاية والعكس (وأنا لم أتعلم قط كلمة يونانية في حياتي)، تعلمتها فقط لأسلى نفسي -ولأغراض شخصية فقط- لذا بمرور السنين لم أبذل أى جهد خاص لأمارسها، ولهذا اضطررت إلى المحاولة مرات عدة حين رجعت من الحديقة ووضعت القلم على الورقة لأسجل أصوات الصفير والصوامت الاحتكاكية والصوامت الانفجارية والحروف التكرارية الواردة في همسة "إميلين" السريعة.

بعد ثلاث أو أربع محاولات، جلست على السرير ونظرت إلى السطر الذى كتبته من الخطوط المائلة والرموز والإشارات، هل كان دقيقًا؟ بدأت الشكوك فى مهاجمتى، هل تذكرت الأصوات بدقة بعد رحلة الدقائق الخمس إلى المنزل؟ هل كان تذكرى للأبجدية الصوتية نفسه كافيًا؟ ماذا لو لوّثت محاولتى الأولية الفاشلة ذاكرتى؟

همست ما كتبته على الورقة، همسته مجددًا بسرعة، انتظرت تردد صدى ما فى ذاكرتى لديه الإجابات ليخبرنى أنها صحيحة، لكن لم يتردد أى صدى، إن ذلك السطر تفريغ لتقليد ساخر لشيء لم يُسمع بوضوح، ومن ثم لم يُتذكر بوضوح، إنه بلا فائدة.

كتبت الاسم السرى بدلاً منه، والتعويذة، والسحر.
لم تنجح التعويذة من قبل، فأختى لم ترجع، وأنا لا أزال وحيدة.
برمتُ الورقة على شكل كرة وركلتها إلى إحدى الزوايا.

السلم

"قصتى لا تضجرك يا آنسة (ليا)؟"

تحملت عددًا من مثل هذه التعليقات في اليوم التالي وأنا أتململ وأحك عيني وأستمع إلى قصة السيدة "وينتر"، غير قادرة على كبح تشاؤي.

"أنا آسفة، إنى متعبة فقط."

تعجبت: "متعبة! تبدين كالمحتضرة! ستجعلك وجبة لذيذة على ما يرام، ماذا حدث لك؟"

هزرت كتفى بلا مبالاة: "أنا متعبة فقط، هذا كل ما في الأمر."

زمت شفتيها ورمقتني بنظرة صارمة، لكننى لم أعلق، واستغرقت هى فى قصتها.

تركّت الأمور على عواهنها لسته أشهر، عزلنا أنفسنا فى بضع من الغرف: المطبخ، حيث لا يزال "جون" ينام، والمرسم والمكتبة، ونحن الفتاتين استخدمنا سلمًا خلفيًا للوصول من المطبخ إلى إحدى غرف النوم التى بدت آمنة، المراتب التى غمنا عليها هى تلك التى جررناها من الغرفة القديمة، فالأسرة نفسها أثقل من أن نستطيع تحريكها، وعلى أية حال فإن المنزل بدا كبيرًا للغاية منذ تقلص عدد ساكنيه، ونحن من نجونا، شعرنا بسهولة أكبر فى تأمين شئون مسكننا الأصغر وإدارته، ومع ذلك، لم ننجح فى نسيان بقية المنزل، الذى تتفاقم أحواله وراء الأبواب المغلقة، مثل طرف بشرى يحتضر.

قضت "إيميلين" الكثير من وقتها فى ابتكار ألعاب بالبطاقات، فكانت تلح على: "العبي معى، هيا العبي معى"، وفى النهاية استسلمت ولعبت معها، كانت ألعابًا مبهمه، بقوانين دائمة التغير، ألعاب فهمتها هى وحدها، وفازت بها دائمًا، ما بث فيها سرورًا دائمًا، اعتادت أن تتحمم، فهى لم تفقد قط حبها للصابون والمياه

الساخنة، وكانت تقضى ساعات تدلل نفسها في المياه التي سخنتها لغسل الملابس والاعتسال، لم أبخل عليها بذلك، فمن الأفضل أن تكون إحدانا على الأقل قادرة على أن تكون سعيدة.

قبل أن نغلق الغرف، مرت "إيميلين" على الخزانات التي استخدمتها "إيزابيل" وأخذت الفساتين والعطور والأحذية وراكمتها في المخيم الذي اتخذناه غرفة نوم، كان الأمر أشبه بأن تحاول النوم في صندوق للزينة، ارتدت "إيميلين" الفساتين، بعضها كان قد مر عليه عشرة أعوام، وغيرها -الخاصة بوالدة "إيزابيل"، بحسب ما أفترض- كان عمرها ثلاثين وأربعين عامًا، اعتادت "إيميلين" أن تسلينا في المساء بدخولها إلى المطبخ مرتدية الأزياء التي تبدو باهظة الثمن، جعلتها الفساتين تبدو أكبر سنًا من خمسة عشر، كانت تبرز أنوثتها، تذكرت محادثة "هيستر" مع الطبيب في الحديقة -لا أرى سببًا لكيلا تتزوج (إيميلين) في يوم ما- وتذكرت ما قالته السيدة لى عن "إيزابيل" والنزهات - كانت من نوع الفتيات اللاتي لا ينظر إليه رجل دون أن تراوده الرغبة في لمسه- وشعرت بقلق مفاجئ، لكن عند ذلك ارتمت على أحد كراسي المطبخ، وأخرجت من حقيبة يدها الحريرية مجموعة من بطاقات اللعب، وقالت بكل طفولية: "هيا، العبي معي بالبطاقات"، طمأننى ذلك قليلاً، لكن مع ذلك، حرصت على ألا تغادر المنزل بأنافتها.

كان "جون" باردًا، ومع ذلك فقد دفع نفسه إلى فعل ما لا يُصدق: جلب فتى ليساعده في الحديقة، قال: "سيكون الأمر على ما يرام، إنه ليس إلا ابن العجوز (بروكتور)، اسمه (أمبروز)، إنه شاب هادئ، ولن يطول وجوده، فقط حتى أصلح المنزل".

أدركت أن هذا سيستمر إلى الأبد.

جاء الفتى، كان أطول من "جون" وأعرض منه عند الكتفين، وقفا وأيديهما في جيوبهما، وتناقشا بشأن عمل اليوم، ثم بدأ الفتى عمله، كان له أسلوب دقيق وصبور في الحفر، فكانت دقائق المجرفة المستمرة في الأرض تثير أعصابي: "لم يجب أن يكون موجودًا؟" أردت أن أعرف: "إنه غريب مثل الآخرين تمامًا".

لكن لسبب ما، لم يكن الفتى غريبًا بنظر "جون"، ربما لأنه قادم من عالم "جون"، عالم الرجال، العالم الذى لم أعرفه.

قال "جون": "إنه شاب صالح"، مرارًا وتكرارًا إجابة على أسئلتي: "إنه جاد في عمله، ولا يسأل كثيرًا، ولا يتكلم كثيرًا".

"قد لا يكون له لسان، لكن في رأسه عينين".

هز "جون" كتفيه بلا مبالاة واستدار مستاءً.

قال في النهاية: "لن أظل موجودًا للأبد، ولا يمكن أن تستمر الأمور للأبد هكذا"، وأشار إشارة غامضة بيده شملت المنزل وساكنيه وحياتنا داخله: "لا مفر من تغير الأمور في يوم ما".

"تغير؟"

"أنت تكبرين، لن تظل الأمور على حالها، أليس كذلك؟ أن تكونا طفلتين شيء، وأن تصبحا بالغتين..."

لكننى كنت قد تركته بالفعل، لم أرد أن أعرف ما أراد قوله.

كانت "إيميلين" في غرفة النوم، تخلع الترتير من وشاح ليلى لتجمعه في صندوق كنوزها، جلست إلى جانبها، بدت مستغرقة جدًا في مهمتها لدرجة عدم التفاتها إلى حين جئت، أصابعها متدرجة الامتلاء التقطت قطع الترتير بلا هوادة حتى خلعتها كلها، ثم ألقته داخل الصندوق، كان عملاً بطيئًا، لكن "إيميلين" لديها كل الوقت المطلوب، وجهها الهادئ لم يتأثر قط مع انعكاسها على الوشاح، ضامة شفيتها،

ونظرتها عازمة وحاملة في آن، بين الحين والآخر يهبط جفناها، مُخَفِّينِ حدقتين خضراوين، ثم بمجرد أن يلمسا الجفنين السفليين، يرتفعان مجدداً ليكشفَا عن خضار لم يتبدل.

هل بدوت هكذا حقاً؟ تساءلت، أدركت مدى تطابق عيني وعينيها في المرأة، وأدركت أننا لدينا الخصلة الملتوية نفسها الشاطحة تحت ثقل الشعر الأحمر في مؤخر عنقينا، وأدركت تأثيرنا على القرويين في تلك المرات النادرة التي مشينا فيها متشابكتي الذراعين في شارع "ذا ستريت" بفستانين متطابقين، لكن مع ذلك، لم أبد مثل "إيميلين"، أليس كذلك؟ وجهي لم يستطع أن يُبدى ذلك التركيز الهادئ، فالإحباط سيشوّهه، إذ سأعُض شفتي، وسأرفع شعري بعصبية وراء كتفي وخارج مجال بصري، وسأنفخ ضجراً، لن أكون هادئة مثل "إيميلين"، سأعُض قطع الترتر بأسناني.

أردت أن أسألها، لن تتركيني، أليس كذلك؟ لأنني لن أتركك، سنبقى هنا إلى الأبد، معاً، أيّا كان ما يقوله "جون ذا ديج".

"لم لا نلعب؟"

تابعت عملها الصامت كأنها لم تسمعني.

"لنلعب لعبة الزواج، يمكنك أن تكوني العروس، هيا، يمكنك ارتداء.. هذا"، وجذبت قطعة صفراء من الملابس الشفافة من كومة الأزياء الأنيقة في الزاوية: "إنه مثل حجاب الزفاف، انظري"، لكنها لم تنظر، ولا حتى حين رميتها على رأسها، أبعدتها برقة عن عينيها واستمرت في خلع قطع الترتر.

فحولت انتباهي إلى صندوق كنوزها، مفاتيح "هيستر" لا تزال هناك، محتفظة بلمعائها، مع إن "إيميلين"، على ما يبدو، قد نسيت أمر صاحبها القديمة، توجد أجزاء وقطع من حلي "إيزابيل"، والأغلفة الملونة للحلوى التي أعطتها لها "هيستر" يوماً ما، وقطعة

مثيرة للانتباه من زجاجة خضراء مكسورة، وجزء من شريط له طرف ذهبي كان لي، أعطته لي السيدة منذ سنوات لا أتذكر عددها، وتحت قطع الخردة الأخرى لا تزال الخيوط الفضية التي انتزعتها من الستائر يوم وصلت "هيستر" موجودة، وهناك شيء بدا غريبًا، نصفه مختفٍ تحت ركاب الياقوت والزجاج والخردة، شيء من الجلد، أملت رأسي جانبًا لأراه أفضل، آه! لهذا أرادت الاحتفاظ به! لأن عليه نقش ذهبي، إنها حروف "أي إيه آر"، ما المقصود بـ"أي إيه آر"؟ أو من المقصود بـ"أي إيه آر"؟ أملت رأسي إلى الجهة المقابلة ولمحت شيئًا آخر، قفل صغير، ومفتاح صغير، ليس غريبًا أنه في صندوق كنوز "إيميلين، حروف ذهبية ومفتاح، لا بد أنها غنيمتها الأعلى قيمة، وفجأة صدمتني فكرة، "أي إيه آر"! إنه دفتر يوميات!

مددت يدي.

نظرات "إيميلين" يمكن أن تكون خادعة، فقد هبطت يد "إيميلين" بسرعة البرق وبكل قوة على رسغي، ومنعتني من لمسه، ومع ذلك لم تنظر إلي، بل حركت يدي بعيدًا بحركة صارمة، وأنزلت غطاء صندوقها.

وجدت علامات ضغط بيضاء على رسغي حيث أمسكت بي.

قلت على سبيل التجربة: "سأذهب بعيدًا"، لم يبد صوتي مقنعًا للغاية، "نعم سأفعل ذلك، وسأتركك هنا، سأكبر وأعيش وحدي". ثم وقفت وغادرت الغرفة، تملؤني الشفقة على الذات المغلفة بالكبرياء.

لم يكن إلا في نهاية عصر اليوم أن جاءت لتجديني على مقعد النافذة في المكتبة، أغلقت الستائر لتخفيني، لكنها جاءت إلى مكاني مباشرة ونظرت حوله، سمعت خطواتها المقتربة، وشعرت بحركة الستائر حين رفعتها، كنت أشاهد قطرات المطر على زجاج النافذة وجبهتي

مضغوطة على الزجاج، كانت الرياح تجعل قطرات المطر ترتعش، فتهدد باستمرار بأن تطلق قطرة بإحدى المسارات المتعرجة وتبتلع كل قطرة في طريقها وتترك وراءها طريقًا لامعًا مختصرًا، جاءت "إيميلين" إلى وأرخت رأسها على كتفى، هززت كتفى لأبعدها بغضب، ولم أستدر لأكلمها، فأخذت يدي، ووضعت شيئًا على أصابعي.

انتظرت أن تمشي قبل أن أنظر، إنه خاتم، لقد أعطتني خاتمًا. أدركت حَجَر الخاتم للداخل، إلى ناحية الكف، وقربته من النافذة. أعاد الضوء الحياة إلى الحجر، إنه أخضر، مثل عيني، أخضر مثل عيني "إيميلين"، لقد أعطتني خاتمًا، أغلقت أصابعي على كفى وجعلتها قبضة محكمة وفي قلبها الحجر.

جمع "جون" دلاء مياه المطر وأفرغها، وقشر الخضراوات ليضعها في القدر، وذهب إلى المزرعة وعاد بالحليب والزبد، لكن بعد كل مهمة، يبدو أن طاقته التي جمعها ببطء تنفذ، وفي كل مرة تساءلت هل ستكون لديه القوة اللازمة ليقوم عوده النحيل عن الطاولة لينفذ المهمة التالية؟

سألته: "أذهب إلى الحديقة التوبيارية؟ يمكنك أن ترينى ما يجب فعله هناك".

لم يرد، أظن أنه بالكاد سمعنى، فترك الأمر لبضعة أيام، ثم طلبت منه هذا مجددًا، ومرارًا وتكرارًا.

في النهاية ذهب إلى الكوخ، حيث شحذ المجزات بإيقاع حركته السلس القديم، ثم أنزلنا السلم الطويل وحملناه مع المجزات إلى الخارج، "هكذا"، ومد يده ليرينى مفتاح الأمان في السلم، ومد السلم مقابل جدار الحديقة، جربت مفتاح الأمان بضع مرات، ثم صعدت

بضع درجات وهبطت، قال: "لن تشعرى أنه بهذا الثبات حين تسدينه إلى أشجار الصنوبر، لكنه سيكون آمنًا كفاية إن تعاملت معه على نحو صحيح، يجب أن تشعرى به".

ثم ذهبنا إلى الحديقة التوبيارية، وقادنى إلى شجرة صنوبر متوسطة الحجم بحاجة إلى تقليم، فذهبت لأسند السلم إليها، لكنه صاح: "لا، أنت متسرعة للغاية"، سار ثلاث مرات حول الشجرة، ثم جلس وأشعل سيجارة، وجلست أنا وأشعل واحدة لى أيضًا، "لا تقصى الأشجار فى ضوء الشمس المباشر أبدًا، وانتبهى إلى ظلك"، وسحب بضع أنفاس من سيجارته، "احذرى من السحاب، لا تدعيه يميل خط اتزانك وهو يتحرك، حددى شيئًا ثابتًا فى مجال رؤيتك، مثل سطح أو سياج، هذا محور حركتك، ولا تسرعى أبدًا، ستقضى فى النظر ثلاثة أضعاف الوقت الذى تقضينه فى التشذيب"، لم يرفع عينه عن الشجرة طوال حديثه، كذا لم أفعل أنا: "يجب أن تشعرى بمؤخر الشجرة حين تقلمين مقدمها، والعكس كذلك، ولا تقطعى بالمجزات وحسب، بل استخدمى كامل ذراعك، استخدميه بالكامل حتى كتفيك".

أنهينا سيجارتي وأطفأنا العقبين بمقدم حذاءينا.

"أبقى فى بالك شكل الشجرة الآن، من بُعد، حين تقتربين منها".

كنت مستعدة.

تركنى أسند السلم إلى الشجرة ثلاث مرات قبل أن يرضى عن درجة أمانه، ثم أخذت المجزات وصعدت.

عملت لثلاث ساعات، فى البداية كنت مدركة للارتفاع، وظللت أنظر إلى الأسفل، واضطرت إلى إجبار نفسى على الصعود درجة إضافية، وفى كل مرة حركت فيها السلم، استغرق الأمر محاولات عدة لأجعله آمنًا، لكن بالتدريج تمكنت من تلك المهمة، بالكاد انتبهت إلى مدى ارتفاعى، فعقلي كان مستغرقًا جدًا فى الشكل الذى أحاول صنعه،

وقف "جون" بالقرب منى، صامتًا غالب الوقت، يبدى تعليقًا بين الحين والآخر: انتبهى إلى ذلك! أو فكرى فى المؤخر! لكن فى الغالب كان يتفرج فقط، ويدخن، لم يكن إلا حين نزلت عن السلم للمرة الأخيرة، وفتحت مفتاح الأمان وضممته، أن أدركت كم تؤلمنى يداى بسبب وزن المجزأت، لكننى لم أهتم.

تراجعت للخلف كثيرًا لأفحص نتيجة عملى، وسرت ثلاث مرات حول الشجرة، تهلل قلبى، فالنتيجة كانت جيدة.

أوما "جون": "ليس سيئًا، ستفحين فى هذا".

ذهبت لأحضر السلم من الكوخ لتقليم القبة المستديرة، لكننى لم أجده، الفتى الذى لا أحبه موجود فى حديقة المطبخ ومعه المجرفة، ذهبت إليه متجهمّة: "أين السلم؟" وكانت تلك أول مرة أتحدث إليه.

تجاهل فظاظتى وأجاب بأدب: "أخذه السيد (ديجنس)، إنه ناحية مقدم المنزل يصلح السقف".

جلبت لنفسى واحدة من السجائر التى تركها "جون" فى الكوخ، ودختها، مرسلة نظرات خبيثة إلى الفتى الذى نظر إلى السيجارة بعينين حاسدتين، ثم شحذت المجزأت، ثم، بعدما أعجبنى الشحذ، شحذت سكين الحديقة، مستغرقة الوقت اللازم وأفعل ذلك بشكل جيد، ويسير وراء إيقاع الحجر والشفرة طوال الوقت إيقاع حفر مجرفة الفتى فى الأرض، ثم نظرت إلى الشمس وفكرت فى أننى أتأخر على بدء فى القبة المستديرة الكبيرة، ثم ذهبت لأبحث عن "جون".

كان السلم ممددًا على الأرض، يصنع نصفاه زاوية غريبة تشبه عقارب الساعة، والقناة المعدنية التى كان يفترض أن تثبتهما فى

خط مستقيم شُدت بقوة من الخشب، وتبرز شطيتان كبيرتان من الكسر الذي في جانب السلم، وبجوار السلم قمد "جون"، لم يتحرك حين لمست كتفه، لكنه كان دافئًا مثل الشمس التي لمست أطرافه المتباعدة وشعره الدامى، كان يحملق إلى السماء الزرقاء الصافية، لكن أزرق عينيه غائم على نحو غريب.

هجرتنى الفتاة العاقلة، وفجأة أصبحت نفسى فقط، مجرد طفلة غبية، بلا أى شىء تقريبًا.

همست: "ماذا أفعل؟"

أخافنى صوتى: "ماذا أفعل؟"

راقبت مرور الوقت وأنا ممددة على الأرض، ويد "جون" معشقة بيدي، وحببات الحصى تنخر صدغى، امتد ظل الجزء المرتد من المنزل الخاص بالمكتبة على الحصى وبلغ أبعد درجات السلم، وتسلسل الظل على السلم بتجاهنا درجة تلو الأخرى، وبلغ مفتاح الأمان.

مفتاح الأمان، لماذا لم يتفقد "جون" مفتاح الأمان؟ أليس أكيدًا أنه سيتفقده؟ نعم بالتأكيد، ولكن إن كان قد تفقده، فكيف.. ولماذا...؟
لم أتحمل التفكير فى الأمر.

درجة، تلو الأخرى، تلو الأخرى، يتسلسل ظل ارتداد المكتبة ويصبح أقرب فأقرب، وصل الظل إلى بنطال "جون" الصوفى، ثم قميصه الأخضر، ثم شعره، كم أصبح شعره خفيًا! لم لم أهتم به أفضل؟

لم أتحمل التفكير فى الأمر، ولكن كيف لا أفكر؟ بينما ألاحظ شحوب شعر "جون"، لاحظت أيضًا الحزوز العميقة فى الأرض التى أحدثتها قاعدة السلم مع تمايله بعيدًا عن "جون"، ولا وجود لعلامات أخرى، الحصى ليس رملاً أو ثلوجًا أو حتى أرض منبوشة حديثًا، إنه لا يحفظ آثار الأقدام، لا أثر يُظهر كيف أتى أحد، أو كيف عبث أحد

بقاعدة السلم، وكيف ابتعد بهدوء حين أنهى ما جاء من أجله،
فمما يوضحه الحصى، ربما كان شبحًا.

كان كل شيء باردًا، الحصى، ويد "جون"، وقلبي.

وقفت وتركت "جون" دون النظر إلى الوراء، سرت حول المنزل
إلى حديقة المطبخ، كان الفتى لا يزال هناك، وجدته يضع المجرفة
والمكنسة بعيدًا، توقف حين رآني أقرب، وحملق إلى، ثم حين توقفت
-قلت لنفسى لا تفقدى الوعى! لا تفقدى الوعى!- ركض إلى ليمسك
بى، رأيت أنه كأننى بعيدة جدًا، جدًا، ولم أفقد الوعى، ليس تمامًا، بل
أحسست بصوت يعلو داخلى حين اقترب، كلمات لم أختار أن أقولها،
لكنها شقت طريقها إلى خارج حلقى المخنوق: "لم لا يساعدنى أحد؟"
أمسك بى من تحت ذراعى، وانهرت تجاهه، ساعدنى برفق لأتمدد
على العشب: "سأساعدك، سأفعل ذلك".

بينما حادثة موت "جون ذا ديج" حاضرة فى ذهنى، ووجه السيدة
"وينتر"، الثكلى، لا يزال مهيمًا على ذاكرتى، بالكاد لاحظت الرسالة
التي كانت تنتظرنى فى غرفتى.

لم أفتحها حتى انتهيت من التفريغ، وحين انتهيت، لم يكن لدى
الكثير لأفعله.

بعد المساعدة التى قدمها لى والدك على مر السنين، اسمح لى أن أعبر عن مدى امتنانى لإتاحة الفرصة لرد الجميل لابنته ولو على نحو بسيط.

لم يتوصل بحثى الأول فى المملكة المتحدة إلى أى أدلة على مكان وجود السيدة "هيوست بارو" بعد فترة عملها فى "آنجلفيلد"، وقد وجدت عددًا محددًا من الوثائق تتعلق بحياتها قبل تلك الفترة، وأعد تقريرًا أتوقع أن يصل إليك فى غضون أسابيع قليلة.

لم يصل بحثى إلى نهايته بأى نحو، ولم أنتهِ بعد من تحقيقى بشأن صلتها فى إيطاليا، ومن المرجح للغاية أن تؤدى تفصيلى ما من سنواتها المبكرة إلى مسار تحقيق جديد.

لا تيأسى! إن كان أحد يستطيع العثور على المعلمة المنزلية خاصتك، فهو أنا.

المخلص،

إيمانويل دريك.

وضعت الرسالة بعيدًا فى درج، ثم جذبت معطفى والقفازين.

قلت لـ "شادو": "هيا بنا".

تبعنى وهبطنا السلم وخرجنا من المنزل، واتخذنا الطريق بطول جانب المنزل، بين الحين والآخر نجد شجرة أمام الحائط فتجعلنا ننحرف عن مسارنا، وبالتدريج تبعدنا عن الجدار، بعيدًا عن المنزل، وتؤدى بنا إلى إغراءات الحديقة الشبيهة بالمتاهة، قاومت ذلك الميل البسيط وتابعت طريقى المستقيم، أن أبقى حائط المنزل إلى يسارى يعنى أن أنحشر وراء أجمة آخذة فى الاتساع من الشجيرات الناضجة

الكثيفة، لقد علقت سيقانها المتشابكة في كعبي، فاضطرت إلى لف وشاحي حول وجهي لتجنب الخدش، صاحبنى القط حتى الآن، ثم توقف، حيث غلبته كثافة الأشجار المتشابكة.

ظللت أتقدم، ووجدت ما كنت أبحث عنه، وجدت نافذة تغطيها أشجار اللبلاب بالكامل تقريبًا، وفي وجود مثل تلك الكثافة للأوراق دائمة الخضرة بين النافذة والحديقة، فإن أى بصيص ضوء يهرب منها لن يُرى أبدًا.

دخل النافذة مباشرة، جلست أخت السيدة "وينتر" أمام طاولة، وأمامها جلست "جوديث"، كانت ترفع ملاعق الحساء إلى شفתי المرأة المقعدة الجافتين المتشققتين، وفجأة، في منتصف الطريق بين الوعاء وفمها، توقفت "جوديث" لوهلة ونظرت تجاهى مباشرة، لم تستطع رؤيتي، فقد كان اللبلاب كثيفًا للغاية، لا بد أنها شعرت بحملقتي، وبعدها توقفت لوهلة، عادت إلى مهمتها، ولكننى لاحظت شيئًا غريبًا في الملعقة، إنها ملعقة فضية عليها حرف "إيه" ممدد بشكل منمق يزين المقبض.

رأيت ملعقة مثلها من قبل، حرف "إيه"، "آنجل"، "آنجليلد"، كانت لدى "إيميلين" ملعقة مثل هذه، وكذلك "أوريليوس".

تملصت إلى الخلف من بين الشجيرات، وأنا ملتصقة بالجدار والأفرع متشابكة في شعري، تفرج القط وأنا أزيل أجزاء الأفرع والأوراق الميتة عن كمي وكثفى.

اقترحت عليه: "إلى الداخل؟" وكان سعيدًا للغاية بأن يوافق.

لم يتمكن السيد "دريك" من تعقب "هيستر" من أجلى، لكن على الجانب الآخر، وجدت "إيميلين".

الشفق الأبدى

دونت القصة في مكتبى، وتجولت في الحديقة، ومسدت القط في غرفة نومى وكبحت كوابيسى بالبقاء مستيقظة، بدت لى الليلة المقمرة التى رأيت فيها "إميلين" فى الحديقة كأنها حلم، لأن السماء انغلقت مجددًا، وأصبحنا مغمورين من جديد فى شفق بلا نهاية، بموت السيدة والآن "جون ذا ديغ"، تسلل المزيد من الرعب إلى قصة السيدة "وينتر"، أكانت "إميلين" - ذلك الجسد المخيف فى الحديقة- هى من عبثت بالسلم؟ لم يكن أمامى إلا أن أنتظر حتى تكشف القصة نفسها لى، وفى أثناء ذلك، مع مرور أيام ديسمبر، يصبح الظل الحائم على نافذتى أكثر قوة بلا توقف، قربه نقرنى، وبُعدَه فطر قلبى، كلما رأيته ثار داخلى مزيج مألوف من الخوف والاشتياق.

وصلت إلى المكتبة قبل السيدة "وينتر" -لا أعرف صباحًا أم عصرًا أم مساءً، فقد أصبحت متشابهة- ووقفت قرب النافذة وانتظرت، ضغطت أختى الشاحبة أصابعها تجاه أصابعى، وحبستنى داخل

نظرتها المتوسلة، وغشيت الزجاج بنفسها البارد، ليس أمامي إلا أن أكسر الزجاج حتى أكون معها.

جاء صوت السيدة "وينتر" من خلفي: "إلامَ تنظرين؟"
استدرت ببطء.

صاحت بي: "اجلسي"، ثم قالت: "ضعي جذعًا آخر في الموقد يا (جوديث) إذا سمحتي، وأحضري لهذه الفتاة شيئًا تأكله".
جلست.

جلبت "جوديث" الكاكاو والخبز المحمص.
تابعت السيدة "وينتر" قصتها وأنا أرتشف الكاكاو الساخن.

قال: "سأساعدك"، لكن كيف يساعدي؟ إنه مجرد فتى.

أبعدته عن طريقي، بعثته ليجلب الطبيب "مودسلي"، وبينما هو بعيد أعددت كوب شاي حلوًا وقويًا، وشربت ملء قدر من الشاي، فكرت بأفكار صعبة، وفكرت فيها بسرعة، وبوصولي إلى تفل الشاي، كان وخز الدموع قد تراجع تمامًا من عيني، لقد حان وقت العمل.
كنت مستعدة حين عاد الفتى مع الطبيب، حالما سمعت خطواتهما تقترب من المنزل، تجاوزت حزنِي حتى أقابلهما.
" (إيميلين)، أيتها الطفلة المسكينة!" صاح الطبيب وهو يقترب، رافعًا يده بإشارة متعاطفة، كأنه سيحتضني.

تراجعت خطوة إلى الوراء، وتوقف هو، " (إيميلين)؟" لمعت الحيرة في عينيه، "آديلاين؟" هذا غير ممكن، لا يمكن، مات الاسم على شفتيه، وتلعثم قائلًا: "سامحيني"، لكنه لم يكن بعد متأكدًا.

لم أساعده في حيرته، بل بكيت.

ليست دموعًا حقيقية، فدموعي الحقيقية -وصدقيني، كانت لدي وفرة منها- كانت مُخزنة، وفي وقت ما، الليلة أو غدًا أو في وقت قريب، لم أعرف متى تحديدًا، سأكون وحدي وسأبكي لساعات، سأبكي على "جون"، وعلى نفسي، سأبكي بصوت عال، سأصبح بدموعي، مثلما اعتدت أن أفعل وأنا طفلة صغيرة حين كان "جون" وحده هو من يهدئني، ويمسد شعري بيده التي كانت برائحة التبغ والحديقة، ستكون تلك دموعًا ساخنة وقبيحة، وحين تأتي النهاية -إن جاءت- ستكون عيناى منتفختين للغاية لدرجة أنني لن يتبقى لي سوى شقين يحاصرهما الاحمرار لأرى من خلالهما.

لكن هذه الدموع لها خصوصية، وهي ليست لهذا الرجل، الدموع التي أرضيته بها كانت زائفة، دموع جملة عيني الخضراوين مثلما تجمل الجواهر الزمرد، ولقد نجحت، إن أبهرت رجلًا بعينين خضراوين، فإنه سيصبح منومًا مغناطيسيًا لدرجة أنه لن يلاحظ أن أحدًا ما يتجسس عليه من داخل العينين.

قال منتصبًا من جانب الجثة: "أخشى أن ليس بوسعي شيء لمساعدة السيد (ديجنس)".

كان وقع اسم "جون" الحقيقي غريبًا.

"كيف حدث ذلك؟" تطلع إلى الدرايزين حيث كان "جون" يعمل، ثم انحنى إلى السلم: "هل تعطل مفتاح الأمان؟"

استطعت النظر إلى الجثة بلا تأثر، تقريبًا، وتساءلت بصوت عال: "أيمكن أنه انزلق؟ هل تشبث بالسلم وهو يسقط فأسقطه معه؟" "ألم يره أحد وهو يسقط؟"

"غرفنا في الجانب الآخر من المنزل، والفتى كان في حديقة الخضراوات"، وقف الفتى بعيداً قليلاً عنا، متحاشياً النظر إلى الجثة. "هممم، ليست له عائلة، بحسب ما أتذكر".

"عاش دائماً وحده تماماً".

"حسناً، وأين خالك؟ لماذا لم يخرج لمقابلتي؟"

لم تكن لدى أدنى فكرة عما قاله "جون" للفتى عن وضعنا، اضطررت إلى الارتجال.

بصوت منتحب، قلت للطبيب إن خالي قد رحل بعيداً.

عبس الطبيب: "بعيداً!"

لم يتأثر الفتى، إذًا، فلم يفاجئه شيء حتى الآن، وقف ناظرًا إلى قدميه حتى لا ينظر إلى الجثة، وكان لدى وقت لأفكر في أنه جبان قبل أن أتابع بقولي: "خالي لن يعود قبل بضعة أيام".

"كم يومًا؟"

"أوه! ومتى تحديدًا ذهب...؟" عبست ومثلت أنني أعد الأيام، ثم، سامحة لعيني بأن تستقرا على الجثة، تركت ركبتى تترنحان.

قفز الطبيب والفتى إلى جانبي، وأمسك كل منهما بأحد مرفقي.

"لا بأس، لاحقًا يا عزيزتي، لاحقًا".

سمحت لهما بأن يأخذاني حول المنزل نحو باب المطبخ.

قلت ونحن عند المنعطف: "لا أعرف ما يجب فعله!"

"بشأن ماذا؟"

"الجنائز".

"لست بحاجة إلى فعل أى شيء، سأدبر أمر الحانوتى، والقس سيتولى البقية".

"لكن ماذا عن المال؟"

"سيتولى خالك هذا الأمر حين يعود، بالمناسبة، أين هو؟"

"لكن ماذا لو اضطر إلى التأخر؟"

"أتظنين أن تأخره مرجح؟"

"إنه.. رجل غير متوقع".

"حقًا"، وفتح الفتى باب المطبخ وقادنى الطبيب إلى الداخل وجذب كرسيًا، انهرت عليه.

"سيتولى المحامى كل ما هو ضرورى، لو بلغ الأمر هذه الدرجة، والآن، أين أختك؟ هل عرفت بشأن ما حدث؟"

لم أرمش: "إنها نائمة".

"جيد، أرى ألا توقظيها، أليس هذا أفضل؟"

أومأت.

"والآن، من يمكنه الاعتناء بكما إذًا، وأنتما وحدكما؟"

"يعتنى بنا؟"

"من الصعب أن تبقيا هنا وحديكما.. ليس بعد هذا، كان طيشًا من خالك أن يترككما من البداية بعد فترة وجيزة من فقدان مدبرة المنزل ومن دون بديلة، يجب أن يأتى أحد".

سألت: "هل هذا حقًا ضرورى؟" وخضار عيني تملؤه الدموع، فـ"إيميلين" ليست الوحيدة التى تستطيع التصرف بأنوثة.

"بالتأكيد أنت..."

"الأمر فقط أن في آخر مرة أتى أحد للاعتناء بنا.. بالتأكيد تتذكر المعلمة، أليس كذلك؟" ورمقته بنظرة شديدة اللؤم والسرعة لدرجة أنه بالكاد صدق أنها منى، كان لديه ما يكفى من الكياسة ليخجل وينظر بعيدًا، وحين عاد بنظره إلى، لم يرَ إلا الزمرد والجواهر.

تنحج الفتى: "يمكن لجذتي أن تأتي لتلقى نظرة يا سيدى، لن تقيم هنا، لكن يمكنها أن تأتي يوميًا، لبعض الوقت فقط".

فكر الطبيب "مودسلى" في الأمر وهو مرتبك، كان ذلك مخرجًا من هذا الموقف، وهو يبحث عن مخرج.

"حسنًا يا (أمبروز)، أظن أن هذا سيكون حلًا مثاليًا، على المدى القريب على الأقل، وبلا شك سيعود خالك خلال أيام قليلة جدًا، وفي هذه الحالة لن تكون هناك حاجة، مثلما تقولين، لـ... لـ..."

"صحيح"، وقمت بسلاسة من مقعدى: "إن توليت أمر الحانوتى، سأتولى أمر القس"، ومددت يدي، "شكرًا لمجيئك سريعًا".

فقد الرجل اتزانه تمامًا، ووقف مستجيبًا لدعوتى، وشعرت باللمسة السريعة لأصابعه على أصابعى، كانت متعركة.

بحث مجددًا عن اسمى فى ملامحى، "آديلاين" أم "إيميلين"؟ "إيميلين" أم "آديلاين"؟ وسلك الطريق الوحيد لتجاوز سؤاله: "آسف لوفاة السيد (ديجينس)، أنا حقًا آسف يا آنسة (مارش)".

"أشكرك أيها الطبيب"، وأخفيت ابتسامتى وراء حجاب من الدموع.

أوماً الطبيب "مودسلى" إلى الفتى فى طريقه للخروج، وأغلق الباب وراءه.

والآن ليس لدى إلا الفتى نفسه.

انتظرت أن يتعد الطبيب، وفتحت الباب ودعوت الفتى إلى الخروج، قلت: "بالمناسبة"، وهو يقترب من العتبة، بصوت يوضح أنني سيدة المنزل: "لا حاجة إلى أن تأتي جدتك".

رمقني بنظرة فضولية، لقد رأى عيني الخضراوين والفتاة التي داخلهما.

رد: "جيد جدًا"، بلمسة مسترخية لحافة قبعته، "هما أنني ليست لي جدة".

قال: "سأساعدك"، لكنه مجرد فتى، ومع ذلك، فإنه يعرف كيف يقود العربة ذات الإطارين.

في اليوم التالي، قادها بنا إلى المحامى في بانبرى، جلست بجانبه و"إيميلين" خلفه، بعد ربع ساعة من الانتظار تحت نظر موظف الاستقبال، طُلب منا أخيرًا أن ندخل إلى مكتب السيد "لوماكس"، نظر إلى "إيميلين" ونظر إلى وقال: "لا حاجة إلى السؤال عن هويتكما".

أوضحت: "نحن بشكل ما في مأزق، خالي متغيب، والبستاني مات في حادث، حادث أليم، وبما أنه ليست له عائلة وقد عمل لدينا طوال حياته، أشعر أن العائلة يجب أن تدفع تكلفة الجنازة، الأمر فقط أن لدينا بعض العجز..."

تأرجحت عيناه بيننا ذهابًا وعودة.

"من فضلك اعذر أختي، هي ليست على ما يرام"، وبالفعل بدت "إيميلين" غريبة، تركتها تحلى بأناقها قديمة الطراز، وعيناها مليئتان بالجمال فلا تتركان مساحة لأي شيء ممل مثل الذكاء.

"نعم"، وخفض صوته إلى نبرة متعاطفة، "سمعت بشأن ذلك".

انحنيت نحو المكتب مستجيبة لطيبته وأفضيت إليه: "وطبعًا، خالي.. لقد تعاملت معه، لذا ستعرف، أليس كذلك؟ الأمور ليست دائمًا سلسة معه"، وواجهته بنظرك الأكثر صدقًا: "في الواقع، من دواعي السرور التعامل مع شخص عاقل على سبيل التغيير!"

قلَّب الشائعات التي سمعها في باله، قالوا إن إحدى الفتاتين ليست على ما يرام، ويبدو واضحًا، بحسب ما استنتج، أن لا غبار على الأخرى.

"السرور متبادل بالتأكيد يا آنسة.. اعذريني، ماذا كان اسم والدك؟"

"الاسم الذي تقصده (مارش)، لكننا اعتدنا على أن نُعرف باسم والدتنا، يطلقون علينا في القرية توأمي (آنجلفيلد)، لا أحد يتذكر السيد (مارش)، خصوصًا نحن، لم نحظ قط بفرصة لقائه، كما تعرف، ولا تعامل لنا إطلاقًا مع عائلته، فكرت كثيرًا في أن من الأفضل تغيير اسمينا رسميًا".

"هذا ممكن، لم لا؟ الأمر سهل حقًا".

"لكن هذا في يوم آخر، طلب اليوم..."

"بالطبع، والآن دعيني أطمئنك بشأن هذه الجنازة، لا تعلمين متى سيعود خالك، صحيح؟"

قلت: "قد يستغرق ذلك وقتًا طويلًا"، وهذه ليست كذبة.

"لا يهم، إما أنه سيعود في الوقت المناسب لتسوية المصروفات بنفسه، وإن لم يعد، فإنني سأسويها بالنيابة عنه وسأقوم باللازم حين يعود".

حولت وجهي إلى هيئة الارتياح التي كان ينتظرها، وبينما لا يزال مسرورًا لأنه استطاع أن يزيع همًا عن كاهلي، كدست أمامه الأسئلة بشأن ما قد يحدث في حالة فتاة مثلي، لديها مسئولية شقيقة مثل أختي، إن اضطرت إلى مواجهة مصيبة فقدان الوصي عليها للأبد، وشرح

لى الؤضع بالكامل ببضع كلماء؁ وعرفاء بوضوح الؤطواء الؤى ببب أن أؤؤؤها ومؤى ببب أن أؤؤؤها؁ واؤؤام: "أى من هذا لا بنبؤى على؁ فى وؤعك الؤالى!" كأنه قد ءمادى فى ءؤبل هذا السبنارىو المؤبف؁ وءمنى لو بسؤطع سؤب ءلاؤة أرباع ما قاله: "ففى النهاية؁ ءالك سبعود ءلال بضعة أيام قصىرة".

ابؤسماء له: "بمشية الرب!"

كنا عئء الباب ءبب ءؤكر السبء "لوماكس" أمراً مءماً.

"بالمئاسبه؁ أفؤرض أنه لم بؤرك عئواءاً؁ صؤبب؟"

"أئء ءعرف ءالى!"

"هذا ما ظئئئه؁ لكنك ءعرفبب نطاق رؤلؤه صؤبب؟"

أؤببب السبء "لوماكس"؁ لكن هذا لم بمنعئى من الكؤب علىه ءبب اضؤرراء إلى ذؤك؁ الكؤب كان فؤرة ءانبية لفاءة مئلى.

"نعم.. فى الواقع؁ لا".

رمقئى ببؤرة ءاءة: "لأنه بئ كئء لا ءعرفبب مكانه..." وراؤع عؤله كل البؤانب القانونبة الؤى عءءها لى للؤو.

"بمكنئى أن أؤبرك بالمكان الذى قال بئ ذاهب إلىه".

نؤر إلى رافعاً ءاؤببه: "قال بئ ذاهب إلى بىرو".

ؤؤظاء عبنا السبء "لوماكس"؁ وانفؤؤ فمه.

واؤؤامؤ: "لكن بالطبع؁ كلانا بعرف أن هذا هراء؁ صؤبب؟ لا بمكن أن بكون فى بىرو؁ ألبس كؤلك؟"

وبابؤسامئى الأكؤر اطمئئناً وؤرأة؁ أغلؤاء الباب ءلفى؁ ءاركة السبء "لوماكس" لبؤلق بالنبابة عئى.

جاء يوم الجنازة ولم تأتني فرصة للبكاء، في كل يوم يحدث شيء ما، أولاً القس، ثم القرويون الذين يقتربون بحذر، يريدون أن يسألوا بشأن الإكليل والزهور، وحتى السيدة "مودسلي" جاءت، وكانت مهذبة لكنها باردة، وكأنني كنت على نحو ما ملوثة بجريمة "هيوست"، قلت لها: "السيدة (بروكتور)، جدة الفتى، مذهلة، هلا شكرت زوجك لاقتراحها".

خلال كل ذلك شككت في أن الفتى "بروكتور" يراقبني، مع أنني لم أمسك به متلبساً قط.

جنازة "جون" ليست مكاناً مناسباً للبكاء، بل هي أقل الأماكن ملائمة لذلك، لأنني الآنسة "آنجليلد"، ومن هو؟ البستاني لا غير.

في نهاية قداس الجنازة، بينما القس يتحدث بلطف وبلا فائدة لـ "إيميلين" - إن كانت تود أن تتردد إلى الكنيسة أكثر؟ فحب الرب نعمة لكل مخلوقاته - استمعت إلى السيد "لوماكس" والطبيب مودسلي اللذين ظنًا نفسيهما خارج مجال سمعي.

قال المحامي للطبيب: "إنها فتاة مقتدرة، لا أعتقد أنها مدركة لخطورة الموقف، أتدرك أن لا أحد يعرف مكان خالها؟ لكن حين تعرف هي، لا شك لدى في أنها ستتأقلم مع الوضع، لقد أرسلت ما يلزم لتسوية الجانب المالي من الأمور، وهي كانت قلقة وسط كل هذا بشأن دفع مقابل جنازة البستاني، لديها قلب طيب يليق بعقلها الراجح".

قال الطبيب بصوت ضعيف: "نعم".

"كان لدى دائماً انطباع - لا أعرف مصدره، عذراً - بأن الفتاتين.. ليستا على ما يرام، لكن الآن بعدما قابلتهما، يبدو واضحاً كالشمس أن واحدة منهما فقط هي المصابة، إنها رحمة، بالطبع، أنت تعرف كيف آلت الأمور منذ البداية، كونك طبيبهما".

تمت الطبيب بشيء لم أسمع.

سأل المحامي: "ماذا؟ أتقول غشاة؟"

لم أسمع ردًا، ثم طرح المحامي سؤالاً آخر: "لكن أيّ منهما من؟ لم أعرف ذلك قط حين جاءتا لزيارتي، ما اسم العاقلة منهما؟"

استدرت كفاية لأتمكن من رؤيتهما بزاوية عيني، كان الطبيب ينظر إليّ بالنظرة نفسها التي كانت عليه طوال القداس، أين الطفلة الغبية التي أبقاها في منزله لأشهر عدة؟ الفتاة التي لم تقدر على رفع ملعقة إلى شفيتها أو نطق كلمة إنجليزية، ناهيك بإعطاء التعليمات لإقامة جنازة وطرح أسئلة ذكية على المحامي، أدركت مصدر حيرته.

رمشت عيناه متأرجحتين مني إلى "إميلين"، ومن "إميلين" إليّ.

"أعتقد أن هذه (آديلين)"، رأيت شفيتها تنطقان الاسم، وابتسمت في حين تتساقط نظرياته الطبية وتجاربه حول قدميه.

رفعت يدي إليهما والتقطت عينيه، قمت بإشارة لطيفة لشكرهما على المجيء إلى جنازة رجل بالكاد عرفاه من أجل مساعدتي، هكذا اعتبر المحامي الأمر، أما الطبيب فرمها اعتبر الأمر على نحو مختلف.

لاحقًا، بعد ساعات عدة.

انتهت الجنازة، وأخيرًا يمكنني البكاء.

لكنني لم أستطع، ظلت دموعي حبيسة أطول مما ينبغي، لقد تحجرت.

الآن يجب أن تبقى داخلي إلى الأبد.

دموع متحجرة

قالت "جوديث": "معذرة..."، وسكتت، ضغطت شفيتها بقوة، ثم تابعت برعشة يدين لم أعتدها منها: "الطبيب خرج لأداء مهمة ولن يعود قبل ساعة، من فضلك..."

حزمت ثوب نومى وتبعتها، وهى تتقدمنى ببضع خطوات مهرولة، سعدنا وهبطنا السلام، وانعطفنا إلى ممرات وأروقة، ووصلنا إلى الطابق الأرضى لكن فى جزء من المنزل لم أره من قبل، وأخيراً وصلنا إلى مجموعة من الغرف التى اعتقدت أنها الجناح الخاص بالسيدة "وينتر"، وقفنا لبرهة أمام باب مغلق، ورمقتنى "جوديث" بنظرة مضطربة، تفهمت قلقها جيداً، من وراء الباب جاءت أصوات غامضة غير آدمية، صياح متألم يقاطعه لهاث حاد يبحث عن الهواء، فتحت "جوديث" الباب الأخير ودلفنا.

كنت مذهولة، لا عجب أن الضوضاء لها مثل هذا الصدى! فعلى عكس بقية المنزل، بأنائه المنتفخ بالحشو، وستائره الوافرة، وجدران

ومفروشاته الحاجبة للصوت، كانت هذه غرفة إضافية صغيرة عارية، الجدران من الطلاء العارى، والأرض عبارة عن ألواح بسيطة، رف كتب عادى فى الزاوية مملوء بأكوام من الأوراق المصفرة، وفى الزاوية يوجد سرير ضيق عليه أغطية بيضاء بسيطة، وعند النافذة، تتعلق ستارة قطنية بشكل هزيل عند طرفى الزجاج، تسمح ليل بدخول الغرفة، رأيت السيدة "وينتر"، وكانت منهارة على مكتب مدرسى صغير بسيط وظهرها لى، اختفى اللون البرتقالى النارى والأرجوانى المتألق، وكانت ترتدى قميصاً أبيض طويل الكُمين، وتنتحب.

سمعتُ الهواء يكشف حبالها الصوتية على نحو خشن وواهز، وعويل صارخ تحول إلى تأوهات حيوانية على نحو مخيف، ارتفع كتفها وانسحقا، وارتجف جزعها، سافرت تلك القوة عبر عنقها الضعيف إلى رأسها، وبطول ذراعيها إلى يديها اللتين تضربان سطح المكتب، سارعت "جوديث" إلى استبدال الوسادة التى تحت صدغ السيدة "وينتر"، أما السيدة "وينتر"، المستغرقة تماماً فى هذه الأزمة، بدا أنها غير مدركة لوجودنا.

قالت "جوديث": "لم أرها هكذا من قبل"، وضغطت أصابعها على شفتيها، وبنبرة هلع متصاعدة: "لا أعرف ما يجب فعله".

انفتح فم السيدة "وينتر" وكشّر، وتلوى ليجسد أشكالاً قبيحة متوحشة بسبب الحزن الأكبر منه.

قلت لـ "جوديث": "لا بأس"، عرفت أنها تنازع، جذبت كرسيًا وجلست إلى جانب السيدة "وينتر".

"هس، هس، أعرف ما بك"، ومددت ذراع بطول كتفيها، ووضعت يديها بيدى، كفنت جسدها بجسدى، وأملت أذنى بالقرب من رأسها وتابعت تلاوة التعويذة: "لا بأس، هذا سيمر، هس أيتها الطفلة، أنت لست وحدك"، هزرتها وهدأتها ولم أتوقف قط عن همس الكلمات

السحرية، لم تكن كلماتي، بل كلمات والدي، كلمات أعرف أنها ستنجح، لأنها نجحت دائماً معي، همست: "هس، أعرف ما بك، هذا سيمر".
لم تتوقف التشنجات، ولم تصبح الصرخات أقل ألماً، لكن بالتدريج أصبحت أقل حدة، بات لديها وقت بين كل احتدام للنوبة والآخر لتلتقط أنفاساً يائسة مرتعدة.

"لست وحدك، أنا معك".

في النهاية كانت هادئة، طبعت جمجمتها على خدي، ولمست خصلات من شعرها شفتي، وشعرت عند ضلوعي بالارتعاشات القصيرة لتنفسها، والتشنجات اللينة لرئتيها، ويدها باردتان جداً بين يدي.
"جيد، هذا أفضل".

جلسنا في صمت لدقائق، جذبت الشال ووضعت به بشكل أكثر دفءً حول كتفيها، وحاولت أن أفرك يديها من أجل بعض الدفء، كان وجهها يبدو مدمراً، بالكاد استطاعت أن ترى عبر جفنيها المتورمين، وشفثاها متفرحتان ومتشققتان، وظهرت بدايات كدمة على رأسها حيث كانت تضرب المكتب.

قلت: "كان رجلاً صالحاً، رجلاً صالحاً، ولقد أحبك".

أومأت ببطء، وارتجف فمها، هل حاولت أن تقول شيئاً؟ تحركت شفثاها مجدداً.

مفتاح الأمان؟ أهذا ما قالته؟

"أكانت أختك هي من عبثت بمفتاح الأمان؟" بدا ذلك سؤالاً قاسياً الآن، لكن في هذه اللحظة لم تبد الصراحة غريبة مع إزاحة فيض الدموع لكل قواعد الإتيكيت بعيداً.

مكتبة

t.me/t_pdf

تسبب سؤال في تشنج أليم أخير، لكن حين تكلمت كانت واضحة.

"ليست (إميلان)، ليست هي، ليست هي".

"مَنْ إذًا؟"

أغلقت عينيها بشدة، وبدأت تتمايل وهزت رأسها من جانب إلى آخر، رأيت تلك الحركة نفسها لدى الحيوانات في حديقة الحيوان حين يجن جنونها من آسريها، استشعرتُ الخوف من تجدد نزاعها، وتذكرت ما اعتاد والدي فعله ليهدئني وأنا طفلة، برفق، وبلين، مسدت شعرها حتى لجأت بهدوء إلى كتفي لتسند رأسها.

أخيرًا أصبحت هادئة كفاية لتنيهما "جوديث" في سريرها، وبصوت طفولي ناعس طلبت مني أن أبقى لذا بقيت معها، راحة على ركبتي بجانبها وأشاهدها وهي تنام، من حين إلى آخر، أرقت رعشة نعاسها وبدت على وجهها النائم نظرة خوف، حين حدث هذا داعبت شعرها حتى استقر جفناها مجددًا.

متى هدأت والدي هكذا؟ تجلت حادثة من أعماق ذاكرتي، لا بد أن سني حينها كانت اثني عشر عامًا أو نحو ذلك، كان يوم أحد، وكنت ووالدي نأكل الشطائر عند النهر حين ظهرت توأمتان، فتأتان شقراوان لهما والدان أشقران، زوار يوم واحد جاءوا للافتتان بالمعمار والاستمتاع بضوء الشمس، لاحظتهم الجميع، لا بد أنهما اعتادتتا حملقة الغرباء، لكن ليست حملقتي، رأيتهما وانتفض قلبي، كان ذلك أشبه بالنظر إلى المرأة ورؤية نفسى كاملة، حملقت إليهما بكل ما لدى من غيرة، ومن جوع، وهما بدورهما توترتا وابتعدتا عن الفتاة ذات النظرة الملتهمة ولجأتا إلى يدي والديتهما، رأيت خوفهما، وضغطت يد قوية على رثتي، حتى أظلمت السماء، ثم لاحقًا في المتجر، وأنا على مقعد النافذة أجلس بين النوم والكوابيس، جثم هو أرضًا يمسد شعري، ويتمتم تعويذته: "هس، هذا سيمر، لا بأس، لست وحدك".

بعد بعض الوقت جاء الطبيب "كليفتون"، وحين خرجت لرؤيته في المدخل، راودني شعور بأنه كان موجودًا منذ بعض الوقت، تجاوزته في طريقى إلى الخروج، وكان على وجهه تعبير لم أعرف كيف أقرؤه.

التشفير تحت الماء

عدت إلى جناحى، تتحرك قدمائى ببطء حركة أفكارى، لا شئ يبدو منطقيًا، لم مات "جون ذا ديج"؟ لأن أحدًا عبث بمفتاح الأمان فى السلم، لا يمكن أن يكون الفتى، فقصة السيدة "وينتر" أعطته حجة غياب واضحة: بينما "جون" وسلمه يتأرجحان من الدرابزين عبر الهواء إلى الأرض، كان الفتى يراقب سيجارتها، دون جرأة على أن يطلب نفسًا، وبالتالي فإنها بالتأكيد "إميلين"، باستثناء أن فى القصة ما من شئ يشير إلى أن "إميلين" قد تفعل شيئًا كهذا، كانت طفلة مسالمة، وحتى "هيوست" قالت ذلك، والسيدة "وينتر" نفسها كانت أوضح ما يمكن بهذا الشأن، لا، ليست "إميلين"، من إذًا؟ "إيزابيل" ماتت، و"تشارلى" رحل.

وصلت إلى جناحى، دلفت، ووقفت قبالة النافذة، الظلام يمنع أى مجال للرؤية، ولا يوجد غير ظلى، ظل شاحب ترى الليل من خلاله، سألته: "مَن؟"

في النهاية استمعت إلى الصوت الهادئ المثابر داخل رأسي الذي كنت أحاول تجاهله، "آديلاين".

قلت لا.

قال الصوت نعم إنها "آديلاين".

هذا غير ممكن، صرخات الحزن على "جون ذا ديغ" لا تزال تتردد في بالي، لا أحد يرثي رجلاً هكذا بعد قتله، صحيح؟ لا أحد يقتل رجلاً أحبه كفاية ليبيكي عليه مثل هذه الدموع؟

لكن الصوت في دماغى سرد فصلاً تلو الآخر من القصة التي عرفتھا جيداً، الحادثة العنيفة في الحديقة التوبيارية، كل جزة بالمجزآت كانت ضربة إلى قلب "جون"، والهجمات على "إيميلين"، وشد الشعر، والضرب المبرح، والعض، والرضيع الذي أزيل من عربته وترك بلا مبالاة، ليموت أو ليجمده أحد، لقد قالوا في القرية إن إحدى التوأمن لم تكن على ما يرام، تذكرت ذلك وتساءلت، هل هذا ممكن؟ هل الدموع التي رأيتهآ للتو دموع الذنب؟ دموع الندم؟ هل احتضنت للتو قاتلة وطمأنتها؟ أهذا هو السر الذي أخفته السيدة "وينتر" عن العالم كل هذا الوقت؟ بدأ شك مزعج يختمر بداخلي، أهذا هو الهدف من قصة السيدة "وينتر"؟ أن تجعلني أتعاطف معها، أبرئها، أسامحها؟ ارتعدت.

لكن تأكد لي شيء واحد على الأقل، كانت تحبه، وكيف لا؟ تذكرت حمل جسدها المعذب المتألم قبالة جسدي، وأدركت أن الحب المنسحق وحده يمكن أن يتسبب بمثل هذا اليأس، تذكرت تسلسل "آديلاين" الطفلة إلى "جون" في وحدته بعد موت السيدة، تعبد إليه الحياة عبر تعليمه لها تقليد الحديقة.

الحديقة التوبيارية التي خربتها.

ربما أنا لست واثقة من هذا في النهاية!

تجولت عيناى فى الظلام خارج النافذة، حديقتهـا الرائعة، أهى تحيتها إلى "جون ذا ديـج"؟ توبتها المستمرة مدى الحياة عن الأذى الذى أوقعته؟

فركت عيني المتعبتين وأدركت أننى يجب أن أخلد إلى النوم، لكننى كنت متعبة إلى حد منعنى من النوم، وأفكارى، إن لم أفعل شيئًا لوقفها، ستدور فى دوائر طوال الليل، قررت أن أتحمم.

بينما أنا أنتظر امتلاء حوض الاستحمام، بحثت عن شيء يشغل بالى، لفتت كرة من الورق ظاهرة جزئيًا تحت طاولة الزينة انتباهى، فردتها، وساويتها، وجدت بها سطرًا من نص صوتى.

فى المرحاض والمياه تدوى فى الخلفية، قمت ببضع محاولات قصيرة الأجل لالتقاط أى معنى من سلسلة الرموز تلك، دائمًا ما كان هناك ذلك الشعور المقيـد بأننى لم ألتقط ما تفوهت به "إيميلين" بدقة، تخيلت الحديقة تحت ضوء القمر، التواءات أشجار بندق الساحرة، الوجه الجروتسكى اللاهث، سمعت مجددًا صوت "إيميلين" بما حمله من مفاجأة، لكن مهما حاولت لا أستطيع تذكر نطقه.

نزلت بحوض الاستحمام، تاركة قصاصة الورق على الحافة، والمياه الدافئة على قدمى وساقى وظهري، بدت باردة بدرجة مميزة على البقعة التى على جانبي، انزلقت إلى داخل المياه بعينين مغلقتين، غطت المياه أذنى، وأنفى، وعيني وحتى قمة رأسى، رنت المياه فى أذنى، وارتفع شعري عن جذوره.

صعدت من أجل الهواء، ثم انغمست تحت المياه مجددًا، ثم المزيد من الهواء، ثم المياه.

بدأت الأفكار تسبح في عقلي، بطريقة حرة، كأنها تحت المياها هي الأخرى، عرفت كفاية عن لغة التوأمين لأدرك أنها لم تُبتكر بالكامل، في حالة "إيميلين" و"آديلاين"، كانت مبنية على الإنجليزية والفرنسية، أو يمكن أن تضم عناصر من كليهما.

هواء، مياه.

تحريف مقصود، ربما في طبقات الصوت، أو الحروف المتحركة، وأحياناً، هناك أجزاء إضافية، من أجل التمويه وليس إضافة المعنى.

هواء، مياه.

إنها أحجية، كود سري، شيفرة، لن تكون بصعوبة الهيروغليفية المصرية أو "النظام الخطي ب" اليوناني، كيف يمكن فكها؟ خذ كل مقطع لفظي على حدة، يمكن أن يكون كلمة أو جزء من كلمة، أزل عنه التنغيم أولاً، تلاعب بالنبرة، جرّب مد الحروف المتحركة وتقصيرها وتغيرها، ما الذي يشير إليه المقطع حينئذ بالإنجليزية؟ وبالفرنسية؟ ماذا لو تركته وتلاعبت بالبدايات والنهايات؟ ستجد عدداً هائلاً من التركيبات المحتملة، الآلاف منها، لكنه ليس عدداً لانهائياً، يمكن لحاسوب أن يتوصل إلى الحل، كذا يستطيع عقل بشري خلال عام أو اثنين.

الموتى يواريهنم التراب.

ماذا؟ جلست منتصبه ومصدومة، هبطت تلك الكلمات على فجأة، إنها تقرر صدرى على نحو مؤلم، كان ذلك سخيلاً، غير ممكن! مددت يدي مرتجفة إلى حافة حوض الاستحمام حيث تركت ورقتي، وجذبتها بالقرب مني، فحصتها بقلق، ملاحظاتي، رموزي، وعلاماتي، وخطوطي المتمايلة ونقاطي، كلها راحت، كانت مستقرة على بركة من المياها وغرقت.

حاولت مجددًا تذكر الأصوات التي وردت إلى تحت المياه، لكنها
مُحييت من ذاكرتي، كل ما أمكنني تذكره كان وجهها العازم المشحون،
وتسلسل النوتات الخمس التي كانت تغنيها وهي تبتعد.

الموتى يواريهنم التراب، كلمات وصلت بصيغتها الكاملة إلى عقلي،
دون ترك أى أثر وراءها، من أين أتت؟ أية حيل كان عقلي يمارسها
ليتوصل إلى هذه الكلمات من لا شيء؟

لم أعتقد حقًا أن هذا هو ما قالت لي، صحيح؟

قلت لنفسي هيا، كوني عقلانية.

مددت يدي إلى الصابونة، وقررت أن أخرج خيالات ما تحت المياه
خارج عقلي.

شعر

لم أنظر إلى الساعة قط في منزل السيدة "وينتر"، فالكلمات كانت الثواني، والدقائق كانت سطور النصوص بالقلم الرصاص، إحدى عشرة كلمة في السطر، ثلاثة وعشرون سطرًا في الصفحة، هذا هو نظام قياس الزمن الجديد الخاص بي، وعلى فترات زمنية منتظمة كنت أتوقف لأدير مقبض مبرة الأقلام، وأشاهد لفافات الخشب ذات الطرف الرصاصي تتدلى في طريقها إلى سلة المخلفات الورقية، تلك التوقفات هي حدود "الساعات" في نظامي.

كنت مشغولة البال للغاية بالقصة التي أسمعها وأكتبها، لدرجة أنني لم تكن لدى رغبة في أي شيء آخر، حياتي نفسها - بكل ما كانت عليه - تقلصت إلى لا شيء، أفكار النهار وأحلام الليل باتت مسكونة بشخصيات ليست من عالمي، بل من عالم السيدة "وينتر"، "هيستر" و"إيميلين" و"إيزابيل" و"تشارلي" هم من تجولوا في مخيلتي، والمكان الذي تحولت نحوه أفكاري باستمرار هو "آنجلفيلد".

في الواقع، كنت مستعدة إلى حد ما للتنازل عن حياتي، فالغطس العميق في قصة السيدة "وينتر" كان طريقة لإيلاء ظهري إلى حياتي، لكن المرء لا يستطيع ببساطة أن ينهي أمره بهذه الطريقة، فعلى الرغم من استعمائي عن الواقع، لم أستطع الهرب من معلومة أننا في ديسمبر، ففي مؤخر عقلي، وعلى حافة نومي، وفي هوامش الصفحات التي ملأتها كالمسورة بالنصوص، كنت مدركة أن العد التنازلي لأيام ديسمبر قد بدأ، وشعرت بأن الذكرى السنوية تزحف نحوي طوال الوقت.

لم أرَ السيدة "وينتر" في اليوم التالي على ليلة البكاء، فقد بقيت في سريرها، لا ترى إلا "جوديث" والطبيب "كليفتون"، وهذا مريح، فأنا لم أنم جيدًا، لكن في اليوم التالي طلبتني، ذهبت إلى غرفتها الصغيرة البسيطة، ووجدتها على السرير.

بدا أن عينيها قد كبرت في وجهها، لم تضع نقطة من مساحيق التجميل، ربما كانت أدويتها في ذروة فاعليتها، لكن كان بها هدوء ما بدا جديدًا عليها، لم تبتسم لي، لكن حين تطلعت وأنا أدلف، وجدت بعينيها طيبة.

قالت: "لست بحاجة إلى مفكرتك وقلمك، أريدك أن تفعل شيئًا آخر لي اليوم".

"ماذا؟"

دخلت "جوديث"، مدت ملاءة على الأرض، ثم جلبت كرسي السيدة "وينتر" من الغرفة المجاورة ورفعتها إليه، وفي وسط الملاءة وضعت الكرسي، وضبطت زاويته بحيث تتمكن السيدة "وينتر" من النظر عبر النافذة، ثم وضعت منشفة حول كتفيها، ونشرت شعرها البرتقالي عليها.

قبل أن تغادر ناولتني مقصًا وقالت بابتسامة: "خطأ موفقًا".

سألت السيدة "وينتر": "لكن ماذا يفترض بي أن أفعل؟"

"بالتأكيد ستقصين شعري".

"أقص شعرك؟"

"نعم، لا تقفى هكذا، ما من مشكلة في ذلك".

"لكنني لا أعرف كيف".

"فقط خذي الملقص وقصيه"، وتنهدت، "لا يهمنى كيف ستفعلين ذلك، لا يهمنى كيف سيبدو، فقط تخلصي منه".

"لكن أنا..."

"من فضلك".

وقفت خلفها على مضض، بعد يومين في السرير، كان شعرها عبارة عن كتلة متشابكة من الخيوط البرتقالية الرقيقة، كان جاف الملمس، جافاً للغاية لدرجة أنني توقعت أن أسمع له حفيفاً، وتخلله عقد صغيرة قوية.

"الأفضل أن أمشطه أولاً".

كانت العقد كثيرة، ومع أنها لم تنطق بكلمة عتاب، شعرت بإجفائها مع كل ممسيدة بالفرشاة، وضعت الفرشة جانباً، فالأفضل أن أقص العقد ببساطة.

قصت أول قصة على سبيل التجربة، بضع سنتيمترات من النهايات، عند منتصف ظهرها، قطع الملقص شعرها بلا زوائد، وسقطت القصاصات على الملاءة.

قالت السيدة "وينتر" برقة: "أقصر من هذا".

لمست كتفها: "هنا؟"

"أقصر".

أخذت خصلة من شعرها وقصصتها متوترة، وانزلقت حية برتقالية إلى قدمي، وبدأت السيدة "وينتر" الحديث.

أذكر أن بعد الجنازة ببضع أيام كنت في غرفة "هيوست" القديمة، لا لسبب محدد، كنت أقف هناك فقط قبالة النافذة، أهدق إلى الفراغ، وجدت أصابعي نتوءًا صغيرًا في الستائر، مزق كانت قد أصلحته، إن "هيوست" بارعة جدًا في استخدام إبر الحياكة، لكنني وجدت طرف خيط طليق عند النهاية، وعلى نحو كسول، وليس شارد، بدأت أعبت بها، لم أنو شدة، حقًا لم تكن لدى أية نية لذلك.. لكن فجأة، أصبح حارًا بين أصابعي، الخيط بطوله كله متعرج بتأثير غرز الخياطة، والثقب في الستارة ينفتح، الآن ستبدأ في التفسخ.

لم يحب "جون" قط وجود "هيوست" في المنزل، كان ممتنًا لرحيلها، لكن الحقيقة استمرت: لو كانت موجودة، ما كان "جون" ليصعد إلى السطح، لو كانت موجودة، ما كان أحد ليعبث بمفتاح الأمان، لو كانت موجودة، لطلعت شمس هذا اليوم مثل أي يوم آخر، ومثل أي يوم آخر كان "جون" ليهتم بعمله في الحديقة، وحين يسلط جناح المكتبة ظله على الحصى، ما كان السلم ليكون هناك، ولا درجاته، ولا "جون" الممدد على الأرض يحتضنه الظل، كان اليوم ليأتي ويمر مثل أي يوم وفي نهايته كان "جون" سيخلد إلى النوم بسلام، من دون حتى أن يحلم بالسقوط في الهواء.

لو كانت "هيوست" موجودة.

أحسست بأن ذلك الثقب في الستارة لا يُحتمل نهائيًا.

كنت أقصص شعر السيدة "وينتر" طوال الوقت وهي تتحدث،
وحين بلغت شحمة أذنها، توقفت.

رفعت يدها إلى رأسها لتستشعر طوله.

قالت: "أقصر".

التقطت المqvص مجدداً وباشرت مهمتي.

ظل الفتى يأتي كل يوم، حفر وأزال العشب الضار وزرع ورش
السماذ، افترضت أنه ظل يأتي بسبب المال المستحق له، لكن حين
أعطاني المحامي بعض النقود - "لتسيّر أأمورك حتى يعود خالك"-
ودفعت للفتى، ظل يأتي، راقبته من نوافذ الطابق العلوى، في أكثر من
مرة نظر إلى الأعلى باتجاهى وسارعت أنا بالابتعاد، لكن في إحدى
المرات رآنى، وحينئذ لوح لى، ولم أرد التحية.

في كل صباح كان يجلب الخضراوات إلى باب المطبخ، أحياناً مع
أرنب مسلوخ أو دجاجة منتوفة الريش، وفي كل مساء يأتي لجمع
قشور الخضراوات من أجل السماذ، كان يتسكع في المدخل، والآن
بعدها دفعت له، أراه في غالب الأحيان بسيجارة بين شفتيه.

أنهيت سجائر "جون"، وقد أزعجنى أن الفتى يمكنه أن يدخن وأنا
لا، لم أنبس بكلمة عن الأمر، لكن في أحد الأيام، وكتفه مستند إلى إطار
الباب، ملحنى أنظر إلى علبة السجائر في جيب صدره.

قال: "سأعطيك واحدة مقابل كوب شاي".

دخل إلى المطبخ -كانت تلك أول مرة يدخل منذ موت "جون"-
وجلس على كرسى "جون"، وأسند كوعيه إلى المائدة، وجلست أنا في
الكرسى بالزاوية، حيث اعتادت السيدة أن تجلس، شربنا الشاي في

صمت، ونفثنا دخان السجائر الذى تصاعد نحو السقف الداكن فى صورة سحب وحلزونات بطيئة، حين التقطنا آخر نفسين وسحقنا العقبين فى صحنينا، قام من دون كلمة، ومشى إلى خارج المطبخ وعاد إلى عمله، لكن فى اليوم التالى، حين طرق الباب ومعه الخضراوات، دخل مباشرة، جلس على كرسى "جون"، ورمى إلى سيجارة قبل حتى أن أشغل المغلاة.

لم نتحدث قط، لكن كانت لنا عاداتنا.

"إيميلين"، التى لم تصحُ قبل موعد الغداء قط، أحيانًا تقضى فترات العصر فى الخارج تتابع الفتى وهو يعمل، وقد وبختها لهذا: "أنت ابنة هذا المنزل، وهو بستانى، بحق الرب يا (إيميلين)!" لكن لم يحدث ذلك أى تغيير، فهى ستبتسم ابتسامتها البطيئة لأى شخص يبدى لها اهتمامًا، تابعتهما من كثب، مدركة ما قالته السيدة لى عن الرجال الذين لا يستطيعون رؤية "إيزابيل" دون أن يرغبوا فى لمسها، لكن الفتى لم يبدِ أى مؤشر على أنه يريد لمس "إيميلين"، لكن مع ذلك فقد تحدث معها بلطف، وأحب أن يضحكها، لكننى لم أشعر بالارتياح تجاه الأمر.

أحيانًا أشاهدهما معًا من نافذة الطابق العلوى، وفى يوم مشمس، رأيتها مسترخية على العشب، ورأسها على يدها وتستند إلى كوعها، أظهرت وضعيتها الارتفاع الذى بين خصرها وفخذيها، أدار رأسه ليرد على شئ قالته، وبينما هو ينظر إليها، تدرجت لتصبح مستلقية على ظهرها، ورفعت يديًا ونحت خصلة ضالة من شعرها عن جبينها، كانت حركة حاملة وشبهة جعلتنى أعتقد أنها لن تمنع إن لمسها.

لكن حين أنهى الفتى ما كان يقوله، أولى لها ظهره كأنها لم يرَ وتابع عمله.

فى الصباح التالى كنا ندخن فى المطبخ، وكسرتُ صمتنا المعتاد.

قلت له: "لا تلمس (إيميلين)".

بدا متفاجئًا: "لم ألمس (إيميلين)".

"جيد، فلا تفعل إذن".

اعتقدتُ أن الأمر انتهى عند ذلك، سحب كلانا نفسًا آخر من سيجارتينا واستعددت للتراجع مجددًا إلى صمتي، لكن بعد الزفير، تكلم مجددًا: "لا أريد أن ألمس (إيميلين)".

سمعت، سمعت ما قاله، ذلك التنغيم القليل الغريب، لقد سمعت ما قصده.

سحبت نفسًا من سيجارتي ولم أنظر إليه، زفرت ببطء، لم أتطلع قط.

قال: "إنها الطف منك".

لم أكن قد أنهيت حتى نصف سيجارتي، لكنني سحقتها، انطلقت نحو باب المطبخ وفتحته على آخره.

وقف أمامي لوهلة في المدخل، وقفت جامدة، أحرق أمامي مباشرة إلى أزرار قميصه.

صعدت وهبطت تفاحة آدم خاصته وهو يزدرد، صدرت منه عمغمة: "كوني لطيفة يا (آديلاين)".

رفعت عيني بنية أن أصب عليه جام غضبي والغضب يكتويني، لكن اللطافة البادية على وجهه حركتني، وللحظة كنت.. مرتبكة.

وقد استغل الفرصة، رفع يده، وكان على وشك مداعبة خدي.

لكنني كنت أسرع، رفعت قبضتي وضربت يده بعيدًا.

لم أودّه، لم أكن لأودّيه، لكنه بدا حائرًا، خائب الظن.

ثم رحل.

بدا المطبخ فارغًا بعد ذلك، السيدة رحلت، و"جون" رحل، والآن حتى الفتى رحل.

لقد قال: "أساعدك"، لكن هذا كان مستحيلًا، كيف يمكن لفتى مثله مساعدتي؟ كيف يمكن لأي أحد مساعدتي؟

كانت الملاءة مغطاة بالشعر البرتقالي، أخطو على الشعر والشعر يلتصق بحذائي، كل الصبغة القديمة قُصت، والخصل المتفرقة المتعلقة بجمجمة السيدة "وينتر" بيضاء ناصعة.

أبعدت المنشفة، ونفخت قصاصات شعرها التائهة عن مؤخر عنقها.

قالت: "أعطني المرأة".

ناولتها، بدت بشعرها المقصوص مثل طفلة شيباء.

حملت إلى المرأة، والتقت عيناها ببعضها، بدت مجردة وكئيبة، ونظرت إلى نفسها مطولاً، ثم وضعت الجانب الزجاجي من المرأة على الطاولة.

"هذا هو ما أردته تحديداً، شكراً لك يا (مارجريت)".

تركها، وحين عدت إلى غرفتي فكرت بشأن الفتى، فكرت بشأنه و"آديلاين"، وفكرت بشأنه و"إيميلين"، ثم فكرت بشأن "أوريليوس"، الذي عُثر عليه رضيعاً، يرتدى ملابس قديمة الطراز وملفوف داخل حقيبة، معه ملعقة من "أنجلفيلد" وصفحة من "جين أير"، فكرت بشأن الأمر مطولاً، لكن رغم كل تفكيري، لم أتوصل إلى شيء.

لكن شيئاً ما حدث لى، فى واحدة من انحرافات العقل غير المفهومة، تذكرت ما قاله "أوريليوس" فى آخر زيارة لى إلى "آنجلفيلد": "أتمنى لو يوجد أحد يستطيع فقط أن يخبرنى الحقيقة"، ووجدت صدى لمقولته: "أخبرنى الحقيقة"، إنه الفتى ذو البذلة البنية، هذا يفسر أن بانبرى هيرالد ليس لديها أى سجل للمقابلة التى سافر مراسلهم الشاب إلى يوركشاير من أجلها، لم يكن مراسلاً قط، بل كان "أوريليوس" منذ البداية.

مطر وكعكة

استيقظت في اليوم التالي على نداء: إنه اليوم، اليوم، اليوم، كأنه قرع جرس لا يسمعه أحد غيري، بدا أن الشفق قد اخترق روحي، شعرت بإرهاق غير عادي، إنه يوم ميلادي، إنه يوم مماتي.

جلبت "جوديث" بطاقة من والدي مع صينية الإفطار، كعادته أرسل صورة زهور وتحيات مصاغة على نحو غامض وملاحظة، تمنى أن أكون بخير، وهو بخير، ولديه بعض الكتب لي، أيجب أن يرسلها؟ لم توقع والدتي البطاقة، وقعها هو بالنيابة عنها، بكل الحب من بابا ووالدتك، كان ذلك خطأ تمامًا، أدركت ذلك وأدرك هو ذلك، لكن ما الذي يمكن فعله؟

جاءت "جوديث": "تسأل السيدة (وينتر) إن كان هذا وقت...؟"

دفعتم البطاقة تحت وسادتي قبل أن تراها: "الآن وقت مناسب"، والتقطت قلمي وأوراقي.

أرادت السيدة "وينتر" أن تعرف: "هل تنامين جيدًا؟" ثم قال: "تبددين شاحبة، أنت لا تأكلين كفاية".

طمأنتها: "أنا بخير"، مع أنني لم أكن بخير.

طوال الصباح كنت أصارع الشعور بأطياف ضالة من عالم تتسلل عبر شقوق عالم آخر، أتعرف ذلك الشعور حين تبدأ قراءة كتاب جديد قبل أن تحظى بالوقت الكافي لتجاوز الكتاب الأخير؟ تترك الكتاب السابق بأفكار وموضوعات -وربما حتى شخصيات- عالقة في ثنايا ملابسك، وحين تفتح الكتاب الجديد تجدهم معك، كان الأمر شبيهًا بذلك، طوال اليوم كنت فريسة للإلهاء، أفكار، وذكريات، ومشاعر، وأجزاء غير مهمة من حياتي، كلها تعيث فسادًا في ساحة تركيزي.

كانت السيدة "وينتر" تخبرني شيئًا حين قاطعت نفسها: "هل تستمعين إليّ يا أنسة (ليا)؟"

انسحبت سريعًا من ساحة خيالي، وتلعثمت بحثًا عن إجابة، هل كنت أستمع؟ ليست لدى فكرة، في تلك اللحظة لم أستطع أن أخبرها بما كانت تقوله، مع أنني واثقة من أن كل كلامها مسجل في مكان ما برأسي، لكن في تلك اللحظة جعلتني أنسحب سريعًا إلى خارج نفسي، كنت في أرض ما محايدة، مكان بين مكانين، يمارس العقل كل أنواع الحيل، يفكر في كل ما يخطر على البال في حين نحن أنفسنا نغفو في منطقة محايدة، تبدو للجميع كأنها لامبالاة، حملقت إليها لدقيقة بلا قدرة على التعبير، وهى تزداد انزعاجًا، ثم لجأت سريعًا إلى أول جملة متماسكة قدمت نفسها إلي.

"هل أنجبت طفلًا من قبل يا سيدة (وينتر)؟"

"يا إلهي، يا لهذا السؤال، بالتأكيد لا، هل جنت يا فتاة؟"

"ماذا عن (إيميلين) إذًا؟"

"أبيننا اتفاق أم لا؟ لا أسئلة؟" ثم تغير تعبير وجهها، مالت إلى الأمام مدققة بوجهي من قرب: "هل أنت مريضة؟"
"لا أعتقد ذلك".

"حسنًا، يبدو واضحًا أنك لست في حالة تسمح بالعمل".

كان ذلك أمرًا بالانصراف.

بعد عودتي إلى غرفتي قضيت ساعة من الملل، مضطربة، مبتلاة بنفسى، جلست عند مكتبى، قلمى فى يدى، لكننى لم أكتب، شعرت بالبرد ورفعت درجة حرارة المبرد، ثم شعرت بالحر الشديد، فخلعت سترتى، كنت لأود أن أتحمم، لكن لم تكن هناك مياه ساخنة، أعددت الكاكاو وأضفت إليها سكرًا زائدًا، ثم أصابتنى حلاوته بالغثيان، هل أقرأ كتابًا؟ أيساعدنى ذلك؟ فى المكتبة تصطف على الرفوف كلمات ميتة، لا شىء هناك قد يساعدنى.

حدث اندفاع من قطرات المطر، انتشرت على زجاج النافذة، وقفز قلبى من مكانه، الخروج، نعم، هذا هو ما أحتاج إليه، وليس فقط الحديقة، احتجت إلى أن أذهب بعيدًا، فى الحال، نحو الأراضى البور.

أعرف أن البوابة الرئيسة تكون مقفلة، ولم تكن لدى أية رغبة فى أن أطلب من "موريس" أن يفتحها لى، بدلاً من ذلك، اتجهت عبر الحديقة إلى أبعد نقطة من المنزل، حيث يوجد باب فى الجدار، لم يُفتح الباب الذى يكسوه نبات اللبلاب منذ فترة طويلة، واضطرت إلى إبعاد أوراق الشجر بيدي قبل أن أتمكن من فتح المزلج، وحين تأرجح الباب نحوى، وجدت المزيد من اللبلاب الذى تجب إزاحته قبل أن أتمكن من أن أخطو خارج المنزل، وأنا شعثناء قليلًا.

اعتدت الظن أننى أحب المطر، لكننى فى الواقع بالكاد عرفتة، المطر الذى أحببته هو مطر البلدة الرقيق، الذى تخففه كل العقبات التى وضعتها أطراف الأبنية فى طريقه، وتدفعه الحرارة الصادرة من البلدة نفسها، لكن فى الأراضى البور، كان المطر شديداً، يكدره البرد، وتزيد الرياح حدة، إبر من الثلج لسعت وجهى وظهرى، وأوعية من المياه المتجمدة اندفعت على كتفى.

عيد ميلاد سعيد.

لو كنت فى المتجر، لكان والدى ليخرج هدية من تحت المكتب وأنا أهبط السلم، قد تكون كتاباً أو كتباً، اشتراها من مزاد ووضعها جانباً خلال العام، ودفتر وعطر وصورة، كان ليغلفها فى المتجر عند المكتب، فى عصر يوم هادئ وأنا فى مكتب البريد أو المكتبة، كان ليذهب فى وقت غداء يوم ما وحده ليختار البطاقة، وكان ليكتب عليها "بكل الحب من بابا ووالدتك" على المكتب، وحده، وحده تماماً، كان ليذهب إلى المخبز من أجل الكعكة، وفى مكان ما بالمتجر -لم أعرف قط أين، وهذا واحد من الأسرار القليلة التى لم أعرفها- أبقى شمعة، تخرج فى ذلك اليوم من كل عام، وتُشعل، لأطفئها أنا، بأقصى ما يمكننى جمعه من تعبيرات السعادة، ثم نأكل الكعكة مع الشاي ونجلس من أجل هضم هادئ وبعض الفهرسة.

عرفت الأمر من وجهة نظره، الأمر أسهل الآن وأنا بالغة بالمقارنة مع حين كنت طفلة، فكم كانت أعياد الميلاد أصعب فى المنزل، الهدايا تُخبأ ليلاً فى الظلام، ليس منى، بل من والدتى التى لا تحتمل رؤيتها، سبب الصداق الحتمى هو حراستها الصارمة لطقوس الذكرى السنوية، ما يجعل من المستحيل دعوة أطفال آخرين إلى المنزل، أو تركها بالمنزل من أجل متعة زيارة حديقة الحيوان أو الحديقة، كانت ألعاب عيد الميلاد خاصتى دائماً هادئة، الكعكات لم تكن قط منزلية

الصنع، والبقايا يجب تجريدتها من الشموع وطبقة زينتها العلوية قبل أن توضع في الصفيحة من أجل اليوم التالي.

عيد ميلاد سعيد؟ همس والدى تلك الكلمات في أذني مباشرة بسعادة بالغة، عيد ميلاد سعيد، لعبنا ألعاب بطاقات صامتة، الفائز تكسو وجهه تعبيرات المرح والخاسر يكشر وينهار، ولا شيء من هذا يُسمع في الغرفة التي أعلننا، لا صوت صفارة، ولا صوت نحنة، وبين الألعاب، كان والدى المسكين يصعد ويهبط، بين الأم الصامتة في غرفة النوم وعيد الميلاد السري بالأسفل، يغير تعبيرات وجهه على السلم من البهجة إلى التعاطف، ومن التعاطف رجوعًا إلى البهجة.

عيد ميلاد غير سعيد، منذ يوم وُلدت والحزن دائمًا حاضر، استقر مثل الغبار في المنزل، غطى الكل وكل شيء، غزا أجسادنا في كل نفس نتنفسه، غلف كل شخص بمآسيه.

تحملت التفكير في هذه الذكريات فقط لأنني كنت أشعر بالبرد للغاية.

لم لم تستطع أن تحبني؟ ألم تعني حياقي لها أقل مما يعنيه موت أختي؟ هل لامتنى؟ ربما كانت محقة، أنا على قيد الحياة الآن لأن أختي ماتت، وكلما رأتني تذكرت خسارتها.

أكان الأمر ليكون أسهل عليها لو ماتت كلتانا؟

مشيت كأنني مخدرة، قدم أمام الأخرى، مرارًا وتكرارًا، منومة مغناطيسيًا، بلا أدنى اهتمام بوجهتي، لا أنظر إلى شيء، لا أرى شيئًا، فتعثرت.

ثم اصطدمت بشيء ما.

"(مارجريت)!(مارجريت)!"

كنت أشعر بالبرد إلى درجة تمنع أيّة استجابة مني، إلى درجة تمنع وجهي من التفاعل مع الهيئة العملاقة التي وقفت أمامي، مغلفًا في كساء شبيه بالخيم من القماش الواقى من المطر، تحركت الهيئة وهبطت يدان على كتفي وهزتا.

"(مارجريت)!"

إنه "أوريليوس".

"انظري إليك! أنت مزرقّة من البرد! بسرعة، تعالي معي"، أخذ ذراعي وقادني بخفة، تعثرت قدماي بالأرض خلفه حتى وصلنا إلى طريق وسيارة، حملني إلى الداخل، سمعت الأبواب تُصَفَق، وصوت تشغيل المحرك، ثم تيار دافئ عند كاحلي وركبتي، فتح "أوريليوس" فئينة حافظة للحرارة وصب كوبًا من الشاي البرتقالي.

"اشربي!"

شربت، كان الشاي ساخنًا وحلوًا.

"كلي!"

قضمت الشطيرة التي قدمها.

في دفء السيارة، وأنا أشرب الشاي الساخن وأكل شطائر الدجاج، شعرت ببرودة لم أشعر بها من قبل، بدأت أسناني تصطك، وارتجفت بلا توقف.

"يا إلهي!" تعجب "أوريليوس" بهدوء وهو يمرر لي شطيرة لذيذة تلو الأخرى: "رباه!"

بدا أن الطعام يعيدني إلى رشدي قليلاً: "ماذا تفعل هنا يا (أوريليوس)؟"

"جئت لأعطيك هذا"، ومد يده إلى الخلف ورفع علبة صفيح بها كعكة من الفراغ الذى بين المقاعد.

وضع العلبة على حجرى، وابتسم إلى بسعادة غامرة وهو يرفع الغطاء.

رأيت بالداخل كعكة، كعكة منزلية الصنع وعليها كلمات بحروف زينة متعرجة: "عيد ميلاد سعيد يا (مارجريت)".

منعنى الشعور بالبرد من البكاء، بدلاً من ذلك، جعلنى خليط البرد والكعكة أتحدث، خرجت الكلمات منى على نحو عشوائى، مثل أشياء تلفظها الأنهار الجليدية وهى تذوب، غناء ليلى، حديقة لها أعين، أخوات، طفل رضيع، ملعقة، "إنها حتى تعرف المنزل"، هكذا ثرثرت فى حين جفف "أوريليوس" شعرى بمناديل ورقية، "منزلك ومنزل السيدة (لاف)، لقد نظرت عبر النافذة وظننت أن السيدة (لاف) شبيهة بجدة من الحكايات الخيالية.. ألا ترى ما يعنيه ذلك؟"

هز "أوريليوس" رأسه: "لكنها قالت لى..."

"لقد كذبت عليك يا (أوريليوس)! حين جئت لرؤيتها ببذلتك البنية، لقد كذبت، لقد اعترفت بذلك".

صاح "أوريليوس": "يا إلهى!"

"كيف عرفت بشأن بذلتى البنية؟ اضطررت للادعاء أننى صحفى"، لكن عندئذ، بعدما بدأ يستوعب ما قلته: "أقلتى ملعقة مثل ملعقتى؟ وهى عرفت المنزل؟"

"إنها خالتك يا (أوريليوس)، و(إيميلين) هى والدتك".

توقف "أوريليوس" عن تمسيد شعرى، وللحظة طويلة حملق عبر نافذة السيارة فى اتجاه المنزل، غمغم: "والدتى، هناك".
أومات.

ساد صمت آخر، ثم التفت إلى: "خذيني إليها يا (مارجريت)".

بدا أننى استيقظ: "المشكلة يا (أوريليوس) أنها ليست على ما يرام".

"مريضة؟ إذًا يجب أن تأخذيني إليها، بلا تأخير!"

"ليست مريضة تحديدًا"، كيف أشرح له ذلك؟ "لقد أصيبت في الحريق يا (أوريليوس)، ليس في وجهها فقط، بل في عقلها".

استوعب تلك المعلومة الجديدة، وأضافها إلى مستودع الخسارة والألم خاصته، وحين تكلم مجددًا، تكلم بثبات مقصد حاسم: "خذيني إليها".

أكان المرض هو ما أملى على ردى؟ أكانت حقيقة أنه عيد ميلادى؟ أكان فقدانى لأمى؟ ربما أثرت هذه العوامل، لكن الأهم منها كلها كان وجه "أوريليوس" وهو ينتظر ردى، هناك مئة سبب وواحد لأرفض طلبه، لكن فى مواجهة ضراوة احتياجه، تلاشت الأسباب كلها. قلت حسنًا.

لم الشمل

نجح الاستحمام إلى حد ما في تدفئتي، لكنه أخفق في تلطيف الألم وراء عيني، تخليت عن كل أفكار العمل لبقية عصر اليوم وتسليت إلى السرير، وجذبت كل الأغذية الإضافية حتى تجاوزت أذني، تحتها كنت لا أزال أرتجف، ورأيت رؤى غريبة في نوم خفيف، رؤى حمل الكل فيها وجه شخص آخر، "هيوستن" ووالدي والتوأمان ووالدي، الكل متنكر في هيئة شخص آخر، وحتى وجهي نفسه كان مزعجاً لي، وتحول وتغير، أحياناً أكون نفسي، وأحياناً أكون شخصاً آخر، ثم ظهر رأس "أوريليوس" اللامع في حلمي: كان هو نفسه دائماً، هو فقط، وابتسم وابتعدت الأشباح، ثم أطبق على الظلام مثل المياه، وغرقت في أعماق النوم.

استيقظت بصداع، ووجع في أطرافي ومفاصلي وظهرى، أثقلني إرهاق لا علاقة له بالمجهود ولا نقص النوم وأبطأ تفكيري، ازداد الظلام حلكة، هل نمت حتى موعدي مع "أوريليوس"؟ وبختني تلك الفكرة لكن عن بُعد فقط، ومرت دقائق طويلة قبل أن أمكن من النهوض

لتفقد ساعتى، تشكل بداخلى خلال نومى شعور غامض -أهو ارتياب؟ أم حنين؟ أم حماس؟- وأثار بدوره شعورًا بالانتظار، الماضى يعود! أختى قريبة، لم يكن من شك فى ذلك، لم أستطع رؤيتها، ولا شهما، لكن أذنى الداخلية، المتناغمة دائمًا معها، ومعها فقط، التقطت موجاتها، وقد ملأنى ذلك بهجة مخدرة ومعتمة.

لا حاجة إلى تأجيل موعد "أوريليوس"، وأختى ستجدنى أينما كنت، أليست توأمتى؟ فى الواقع كان أمامى نصف ساعة قبل موعد لقائه عند باب الحديقة، جررت نفسى متثاقلة من السرير، وارتديت تنورة ثقيلة وسترة فوقها حين شعرت بالبرد والإرهاق لدرجة منعتنى من خلع بيجامتى قبل ارتداء ملابس الخروج، هبطت إلى المطبخ مثقلة ومحزمة بملابسى مثل طفل فى ليلة العيد، تركت "جوديث" لى وجبة باردة لكنى لم أشعر بأيّة شهية وتركت الطعام مثلما وجدته، لمدة عشر دقائق جلست إلى مائدة المطبخ، مشتاقّة إلى إغلاق عيني ولا أجرؤ على ذلك، إذ قد أستسلم للخدر الذى يدعو رأسى إلى تحية سطح المائدة الصلب.

تبقت خمس دقائق، ففتحت باب المطبخ وتسللت إلى الحديقة.

لا يصدر أى ضوء من المنزل، ولا من النجوم، تعثرت بالظلام، وأخبرتني التربة اللينة تحت قدمى وأجمة أوراق الأشجار وأفرعها حين انحرفت عن المسار، وفجأة خربش فرع شجرة وجهى وأغلقت عيني لحمايتهما، شعرت داخل رأسى باهتزازة نصفها ألم ونصفها الآخر بهجة، فهمت كل شيء، إنها أغنيتها، أختى قادمة.

وصلت إلى نقطة الالتقاء، شعرت بأن الظلام يتحرك، لكنها كانت حركته هو، ضربته يدي على نحو أخرق، ثم شعرت بأنها مشبوبة.

"أأنت بخير؟"

سمعت السؤال عن بُعد.

الكلمات موجودة، لكن الغريب أنها بلا معنى.

كنت لأود أن أخبره عن الذبذبات الرائعة التي أشعر بها، أن أخبره أن أختي قادمة، وأنها ستصل في أيّة لحظة الآن، عرفت ذلك، عرفته من الحرارة المنبعثة من أثرها على جانبي، لكن صوتها النقي حال بيني وبين كلماتي وجعلني صماء.

ترك "أوريليوس" رأسي لينزع القفاز، وشعرت بكفه البارد على نحو غريب في الليل الحار على جبهتي، علق: "يجب أن تبقى في السرير".

جذبت كم "أوريليوس" جذبة ضعيفة لكنها كافية، وتبعني عبر الحديقة بسلاسة كأنه تمثال على عجالات.

لا أتذكر كيف وصلت مفاتيح "جوديث" إلى يدي، لا بد أنني أخذتها، لا بد أننا مشينا عبر الممرات الطويلة إلى سكن "إميلين"، لكن هذا أيضًا مُحى من ذاكرتي، أتذكر الباب، لكن الصورة التي ترد إلى بالي هي أنه انفتح متأرجحًا حين وصلنا إليه، ببطء ومن تلقاء ذاته، وهو ما أعرف أنه مستحيل، لا بد أنني فتحت قفله، لكن تلك القصاصة من الحقيقة ضاعت، وبقيت صورة الباب مفتوحًا.

ذاكرتي عما حدث في سكن "إميلين" تلك الليلة مفتتة، انهارت مسارات زمنية كاملة على نفسها، في حين أن ذاكرتي بدا فيها أن أحداثًا أخرى قد حدثت مرارًا وتكرارًا بتتالي سريع، تلوح وجوه وتعبيرات كبيرة على نحو مخيف، ثم تظهر "إميلين" و"أوريليوس" كالدمى المتحركة بعيدًا، أما أنا فكانت مأخوذة، وناعسة وأشعر بالبرد، ومشتتة طوال المقابلة بشغلي الشاغل: أختي.

بإعمال العقل والمنطق، حاولت أن أوجد ترتيبًا ذا معنى للصور التي سجلها عقلي على نحو غير مكتمل وبطريقة عشوائية، مثل أحداث حلم.

دخلت وأوريليوس سكن "إيميلين"، خطواتنا بلا صوت على السجاد الثقيل، تقدمنا عبر مدخل تلو الآخر، وجدناها جسدًا له شعر أبيض يقف في المدخل وظهرها إلينا، كانت تدندن، لا لا لا لا لا، ذلك اللحن المكسور دون بداية ولا نهاية الذي طاردني منذ جئت إلى المنزل، شق طريقه إلى داخل رأسي كأنه دودة، حيث تنافس مع ذبذبات أختى ذات النبرة المرتفعة، وبجانبى انتظر "أوريليوس" لأقدم كلينا إلى "إيميلين"، لكننى عجزت عن الكلام، تقلص الكون في رأسي إلى زغرودة لا تُحتمل، وامتد الوقت ليكون ثانية واحدة أبدية، وأحسست بالصمم، رفعت يدي إلى أذني، يائسة من تخفيف هذا النشاز، كان "أوريليوس" هو من تكلم حين رأى ما فعلته: "مارجريت!"

استدارت "إيميلين" حين سمعت صوتًا لا تعرفه وراءها.

بدا الشعور بالألم في عينيها الخضراوين أمام تلك المفاجأة، انفتح فمها منعدم الشفتين ليشكل حرف "أو" منحرفًا، لكن الدندنة لا تتوقف، فقط تنحرف وتتمايل لتصبح صرخة حادة، مثل سكين في رأسي.

يتحول "أوريليوس" مصدومًا نحو "إيميلين"، مذهولًا أمام الوجه المكسور للمرأة التي هى أمه، يشق الصوت الصادر من بين شفتيها الهواء كأنه مقص.

لوهلة كنت بلا بصر ولا سمع، وحين ارتد إلى بصرى، رأيت "إيميلين" جاثمة على الأرض، يتحول ركوعها إلى تشنج، ويركع "أوريليوس" فوقها، يداها تخربشه، ولا أعرف إن كانت تقصد التشبث بها أم صده، لكنه يأخذ يدها بيده، ويمسكها.

يدها بيده، ودمها بدمه.

إنه وحدة متراسة من الحزن.

يستمر داخل رأسى عذاب ذلك الصوت النقي المبتهج.

أختى.. أختى...

ينسحب العالم وأجد نفسى وحيدة وسط عذاب الضواء.

أعرف ما حدث لاحقًا، حتى لو كنت لا أتذكره، يترك "أوريليوس" "إميلين" برفق على الأرض إثر سماع خطوات في الردهة، تتعجب "جوديث" حين تدرك أن مفاتيحها ليست معها، في الوقت الذي تستغرقه لتجلب مجموعة مفاتيح ثانية - مجموعة "موريس"، غالبًا - ينطلق "أوريليوس" سريعًا نحو باب الحديقة ويختفى، وحين تدخل "جوديث" الغرفة أخيرًا تحملق إلى "إميلين" على الأرض ثم تتقدم نحوى وهى تصرخ ذعراً.

لكن حينها لم أدرك أيًا من ذلك، فقد احتضننى النور الذى هو أختى، وتملكنى، وحررنى من وعيى.

أخيرًا.

الكل له حكاية

قلق حاد مثل واحدة من نظرات السيدة "وينتر" الخضراء وخزنى حتى استيقظت، ما الاسم الذى نطقته خلال نومي؟ من خلع عنى ملابسى ووضعنى فى سريرى؟ ماذا ظنوا بشأن العلامة التى على جلدى؟ وماذا حدث لـ "أوريليوس"؟ وماذا فعلت بـ "إميلين"؟ وجهها المضطرب هو أكثر ما يعذب ضميرى حين بدأ استفاقة البطيئة من النوم.

حين استيقظت لم أعرف أى يوم أو أية ساعة هذه، "جوديث" موجودة، ترانى أقلب كوبًا وأرفعه إلى شفتى، وأشرب. وقبل أن أتمكن من الكلام، يغلبنى النوم مجددًا.

فى ثانى مرة أستيقظ فيها، كانت السيدة "وينتر" بجانب سريرى ولديها كتاب فى يدها، كان كرسيها منفوخًا بوسائد مخملية، لكن خصلات الشعر الباهت حول وجهها العارى جعلتها تبدو مثل طفلة شقية تسلفت عرش الملكة على سبيل المزاح.

سمعتنى أتحرك، فرفعت رأسها عن الكتاب.

"جاء الطبيب (كليفتون)، كانت حرارتك مرتفعة للغاية".

لم أقل شيئًا.

تابعت: "لم نعرف أنه عيد ميلادك، لم نستطع أن نجد بطاقة معايدة، لا نحظى بالكثير من أعياد الميلاد هنا، لكننا جلبنا لك بعض نبات الدفنة من الحديقة".

رأيت فى المزهريّة أفرع داكنة بلا أوراق، لكن عليها ورود أرجوانية رقيقة بطولها، ملأت الهواء برائحة حلوة مسكرة.

"كيف عرفت أنه عيد ميلادى؟"

"لقد أخبرتنا، فى أثناء نومك، متى ستخبرنى حكايتك يا (مارجريت)؟"

"أنا؟ ليست لى حكاية".

"بالتأكيد لك، الكل له حكاية".

هززت رأسى: "ليس أنا"، وسمعت فى رأسى صدى كلمات رَها قلتها خلال نومى.

وضعت السيدة "وينتر" الشريط على صفحتها وأغلقت الكتاب.

"الكل له حكاية، الأمر مثل العائلات، رَها لا تعرفين عائلتك، رَها تفقدينها، لكنها مع ذلك موجودة، رَها تفرقا، أو تولى لها ظهرك، لكن لا يمكنك قول إن ليس لديك عائلة، ينطبق هذا على الحكايات أيضًا، لذا، الكل له حكاية، متى ستخبرنى حكايتك؟"

"لن أفعل".

أمالَت رأسها إلى جانبه وانتظرتنى أن أتابع كلامى.

"لم أخبر أحدًا قط حكايتي، إن كانت لي حكاية، فها هي، ولا أرى دافعًا لتغييرها الآن".

قالت برقة: "فهمت"، وأومات برأسها كأنها فهمت حقًا، "حسنًا، بالتأكيد هذا شأنك"، أدارت يدها في حجرها وحملت إلى كفها المشوه، "أنت حرة ألا تقولي شيئًا إن كان هذا ما تريدينه، لكن الصمت ليس البيئة الطبيعية للحكايات، إنها بحاجة إلى كلمات، من دونها تصبح القصص شاحبة، ومعرض وموت، ثم تطاردك"، والتفتت عينيها إلى مجددًا: "صدقيني يا (مارجريت)، أنا أعرف".

نمت لفترات ممتدة، وحينما أستيقظ، أجد وجبة للمرضى بجوار سريري أعدتها "جوديث"، أكل لقيمة أو اثنتين فقط، حين جاءت "جوديث" لأخذ الصينية، لم تستطع أن تخفى خيبة أملها بسبب ما أتركه من الطعام، لكنها لا تذكر ذلك قط، لم أكن أشعر بأى ألم -لا صداع، ولا برد، ولا مرض- إلا إن احتسبت الإرهاق وتأنيب الضمير الشديدين الذين أثقلا عقلى وقلبي، ماذا فعلت بـ"إيميلين"؟ و"أوريليوس"؟ تعذبنى ذكرى تلك الليلة خلال ساعات استيقاظي، ويدفعنى الشعور بالذنب إلى النوم.

سألت "جوديث": "كيف حال (إيميلين)؟ أهى بخير؟"

كانت إجاباتها غير مباشرة: لم يجب أن أقلق بشأن السيدة "إيميلين" وأنا نفسى بهذه الحالة السيئة؟ كانت السيدة "إيميلين" على غير ما يرام لفترة طويلة جدًا، والسيدة "إيميلين" تتقدم بالسن، ممانعتها لقول الحقيقة أخبرتنى كل شيء أردت معرفته، "إيميلين" ليست بخير، وهذا خطئى.

أما "أوريليوس"، فلم أستطع فعل شيء له سوى الكتابة، بمجرد أن أصبحت قادرة، طلبت من "جوديث" قلمًا وورقة، واستندت إلى وسادة وصغت رسالة، لم تعجبني النتيجة، فجربت غيرها وغيرها،

لم أواجه قط مثل هذه الصعوبة في استخدام الكلمات، ولما اكتسب غطاء سريري بالنسخ المرفوضة لدرجة أنني يثست من نفسي، اخترت واحدة على نحو عشوائي وصنعت منها نسخة أنيقة:

العزیز أوریلیوس،

هل أنت بخير؟

أسفة للغاية لما حدث، لم أقصد قط إيذاء أحد، كنت مجنونة، أليس كذلك؟

متى يمكنني مقابلتك؟

أما زلنا أصدقاء؟

"مارجريت".

يجدر بهذه أن تكون كافية.

جاء الطبيب "كليفتون" واستمع إلى نبض وسألني الكثير من الأسئلة: "الأرق؟ النوم غير المنتظم؟ الكوابيس؟"

أومأت ثلاث مرات.

"هذا ما ظننته"، أخذ ميزان الحرارة وأمرني أن أضعه تحت لساني، ثم نهض ومد الخطى نحو النافذة، سألني وهو يولي إلى ظهره: "وماذا تقرئين؟"

لم أستطع الرد والميزان في فمي.

"مرتفعات ويذيرنج، هل قرأتها؟"

"ممممم".

"وجين أير؟"

"مممم".

"العقل والعاطفة؟"

"هممم".

التفت ونظر إلى بوجه جاد: "وأفترض أنك قرأت هذه الكتب أكثر من مرة".

أومأت وعبس هو.

"قرأتها وأعدت قراءتها؟ مرات عدة؟"

أومأت مجددًا، وازداد عبوسه.

"منذ الطفولة؟"

أربكتني أسئلته، لكن جدية نظراته أجبرتني على الإيماء مجددًا.

تحت جفنه الداكن، ضاقت عينه لتصبح شقًا عرضيًا، استطعت أن أرى بوضوح كيف أنه ربما يخيف مرضاه إلى درجة التعافي، فقط ليتخلصوا منه.

ثم انحنى بقربي لقراءة الميزان.

يبدو الناس مختلفين عن قرب، الجفن الداكن لا يزال جفناً داكنًا، لكن يمكن تمييز الشعيرات المنفردة وسطه، وكيف أنها متراسة ومتقاربة، وآخر شعيرات الجفن، رقيقة للغاية، شبه خفية، شاردة في اتجاه صدغه، موجهة نحو القوقعة الحلزونية التي تشكل أذنيه، وتوجد ثقبوب دبابيس متراسة ومتقاربة في حبيبات جلدهتخرج منها لحيته، وها هو مجددًا: ذلك الاتساع الدقيق جدًا لدرجة ألا يلاحظ لفتحة الأنف، وذلك الانقباض عند طرف الفم، دائمًا ما اعتبرتها علامات على القسوة، ودليل على أنه يحتقرني، لكن الآن، وأنا أراها

على بعد بضع سنتيمترات، خطر ببالي أن ذلك قد لا يكون رفصاً قط، سألت نفسي أيمكن أن يكون الطبيب "كليفتون" كان يسخر مني سرّاً؟ أخذ ميزان الحرارة من فمى وثنا ذراعيه، وأدلى بتشخيصه: "تعانين من وعكة تصيب الأنسات ذوات المخيلات الرومانسية، الأعراض تشمل الإغماء، والإرهاق، وفقدان الشهية، وتعكر المزاج، وفي حين يمكن إرجاع الأزمة على أحد المستويات إلى التجول تحت الأمطار قارسة البرودة دون ما يكفى من ملابس الوقاية من المطر، فإن السبب الأعمق يرجح أن يكون جزءاً من صدمة عاطفية، ولكن على خلاف بطلات رواياتك المفضلة، لم تضعف صحتك الجسدية بسبب الحرمان من متطلبات الحياة في القرون السابقة الأكثر قسوة، فلا وجود لمرض السل، ولا شلل الأطفال، ولا الأوضاع المعيشية غير الصحية، ستنجين من هذه الوعكة".

نظر إلى عينيّ مباشرة، وكنت غير قادرة على إبعاد نظري حين قال: "لا تأكلين كفاية".

"ليست لدى شهية".

قال بالفرنسية، ورددت عليه بترجمة ما قاله: "الشهية تأتي بتناول الطعام".

"بالضبط، ستعود إليك شهيتك، لكن يجب أن تسعى نحوها، يجب أن تريدى عودتها".

كان هذا دورى أن أعبس.

"العلاج ليس معقداً: كلي، وارتاحي، والتزمي بهذا..." كتب كلمات بسرعة على دفتر، ومزق صفحة ووضعها بجانب الطاولة، "سيختفى التعب والإرهاق خلال أيام قليلة"، مد يده إلى حقيبتة، حيث أخفى

قلمه والورق، ثم، وهو يهم بالمغادرة، تردد: "أود أن أسألك عن تلك الأحلام خاصتك، لكننى أظن أنك لن تودى إخبارى..."
ودعته بلا مشاعر: "لن أخبرك".

ارتسم الإحباط على وجهه: "هكذا ظننت".

حيانى من عند الباب، ورحل.

مددت يدي إلى الروشته، وجدته قد كتب بخط متعجل ونشط:
"كتاب ملف قضايا شيرلوك هولمز للسيد (آرثر كونان دويل)، عشرة صفحات، مرتين يوميًا، حتى نهاية البرنامج العلاجى".

أيام ديسمبر.

اتبعت تعليمات الطبيب "كليفتون" وقضيت يومين في السرير أكل وأنام وأقرأ قصص "شيرلوك هولمز"، أعترف بأننى تجاوزت جرعتى من الدواء متجرعة القصة تلو الأخرى، وقبل نهاية اليوم الثانى، كانت "جوديث" قد ذهبت إلى المكتبة وحصلت على مجلد آخر لـ "كونان دويل"، أصبحت فجأة طيبة تجاهى منذ انهياري، لم تكن حقيقة أنها آسفة من أجلى هى ما غيرتها - مع أنها كانت بالفعل آسفة - بل حقيقة أن وجود "إيميلين" لم يعد الآن سرًا فى المنزل، أصبحت حرة لتترك مشاعرها الطبيعية تحكم محادثاتها معى، بدلاً من الإبقاء على ذلك المظهر المزيف الحذر باستمرار.

سألتنى وهى تتمنى لو يحدث ذلك فى يوم ما: "ألم تقل شيئاً قط بشأن الحكاية الثالثة عشر؟"

"ولا كلمة، أ قالت لك شيئاً؟"

هزت رأسها: "أبدًا، الأمر غريب، أليس كذلك؟ بعد كل ما كتبت، أن تكون القصة الأشهر من بين كل قصصها هي التي لم تُكتب قط، فقط فكري بالأمر: يمكنها على الأرجح أن تنشر كتابًا يضم كل القصص الناقصة، وسيُشترى كأنه كنز"، ثم هزت رأسها لتفرغ بالها، وقالت بنبرة مختلفة: "إذًا فما رأيك بالطبيب (كليفتون)؟"

حين مر الطبيب "كليفتون" بالمنزل ليطمئن على تحسني، هبطت عيناه على المجلدات المجاورة لسريري، لم يقل شيئًا لكن فتحت أنفه انتفضنا.

في اليوم التالي، استيقظت أشعر بالضعف كأني طفلة رضيعة، وغرقت غرفتي في الضوء النقيًا لمنعش وأنا أفتح الستائر، بالخارج امتدت السماء الزرقاء الزاهية بلا غيوم من الأفق إلى الأفق، ولمعت تحتها الحديقة بالثلوج، بدا كأن خلال تلك الأيام الغائمة الطويلة كان الضوء يتراكم وراء السحاب، والآن بعدما زال السحاب لم يعد شيئًا يوقف تدفقه، ينقعا في حصيلة أسبوعين من الضوء في مرة واحدة، شعرت كأن الحياة بدأت تدب ببطء في عروقي وأنا أرمش قبالة هذا الإشراق.

خرجت من المنزل قبل الإفطار، ببطء وبحذر خطوات حول العشب وفي أعقابى "شادو"، كانت الأرض تحتى منتعشة، والشمس متألقة في كل مكان على أوراق الأشجار المثلجة، حمل العشب المكسو بالثلوج آثار نعلى، لكن "شادو" خطا بجانبى مثل شبح رقيق بلا آثار، في البداية شعرت بالهواء البارد الجاف مثل سكين في حلقى، لكن شيئًا فشيئًا أعاد إلى حيويتي، وابتهجت بهذا الانتعاش، ومع ذلك، كانت بضع دقائق كافية، فقد أثرت أن أعود إلى الداخل بعدما تخدر خدائى، وأصبحت أصابعى وردية وتألمت أصابع قدمى، وأثر "شادو" أن يتبعنى، تناولت الإفطار أولاً، ثم انتقلت إلى أريكة المكتبة، والموقف المستعر ومعنى شيء أقرؤه.

أمكننى أن أستشعر مدى تحسنى عبر حقيقة أن أفكرى لم تتحول نحو كنوز مكتبة السيدة "وينتر"، بل إلى قصتها، فقد استعدت كومة أوراقى التى أهملتها منذ يوم انهيارى من الطابق العلوى، وجلبتها معى إلى دفء الموقد حيث قضيت أفضل ساعات النهار أقرأ، و"شادو" إلى جانبى، قرأت وقرأت بلا توقف، مستكشفة القصة بالكامل من البداية، وذكّرت نفسى بكل معضلاتها وألغازها وأسرارها، لكننى لم أكتشف أى جديد، وفى نهايتها كنت متحيرة مثلما كنت قبل أن أبدأ، هل عبث أحد بسلم "جون ذا ديج"؟ لكن من؟ وما ذلك الذى رآته "هيوستن" حين ظنت أنها رأت شيئاً؟ واللغز الأعقد من كل هذا، كيف لـ"آديلاين" تلك الطفلة العنيفة المتشردة، العاجزة عن التواصل مع أى أحد سوى أختها الغبية، والقادرة على إثيان أفعال تدمر حدائق وتفطر قلوباً، أن تكبر لتكون السيدة "وينتر"، المؤلفة المنضبطة ذاتياً، صاحبة عشرات الروايات الأكثر مبيعاً، وصانعة تلك الحديقة البديعة؟

دفعنت كومة أوراقى جانباً، ومسدت "شادو" وحملت إلى الموقد، مشتاقة إلى الارتياح الذى تبعثه قصة جرى التخطيط لكل شيء فيها مسبقاً، حيث حيرة العقدة مصممة فقط لإمتاعى، وحيث يمكننى قياس مدى قربى من الحل عبر تفقد سُمك الصفحات المتبقية، لم تكن لدى فكرة عن عدد الصفحات المتبقية على اكتمال قصة "إيميلين" و"آديلاين"، ولا حتى ما إذا تبقى وقت كاف لإكمالها.

على الرغم من انهماكى فى أوراقى، لم أستطع منع نفسى من التساؤل عن سبب عدم رؤيتى للسيدة "وينتر"، فى كل مرة أسأل عنها، كانت "جوديث" تعطينى الإجابة نفسها: إنها مع السيدة "إيميلين"، حتى المساء، حين جاءت برسالة من السيدة، "وينتر" نفسها: هل أنا بخير كفاية لأقرأ لها قليلاً قبل العشاء؟

حين ذهبت إليها وجدت كتابًا -سر السيدة "أودلي" - على الطاولة بجانب السيدة "وينتر"، فتحتة عند الشريطة وقرأت، لكنني كنت قد قرأت فصلاً واحدًا حين توقفت، مستشعرة أنها تريد التحدث إلي.

سألتني: "ماذا حدث في تلك الليلة؟ ليلة مرضك؟"

كنت ممتنة على نحو متوتر لأنني حظيت بفرصة للتفسير: "كنت أعرف مسبقًا أن (إيميلين) في المنزل، سمعتها خلال الليل، رأيته في الحديقة، ووجدت جناحها، ثم في تلك الليلة تحديدًا جلبت أحدًا ليراها، فتفاجأت (إيميلين)، وأبعد ما قد أقصده هو أن أخيفها، لكنها تفاجأت حين رأتنا، و..." توقف صوتي في حلقى.

"يجب أن تعرفي أن هذا ليس خطأكِ، فلا تتحامل على نفسك، العويل والانهيال العصبى، إنه أمر رأيته و(جوديث) والطبيب كثيرًا، لو كان هناك مُلام فهو أنا، لأننى لم أخبرك قبلها أنها هنا، لدى ميل لأن أكون مفرطة في الحماية، كنت مغفلة بألا أخبرك"، وسكتت: "هل تنوين إخبارى بهوية من جلبته معك؟"

قلت: "أنجبت (إيميلين) طفلًا، هذا هو الشخص الذى جاء معى، الرجل ذو البذلة البنية"، وبعدما قلت ما أعرفه، هرعت الأسئلة التى لا أعرف لها إجابة إلى شفتى، كأن صراحتى قد تشجعها على أن تكون صادقة بالمقابل: "عم كانت (إيميلين) تبحث فى الحديقة؟ كانت تحاول أن تحفر لتخرج شيئًا حين رأيته، إنها تفعل ذلك كثيرًا، لقد قال (موريس) إنه عمل الثعالب، لكننى أعرف أنها ليست الحقيقة".

كانت السيدة "وينتر" صامتة وثابتة للغاية.

اقتبست عنها: "الموتى يواريهم التراب"، وتابعْتُ: "هذا ما قالت لي، ما الذى تظن أنه مدفون؟ أهو طفلها؟ (هيوست)؟ عمن تبحث تحت التراب؟"

ندت عن السيدة "وينتر" همهمة، ومع أنها كانت خافتة، فإنها أيقظت على الفور الذكرى الضائعة للصوت الأجش الذي أطلقته "إيميلين" تجاهي في الحديقة، إنها الكلمات نفسها تحديداً! أضافت السيدة "وينتر": "أهذا كل الأمر؟ أهذا ما قالته؟"

أومأت.

مكتبة

t.me/t_pdf

"بلغة التوأمين؟"

أومأت مجدداً.

تطلعت إلى السيدة "وينتر" باهتمام: "أنت تبلين حسناً يا (مارجريت)، أفضل مما توقعت، المشكلة أن توقيت هذه القصة يخرج عن سيطرتي، نحن نستبق الأحداث"، وصمتت محدقةً إلى كفها، ثم نظرت إليّ مباشرة: "قلت إنني قصدت إخبارك الحقيقة يا (مارجريت)، وهذا ما أفعله، لكن قبل أن أتمكن من إخبارك، يجب أن يحدث شيء أولاً، وهو سيحدث، لكنه لم يحدث بعد".

"ما...؟"

لكن قبل أن أكمل سؤالاً هزت رأسها: "هلا نعد إلى قصة السيدة (أودلي) وسرها".

قرأت لنصف ساعة أخرى أو نحو ذلك، لكن عقلي لم يركز في القصة، وتشكل لديّ انطباع بأن انتباه السيدة "وينتر" أيضاً كان يتجول، حين جاءت "جوديث" لتطرق الباب في وقت العشاء، أغلقت الكتاب ووضعتة جانباً، وقالت السيدة "وينتر" كأن أحد لم يقاطعنا، وكأننا نتابع نقاشنا السابق: "لم لا تأتيني لترى (إيميلين) هذا المساء إن لم تكوني متعبة؟"

أختان.

ذهبت إلى سكن "إيميلين" في الوقت المحدد، إنها المرة الأولى التي أذهب فيها إلى هناك بصفتي ضيفة مدعوة، وأول ما لاحظته قبل حتى أن أدلف إلى غرفة النوم كان كثافة الصمت، توقفت لوهلة في المدخل - إذ لم تلاحظا قدومي بعد - وأدركت أن ذلك تأثير همسهما، فعند حافة السمع، يصنع احتكاك الأنفاس بالأحبال الصوتية تموجات في الهواء، إنها الأصوات الانفجارية الرقيقة التي مرت قبل أن تسمعها، والأصوات الاحتكاكية التي ربما ظننتها صوت دمك في أذنيك، وفي كل مرة أظن أنها توقفت، يمر بأذني همس مكتوم مثل فراشة تهبط على شعري ثم ترفرف مبتعدة.

تنحنعت.

"مارجريت"، وأشارت السيدة "وينتر"، وهي على كرسيها المتحرك الموضوع بجانب أختها، إلى كرسي على الجانب الآخر من السرير، "يا له من لطف منك".

نظرتُ إلى وجه "إيميلين" الأحمر والأبيض على الوسادة، كانا الأحمر والأبيض نفسيهما المميزان لتشوهات الحروق والندبات التي رأيتها من قبل، ولم تفقد سميتها جيدة التغذية، وشعرها لا يزال خصلة متشابكة من اللون الأبيض، تجولت عيناها في السقف بخمول، وبدت غير مبالية بوجودي، ما الاختلاف إذًا؟ فقد بدت مختلفة، حدث تحول ما داخلها، تغير واضح مباشرة للعين، مع أنه مراوغ إلى حد يمنع تعريفه، ومع ذلك فإنها لم تفقد شيئًا من قوتها، إحدى يديها ممدودة خارج الغطاء وتمسك بيد السيدة "وينتر" بقبضة قوية.

سألتها بتوتر: "كيف حالك يا (إيميلين)؟"

قالت السيدة "وينتر": "إنها ليست بخير".

تغيرت السيدة "وينتر" أيضًا في الأيام الأخيرة، لكن مرضها أشبه بعملية التقطير، كلما أضعفها، أظهر حقيقتها، كلما رأيتها بدت منكشمة: أنحف، وأضعف، وأكثر صدقًا، وكلما ضعفت، ظهرت صلابة جوهرها.

ومع ذلك، كانت "إيميلين" تمسك بقبضتها الثقيلة يدًا نحيفة وضعيفة للغاية.

سألتها: "أتودين أن أقرأ؟"

"بلا شك".

قرأتُ فصلًا، ثم تمتت السيدة "وينتر": "إنها نائمة"، عينا "إيميلين" مغلقتان، وتنفسها عميق ومنتظم، وقد أرخت قبضتها عن يد أختها، والسيدة "وينتر" تمسدها كأنها تعيد إليها الحياة، حينها رأيت بدايات كدمات على أصابعها.

حين رأت اتجاه نظري جذبت يدها داخل شالها وقالت: "آسفة بشأن هذا التعطيل لعملنا، اضطررت إلى إبعادك مرة من قبل حين

كانت (إميلين) مريضة، والآن أيضًا يجب أن أقضى وقتي معها، ويجب أن ينتظر مشروعنا، لكن لن يطول ذلك، وعيد الميلاد قريب، ستريدين أن تغادري لتبقى مع عائلتك، حين تعودين بعد الإجازة سترى إلام آلت الأمور، أتوقع..." - وكان هذا أقصر توقف ممكن - "أن تتمكن من متابعة عملنا حينها".

لم أفهم ما تقصده في الحال، كانت كلماتها غامضة، لكن صوتها هو ما كشفها، قفزت عينايا إلى وجه "إميلين" النائم.
"أتقصدين...؟"

تنهدت السيدة "وينتر": "لا تنخدعي بحقيقة أنها تبدو قوية، لقد كانت مريضة لفترة طويلة جدًا، طوال سنوات افترضت أنني سأعيش لأراها ترحل أمامي، ثم حين مرضت لم أعد متأكدة جدًا، والآن يبدو أننا في سباق إلى خط النهاية".

إذًا فهذا ما كنا بانتظاره، الحدث الذي لولاه ما كانت القصة تنتهى.

فجأة جف حلقي وارتعد قلبي مثل قلب طفلة.

إنها تحتضر، "إميلين" تحتضر.

"أهذا خطئي؟"

هزت السيدة "وينتر" رأسها: "خطؤك؟ كيف يمكن أن يكون خطأك؟ تلك الليلة لا شأن لها بهذا"، ورمقتني بوحدة من نظراتها القديمة الحادة التى تفهم منى أكثر مما أقصد كشفه: "لم يزعجك هذا يا (مارجريت)؟ أختى غريبة عنك، ويصعب على تصديق أن التعاطف هو ما يحزنك هكذا، أهو التعاطف؟ أخبريني يا (مارجريت): ما الأمر؟"

كانت مخطئة جزئياً، لقد تعاطفت معها، لأننى اعتقدت أننى أدرك ما تمر به السيدة "وينتر"، كانت على وشك الانضمام إلى صفوف البُتر، التوائم الثكالى يعيشون بنصف روح، بين الحياة والموت خيط رقيق ومظلم، والتوائم الثكالى يعيشون أقرب إليه من معظم الناس، ومع أنها عادةً سريعة الغضب وعنيدة، فقد ازداد حبى للسيدة وينتر، وبالتحديد، أحببت الطفلة التى كانت هى، الطفلة التى ظهرت على نحو متكرر أكثر فى هذه الأيام، بشعرها المقصوص، ووجهها العارى، ويديها الضعيفتين المتجردتين من أحجارهما الثقيلة، بدا أنها تزداد طفولة فى كل يوم، فى عقلى هى الطفلة التى تفقد أختها، وهناك التقى حزن السيدة "وينتر" وحزنى، فاجعتها ستحدث فى هذا المنزل خلال الأيام المقبلة، وهى الفاجعة نفسها التى شكلت حياتى، مع أنها حدثت لى قبل أن أدرك العالم.

رأيت وجه "إميلين" على الوسادة، إنها تقترب من البرزخ الذى أبعدنى عن أختى، قريباً ستعبره وسنفقدها، ستكون وافدة جديدة فى ذلك الجانب الآخر، ملأتنى رغبة سخيفة فى أن أهمس بأذنها رسالة إلى أختى، بعهدة سيدة قد تراها قريباً، لكن ماذا أقول؟

شعرت بحمقة السيدة "وينتر" الفضولية إلى وجهى، وكبحت حماقتى الوشيكة.

سألته: "كم تبقى لها؟"

"أيام، ربما أسبوع، ليس كثيراً".

أطلت السهر فى تلك الليلة مع السيدة "وينتر"، وحضرت مجدداً على جانب سرير "إميلين" فى اليوم التالى، جلسنا نقرأ بصوت مرتفع أو فى صمت لفترات طويلة، لا يقاطع سهرنا إلا الطبيب "كليفتون"، بدا أنه يعتبر وجودى هناك أمراً طبيعياً، وشملنى بالابتسامة الجادة نفسها التى منحها للسيدة "وينتر" وهو يتحدث بلطف عن تدهور

"إميلين"، وأحيانًا كان ينضم إلينا لساعة أو نحو ذلك، يشاركنا التيه، يستمع وأنا أقرأ. كتب من أي رف، مفتوحة عند أية صفحة، أبدؤها من أي صفحة وأنهىها في أي صفحة، في منتصف جملة أحيانًا، اصطدمت رواية "مرتفعات ويزيرنج" برواية "إيما"، والتي أفسحت الطريق لرواية "ذى يوستاس دايونددز"، والتي تداخلت مع رواية "أوقات عصيبة"، والتي أفضت إلى رواية "ذات الرداء الأبيض"، كلها فتات، لكن ذلك لم يهم، فالفن واكتماله وتشكله وانتهائه ليست له قدرة على التعزية، وعلى الجانب الآخر كانت الكلمات حبل نجاة، لقد تركت الكلمات إيقاعها المكتوم وراءها، توازن الشهيق والزفير البطيء لـ "إميلين".

ثم تلاشى اليوم وكانت عشية عيد الميلاد في اليوم التالي، وهو يوم رحيلي، على نحو ما لم أرد أن أرحل، هدوء هذا المنزل والعزلة البديعة التي توفرها حديقته هما كل ما أريده من العالم حاليًا، بدا المتجر ووالدى صغيرين وبعيدين جدًا، ووالدى -كحالها دائمًا- أبعد، أما عيد الميلاد في منزلنا.. إنه قريب للغاية من عيد مولدى، أقرب من أن تتحمل والدى الاحتفال بطفل امرأة أخرى فيه، ولا يهم كم قرنا مر على ذلك، فكرت بشأن والدى وهو يفتح بطاقات المعايدة من أصدقاء والدى القليلين، ويرتب عند الموقد صور "بابا نويل" وطيور روبين والثلوج غير المؤذية وينحى صور مريم العذراء جانبًا، ويجمع سنويًا كومة سرية من تلك الصور، صور ملونة بالأحجار الكريمة للأم المتطلعة ببهجة إلى رضيعها الوحيد المكتمل المثالي، ويتطلع الرضيع إليها، ويشكل كلاهما دائرة مباركة من الحب والكمال، في كل عام يوضع الكثير من تلك الصور في صندوق.

أعرف أن السيدة "وينتر" لن تعترض لو طلبتُ البقاء، بل قد تمتن لوجود رفيقة في أيامها المقبلة، لكننى لم أطلب، لم أستطع، لقد رأيت تدهور "إميلين"، وبينما هى تضعف، اشتدت القبضة الضاغطة

على قلبى، ويخبرنى عذابى المتزايد بأن النهاية ليست بعيدة، هذا
جنب منى، لكن حين جاء عيد الميلاد، وجدت تلك فرصة للهرب،
واستغللتها.

فى المساء ذهبت إلى غرفتى وحقبت أشياء، ثم ذهبت إلى سكن
"إيميلين" لأودع السيدة "وينتر"، رففت كل همسات الأختين بعيدًا،
وأصبحت العتمة أثقل، وثابتة أكثر من ذى قبل، على حجر السيدة
"وينتر" كتاب، لكنها إن كانت من قبل تقرأ، فإنها لم تعد قادرة على
الرؤية لتقرأ، بل تطلعت عيناها بحزن إلى وجه أختها، واستلقت
"إيميلين" بلا حراك على سريرها، وارتفعت الأغطية وهبطت برقة
مع أنفاسها، عيناها مغلقتان وتبدو فى سبات عميق.

تمتت السيدة "وينتر": "مارجريت"، مشيرة إلى كرسى، بدت
مسرورة بقدومى، وانتظرنا معًا خفوت الضوء، مستمعتين إلى حركة
أنفاس "إيميلين".

دخلت وخرجت أنفاس "إيميلين" بيننا على سرير المرض، بإيقاع
سلس هادئ، مريح مثل صوت الموج على الشاطئ.

لم تتكلم السيدة "وينتر"، وكنت أنا أيضًا صامتة، أصوغ فى بالى
رسالة مستحيلة قد أرسلها إلى أختى بواسطة هذه المسافرة قريبًا إلى
العالم الآخر، ومع كل زفير، بدا أن الغرفة تمتلئ بحزن أعمق وأبقى.
تحرك ظل السيدة "وينتر" المظلم على النافذة.

قالت: "يجب أن تحصلى على هذا"، وأخبرتني حركة فى الظلام أنها
تمد شيئًا لى أعلى السرير.

أغلقت أصابعى على شئ مستطيل من الجلد له قفل معدنى،
يبدو كأنه كتاب.

"هذا من صندوق كنوز (إيميلين)، لا حاجة إليه بعد الآن، غادري واقرئي، وسنتكلم حين تعودين".

قطعت الغرفة نحو الباب والكتاب في يدي، أستشعر طريقى بواسطة الأثاث الذى يقطعه، وورائى مد وجذر أنفاس "إيميلين".

دفتر مذكرات وقطار.

كان دفتر مذكرات "هيستر" تالفًا، المفتاح مفقود، والمشبك صدئ للغاية لدرجة أنه ترك بقعًا برتقالية على أصابعي، الصفحات الثلاث الأولى ملتصقة معًا لأن صمغ الغلاف الداخلي ذاب عليها، الكلمة الأخيرة في كل صفحة متلاشية إلى علامة بنية كأن المذكرات تعرضت للتراب والرطوبة معًا، مُزقت بضع صفحات، وتوجد قائمة محيرة من عدة حروف بطول الحواف الممزقة: "إيه بي إن"، "سي آر"، "تي إيه"، "أيس تي"، والأسوأ من كل ذلك، بدا أن المذكرات قد نُقعت في وقت ما في الماء، فالصفحات متموجة، وحين إغلاقها، يصبح الدفتر أسمك.

النقع هو أسوأ ما سأواجهه، بدا واضحًا من أول نظرة إلى إحدى الصفحات أنها كتابة يدوية، وليست أي كتابة قديمة، بل كتابة "هيستر"، هذه خطوطها الصاعدة بثبات، ودوائرها المتوازنة السلسة، وتلك خطوطها المائلة المرتاحة، ومسافاتها الاقتصادية مع أنها عملية، لكن عند تدقيق النظر، وجدت الكلمات باهتة ومتلاشية، أهذا الخط

حرف "آي" أم "تي"؟ أهذه الانحناءة حرف "إيه" أم "إي"؟ أم "إس"؟ أهذا الرسم يُقرأ "تائهة" أم "مائدة"؟

سيكون ذلك الدفتر لغزاً حقيقياً، ومع أننى نسخت المذكرات لاحقاً، كان قطار الإجازة فى ذلك اليوم مزدحماً للغاية لدرجة تمنع استخدام قلم وورقة، انحنيت فى مقعد النافذة خاصتى، وقربت الدفتر إلى أنفى، واستغرقت فى دراسة الصفحات مكرسة تركيزى على فك شيفراتها، نجحت فى قراءة كلمة من كل ثلاث كلمات فى البداية، ثم مع اندماجى وتدفق المعانى، بدأت الكلمات تلاقينى فى منتصف الطريق، تكافؤنى على جهودى بيبوح سخى، حتى تمكنت من قلب الصفحات بسرعة تقارب سرعة القراءة، عادت "هيستر" إلى الحياة فى ذلك القطار، فى اليوم السابق على عيد الميلاد.

لن أختبر صبرك عبر نسخ مذكرات "هيستر" هنا مثلما وصلت إلى، مفتتة ومهشمة، بل على طريقة "هيستر" نفسها، سأصلحها وأرتبها وأنظمها، فأبعدت الفوضى والركام، واستبدلت اليقين بالشك، والوضوح بالضبابية، واللحام بالثغرات، ربما أقحمت أحياناً فى صفحاتها كلمات لم تكتبها قط، لكننى أعد بأننى إن ارتكبت أخطاء فهى فى التفاصيل الصغيرة فقط، فقد تفحصت ودققت فى الأجزاء المهمة حتى تأكدت إلى مبلغ التأكد من أننى ميزت مقصدها الأصل.

لم أهتم بالمذكرات كلها، بل فقط بأجزاء منتقاة ومحركة منها، اخترتها على أساس درجة أهميتها لهدفى، وهو أن أحكى قصة السيدة "وينتر"، وثانياً رغبتى فى أن أقدم فكرة دقيقة عن حياة "هيستر" فى "أنجلفيلد".

يبدو منزل "آنجلفيلد" لطيفًا كفاية عن بُعد، مع أن واجهته تنظر إلى الاتجاه الخطأ ونوافذه موقعها سيئ، لكن عند الاقتراب منه، ترى في الحال الخراب التي سُمح للمنزل بالانحدار إليه، أجزاء من البناء الحجري تآكلت على نحو خطير بسبب الطقس، إطارات النوافذ متعفنة، يبدو كأن أجزاء من السقف متضررة من العواصف، سأجعل تفقد السقوف في العليا أولوية لى.

رحبت بى مدبرة المنزل عند الباب، وفهمت في الحال أنها تواجه صعوبة في البصر والسمع مع أنها تحاول إخفاء الأمر، وهذا ليس مفاجئًا بالنظر إلى سنها الكبير، كذا فإنه يفسر الحالة القذرة للمنزل، لكننى أفترض أن عائلة "آنجلفيلد" لا تريد التخلص منها بعدما خدمتهم طوال حياتها في المنزل، يمكننى استحسان تقديرهم للولاء، لكننى لا أجد سببًا لعدم مساعدتها بأيدي أصغر سنًا وأقوى.

أخبرتني السيدة "دان" بشأن المنزل، لقد عاشت العائلة هنا لسنوات بما يعتبر في الغالب خفضًا كبيرًا لعدد العاملين، وأصبح ذلك مقبولاً باعتباره جزءًا من أسلوب الحياة في المنزل، لم يتأكد لى بعد لم يجب أن يظل الوضع هكذا، لكن الأكيد لى أن باستثناء أفراد العائلة، يوجد بستاني يدعى "جون ديجنس"، وتوجد غزلان (مع أن الصيد قد توقف)، لكن الرجل الذى يعتنى بها لا يرى قط قرب المنزل، بل يتلقى التعليمات من المحامى نفسه الذى جلبنى، والذى يتصرف كأنه بشكل ما مدير الممتلكات بقدر ما تحتاج الممتلكات إلى إدارة، وتتولى السيدة "دان" بنفسها ماليات المنزل المنتظمة، افترضت أن "تشارلز آنجلفيلد" يشرف على السجلات والفواتير أسبوعيًا، لكن لم يكن من السيدة "دان" إلا أن ضحكت وسألتنى إن كنت أظن أن نظرها يمكنها من تسجيل قوائم أرقام فى سجل، لا يسعنى سوى الظن أن هذا الوضع غير تقليدى للغاية، لا أقصد أن السيدة "دان" غير أهل للثقة، فمما رأيته، لديها كل ما يدل على أنها امرأة صادقة

طيبة القلب، وأملى أننى سأرجع تحفظها إلى الصمم حين أعرفها أكثر، كتبت مذكرة إلى السيد "آنجلفيلد" لأوضح مميزات الاحتفاظ بسجلات دقيقة، وفكرت في عرض أن أتولى هذه الوظيفة بنفسى إن كان أكثر انشغالاً من أن يتولاها.

بالتفكير ملياً في الأمر، بدأت أرى أن الوقت قد حان لمقابلة مديري، وبلغت مفاجأتى مبلغها حين أخبرتنى السيدة "دان" أنه يقضى يومه بالكامل في الحضانة القديمة وأن من غير عاداته أن يغادرها، وبعد أسئلة كثير جداً، تأكد لى في النهاية أنه يعاني من خلل ما في عقله، أمر مؤسف حقاً! أمن شيء محزن أكثر من عقل اختلت وظائفه؟

قدمت لى السيدة "دان" الشاى (الذى ادعيت أننى أشربه من باب الذوق، لكننى صبيته لاحقاً في الحوض لأننى لم أثق مطلقاً بنظافة الكوب بعدما رأيت حالة المطبخ) وحكت لى قليلاً عنها، إنها فى ثمانيناتها، ولم تتزوج قط وعاشت هنا طوال حياتها، من الطبيعى كفاية أن يتحول حديثنا حينئذ إلى العائلة، عرفت السيدة "دان" والدة التوأمن خلال طفولتها وشبابها، وأكدت ما فهمته بالفعل: رحيل الأم مؤخراً إلى مصحة لمرضها العقلى هو ما عجل بتوظيفى، وحكت لى رواية ملتوية عن الأحداث التى عجلت بإيداع الأم بالمصحة جعلتنى غير واثقة إن كانت قد هاجمت زوجة الطبيب بالكمان أم لا، بالكاد يمثل هذا فارقاً؛ فمن الواضح أن للعائلة ماض من الاختلالات العقلية، وأعترف بأن قلبى أسرع قليلاً حين تأكد لى الأمر، فكيف تقنع معلمة منزلية بإرشاد عقول غير مقيمة وتعمل بسلاسة؟ أين التحدى في الحفاظ على التفكير المنظم لدى أطفال عقولهم مرتبة وأنيقة؟ لست مستعدة لهذه الوظيفة فقط، بل وقضيت سنوات أتطلع إليها، هنا سأكتشف أخيراً قيمة أساليبى في العمل!

سألت عن عائلة الأب، لأنه على الرغم من أن السيد "مارش" متوفى والطفلتان لم تعرفاه قط، فإن دماءهما دماؤه وله تأثير على طبيعتهما، لكن السيدة "دان" لم تخبرني إلا القليل جداً، وبدلاً من ذلك، بدأت سلسلة من الحكايات عن الأم والخال والتي لو قرأت بين سطورها (وأنا واثقة بأنها أرادت مني ذلك) فإن هناك تلميحات إلى شيء فاضح.. بالتأكيد ما تشير إليه ليس مرجحاً على الإطلاق، ليس في إنجلترا على الأقل، وأظن أنها متوهمة بدرجة ما، الخيال شيء صحي، والكثير من الاكتشافات العلمية العظيمة ما كانت لتوجد لولا الخيال، لكن يجب تسخيره من أجل هدف جاد حتى يحقق أي نتائج، ولو تُرك ليشق طريقه الخاص، فإنه عادة ما يؤدي إلى الحماقة، ربما السن هي ما تجعل عقلها يهيم، لأنها تبدو طيبة بأشكال أخرى، وليست من النوع الذي يخترع النائم حباً فيها فقط، وعلى أية حال، أبعدت هذا الموضوع في الحال من دماغى.

بينما أنا أكتب هذه الكلمات أسمع أصواتاً خارج غرفتى، لقد خرجت الفتاتان من مخبئهما وتجولان خلسة في المنزل، لم تحظيا بأى رعاية وسمح لهما بالتعود على هذا الوضع، ستستفيدان جداً من نظام الترتيب والنظافة الشخصية والانضباط الذى أنوى تطبيقه في المنزل، لن أخرج لهما، بلا شك تتوقعان أن أخرج لهما، وسيخدم أهدافى أن أحبطهما في هذه المرحلة.

أخذتنى السيدة "دان" في جولة بغرف الطابق الأرضى، القذارة في كل مكان، الأسطح كلها مغطاة بطبقة سميكة من الغبار، والستائر في حالة يُرثى لها، لكنها لا تراها، وتتصورها مثلما كانت منذ سنوات في زمن جد التوأمين، حين كان هناك طاقم عاملين كامل، يوجد بيانو ربما لا يمكن إنقاذه، لكننى سأرى ما يمكن فعله، ومكتبة ربما تكون مملوءة بالمعرفة، لكن هذا سيتضح بعد مسح الغبار عنها ورؤية ما بها.

استكشفت الطوابق الأخرى وحدي، إذ لم أرد أن تتضرر السيدة "دان" بصعود الكثير من السلم دفعة واحدة، في الطابق الأول سمعت تشاجرًا وهمسًا وضحكًا مكتومًا، وجدتُ مَنْ كُلفتُ بأمرهما، لقد أقفلتا الباب، وصمتتا حين حاولت فتحه، ناديت اسميهما مرة، ثم تركتهما إلى مكائدهما وصعدت إلى الطابق الثاني، إنها قاعدة أساسية أننى لا أطارد مَنْ كُلفتُ بأمرهم، بل أعلمهم أن يأتوا إلى.

وجدت أفطح درجات الفوضى في غرف الطابق الثاني، إنها قدرة، لكننى توقعت ذلك، مياه المطر تسربت عبر السقف (توقعت ذلك أيضًا) ووجدت الفطريات تنمو على بعض ألواح الأرضية المتعفنة، إنها حقًا بيئة غير صحية لتربية الأطفال، كان عدد من ألواح الأرضية مفقودًا، ويبدو كأنها أزيلت عن عمد، يجب أن أقابل السيد "آنجلفيلد" لأخبره بشأن إصلاح ذلك، يجب أن أوضح له أن أحدًا يمكن أن يسقط إلى الطابق السفلى، أو على الأقل جدًا أن يلوى كاحله، وتحتاج المفصلات كلها إلى التزييت، وأطر الأبواب كلها معوجة، أينما ذهبت يتبعنى صرير الأبواب المتأرجحة على مفصلاتها، وصرير ألواح الأرضية، وتيار هواء يجعل الستائر ترفرف مع أن من المستحيل أن تعرف مصدره تحديدًا.

عدت إلى المطبخ حالما استطعت، كانت السيدة "دان" تعد لنا وجبة المساء، وأنا بلا أى رغبة فى تناول طعام مُعد فى قدور بشعة كالتى رأيتها، لذا علقْتُ مع كم هائل من الصحنون المتسخة (بعد تنظيف الحوض بدرجة غير مشهودة منذ عقد)، وأبقيت عينى على السيدة وهى تعد الطعام، إنها تفعل كل ما بوسعها.

لا تأتى الفتاتان لتناول الطعام، ناديت عليهما مرة واحدة فقط، كانت السيدة "دان" تؤيد بشدة مناداتهما وإقناعهما، لكننى أخبرتها أن لى وسائلى الخاصة، وأنها يجب أن تدعمنى.

جاء الطبيب لتناول العشاء، ومثلما جعلوني أتوقع، لم يظهر كبير المنزل، ظننت أن الطبيب سيشعر بالإهانة بسبب ذلك، لكن بدا أنه يجد ذلك طبيعيًا للغاية، لذا لم يكن هناك إلا كلانا، والسيدة "دان" تفعل ما بوسعها لتخدم المائدة، لكنها احتاجت إلى الكثير من مساعدتي.

الطبيب رجل ذكي ومثقف، لديه رغبة صادقة في أن يرى تحسن حالة الفتاتين، وهو المحرك الأساسي لتعييني في "آنجلفيلد"، شرح لي باستفاضة كبيرة الصعوبات التي يرجح أن أقابلها هنا، واستمعت إليه بكل ما لدى من تهذب، ستتكون لدى أي معلمة منزلية بعد الساعات القليلة التي قضيتها في هذا المنزل صورة كاملة وواضحة للمهمة التي تنتظرها، لكنه رجل، وبالتالي فإنه لا يرى مدى إرهاق أن يُشرح لك باستفاضة ما فهمته بالفعل، لم يلحظ الطبيب مطلقًا تمللي، ولا الحدة الطفيفة لواحدة أو اثنتين من إجاباتي، وأخشى أن طاقته ومهاراته التحليلية لا تعادل قدراته على الملاحظة، لا أنتقده بلا داعٍ لأنه يتوقع أن كل من سيقابله سيكون أقل منه قدرة، فهو رجل ذكي، والأهم من ذلك، إنه سمكة كبيرة في بركة صغيرة، لقد تلبس شخصية متواضعة هادئة، لكنني أستطيع تمييز ذلك بسهولة كافية، لأنني أخفيت حقيقتي بالطريقة ذاتها، ومع ذلك فإنني سأحتاج إلى دعمه في المشروع الذي توليته، وسأعمل على جعله حليفى رغم عيوبه.

أسمع أصوات اضطراب من الطابق السفلى، وأفترض أن الفتاتين قد اكتشفتا القفل على باب خزانة الطعام، ستغضبان وتحبطان، لكن كيف بغير ذلك قد أعودهما على المواعيد المناسبة للوجبات؟ ومن دون مواعيد الوجبات، كيف يمكن استعادة النظام؟

غداً سأبدأ بتنظيف غرفة النوم هذه، لقد مسحت الأسطح بقطعة قماش رطبة هذا المساء، وأغرنتى فكرة تنظيف الأرض، لكننى امتنعت، فسأضطر إلى إعادة تنظيف الأرض غداً بعدما أنظف الجدران، وسأخلع الستائر التى يكسوها الغبار، سأنام الليلة فى التراب، لكن غداً سأنام فى غرفة نظيفة زاهية، ستكون هذه بداية جيدة، لأننى أخطط لاستعادة النظام والانضباط فى هذا المنزل، ولينجح هذا، يجب قبل أى شيء أن أوجد لنفسى غرفة نظيفة لأفكر فيها، لا أحد يستطيع أن يفكر بذهن صاف ويحقق تقدماً إن لم تحطه النظافة والنظام.

الفتاتان تبيان فى الردهة، حان وقت مقابلتى لمن كُلفت بأمرهما.

انشغلت جداً بتنظيم المنزل لدرجة أننى لم يكن لدى متسع من الوقت لمذكراتى مؤخراً، لكن يجب أن أخصص لها وقتاً، لأن الكتابة هى طريقتى الأساسية فى تسجيل وسائلى وتطويرها.

أحرزت تقدماً جيداً مع "إميلين"، وتجربتى معها تتناسب مع نموذج السلوك الذى رأيته فى حالات صعبة أخرى، أظن أنها ليست مضطربة بقدر ما قيل لى، ومع تأثيرى ستكون طفلة لطيفة، إنها عاطفية وقوية، وتعلمت تقدير فوائدها النظافة الشخصية، وتأكل بشهية جيدة، ويمكن تعليمها إطاعة التعليمات بواسطة الترغيب اللطيف والوعد بجوائز صغيرة، قريباً يمكن أن تفهم أن الطيبة مجزية عبر نيل تقدير الآخرين، ومن ثم سأتمكن من تقليل الرشاوى، لن تكون ذكية أبداً، لكن عندئذ سأعرف حدود وسائلى، وأياً كانت نقاط قوتى، يمكننى العمل بها لدى فقط.

أنا مسرورة بنتائج عملى مع "إميلين".

حالة أختها أصعب، فقد رأيت العنف من قبل، ولم يفاجئني الأمر كثيراً أن "آديلاين" تفكر بواسطة ميولها التدميرية، لكننى متفاجئة بشيء واحد: يكون التدمير عمومًا لدى الأطفال الآخرين عرضًا جانبيًا للغضب، وليس هدفًا أساسيًا له، فالتصرف العنيف، بحسب ما لاحظت لدى حالات أخرى، يكون في غالب الحالات محفزًا بفيض الغضب، وصب الغضب يكون بالصدفة فقط في صورة تدمير الممتلكات والأشخاص، لكن هذا النموذج لا ينطبق على حالة "آديلاين"، لقد رأيت حوادث لها، وحكى لى غيرها، وبدا التدمير فيها حافز "آديلاين" الوحيد، والغضب شيء تستخلصه وتخزنه داخلها حتى تولد الطاقة اللازمة للدمار، لأنها شيء صغير وضعيف، جلد على عظام، وتأكّل الفتات فقط، أخبرتنى السيدة "دان" عن حادثة وقعت في الحديقة، حيث يُعرف أن "آديلاين" دمرت عددًا من أشجار الصنوبر، لو كان هذا حقيقيًا فإنه عار كبير، فمن الواضح أن الحديقة كانت جميلة جدًا، ويمكن إصلاح ذلك، لكن "جون" فقد حماسه للأمر، وليست الحديقة التوبيارية فقط التى تعانى من نقص الاهتمام، بحديقة المنزل عمومًا، سأجد الوقت والوسيلة لأعيد إليه فخره، إن شعر بالسعادة بعمله، وعادت الحديقة إلى نظامها، سيعود ذلك بالكثير على المظهر والجو العام بالمنزل.

الحديث عن "جون" يذكرنى بشيء، يجب أن أتحدث معه بشأن الطفل، كنت أتجول عصر اليوم قرب غرفة الدراسة، واقتربت من النافذة، كانت السماء تمطر وأردت أن أغلق النافذة حتى لا يدخل المزيد من الرطوبة، فحافة النافذة من الداخل بالفعل تنهار، لو لم أكن قريبة للغاية من النافذة وأنفى يكاد يكون مضغوطًا على الزجاج، أشك في أننى كنت لأراه، لكننى رأيته: طفل مقرفص في حوض الأزهار يقتلع الأعشاب الضارة، كان يرتدى بنطالًا رجاليًا مقصوصًا عند الكاحل ويرفعه زوج من الدبابيس، غطى ظل القبة عريضة الحواف

وجهه ولم تتح لى الفرصة لتقدير سنه بوضوح، لكنه على الأرجح فى الحادية أو الثانية عشرة، أعرف أنها ممارسة شائعة فى المناطق الريفية أن يشارك الأطفال فى أعمال البستنة، مع أننى ظننت أن الشائع أكثر أن يقوموا بأعمال الزراعة، وأقدر مميزات تعلمهم لمجال عملهم من سن صغيرة، لكننى لا أحب أن أرى طفلاً خارج المدرسة خلال ساعات الدراسة، سأحدث مع "جون" بشأن ذلك، وسأتأكد من إدراكه أن الفتى يجب أن يقضى ساعات الدراسة فى المدرسة.

لكن عودة إلى موضوعى: حين يتعلق الأمر بشر "آديلاين" تجاه أختها، فقد تتفاجأ هى بمعرفة أننى رأيت كل هذا من قبل، الغيرة والغضب بين الإخوة أمر شائع، وتكثر بين التوائم المنافسة، سأتمكن مع الوقت من تقليل العدوانية، لكن إلى أن يتحقق ذلك ستكون اليقظة الدائمة مطلوبة لمنع "آديلاين" من إيذاء أختها، من المؤسف أن هذا سيعيق التقدم فى جهات أخرى، لم أفهم بعد لم تترك "إيميلين" نفسها تتعرض للضرب (وشد الشعر، ومطاردة "آديلاين" التى تشهر تجاهها ملاقيط النيران الممسكة بقطع الفحم الساخنة)، حجمها ضعف حجم أختها ويمكنها الدفاع عن نفسها بأشرس مما تفعل، ربما تحجم عن إيقاع الأذى بأختها، إن لها روحاً حنوناً.

انطباعى الأول عن "آديلاين" فى أيامى الأولى أنها طفلة قد لا تعيش قط حياة طبيعية مستقلة مثل أختها، لكن يمكن إيصالها إلى نقطة توازن، واستقرار، ويمكن احتواء نوبات غضبها عبر فرض روتين صارم، لم أتوقع قط أن أصل إلى تفاهم معها، المهمة التى توقعنت أن أنفذها مع "آديلاين" أكبر من تلك الخاصة بأختها، لكننى توقعنت شكرًا أقل بكثير مقابلها، لأنها ستبدو أقل بنظر الآخرين.

لكننى تفاجأت لدرجة أنى غيرت هذا الرأى بسبب علامات الذكاء المشوش والغامض لديها، جاءت فى هذا الصباح إلى غرفة الدراسة تجر قدميها، لكن من دون أسوأ مظاهر انعدام الرغبة، وبمجرد جلوسها فى مقعدها، أرخت رأسها على ذراعها مثلما رأيت من قبل، بدأتُ الدرس الذى لم يكن إلا قصة، إنها معالجة أعدتها للفصول الافتتاحية من "جين أير"، قصة يحبها الكثير من الفتيات، كنت أركز على "إميلين"، وأشجعها على متابعة القصة عبر تمثيلها بقدر ما استطعت، خصصت صوتًا للبطلة، وآخر للعممة، وثالث لابن العممة، وصاحبت الحكى بحركات وتعابير توضح مشاعر الشخصيات، لم ترفع "إميلين" عينيها عنى، وسرّنى تأثيرى.

لمحت بطرف عيني حركة، أدارت "آديلاين" رأسها باتجاهى، ظل رأسها مستقرًا على ذراعها، وبدت عيناها مغلفتين، ومع ذلك كان لدى انطباع قوى بأنها تستمع إلى، حتى لو كان تغيير وضعيتها بلا معنى (وهذا غير صحيح، لقد كانت دائمًا تدير لى ظهرها)، هناك تغير فى وضعيتها، فهى عادة تنهار على طاولتها حين تنام، فى حالة من فقدان الوعي على نحو همجى، اليوم بدا جسدها كله منتبهًا: وضعية الكتفين بها درجة ما من الجمود، كأنها مجذوبة إلى القصة، ولكن مع تصدير انطباع بأنها فى سبات خامل.

لم أرد أن تنتبه إلى ملاحظتى لأى شئ، ظللت أتصرف كأننى أقرأ لـ "إميلين" فقط، ظللت أمثل بوجهى وصوتى، لكن طوال الوقت كنت أبقي عيني على "آديلاين"، وهى لم تكن تستمع فقط، فقد لمحت رجفة فى جفنيها، ظننت أن عينيها مغلفتان، لكن لا على الإطلاق، إنها تراقبنى من بين رموشها!

إنه تطور مثير للاهتمام للغاية، وأتوقع أنه سيكون محور مشروعى هنا.

ثم حدث آخر ما كنت أتوقعه، تغير وجه الطبيب، نعم، تغير، أمام عيني مباشرة، كانت واحدة من اللحظات التي يتخذ فيها وجهه بُعدًا جديدًا، تظل ملامحه مألوفة مثلما كانت من قبل، لكن يحدث لها تحول مذهل وتقدم نفسها من منظور جديد غير متوقع، أود أن أعرف الجزء المسئول داخل العقل البشري عن تحول وجوه من نعرفهم وتراقصها هكذا، لقد استبعدتُ الخداع البصري والظواهر المرتبطة بالضوء وما إلى ذلك، وتوصلت إلى استنتاج أن التفسير له جذور في نفسية الناظر، على أي حال، الحركة المفاجئة وإعادة ترتيب ملامح وجهه جعلتني أحملق إليه لبضع لحظات، وهو ما بدا غريبًا جدًا له بلا شك، ورأيت شيئًا غريبًا في تعبير وجهه حين توقفت ملامحه عن الحركة، شيئًا لم أستطع، ولا أستطيع سبر غوره، ولا يعجبني ما لا أستطيع سبر غوره.

تبادلنا الحملقة لبضع ثوان، كل ثانية محرجة كالأخرى، ثم غادر فجأة.

أتمنى ألا تنقل السيدة "دان" كتيبي، كم مرة يجب أن أقول لها إن الكتاب لا ينتهي إلا حين أنهيه؟ وإن كان واجبًا أن تنقله، لم لا تعيده إلى المكتبة من حيث جاء؟ ما الهدف من تركه على السلم؟

أجريت محادثة غريبة مع "جون" البستاني.

إنه عامل جيد، وأصبح الآن أكثر ابتهاجًا لأن حديقته التوبيارية تتعافى، ووجوده مفيد عمومًا في المنزل، إنه يشرب الشاي ويدردش في المطبخ مع السيدة "دان"، أحيانًا أجدهما يتحدثان بصوت خفيض، ما يجعلني أعتقد أنها ليست صماء مثلما تدعى، كنت لأتخيل أن ثمة علاقة حب بينهما لولا سنهما الكبيرة، لكن بما أن هذا مستبعد فإنني

في حيرة بشأن سرهما، واجهت السيدة "دان" بالأمر، ولم يكن هذا من دواعي سروري، لأنها وأنا لدينا تفاهم ودي بشأن غالب الأمور، وأظن أنها تؤيد وجودي هنا -لا أقصد أن عدم تأييدها كان ليشكل فارقًا- وقد أخبرتنى أنهما لا يتحدثان إلا عن شئون المنزل، الدجاجات التي ستقتل، والبطاطس التي ستقلع من الأرض، وما إلى ذلك، أصررت: "ولم الحديث بصوت خفيض هكذا؟" وأخبرتني أنه ليس خفيضًا مطلقًا، أو على الأقل ليس هكذا بالضبط، قلت: "لكنك لا تسمعينني حين أتحدث بصوت خفيض"، وردت بأن الأصوات الجديدة أصعب من التي اعتادتها، وإن كانت تفهم "جون" حين يتحدث بصوت خفيض فهذا لأنها عرفت صوته لسنوات، وصوتى لم تعرفه إلا منذ شهرين.

كنت قد نسيت تمامًا أمر الأصوات الخفيفة في المطبخ، حتى ذلك الموقف الغريب مع "جون"، في الصباح قبل بضعة أيام كنت أتمشى في الحديقة قبل الغداء مباشرة حين رأيت الطفل الذي كان يقتلع النباتات الضارة من حوض الأزهار تحت نافذة غرفة الدراسة، تطلعت إلى ساعتى، ومجددًا، كان وقت الدراسة، لم يرني الطفل، لأننى كنت مختفية وراء الأشجار، راقبته لدقيقة أو اثنتين، لم يكن يعمل مطلقًا، بل يسترخى على العشب، منهمك بشيء على العشب، تحت أنفه مباشرة، كان معتمرًا القبعة نفسها، تقدمت نحوه بنية أن أعرف اسمه وأعطيه محاضرة عن أهمية التعليم، لكن بمجرد أن رآنى هب واقفًا، وشد قبعته بإحكام على رأسه بيد واحدة، وركض بعيدًا بسرعة لم أرها من قبل، ذعره دليل كاف على ذنبه، الفتى يدرك تمامًا أنه يجب أن يكون بالمدرسة، بدا أنه يمسك كتابًا بيده وهو يجرى مبتعدًا.

ذهبت إلى "جون"، وحكى لي ما حدث للتو، قلت له إننى لن أسمح بعمل الأطفال لحسابه خلال ساعات الدراسة، وإن من الخطأ الإخلال بتعليمهم من أجل البنسات القليلة التى يتقاضونها، وإن لم يتقبل والداه ذلك فإننى سأذهب لمقابلتهما بنفسى، قلت له

إن كان ضروريًا للغاية أن يساعده أحد في أعمال البستنة فإنه يجب أن يتحدث مع السيد "أنجلفيلد" ويعين رجلاً، كنت قد اقترحت هذا من قبل، أن نجلب المزيد من العمالة، للحديقة وللمنزل، لكن "جون" والسيدة "دان" عارضا الفكرة جدًا ففكرت في أن من الأفضل أن أنتظر قليلاً حتى أتعرف أكثر على كيفية سير الأمور هنا.

رد "جون" بأن هز رأسه وأنكر معرفته بالطفل، وحين أكدت فكرة أنني رأيته بأمر عيني، قال إنه لا بد أن يكون أحد أطفال القرية جاء إلى هنا ليتجول، وإن هذا يحدث أحيانًا، وإنه غير مسئول عن المتغيبين عن مدارسهم في القرية الذين يأتون إلى الحديقة، قلت له حينئذ إنني رأيت الطفل من قبل، يوم وصلت، وبدا واضحًا أنه يعمل، كان "جون" صامتًا، فقط يكرر أنه ليس على علم بشأن الطفل، وأن أيًا من يريد يمكنه أن يقتلع النباتات الضارة من حديقته، وأن لا وجود لمثل هذا الطفل.

قلت لـ "جون" ببعض الغضب إنني لن أراجع، وإنني أنوى الحديث إلى مديرة المدرسة بشأن الطفل، وإنني سأذهب إلى والديه وأحل الأمر معهما مباشرة، لوح بيده ببساطة، كأنه يقول إن لا علاقة له بالأمر وأن أفعل ما يحلو لي (وهو ما سأفعله حقًا)، أنا واثقة من أنه يعرف الفتى، وأنا مصدومة من رفضه لمساعدتي في واجبي تجاهه، بدا غريبًا على شخصيته أن يعرقل جهودي، لكن حينئذ افترضت أنه بدأ تدريبه المهني حين كان طفلًا واعتقد أن الأمر لم يضره مطلقًا، مثل تلك السلوكيات بطيئة الزوال في المناطق الريفية.

=====

كنت منهمكة في المذكرات، وأجبرتني المعوقات على القراءة ببطء لأحل الألغاز ولأستخدم كل خبرتي ومعرفتي وخيالي في إكمال أشباح الكلمات، لكن يبدو أن المعوقات لا توقفني، على العكس، بدا أن

الهوامش المتلاشية، وغياب الوضوح، والكلمات الباهتة تنبض بالمعنى، إنها حية بوضوح.

بينما أنا أقرأ بهذا الأسلوب المستغرق، كان قرار يتشكل في جزء آخر تمامًا من عقلي، فحين دخل القطار المحطة التبادلية، وجدت القرار محسومًا في عقلي، لن أذهب إلى البيت في النهاية، سأذهب إلى "أنجلفيلد".

القطار المحلى إلى بانبرى مزدحم للغاية بمسافري عيد الميلاد للدرجة التى تمنع جلوسى، وأنا لا أقرأ أبدًا وقوفًا، ومع كل هزة للقطار، وكل تدافع وتعثر للمسافرين معى، شعرت بالشكل المستطيل لمذكرات "هيوست" على صدرى، لقد قرأت نصفها فقط، ويمكن للبقية أن تنتظر.

سألت نفسى: ماذا حدث لك يا "هيوست"؟ إلى أين ذهبت؟

هدم الماضي.

رأيت عبر النافذة أن مطبخه خالٍ، ولم أجد ردًا حين عدت إلى مقدم البيت وطرقت الباب.

ربما سافر؟ يسافر الناس في هذه الفترة من العام، لكنهم بالطبع يذهبون إلى عائلاتهم، لذا فـ"أوريليوس"، الذي بلا عائلة، سيبقى هنا، ورد سبب غياب "أوريليوس" إلى بالي متأخرًا: إنه بالخارج يوصل الكعكات إلى حفلات عيد الميلاد، وأين غير ذلك قد يكون متعهد أغذية قبل عيد الميلاد مباشرة؟ يجب أن أعود لاحقًا، وضعت البطاقة التي اشتريتها في صندوق البريد وانطلقت عبر الغابة إلى منزل أنجلفيلد.

الجو بارد، بارد كفاية لدرجة هبوط الثلوج، والأرض جليدية تحت قدمي، والسماء فوقى بيضاء على نحو مخيف، تقدمت بحذر، ورفعت شالي بعلو أنفي فندفات سريعًا.

توقفت في الأرض مقطوعة الأشجار، ورأيت نشاطاً غير عادي على مبعدة، عند المنزل، عبست، ترى ماذا يحدث؟ كاميرتي معلقة برقبتى تحت معطفى، وتسلسل البرد إلى الداخل بمجرد أن فككت أزرار المعطف، راقبت ما يحدث باستخدام عدستى طويلة المدى، رأيت سيارة شرطة في مدخل العربات، وعربات البنائين وآلاتهم ساكنة، وهم أنفسهم محتشدون في كتلة غير منتظمة، لا بد أنهم أوقفوا العمل قبل وهلة، لأنهم يضربون يداً بيد وينبشون الأرض بأرجلهم للتدفئة، خوذاتهم إما على الأرض وإما متدلية بأربطتها عند أكواعهم، قدّم أحدهم علبة سجائر، وبين الحين والآخر يوجه أحدهم تعليقاً للآخرين، لكن تلك المحاولات لم تُبدأ أى محادثات، حاولت أن أفهم تعبيرات وجوههم غير المبتسمة، أهو ملل؟ قلق؟ فضول؟ وقفوا مولين ظهورهم للموقع، يواجهون الغابة وعدستى، لكن بين الحين والآخر يلقي أحدهم نظرة وراء كتفه على المشهد وراءهم.

انتصبت خيمة بيضاء لتغطى جزءاً من الموقع وراء مجموعة الرجال، لقد اختفى المنزل، لكننى خمنت أن الخيمة منصوبة مكان المكتبة بناء على مكان استراحة العربات وطريق الحمصى والكنيسة، وإلى جانب الخيمة يقف أحد زملائهم ورجل استنتجت أنه مديرهم، وكانا في خضم محادثة مع رجلين آخرين، يرتدى أحد هذين الرجلين بذلة وعليها معطف، والآخر يرتدى زى الشرطة، كان المدير هو من يتحدث، بسرعة وبإيماءات وهزات رأس تدل على الشرح، لكن حين طرح الرجل ذو المعطف سؤالاً، كان البناء هو من أجابه، وحين أجابه، تطلع إليه الرجال الثلاثة باهتمام.

بدا غير متأثر بالبرد، وتكلم بجمل قصيرة، ولم يتكلم الآخرون بسبب وقفاته الطويلة والمتكررة، لكنهم تطلعوا إليه بصبر واهتمام، وفي لحظة ما، رفع إصبعاً باتجاه آلة وقلد أسنانها المدببة وهى تعض

الأرض، وفي النهاية، هز كتفيه وعبس وجهه، ومسح بيديه على عينيه كأنه يطهرها من الصورة التي استحضرها للتو.

انفتح باب في جانب الخيمة البيضاء، وخرج منه رجل خامس وانضم إلى المجموعة، حدث تشاور سريع غير مبتسم وفي نهايته ذهب المدير إلى مجموعة الرجال خاصته وتحدث إليهم بضع كلمات، أومؤوا، وكأن ما قيل لهم هو ما كانوا يتوقعونه بالكامل، وبدؤوا جمع الخوذات والقوارير الحرارية عند أقدامهم واتخذوا طريقهم إلى سياراتهم المتوقفة قرب بوابات المنازل، تمركز الشرطي بزى الشرطة عند مدخل الخيمة، وأرشد الآخر البناء ومديره إلى سيارة الشرطة.

خفضت الكاميرا ببطء، لكنني تابعت الحملقة إلى الخيمة البيضاء، وميزت تلك البقعة، فقد ذهبت إليها بنفسى، وتذكرت الخراب الذي في تلك المكتبة المدنسة، تذكرت رفوف الكتب المنهارة، والعوارض التي هبطتمحطمة الأرضية، وتذكرت تلذذي بالخوف وأنا أتعثر بالأخشاب المكسورة والمحترقة.

توجد جثة بتلك الغرفة، مدفونة في الصفحات المحترقة، وتتخذ خزانة الكتب نعشًا لها، إنه قبر مخفى ومحمى لنصف قرن بالعارضات التي سقطت.

لم أستطع مقاومة ذلك الإحساس، لقد كنت أبحث عن شخص، ويبدو أن أحدًا قد عُثر عليه، ذلك التزامن لا يُقاوم، كيف لا أربط بين الحدثين؟ لكن "هيوستن" غادرت قبل الحريق بعام، أليس كذلك؟ لمَ قد تعود؟ ثم صدمتني الفكرة، وبساطتها هي ما جعلتني أفكر في أنها قد تكون صحيحة.

ماذا لو أن "هيوستن" لم تغادر بالأساس؟

حين بلغت حافة الغابة رأيت الطفلين الأشقرين قادمين عند الطريق الداخلى والبؤس بادٍ عليهما، تمائلا وترنحا وهما يمشيان،

وتوجد قنوات سوداء متعرجة من آثار حفر آلات البنائين الثقيلة في الأرض تحت أقدامهما، ولم يكونا ينظران إلى حيث يخطوان، بل تطلعا وراء كتفيهما باتجاه مجيئهما.

الفتاة هي من التفتت ورأتني أولاً، حين فقدت توازنها وكادت تسقط، فتوقفت، وحين رآني أخوها اعتد بنفسه بسبب ما يعرفه وتكلم.

"لا يمكنك الذهاب إلى هناك، هكذا قال الشرطي، يجب أن تظلي بعيدة".

"أفهم ذلك".

أضافت الفتاة بخجل: "لقد نصبوا خيمة".

قلت لها: "رأيت ذلك".

ظهرت أمهما تحت قنطرة بوابة المنازل الصغيرة وكانت منقطعة الأنفاس قليلاً: "أنتما الاثنان بخير؟ رأيت سيارة الشرطة في شارع (ذا ستريت)"، ثم التفتت إلي: "ماذا يحدث؟"

أجابتها الفتاة: "لقد نصبت الشرطة خيمة ولن يُسمح لك بالاقتراب، قالوا إننا يجب أن نعود إلى المنزل".

تطلعت المرأة الشقراء إلى الموقع وعبست باتجاه الخيمة البيضاء: "أليس هذا ما يفعلونه حين...؟" لم تكمل سؤالها أمام الطفلين، لكنني عرفت مقصدها.

قلت: "أعتقد أن هذا ما حدث"، رأيت رغبتها في جذب طفلها نحوها لطمأنتهما، لكنها اكتفت بتعديل شال الولد وتمسيد شعر ابنتها لتبعده عن عينيها.

قالت للطفلين: "هيا، الطقس بارد ولا يجب أن نظل بالخارج على أي حال، لنعد إلى المنزل ونحتس الكاكاو".

اندفع الطفلان عبر بوابة المنازل وتسابقا في شارع "ذا ستريت"، ربطتهما معًا خيط خفى، وسمح ل كليهما بالتأرجح حول الآخر أو الاندفاع في أي اتجاه، وكل منهما مدرك أن الآخر سيظل قريبًا، على بُعد الخيط.

راقبتهم وشعرت بفراغ فظيع إلى جانبى.

تباطأت أمهما إلى جانبى: "سيفيدك أنت أيضًا بعض الكاكاو، أليس كذلك؟ تبدين شاحبة كالشبح".

تسايرنا وراء الطفلين وقلت لها: "اسمى (مارجريت)، أنا صديقة (أوريليوس لوف)".

ابتسمت: "أنا (كارين)، أعتنى بالغزلان هنا".

"أعرف، أخبرنى (أوريليوس)".

ضحكت الفتاة على أخيها أمامنا، فركض فجأة إلى نهر الطريق ليهرب منها.

صاحت رفيقتى: "(توماس أمبروز بروكتور)! عد إلى الرصيف!"

وقع هذا الاسم على كالصاعقة: "ما اسم ابنك مجددًا؟"

التفتت إلى الأم، بفضول.

"الأمر فقط.. أن رجلاً عمل هنا منذ سنوات اسمه (بروكتور)".

"إنه والدى (أمبروز بروكتور)".

توقفت حتى أفكر بوضوح: "(أمبروز بروكتور).. الفتى الذى عمل مع (جون ذا ديج).. والدك؟"

"(جون ذا ديج)؟ أتقصد (جون ديجنس)؟ نعم، هو من أمّن لوالدى العمل هناك، لكن ذلك كان قبل مولدى بفترة طويلة، كان والدى فى خمسيناته حين وُلدت".

بدأت ببطء أتابع السير: "سأقبل بعرض الكاكاو، إذا لم تمنعني،
ولدى شيء أريه لك".

أخذت علامتي من دفتر مذكرات "هيستر"، وابتسمت "كارين"
لحظة رأت الصورة، وجه ابنها الجاد، يملؤه الفخر، تحت حافة
الخوذة، وكتفاه جامدتان، وظهره مستقيم: "أذكر يوم عاد إلى المنزل
وقال إنه سيرتدي خوذة صفراء، سيرس جداً إن أخذ الصورة".

"هل رأت ربة عملك، السيدة (مارش)، (توم) من قبل؟"

"رأت (توم)؟ بالتأكيد لا! يوجد اثنتان كما تعرفين، السيدتان
(مارش)، إحداهما كانت دوماً متأخرة ذهنيّاً قليلاً، أعرف ذلك، لذا
فالأخرى هي من تدير الأملاك، مع أنها منعزلة بعض الشيء، لم تعد
إلى آنجلفيلد منذ الحريق، حتى أنا لم أرها قط، محاموها هم وسيلتنا
الوحيدة للاتصال بها".

وقفت "كارين" أمام الموقد منتظرة أن يسخن الحليب، ووراءها،
أظهرت النافذة الصغيرة الحديقة وما يليها، إنها الحقول حيث جرت
"آديلاين" و"إيميلين" في الماضي عربية "ميرلي" والرضيع بداخلها، ربما
تغيرت قليلاً بضع تفصيلات منذ حينها.

احتجت إلى توخي الحذر لثلا أحكى أكثر من اللازم، لم تبد "كارين"
أى إشارة إلى أنها تعرف أن السيدة "مارش" خاصتها، سيدة "آنجلفيلد"،
هي نفسها السيدة "وينتر" التى رأيت كتبها في الخزانة بالردده وأنا
أدلف.

أوضحت: "الأمر فقط أننى أعمل لحساب عائلة (آنجلفيلد)، أكتب
عن طفولتهم هنا، وحين كنت أرى ربة عملك بعض الصور للمنزل،
وصلنى انطباع بأنها تعرفه".

"لا يمكن، إلا إذا..."

أخذت الصورة ونظرت إليها مجددًا، ثم دعت ابنها من الغرفة المجاورة: "توم؟ (توم)، هلا أحضرت تلك الصورة من رف المدفأة، ذات الإطار الفضي".

جاء "توم" حاملاً الصورة تتبعه أخته.

قالت له: "انظر، الأنسة لديها صورة لك".

تسللت ابتسامة مفاجئة سارة إلى وجهه حين رأى نفسه: "أيمكننى الاحتفاظ بها؟"

قلت: "نعم".

"اجلب لـ(مارجريت) صورة لجدك".

جاء إلى جانبي من المائدة وقدم الصورة المؤطرة إلى بخجل.

صورة قديمة لرجل صغير السن جدًا، بالكاد بلغ شبابه، سنه ربما ثمانية عشر عامًا أو أصغر، كان يقف قرب دكة ووراءه أشجار صنوبر مقصوصة، عرفت المكان في الحال، إنها الحديقة التوبيارية، خلع الفتى قبعته وحملها بيده، وتخيلت حركته بعين عقلي، يزيع قبعته بيد ويمسح بالأخرى جبهته، رأسه مائل إلى الخلف قليلاً، يحاول ألا يغمض عينيه تحت الشمس، وينجح في هذا بدرجة كبيرة، كماه مرفوعان إلى أعلى كوعيه، والزر الأعلى من قميصه مفتوح، لكن ثانياً بنطاله مكوية بأناقة، وقد نظف حذاء البستنة خاصته من أجل الصورة.

"أكان يعمل هناك حين حدث الحريق؟"

وضعت "كارين" أكواب الكاكاو على الطاولة وجاء الطفلان وجلسا ليشرباه: "أعتقد أنه التحق بالجيش بحلول ذلك الوقت، لقد غاب عن (آنجلفيلد) لفترة طويلة، قرابة خمسة عشر عامًا".

نظرت بتمعن إلى الصورة وقد بدا عليها القدم، نظرت إلى وجه الفتى، وأذهلنى التشابه بينه وحفيده، بدا لطيفًا.

"لم يتحدث كثيرًا عن شبابه، كان رجلًا متحفظًا، لكن هناك أمورًا أتمنى لو كنت عرفتُها، مثل سبب زواجه متأخرًا جدًّا، كان في منتصف أربعيناته حين تزوج بأمي، لا أستطيع مقاومة فكرة أن شيئًا ما حدث بماضيه، ربما انفطر قلبه؟ لكنك لا تفكرين بطرح مثل هذه الأسئلة وأنت طفلة، وحين كبرت..." وهزت كتفيها، بحزن، "كان والدًا لطيفًا، صبورًا، طيبًا، كان دائمًا ما يساعدني بأية وسيلة، ولكن الآن وأنا بالغة، أحيانًا يراودني شعور بأنني لم أعرفه حق المعرفة قط".

لفتت تفصيلة أخرى في الصورة نظري.

سألت: "ما هذا؟"

انحنى لتنظر: "إنها حقيبة لحمل الصيد، صيد الطيور تحديدًا، يمكن مدها على الأرض لوضع الصيد بداخلها، ثم تربطينها حوله، لا أعرف لم تظهر في الصورة، فهو لم يكن حارس الصيد قط، أنا واثقة بذلك".

قلت: "اعتاد أن يجلب للفتاتين أرنب أو طائرًا حين أرادتا"، وسرت هي لحصولها على هذه النبذة عن شباب والدها.

فكرت في "أوريليوس" وميراثه، فالحقيبة التي حُمل فيها كانت حقيبة صيد، وبالطبع كان بها ريش، فقد استُخدمت لحمل الطيور، وفكرت في قصاصة الورق، تذكرت قول "أوريليوس": "رسم يشبه حرف (إيه) في البداية"، وهو يرفع القصاصة الباهتة إلى النافذة، "ثم حرف (إس)، هنا، عند النهاية، بالتأكيد هي متلاشية قليلًا بتأثير السنين، يجب أن تمنى النظر، لكنك تستطيعين رؤيتها، صحيح؟" لم أتمكن من رؤيته، لكن ربما تمكن هو، ماذا لو لم يكن ذلك اسمه على قصاصة الورق؟ بل اسم والده، (أمبروز).

طلبت سيارة أجرة من منزل "كارين" إلى مكتب المحامى فى بانبرى، عرفت العنوان من تبادل الرسائل المتعلقة بـ "هيوست" معه، والآن تأخذنى "هيوست" إليه مجدداً.

لم ترد موظفة الاستقبال أن تزعم السيد "لوماكس" حين عرفت أننى لم أتفق على موعد: "إنها عشية عيد الميلاد، تفهمين قصدى". لكننى أصررت: "قولى له إننى (مارجريت ليا)، وجئت بشأن منزل (آنجليلدا) والسيدة (مارش)".

مظهر يوحى بأن هذا لن يمثل فارقاً، نقلت الرسالة إلى مكتبه، وحين خرجت أخبرتنى، على مضض بعض الشيء، أن أدخل مباشرة. السيد "لوماكس" الشاب ليس شاباً مطلقاً، إنه على الأرجح فى سن السيد "لوماكس" الكبير تقريباً حين ظهرت الفتاتان فى مكتبه تريدان المال لجنائز "جون ذا ديچ"، صافحنى بلمعة فضولية فى عينيه، وبنصف ابتسامة على شفتيه، وفهمت أننا بنظره متأمران، فلسنوات كان هو الوحيد الذى يعرف الهوية الأخرى لعميلته السيدة "مارش"، لقد ورث السر عن أبيه مع المكتب المصنوع من خشب الكرز وخزائن الملفات والصور على الجدار، والآن، بعد كل تلك الأعوام من السرية، جاءه شخص يعرف ما يعرفه.

"يسرنى لقاؤك يا سيدة (ليا)، كيف يمكننى أن أساعدك؟"

"لقد جئت من (آنجليلدا)، من موقع البناء، والشرطة هناك، لقد وجدوا جثة".

"أوه، أوه، يا إلهى!"

"أتظن أن الشرطة ستريد التحدث إلى السيدة (وينتر)؟"

حين ذكرت الاسم، ترددت عيناه إلى الباب بتروى، ليتأكد من أن لا أحد يسمعنا.

"سريدون الحديث مع مالكة المنزل كإجراء روتيني".

"ظننت ذلك"، وتابعت سريعًا، "الأمر أنها، ليست مريضة فقط..
أفترض أنك تعرف ذلك".

أومأ.

"فأختها تحتضر".

أومأ، بجدية، ولم يقاطعني.

"سيكون من الأفضل في ضوء هشاشتها وحالة أختها الصحية ألا
تسمع بشأن الاكتشاف على نحو مفاجئ، يجب ألا تسمع الخبر من
شخص غريب، ويجب ألا تكون وحيدة حين تعرف الخبر".

"ماذا تقترحين؟"

"بإمكاني العودة إلى يوركشاير اليوم، لو استطعت الوصول إلى
المحطة خلال الساعة التالية، أستطيع أن أكون هناك هذا المساء،
ستضطر الشرطة إلى التواصل معك للوصول إليها، أليس كذلك؟"

"نعم، لكن يمكنني تأخير الأمر لبضع ساعات، إنه وقت كافٍ
لتصلي إلى هناك، يمكنني أيضًا أن أقلك إلى المحطة إن شئت".

في هذه اللحظة رن الهاتف، تبادلنا نظرة قلقة وهو يرفع السماعة.

"عظام؟ حسنًا.. إنها مالكة العقار، نعم.. إنها مسنة وصحتها
ليست على ما يرام.. أختها، مريضة على نحو خطير.. هناك احتمالية
ما لشكل وشيك.. قد يكون من الأفضل.. في ضوء الظروف.. أعرف
أحدًا سيذهب إلى هناك شخصيًا هذا المساء.. جديرة بالثقة تمامًا..
جدًا.. بالفعل.. بكل معاني الكلمة".

كتب ملاحظة على ورقة، ودفعها إلى عبر المكتب، عليها اسم ورقم
هاتف.

"يريدك أن تهاتفه حين تصلين إلى هناك لتخبريه كيف آلت أمور السيدة، وسيتحدث معها إن كانت قادرة، ويمكنه الانتظار إن لم تكن قادرة، فالبقيا على ما يبدو ليست حديثة، والآن، متى موعد قطارك؟ يجب أن ننطلق".

رأى السيد "لوماكس" الكهل قليلاً غارقة في التفكير فقاد السيارة في صمت، ومع ذلك فقد بدا أن حماساً هادئاً يتغذى عليه، وفي النهاية حين انحرف إلى طريق المحطة لم يعد قادراً على احتواء نفسه، قال: "الحكاية الثالثة عشرة.. لا أفترض أنك...؟"

قلت له: "أتمنى لو كنت أعرفها، آسفة".

كست خيبة الأمل وجهه.

حين لوحت المحطة في الأفق، طرحت سؤالاً: "أيتصادف أنك تعرف (أوريليوس لاف)؟"

"متعهد الطعام! نعم، أعرفه، إنه عبقري في المطبخ!"

"منذ متى عرفته؟"

أجاب بلا تفكير - "في الواقع، ارتدنا المدرسة نفسها" - وفي منتصف جملته شابت صوته رجفة غريبة، كأنه استوعب عواقب سؤاله، فلم يفاجئه سؤاله التالي.

"متى عرفت أن السيدة (مارش) هي السيدة (وينتر)؟ أكان ذلك حين توليت أعمال والدك؟"

ازدرد وقال: "لا"، ورمش، "قبل ذلك، كنت لا أزال في المدرسة، جاءت إلى المنزل في يوم ما لتقابل والدي، فالمنزل أكثر خصوصية من المكتب، وكان لديهما بعض الأعمال ليتفقا بشأنها، ومن دون الخوض في تفاصيل سرية، أصبح واضحاً خلال المحادثة أن السيدة (مارش) والسيدة (وينتر) هما الشخص نفسه، لم أكن أتصت، بل حدث ذلك بغير

قصد، كنت تحت مائدة الطعام حين دخلا -وقد كسا المفرش المائدة وجعلها شبيهة بالخيمة- ولم أرد أن أخرج والدى بالظهور فجأة، لذا ظللت هادئًا.

تُرى ماذا قالت له السيدة "وينتر"؟ فلا توجد أسرار في بيت به أطفال.

توقفنا أمام المحطة، والتفتت السيد "لوماكس" الصغير بعينه المذهولتين إلي: "لقد قلت لـ(أوريليوس) يوم أخبرني أنه عُثر عليه في ليلة الحريق، قلت له إن السيدة (آديلاين أنجلفيلد) والسيدة (فيدا وينتر) هما الشخص نفسه، أنا آسف".

"لا تقلق بشأن هذا، لا يهم الآن على أي حال، كنت أتساءل فقط".

"أتعلم هي أنني كشفت لـ(أوريليوس) هويتها؟"

فكرت بشأن الرسالة التي أرسلتها إلى السيدة "وينتر" في البداية، وبشأن "أوريليوس" وبذلته البنية وهو عن قصة أصوله: "لو خمنت هي الأمر، فقد كان ذلك منذ عقود، وإن كانت تعرف، أظن أن من الممكن افتراض أنها لا تهتم".

زال الظل عن جبهته.

"شكرًا على التوصيلة".

وركضت نحو القطار.

مكتبة

t.me/t_pdf

مذكرات "هيوستن" (الجزء الثاني).

من المحطة أجريت اتصالاً بمتجر الكتب، لم يستطع والدي أن يخفي خيبة أمله حين أخبرته أنني لن آتي إلى البيت: "والدتك ستأسف لذلك".

"حقاً؟"

"بالطبع".

"يجب أن أعود، أظن أنني وجدت (هيوستن)".

"أين؟"

"لقد وجدوا عظاماً في (أنجلفيلد)".

"عظاماً؟"

"أحد البنائين اكتشفها وهو يحفر في موقع المكتبة اليوم".

"رحمتك يا إلهي".

"يجب أن يتواصلوا مع السيدة (وينتر) ليسألوها عن الأمر، وأختها تحتضر، لا يمكنني تركها وحدها هناك، إنها بحاجة إلى".
بدا صوته جاداً: "فهمت".

حذرته: "السيدة وينتر وأختها توأمان، لكن لا تخبر والدتي".

صمت، ثم اكتفى بقول: "ستنتبهين لحالك، أليس كذلك يا (مارجريت)؟"

بعد ربع ساعة كنت قد استقررت في مقعدى المجاور للنافذة وأخرجت مذكرات "هيستر" من جيبى.

يجب أن أهتم بفهم المزيد عن البصريات، فقد كنت جالسة مع السيدة "دان" في المرسم لمراجعة خطة وجبات الطعام للأسبوع، حين ملحت حركة مفاجئة في المرأة، صحت بانزعاج: "(إيميلين)!" لأنها لم يكن من المفترض أن تكون موجودة في المنزل من الأساس، بل في الخارج، تمارس تمرينها اليومي وتستنشق الهواء المنعش، لكنه خطئى بالتأكيد، فما كان علىّ إلا أن أنظر عبر النافذة ولو لمرة لأرى إذا ما كانت بالخارج، هى وأختها، وتلعبان بلطف أم لا، ولا بد أن ما رأيته -أو لمحته بشكل مضلل، لأكون دقيقة- كان وميض ضوء شمس جاء من النافذة وانعكس على المرأة.

عند التبصر بشأن الانعكاس (التبصر بشأن الانعكاس! إنها تورية غير مقصودة!)، نجد أن سيكولوجيا الرؤية هى ما سببت سوء فهمى، أو شيء ما له الغرابة نفسها في عالم البصريات، فعند الاعتياد على رؤية الفتاتين تتجولان في المنزل بأماكن لا يُتوقع وجودهما فيها، وحين يُتوقع أن تكونا في مكان آخر، يعتاد المرء على تفسير كل حركة عند طرف عينه على أنها دليل على وجودهما، وبالتالي فإن انعكاس

وميض أشعة الشمس على المرأة يقدم نفسه بشكل مقنع جدًا كأنه فتاة ترتدى فستانًا أبيض، وللوقاية من أخطاء كهذه، يجب أن يعلم المرء نفسه أن يرى كل شيء بلا تصورات مسبقة، حتى يهجر كل أنماط التفكير المبنية على إعادة، يمكن أن يُساق الكثير من القول دعمًا لهذا الأسلوب من حيث المبدأ، مثل حيوية العقل! والتفاعل مع العالم على نحو عذري! فالكثير من الاكتشافات العلمية تقوم على التطلع من منظور جديد إلى ما رآه الناس وظنوا أنهم فهموه لقرون، ومع ذلك، لا يستطيع المرء عيش حياته العادية بمثل هذه المبادئ، تخيل الوقت الذي سنحتاج إليه إن اضطررنا إلى إعادة التدقيق في كل جوانب الحياة في كل دقيقة يوميًا، لا، حتى نحرر أنفسنا مما هو دنيوى، من الضروري أن نعهد بالكثير من تفسيرنا للعالم إلى ذلك الجزء السفلى من المخ الذى يتعامل مع المحتمل والمفترض والمرجح، مع أن في بعض الأحيان يقودنا ذلك إلى الضلال ويتسبب في رؤيتنا لوميض شعاع الشمس على أنه فتاة ترتدى فستانًا أبيض، في حين أن كليهما أبعد ما تكون عن الأخرى.

يتجول عقل السيدة "دان" أحيانًا، أخشى أنها استوعبت القليل جدًا من محادثتنا عن خطط الوجبات، وأنا سنضطر إلى مراجعتها بالكامل مجددًا غدًا.

لدى خطة صغيرة بشأن نشاطاتي هنا والطبيب.

لقد أخبرته مطولاً عن اعتقادي أن "آديلاين" تظهر اضطرابًا عقليًا لم أره ولم أقرأ عنه من قبل، ذكرت الأوراق البحثية التى كنت أقرأها عن التوائم ومشكلات النمو المرتبطة بهم، ورأيت وجهه يستحسن قراءاتي، أظن أن لديه فهم أوضح الآن لقدراتي وموهبتي، لم يكن يعرف أحد الكتب التى تحدثت عنها وقدمت له ملخصًا للحجج

والبراهين الواردة فيه، وتابعت بأن أشرت إلى أوجه التضارب الهامة والقليلة التى لاحظتها فيه، وأن أوضح كيف، لو كان كتابي، كنت لأعدل استنتاجاتي وتوصياتي.

ابتسم إلى الطبيب في نهاية حديثي، وقال، بلطف: "ربما يجب أن تكتبى كتابًا خاصًا بك"، وهذا تحديدًا هو ما أتاح لى الفرصة التى كنت أسعى لها منذ فترة.

أوضحت له أن دراسة الحالة المثالية لمثل هذا الكتاب موجودة، هنا في منزل "أنجلفيلد"، وأننى يمكننى تكريس بضع ساعات يوميًا للعمل على كتابة ملاحظاتي، صغت عددًا من المحاولات والتجارب التى يمكن تنفيذها لاختبار نظريتي، وتعرضت باختصار للأهمية التى سيحظى بها الكتاب النهائى في عيون المؤسسة الطبية، ثم أعربت عن أسفى لحقيقة أن خبراتى ومؤهلاتى الرسمية كلها ليست فخمة كفاية لإغراء ناشر، وفي النهاية اعترفت بأننى، بصفتى امرأة، لست واثقة من قدرتى على تنفيذ مثل هذا المشروع الطموح، لكن وجود رجل سيحقق أفضل نتائج، فقط لو وجدت رجلًا ذكيًا وواسع الحيلة، وحساسًا وعلميًا، ومطلعًا على تجربتى ودراسة الحالة خاصتى.

زرعت بذلك في باله بذرة فكرة، وحققت المرجو منها تحديدًا: أن نعمل معًا.

أخشى أن السيدة "دان" ليست بخير، أقفل الأبواب وهى تفتحها، أفتح الستائر وهى تغلقها، وكتبى لا تزال تغادر أماكنها! إنها تحاول أن تتجنب المسئولية عن أفعالها عبر التأكيد أن المنزل مسكون.

يأتى حديثها عن الأشباح بالصدفة تمامًا في اليوم الذى يختفى فيه الكتاب الذى قرأت نصفه، لتحل محله رواية قصيرة لـ "هينرى

جيمس"، لا أظن أن السيدة "دان" هى من أبدلتهم، فهى نفسها بالكاد تعرف القراءة، ولا تميل إلى نظم المقالب، من الواضح أنها إحدى الفتاتين، ما يجعل الأمر جديرًا بالملاحظة هو أن صدفه مذهلة جعلتها خدعة أذكى مما اعتقدتها، لأن الكتاب عبارة عن قصة سخيصة جدًا عن معلمة منزلية وطفلين تلازمهما الأشباح، أخشى أن السيد "جيمس" قد فضح جهله، فهو يعرف القليل عن الأطفال ولا يعرف شيئًا عن المعلمات المنزليات.

قضى الأمر، لقد بدأت التجربة.

كان الفصل بينهما مؤلمًا، ولو لم أعرف ما فيه من خير، لاعتبرت نفسى قاسية لأننى جلبته عليهما، تنجح شهقات "إيميلين" فى فطر قلبى، تُرى كيف وقع الأمر على "آديلاين"؟ لأنها ستكون الأكثر تغيرًا بتجربة الحياة المستقلة، سأعرف غدًا فى اجتماعنا الأول.

ليس هناك وقت لأى شئ سوى الأبحاث، لكننى نجحت فى فعل شئ إضافى مفيد، أجريت محادثة مع معلمة المدرسة بالصدفة خارج مكتب البريد، أخبرتها أننى تحدثت إلى "جون" بشأن التلميذ الهارب، وأنها يجب أن تأتى إلى إن غاب الفتى مجددًا بلا سبب، تقول إنها معتادة على التدريس لنصف الفصل فقط فى أوقات الحصاد حين يذهب الأطفال لمساعدة والديهم فى الحقول، لكنه ليس وقت الحصاد، والطفل كان يقتلع الأعشاب الضارة من الحديقة، أو هكذا قلت لها، سألتنى أى طفل كان ذلك، وشعرت بالحماسة لأننى لم أستطع أن أخبرها، القبة المميزة لا تساعد مطلقًا فى التعريف به، بما أن الأطفال

لا يرتدون قبعات في الفصول، يمكنني سؤال "جون" بشأن ذلك، لكنني أشك بأن يعطيني معلومات أكثر من المرة السابقة.

لا أكتب يومياتي كثيرًا مؤخرًا، أجد أني بعدما أنتهى بوقت متأخر من الليل من كتابة تقاريرى اليومية عن تقدم "إيميلين"، أكون عادة متعبة للغاية إلى حد يمنعنى من متابعة تسجيل أنشطتى، وأريد أن أبقى سجلًا لتلك الأيام والأسابيع، لأننى أشارك الطبيب فى بحث مهم للغاية، وفى السنوات التالية حين أرحل بعيدًا وأغادر هذا المكان، ربما أود النظر إلى الوراء والتذكر، ربما جهودى مع الطبيب ستفتح لى بابًا للمزيد من العمل من هذا النوع، لأننى أجد العمل الفكرى والعلمى أكثر استحوادًا علىّ وأكثر إرضاءً لى من أى شىء فعلته مطلقًا، هذا الصباح مثلاً، أجريت والطبيب "مودسلى" المحادثة الأكثر إثارة بشأن موضوع استخدام "إيميلين" للضمائر، إنها تظهر ميلًا أكبر من أى وقت سبق للتحديث لى، وقدرتها على التواصل تتحسن يوميًا، لكن الجانب الوحيد من كلامها المقاوم للتطور هو استخدام ضمير المتكلمين، فتقول: "نحن ذهبنا إلى الغابة"، ودائمًا ما أصحح لها: "أنا ذهبت إلى الغابة"، ومثل ببغاء صغير سكرر "أنا ذهبت"، لكن فى العبارة التالية مباشرة تقول: "نحن رأينا قطعة صغيرة فى الحديقة"، أو شيئًا مثل هذا.

الطبيب وأنا مأسوران للغاية بهذه الخصلة الغريبة، إنها ببساطة عادة كلامية راسخة نقلتها من لغة التوأمين إلى الإنجليزية، هل ستصحح نفسها بمرور الوقت؟ أم أن التوأم راسخة فيها لدرجة أن حتى لغتها مقاومة لفكرة أن تكون لها هوية منفصلة عن أختها؟ أخبرت الطبيب بشأن الأصدقاء الخياليين الذين يبتكرهم الكثير من الأطفال المضطربين، واستكشفنا معًا آثار ذلك، ماذا لو أن اعتمادية الطفلة على توأمها كبيرة جدًا لدرجة أن الفصل يسبب صدمة عقلية

تجعل العقل التالف يبت السلى عبر خلق أخت خيالية، أو رفيقة خيالية؟ لم نصل إلى استنتاج مُرضٍ، لكننا افترقنا برضا عن أننا حددنا مجالاً آخر للدراسة المستقبلية: علم اللغويات.

بين ما يحدث مع "إميلين"، والأبحاث، وأعمال المنزل العامة التى يجب القيام بها، أجد نفسى أنام قليلاً جداً، وعلى الرغم من احتياطى من الطاقة، الذى أحافظ عليه بالنظام الغذائى الصحى والتمرين، يمكننى تمييز أعراض الحرمان من النوم، أزج نفسى بأن أضع أشياء فى أماكن وأنسى أين تركتها، وحين أعود إلى كتابى ليلاً، تخبرنى علامتى أننى فى الليلة الماضية طويت الصفحات بلا قراءة، لأننى لا أتذكر مطلقاً الأحداث التى فى الصفحة السابقة أو التى قبلها، مسببات الإزعاج تلك والإرهاق الدائم هى الثمن الذى أدفعه مقابل رفاهية العمل بجانب الطبيب على مشروعنا.

ومع ذلك، فإن هذا ليس ما أردت الكتابة بشأنه، قصدت أن أكتب عن عملنا، ليس عن اكتشافاتنا الموثقة باستفاضة فى أوراقنا، بل عن أنماط عقليتنا، الطلاقة التى يفهم بها كل منا الآخر فهما اللحظى المتبادل الذى يمكننا من التصرف بلا كلام تقريباً، مثلاً حين يستغرق كلانا فى تسجيل التغيرات فى أنماط نوم مدرستينا، ويود لفت انتباهى إلى شىء، لا يكون بحاجة إلى الكلام، لأننى أشعر بعينيه على، عقله ينادينى، فأرفع رأسى عما أنشغل به، مستعدة تماماً له ليوضح أيّاً كان ما سيوضحه.

المتشككون قد يعتبرون هذا صدفة بحتة، أو يظنون أننى أضخم توالى الصدف وأتخيل أنه يحدث كأنه عادة، لكننى اكتشفت أنه حين يعمل شخصان معاً على نحو وثيق على مشروع مشترك -أقصد شخصين ذكيين- تتطور بينهما رابطة تواصل يمكنها تطوير عملهما،

فحين يكونان مستغرقين معًا في مهمة، يكون كل منهما واعيًا بأدق حركات الآخر، ويكون حساسًا نحوها للغاية، ويمكنه تفسيرها على هذا الأساس، ويحدث ذلك من دون حتى رؤية الحركات لا متناهية الصغر، ولا يشتت عن العمل، على العكس، يحسنه، فسرعة فهمنا تصبح أكبر، دعوني أضيف مثالاً بسيطاً صغير، لكنه ينبو عن الكثير غيره من الأمثلة، في صباح اليوم، كنت عاكفة على بعض الملاحظات، أحاول أن أرصد نمطاً سلوكياً يظهر في ملاحظاته عن "آديلاين"، وحين مددت يدي لأخذ قلمًا لتدوين تعليق توضيحي في الهامش، شعرت بيد الطبيب تمس يدي برفق ومرر إلى القلم الذي أردته، تطلعت إليه لأشكره، لكنه كان مستغرقاً بشدة في أوراقه، غير واع تمامًا بما حدث، نعمل معًا بمثل هذه الطريقة: العقل واليد دائمًا متزامنان، ويتوقعان احتياجات الآخر وأفكاره، وحين نكون بعيدين، وهى حالنا معظم اليوم، نفكر دائمًا في الأفكار الصغيرة المتعلقة بالمشروع، أو ملحوظات أخرى عن الجوانب الأوسع للحياة والعلوم، وحتى هذا يوضح مدى تلاؤمنا للعمل معًا.

لكننى ناعسة، ومع أننى بإمكانى الكتابة مطولاً عن مباحث المشاركة في تأليف ورقة بحثية، فإن الوقت قد حان حقًا للنوم.

لم أكتب منذ أسبوع تقريبًا، ولن أقدم أعذارى المعتادة، لقد اختفى دفتر يومياتي.

تحدثت مع "إيميلين" بشأن الأمر -بطيبة، وبجدية، وبعرض الشوكولاتة، وبالتهديد بالعقاب (نعم، لقد انهارت أساليبي، لكن بصراحة فقدان دفتر اليوميات يمس المرء على نحو شخصي أكثر من أى شيء)- لكنها تستمر في إنكار كل شيء، محاولات إنكارها متسقة وتظهر علامات عدة على حسن النية، أى شخص لا يعرف السياق

العام كان ليصدقها، وبناء على معرفتي الكبيرة بها، وجدت السرقة غير متوقعة، وأجد صعوبة في تفسيرها ضمن التقدم العام الذي أحرزته، إنها لا تستطيع القراءة وليس لديها اهتمام بأفكار الآخرين وشئونهم الداخلية، باستثناء ما قد يؤثر فيها مباشرة، لم قد تريد الدفتر؟ أفترض أن لمعان القفل هو ما أغراها، فولعها بالأشياء اللامعة لا يقل، ولا أحاول أن أقلله، فهو عادة غير ضار، لكنني خائبة الأمل فيها.

لو كنت سأحكم على أساس محاولاتها للإنكار وشخصيتها فقط، فإنني سأستنتج أنها بريئة من السرقة، لكن الحقيقة تظل أنه لا يمكن أن يكون شخصاً آخر.

"جون؟" السيدة "دان"؟ حتى عند افتراض أن الخادمين كانا يريدان سرقة دفتر يومياتي، وهو ما لا أصدقه لدقيقة، أذكر بوضوح أنهما كانا منشغلين في مكان آخر في المنزل حين اختفى الدفتر، وفي حال كنت مخطئة بشأن ذلك، فإنني وجهت محادثات معهما إلى أنشطتهما، وأكد "جون" أن السيدة "دان" كانت في المطبخ طوال الصباح (قال: "وأحدثت الجلبة المميزة لها أيضًا")، وأكدت هي أن "جون" كان في استراحة العربات يصلح السيارة ("إنها قديمة مزعجة")، لا يمكن أن يكون أحدهما.

وبالتالي، بعدما استبعدت المشتبه بهم الآخرين، أنا مجبرة على تصديق أنها "إيميلين".

وحتى الآن لا أستطيع التخلص من شكوكي، حتى الآن يمكنني تخيل وجهها - ذى المظهر البريء للغاية، والمكروب للغاية أمام هذا الاتهام - وأنا مجبرة على التساؤل، أ يوجد عامل إضافي ما مؤثر هنا لم أضعه في الحسابان؟ حين أنظر إلى الأمر من هذا المنظور يثير داخلي اضطرابًا: أجد نفسي فجأة غارقة في الشعور بأنه ليس مخططاً لأي من خططي

أن تُثمر، شيء ما يقف ضدى منذ جئت إلى هذا المنزل! شيء يريد أن يعيقنى ويحبطنى فى كل مشروع أنفذه! لقد فكرت وأعدت التفكير، وأعدت تتبع كل خطوة فى منطقى، لا أستطيع إيجاد أى عيب، ومع ذلك لا أزال أجد الشكوك تهاجمنى، ما الذى أخفق فى أن أراه؟

بعد إعادة قراءة تلك الفقرة السابقة، أنا مصدومة أمام نقص الثقة بالنفس غير المعهود فى نبرتى، بالتأكيد إنه الإرهاق فقط هو ما يجعلنى أفكر فى ذلك، فالعقل غير المرتاح محكوم عليه بالتجول فى سبل غير مجدية، وهو ليس بالشئ الذى لا يقدر نوم ليلة هنيئة على معالجته.

إلى جانب ذلك، فإن الأمر كله منتهٍ الآن، فها أنا، أكتب فى دفتر يومياتى المفقود، لقد حبست "إيميلين" فى غرفتها لأربع ساعات، ولست ساعات فى اليوم التالى، وعرفت هى أن فى اليوم التالى ستكون ثمانى ساعات، وفى اليوم الثانى، بعد فترة قصيرة من هبوطى بعد فتح قفل غرفتها، وجدت الدفتر على مكتبى فى غرفة الدراسة، لا بد أنها تسلفت بهدوء جداً لتضعه هناك، لم أرها تمر من أمام باب المكتبة إلى غرفة الدراسة مع أننى تركت الباب مفتوحاً عمداً، لكن الدفتر رُد، لذا لم يعد من مجال للشك، أليس كذلك؟

أنا متعبة جداً ومع ذلك لا أستطيع النوم، أسمع أصوات خطوات فى الليل، لكن حين أذهب إلى باب غرفتى وأنظر إلى الممر لا أجد أحداً.

أعترف بأن الأمر أزعجنى -ولا يزال يزعجنى- أن أفكر فى أن هذا الكتاب الصغير لم يكن معى لمدة يومين، فكرة أن يقرأ شخص آخر

كلماتى هى أكثر ما يزعجنى، لا يسعنى إلا التفكير فى كيفية تفسير شخص آخر لأشياء معينة كتبتها، لأنى حين أكتب لنفسى فقط، وأعرف تمام المعرفة حقيقة ما أكتب، ربما أكون أقل حرصًا فى تعبيرى، وأكتب بسرعة، وربما أعبر أحيانًا عن نفسى بطريقة تمكن إساءة فهمها من قبل الشخص الآخر، الذى لن يحمل رؤيتى نفسها لما أقصده حقًا، بالتفكير فى بعض الأمور التى كتبتها (الطبيب والقلم - حدث غير مهم كهذا- بالكاد يستحق أن يُذكر من الأساس) أدرك أنها قد تبدو لشخص غريب بشكل مختلف جدًا عما قصدته، وأنا أتساءل إن كان يجب أن أمزق هذه الصفحات وأتلفها أم لا، لكننى لا أريد فعل هذا، لأن مثل هذه الصفحات هى أكثر ما أريد قراءته لاحقًا، حين أكون مسنة ورحلت من هنا، وألثفت إلى ما يبثه عملى من سرور، وإلى التحدى الكامن فى مشروعنا العظيم.

لم لا يجب أن تكون صداقة علمية مصدرًا للفرح؟ هذا لا يجعلها أقل علمية، أليس كذلك؟

لكن ربما الحل هو أن أتوقف عن الكتابة تمامًا، لأننى حين أكتب، حتى الآن وأنا أكتب هذه الجملة تحديدًا، وهذه الكلمة بالذات، أدرك وجود قارئ شبح يميل فوق كتفى ويشاهد قلمى، يلوى كلماتى ويشوه مقصدى، ويجعلنى غير مرتاحة فى خصوصية أفكارى.

الأمر مزعج للغاية أن يُقدّم المرء لنفسه فى صورة مختلفة جدًا عن الصورة المألوفة لديه، حتى حين يبدو بوضوح أنها صورة مزيفة. سأتوقف عن الكتابة.

النهايات

الشبح في الحاية.

رفعت عيني عن الصفحة الأخيرة من يوميات "هيوستن" والأفكار
تزاحم رأسي، اخترق عدد من الأشياء مجال انتباهي وأنا أقرأ، والآن
وقد أنهيت القراءة، لدى الوقت المناسب للتفكير فيها على نحو
منهجي.

قلت في بالي، أوه.

أوه.

ثم، أوه!

كيف أصف لحظة الإدراك؟ بدأت بسؤال "ماذا لو؟" ضال، ثم
تخمين جامح، ثم فكرة لا تُصدق، لقد كانت.. حسنًا، ربما ليست
مستحيلة، لكنها غير معقولة! فبداية...

كنت على وشك بدء ترتيب الحجج المضادة المعقولة لهذه الفكرة،
لكنني تجمدت في مكاني، لأن عقلي الذي يسابق نفسه بحدس لحظي

قد صدق بالفعل هذه الرواية المنقحة للأحداث، ففي لحظة واحدة، لحظة من الإبهار المحير، تفككت القصة التي حكتها لى السيدة "وينتر" وتشكلت من جديد، الأحداث جميعها متطابقة، والتفاصيل كلها متشابهة، لكن القصة مختلفة تمامًا وبعمق، مثل تلك الصور التي ترى فيها طائرًا صغيرًا إذا أمسكت الصفحة من ناحية، وعجوزًا شمطاء إذا أمسكت بها من الناحية الأخرى، مثل أجوبة الألغاز المخفية في الصور، التي لن تحلها إلا إن تعلمت أن ترى الحلول، لقد كانت الحقيقة أمامى منذ البداية، لكننى لم أرها إلا الآن.

تلت ذلك ساعة من التفكير العميق، فكرت في عنصر تلو الآخر، ونظرت عبر الزوايا المختلفة على حدة، وراجعت كل ما أعرفه، وكل ما قيل لى، وكل ما اكتشفته، قلت لنفسى، هذا صحيح، وهذا أيضًا صحيح، وذلك وذاك أيضًا، بث اكتشافى الحياة فى القصة، فبدأت تتنفس، وحين تنفست، بدأت تلتئم، فنعمت الأطراف المدببة نفسها، وملاأت الثغرات نفسها، وأعادت الأجزاء الناقصة تشكيل نفسها، وفسرت الأحاجى نفسها، ولم تعد الألغاز ألغازًا.

فى النهاية، بعد كل الحكى وسرد الخطوط الطويلة، وبعد الستائر الدخانية والمرايا الخادعة والخدع المزدوجة، عرفت الحقيقة.

عرفت ما رآته "هيوستن" يوم ظنت أنها رأت شيئًا.

عرفت هوية الطفل فى الحقيقة.

عرفت من هاجم السيدة "مودسلى" بالكمان.

عرفت من قتل "جون ذا ديج".

عرفت من كانت "إيميلين" تبحث عنه تحت الأرض.

سقطت التفاصيل في مكانها الصحيح، كلام "إميلين" مع نفسها وراء باب مغلق في أثناء إقامة أختها في منزل الطبيب، و"جين أير"، الكتاب الذى يظهر ثم يظهر مجدداً في القصة، مثل خيط فضى في زخارف سجادة حائط، وفهمت لغز علامة القراءة المتجولة الخاصة بـ"هيستر"، وظهور الكتاب واختفاء دفتر يومياتها، أفهم غرابة قرار "جون ذا ديج" بتعليم الفتاة التى دنست من قبل حديقته كيف تعتنى بها.

أفهم الفتاة وراء الغشاوة، وكيف ولماذا خرجت منها، أفهم كيف يمكن أن تذوب فتاة مثل "آديلاين" وتترك السيدة "وينتر" مكانها.

قالت لى السيدة "وينتر": "سأحكي لك حكاية عن توأمين"، فى المساء الأول بالمكتبة حين كنت على وشك المغادرة، كلمات أحدثت لقصى صدى غير متوقع، وعلقتنى بقصتها على نحو لا يُقاوم.

فى يوم من الأيام كانت هناك فتاتان توأمين...

الاختلاف الوحيد أننى الآن أعرف أكثر.

لقد وجهتنى إلى الاتجاه الصحيح فى تلك الليلة الأولى، فقط لو كنت أعرف كيف أسمع.

"أتصدقين وجود الأشباح يا آنسة (ليا)؟" هكذا سألتنى، "سأحكي لك حكاية عن الأشباح".

وقلت لها: "فى فرصة أخرى".

لكنها حكّت لى حكاية عن أشباح.

فى يوم من الأيام كانت هناك طفلتان رضيعتان...

أو بدلاً من ذلك: فى يوم من الأيام كانت هناك ثلاث.

فى يوم من الأيام كان هناك منزل، وكان المنزل مسكوناً.

كان الشبح، على الطريقة التقليدية للأشباح، خفيًا أغلب الوقت، ومع ذلك لم يكن خفيًا تمامًا، فقد أغلقت الأبواب التي تُركت مفتوحة، وفتحت الأبواب التي تُركت مغلقة، والحركة السريعة في المرأة التي تجعلك تتطلع إليها، وتيار الهواء وراء الستارة في حين أن كل النوافذ مغلقة، الشبح الصغير كان موجودًا في الحركة غير المتوقعة للكتب من غرفة إلى أخرى، وفي الحركة الغامضة لعلامة القراءة من صفحة إلى أخرى، تلك كانت يدها التي رفعت دفتر مذكرات "هيستر" من مكان وأخفته في آخر، ويدها التي بدلته لاحقًا، حين انعطفت إلى ممر، إن راودتك الفكرة الغريبة أنك لمحت نعل حذاء يختفى عند الزاوية البعيدة، فإن الشبح الصغير لم يكن بعيدًا، وحين فاجأك هذا الشعور في مؤخر عنقك بأن أحدًا يراقبك، ورفعت رأسك لتجد الغرفة خاوية، يمكنك أن تثق بأن الشبح الصغير يختبئ في الفراغ بمكان ما. يمكن لمن يمكنه أن يرى أن يتكهن بوجودها بعدد لانهائي من الطرق، لكن أحدًا لم يرها.

لقد سكنت المنزل بلطف، ولم تُحدث قط صوتًا بأطراف قدميها العاريتين، ومع ذلك فقد ميزت موطن قدم كل من سكنوا المنزل، وعرفت كل لوح أرضية وكل باب له صرير، كل ركن مظلم في المنزل كان مألوفًا لها، كل ركن وكل زاوية، لقد عرفت الفراغات وراء الخزانات وبين الرفوف، وعرفت مؤخر الأرائك وتحت المقاعد، تكون المنزل في عقلها من مئة مكان ومكان للاختباء، وقد عرفت كيف تنتقل بين هذه الأماكن على نحو خفي.

لم ترَ "إيزابيل" و"تشارلي" الشبح قط، فبأسلوب عيشهما خارج حدود المنطق وخارج حدود المعقول، لم يكونا من النوع الذي يحيره ما يتعذر تفسيره، إذ بدت لهما الأشياء الضائعة والمكسورة وتغير مكان الأغراض بعشوائية جزءًا من الكون الطبيعي، وسقوط ظل على

السجادة حيث لا يفترض أن يوجد ظل لم يجعلهما يتوقفان ويفكران، فمثل تلك الألغاز لم يبد إلا امتداداً طبيعياً للظلال التى فى قلبيهما وعقليهما، كان الشبح الصغير هو الحركة عند طرف عينيهما، والأحجية غير المعترف بها فى مؤخر دماغيهما، والظل الدائم المعلق بحياتهما دون معرفتهما، لقد فتشت عن بقايا الطعام فى خزانة طعامهما مثل الفأر، ودفأت نفسها بجمر موقدهما بعد خلودهما إلى النوم، واختفت فى تجاويف خرابهما لحظة ظهور أحد.

كانت هى سر المنزل.

ومثل كل الأسرار، كان لها أمانؤها.

رأت مدبرة المنزل الشبح الصغير بوضوح الشمس، على الرغم من ضعف بصرها، وهذا جيد، فمن دون تعاونها ما كان ليوجد بقايا كافية فى خزانة المون ولا فتات كاف من خبز الإفطار لتغذية الشبح الصغير، لأن من الخطأ الاعتقاد أن ذلك الشبح عبارة عن طيف أثري روحى، لا، إن له معدة، وحين تفرغ يجب ملؤها.

لكنها كسبت قوتها، لأنها كانت تقدم بقدر ما تأخذ، أما الشخص الآخر الذى لديه بصيرة رؤية الأشباح فهو البستاني، وكان ممتناً للحصول على بعض المساعدة، إذ ارتدت قبة عريضة الحواف وأحد بناطيل "جون" القديمة، بعدما قُص من كاحله وشكلته الدبابيس، فكان سكنها للحديقة مثمرًا، حيث أصبحت البطاطس تحت الأرض أكبر حجمًا تحت رعايتها، وفوق الأرض ازدهرت شجيرات الفاكهة، مثمرة عناقيد التوت التى قطفتها يداها تحت الأفرع المنخفضة، لم تكن لها لمسة سحرية على الفواكه والخضراوات فقط، بل وازدهرت الورود مثلما لم تزدهر من قبل، وعرفت لاحقًا الرغبة السرية لدى الأشجار بأن تتخذ شكلًا هندسيًا، فإن أرادت الصغيرة، تُنمى الأفرع والأوراق أركانًا وزوايا، ومنحنيات وخطوط مستقيمة رياضيًا.

لم يحتج الشبح الصغير إلى الاختباء في الحديقة وفي المطبخ، فمدبرة المنزل والبستاني هما حامياها، والوصيان عليها، لقد علماها سبل المنزل وكيف تكون آمنة فيه، وأطعماها، واعتنيا بها، وحين جاءت غريبة للعيش في المنزل، بعينين أكثر حدة من البقية، وبرغبة بإبعاد الظلال وإغلاق الأبواب، قلقا بشأنها.

لم يُكنّا لها شيئًا أكثر من الحب.

لكن من أين أتت؟ وما قصتها؟ فالأشباح لا يظهرون على نحو عشوائي، بل يأتون إلى حيث يعرفون أنه بيتهم، وقد كان الشبح الصغير بيته في هذا المنزل، ووسط هذه العائلة، ومع أنها لم يكن لها اسم، مع أنها لم تكن أحدًا، عرف البستاني ومدبرة المنزل من هي جيدًا، فقد كُتبت قصتها في شعرها النحاسي وعينيها الزمرديتين.

هذا الجزء هو الأغرب في القصة بالكامل، فقد حمل الشبح شبهًا خارقًا بالتوأمين اللتين تعيشان في المنزل، وكيف غير ذلك يمكن أن تعيش هناك دون أي شكوك طوال هذا الوقت؟ ثلاث فتيات بشعر نحاسي يغطى ظهورهن، ثلاث فتيات لهن أعين زمردية مذهلة، الأمر غريب، ذلك الشبه الذي تشاركه ثلاثتهن، أليس كذلك؟

قالت لي السيدة "وينتر": "حين ولدت، لم أكن إلا حبكة فرعية"، وبدأت الحكاية التي ذهبت فيها "إيزابيل" إلى النزهة، وقابلت "رولاند" وفي النهاية هربت للزواج به، فارة من عشق أخيها المظلم غير الأخوي، أما "تشارلي"، أمام تجاهل أخته له، فقد انطلق في حالة هياج، ينفس عن غضبه وعشقه وغيرته مع الأخريات، بنات الإيرلات⁽¹⁾ أو أصحاب المتاجر، بنات موظفي البنوك أو منظفي المداخن، لم تمثل هويتهن فارقًا حقيقيًا له، وموافقتهما أو من دونها، ألقى بنفسه عليهن يائسًا من أجل النسيان.

(1) إيرل لقب إنجليزي يعادل لورد.

ولدت "إيزابيل" توأميها في مستشفى بلندن، فتاتين بلا أي ملامح من زوج أمهما، شعرهما نحاسي، مثل خالهما تمامًا، وأعينهما خضراء، مثل خالهما تمامًا.

هنا تأتي الحبكة الفرعية: في الوقت ذاته، في إسطنبول ما أو في غرفة نوم منزل ريفي معتم، ولدت امرأة أخرى، ليست ابنة إيرل، حسبما أظن، ولا موظف بنك، فمُتيسرو الحال لديهم وسائل للتعامل مع المشكلات، لا بد أنها كانت ابنة امرأة ما مجهولة عادية بلا حيلة، وقد ولدت فتاة أيضًا، بشعر نحاسي وعينين زمرديتين.

إنها طفلة الغضب، طفلة الاغتصاب، إنها طفلة "تشارلي".

في يوم من الأيام كان هناك منزل اسمه "أنجلفيلد".

في يوم من الأيام كانت هناك توأمان.

في يوم من الأيام جاءت إلى "أنجلفيلد" ابنة خال، أو على الأرجح نصف شقيقة.

أجلس في القطار ويوميات "هيستر" مغلقة على حجرى، وقد تقلصت نوبة التعاطف الشديد التى بدأت أشعر بها تجاه السيدة "وينتر" حين تبادر إلى ذهني طفل آخر غير شرعى، "أوريليوس"، وتحول تعاطفى إلى غضب، لم فُرق عن أمه؟ ولم هُجر؟ ولم تُرك ليُدافع عن نفسه في العالم دون أن يعرف قصته؟

فكرت أيضًا في الخيمة البيضاء والبقايا التى تحتها التى أعرف الآن أنها لا تخص "هيستر".

تؤدي كل تلك المسارات إلى ليلة الحريق، إنه حريق متعمد، وقتل، وهجر رضيع.

حين وصل القطار إلى هاروجيت ونزلت إلى الرصيف، تفاجأت حين وجدت الثلوج تصل إلى كاحلي، فمع أنني كنت أحرق عبر نافذة القطار لمدة ساعة، لم أرَ أي شيء من المشهد بالخارج.

ظننت أنني عرفت كل شيء حين جاءتنى لحظة الإدراك.

حين أدركت أن "آنجلفيلد" لم يضم فتاتين فقط، بل ثلاثًا، ظننت أن بين يدي مفتاح القصة كلها.

في نهاية تأملاتي، أدركت أنني إلى أن أعرف ما حدث في ليلة الحريق، أنا لا أعرف شيئًا.

عظام

إنها عشية عيد الميلاد والثلوج تهطل بكثافة، رفض سائق التاكسي الأول والثاني أن يقلنني إلى مكان بعيد هكذا خارج البلدة في ليلة كهذه، أما الثالث فلا بد أنه تأثر بحماسة طلبتي، لأنه هز كتفيه بلا مبالاة ودعاني للركوب، وقال بخشونة: "سنحاول أن نذهب".

أخذتنا السيارة إلى خارج المدينة واستمر هطول الثلوج، متراكماً بشكل دقيق للغاية، رقاقة تلو الأخرى، على كل سنتيمتر من الأرض وكل قمة سياج وكل غصن شجرة، وبعد القرية الأخيرة، وآخر بيت ريفي، وجدنا أنفسنا وسط مشهد أبيض، والطريق غير مميز أحياناً عن الأرض المسطحة حوله، فانكمشت في مقعدي، متوقعة أن يستسلم السائق ويعود أدراجه في أية لحظة، توجيهاتي الواضحة فقط هي ما طمأنه بأننا على الطريق الصحيح، نزلت لأفتح البوابة الأولى، ثم وجدنا أنفسنا أمام الثانية، البوابة الرئيسة للمنزل.

قلت: "أمل أن ترجع بخير".

قال بهزة كتف أخرى: "أنا؟ أنا ساكون بخير".

ومثلما توقعت، كانت الأبواب مقفلة، لم أرد أن يظن السائق بشكل ما أنني سارقة، فمثلت أنني أبحث عن مفاتيحي في حقيبتى في حين أدار هو السيارة، وحين ابتعد أمسكت بقضبان البوابة وتسلفتها.

لم يكن باب المطبخ مقفلاً، فخلعت حذاءى، ونفضت الثلوج عن معطفى وعلقتة، سرت عبر المطبخ الفارغ، واتخذت طريقى إلى سكن "إيميلين" حيث أعرف أن السيدة "وينتر" ستكون موجودة، أذكيت غضبى الملئ بالاتهامات، والملئ بالأسئلة، من أجل "أوريليوس" والمرأة التى استلقت عظامها لستين عامًا في حطام مكتبة "آنجلفيلد" المحترقة، ورغم كل ما يعصف بداخلى، اقتربت بهدوء واستوعبت السجادة خطواتى الغاضبة.

لم أطرق بل دفعت الباب ودخلت مباشرة.

كانت الستائر لا تزال مغلقة، وتجلس السيدة "وينتر" بهدوء بجوار "إيميلين"، فاجأها دخولى وحملت إلى، رأيت لمعة استثنائية في عينيها.

همست لها: "عظام! لقد وجدوا عظامًا في (آنجلفيلد)!"

كلى أعين ناظرة، وآذان صاغية، تنتظر على أحر من الجمر أن يصدر منها اعتراف، لا يهم إن كان بالكلمات أو بتعبيرات وجهها أو بحركاتها، ستدلى به، وسأقرؤه.

باستثناء أن شيئًا في الغرفة يحاول تشتيتى عن التدقيق فيها.

قالت السيدة "وينتر": "عظام؟" كانت شاحبة كالورقة وبعينيها محيط شاسع كفاية ليُغرق غضبى المستعر.

قالت: "أوه".

أوه، كم هذا المقطع الصوق الواحد غنى بالمشاعر! الخوف، واليأس، والحزن والاستسلام، والارتياح، المظلم غير المعزى، والحزن العميق والقديم.

ثم تضخم ذلك التشبث العنيد في الغرفة بسرعة جدًا في عقلى لدرجة أنه لم يترك مساحة لأي شيء آخر، ما هذا؟ يوجد شيء دخيل على صدمة العظام خاصتى، شيء ما سبق اقتحامى، وأصابتنى حيرة عاجزة لمدة ثانية، ثم تجمعت كل الأشياء التافهة التى لاحظتها دون اهتمام، الجو في الغرفة، والستائر المغلقة، الشفافية المائية بعينى السيدة "وينتر"، وحقيقة أن الصلابة التى كان دائمًا جوهرها قد تركتها ببساطة.

تقلص مجال انتباهى إلى شيء واحد: أين مد وجزر أنفاس "إيميلين" البطيئة؟ لم يعد صوتها يبلغ أذنى.
"لا! إنها..."

هبطت على ركبتى بجانب السرير وحملت.

قالت السيدة وينتر بركة: "نعم"، "لقد رحلت، منذ بضع دقائق".

حملت إلى وجه "إيميلين" الخاوى، لم يتغير شيء حقًا، نوباتها لا تزال حمراء بشكل غاضب، وبشفثتها الميل الجانبى نفسه، ولا تزال عيناها خضراوين، لمست يدها ذات الجلد المُرَّقَع ووجدته دافئًا، أصبح أنها رحلت؟ بالتأكيد، رحلت بلا رجعة؟ بدا مستحيلًا أن يحدث ذلك، بالتأكيد هى لم تهجرنا بالكامل؟ بالتأكيد سيبقى شيء منها ليواسينا؟ أليست هناك تعويذة ولا طلسم ولا سحر يمكنه ردها إلينا؟ أليس هناك ما يمكننى قوله ليصل إليها؟

دفع يدها هو ما أقنعني بأنها يمكنها سماعي، دفع يدها هو ما جلب كل الكلمات إلى صدري، يسقط بعضها على بعض في توق للطيران إلى أذن "إيميلين".

"اعثرى على أختي يا (إيميلين)، أرجوك اعثرى عليها، أخبريها أنني أنتظرها، أخبريها..." ضاق حلقى للغاية بكل الكلمات وقد تحطم بعضها أمام بعض وهي تخرج مني مختنقة، "أخبريها أنني أفتقدها! أخبريها أنني وحيدة!" أطلقت الكلمات بتهور وسرعة من بين شفتي، وطارت بحماسة تطارد "إيميلين"، "أخبريها أنني لا أطيق الانتظار! أخبريها أن تأتي!"

لكنني كنت قد تأخرت جداً، لقد فرض الرحيل نفسه علينا، إنه خفي وبلا رجعة وعنيد.

طارت كلماتي مثل طيور في لوح زجاج النافذة.

"يا طفلاتي المسكينة"، شعرت بلمسة يد السيدة "وينتر" على كتفي، وظلت هناك بخفة وأنا أبكي على جثث كلماتي المحطمة. في النهاية جففت عيني، وتبقت بضعة كلمات فقط، تخشخش في الأنحاء بحرية من دون رفيقاتها القديمات، قلت: "إنها توأمتي، كانت هنا، انظري".

سحبت الكنزة المطوية داخل تنورتي، وكشفت جذعي للضوء، كشفت ندبتى، نصف القمر الخاص بي، لونه بين الوردى الفضى الباهت، شفاف كأم اللؤلؤ، إنه الخط الذي يفصل بيننا.

"هنا كانت، هنا كنا موصولتين، ثم فصلونا، وماتت، لم تستطع العيش من دوني".

شعرت بارتعاش أصابع السيدة "وينتر" وهي تتبع الهلال المرسوم على جلدي، ثم شعرت بالتعاطف الحنون في عينيها.

"الأمر أن..." (هذه كلماتي الأخيرة عن الأمر، كلماتي الأخيرة تمامًا، بعدها لن أحتاج إلى قول أي شيء، مطلقًا) "أننى لا أعتقد أننى يمكننى العيش من دونها".

"يا صغيرتى"، ونظرت إلى السيدة "وينتر"، وحملتني بتعاطف عينيها.

لم أفكر بشيء، بدا عقلى جامدًا تمامًا، لكن بداخله كان يتغير ويتقلب، شعرت بتيار خفى يتضخم بداخله، فقد استقر الحطام لسنوات في الأعماق، إنها سفينة صدئة عليها حمولة من العظام، والآن تغيرت، لقد بعثرتها، وأحدثت اضطرابًا رفع سحبًا من الرمل من قاع البحر، ذرات من الرمل تتحرك في دوامات جامحة في المياه المظلمة المضطربة.

احتضنتني السيدة "وينتر" طوال الوقت بحملتها الخضراء الطويلة.

ثم استقر الرمل ببطء مجددًا وعادت المياه إلى هدوئها، ببطء، واستقرت العظام مجددًا في حصنها الصدي.

قلت: "سألتني من قبل عن قصتى".

"أخبرتني أن ليس لك قصة".

"الآن تعرفين أن لى قصة".

مكتبة
t.me/t_pdf

"لم أشك بالأمر قط"، وابتسمت ابتسامة مسكينة أسفة، "حين دعوتك لتأتى كنت أظن أننى أعرف قصتك بالفعل، كنت قد قرأت مقالك عن الأخوين (لانديير)، يا له من مقال جيد، أنت تعرفين الكثير عن الإخوة، قلت لنفسى إنها معرفة عن تجربة، وكلما نظرت إلى مقالك أكثر، فكرت أكثر في أنه لا بد من أن لك تومًا، لذا استقررت على اختيارك كاتبة لسيرتى الذاتية، لأن بعد كل تلك السنوات من سرد القصص لو أغرتنى فكرة أن أكذب عليك فإنك ستكشفيننى".

"لقد كشفتك".

أومات، بهدوء وبحزن وبلا مفاجأة، "وفي الوقت المناسب أيضًا، إلى أي حد تعرفين؟"

"أعرف ما أخبرتنى به، إنها ليست إلا حبكة ثانوية، هكذا وصفت الأمر، حكيت لي حكاية (إيزابيل) وتوأميها، ولم أكن منتبهة، والحبكة الثانوية كانت (تشارلي) ونوبات اهتياجه، ظلت توجهني نحو (جين أير)، كتبه الغريبة عن العائلة، ابنة الخال التي بلا أم، لا أعرف من أمك ولا كيف انتقلت للعيش في (آنجلفيلد) من دونها".

هزت رأسها بحزن، "أي شخص يمكن أن يعرف إجابات هذه الأسئلة مات يا (مارجريت)".

"ألا تتذكرين؟"

"أنا إنسان، وكحال كل البشر، لا أتذكر مولدي، فحين ندرك العالم، نكون أطفالاً صغاراً، ويكون قد مر على قدومنا إلى العالم دهر، إنه بداية الزمن، إننا نعيش مثل من وصلوا إلى المسرح متأخرين، يجب أن نلحق بركب الأحداث بأقصى سرعة، فنتوقع البداية بناء على الأحداث التالية، كم مرة عدت إلى حدود ذاكرتك وتطلعت إلى الظلمة الكامنة وراءها؟ لكنها ليست الذكريات فقط هي ما يحوم هناك عند الحدود، فهناك توجد كل أشكال الوهم، كوابيس طفلة وحيدة، وقصص خيالية استولى عليها عقل متعطش للقصص، وخیالات طفلة صغيرة جامحة الخيال متلهفة لمعرفة ما لا يمكن أن تعرفه بنفسها، أيًا كانت القصة التي ربما اكتشفناها عند حافة النسيان، لا أدعى أمام نفسي أنها الحقيقة".

"كل الأطفال ينسجون الأساطير عن مولدهم".

"بالضبط، الشيء الوحيد الأكيد لي هو ما أخبرني به (جون ذا ديج)".

"وماذا أخبرك؟"

"أننى ظهرت مثل نبتة ضارة، بين شجرتى فراولة".

وحكت لى القصة.

كان أحد يعبث بأشجار الفراولة، ليست طيورًا، لأن الطيور تنقر الفراولة وتتركها منقورة، وليس الفتاتين لأنهما سحقتا الأشجار وتركنا آثار أقدامهما فى كل مكان، لا، إنه لص خفيف الحركة يأخذ ثمرة فراولة من هنا وثمرة أخرى من هناك، وبشكل أنيق دون أن يبعثر شيئًا، لم يكن بستانى آخر ليلاحظ، لكن فى اليوم نفسه وجد "جون" بركة مياه تحت صنوبر الحديقة، فقد كان الصنوبر يقطر، فأدار المقبض، وضيقه، وحك رأسه وعاد إلى عمله، لكنه ظل منتبهًا.

فى اليوم التالى رأى أحدًا عند أشجار الفراولة، رث الثياب، بالكاد يبلغ طوله ركبة "جون"، يعتمر قبعة كبيرة للغاية تهبط على وجهه، ثم هرب حين رآه، لكن فى اليوم التالى كان عازمًا على أخذ فاكهته لدرجة أنه اضطر إلى الصباح والتلويح بذراعيه ليعده، بعدها فكر فى أنه لا يعرف اسمه، من فى القرية لديه مخلوق بهذا الحجم، صغير ولا يتغذى كفاية؟ من فى الأنحاء قد يترك طفله ليسرق فاكهة من حدائق الآخرين؟ تحير "جون" بحثًا عن إجابة.

ودخل أحد كوخ البستنة؛ فـ "جون" لم يترك الصحف القديمة على هذه الحالة، وتلك الصناديق وُضعت جانبًا بشكل مرتب، لقد كان واثقًا بذلك.

فوضع قفلًا للمرة الأولى على الباب قبل أن يعود إلى المنزل.

وحين مر بصنبور الحديقة لاحظ التقطير مجددًا، فأدار مقبضه نصف دائرة بقوة دون حتى أن يفكر في الأمر، ثم أدار المقبض ربع دائرة أخرى مستخدمًا وزنه في ذلك، يجب أن يكون هذا كافيًا.

استيقظ في الليل، غير مرتاح البال لأسباب لم يستطع تذكرها، وجد نفسه يتساءل: أين قد تنام إن لم تستطع أن تدخل كوخ البستنة وتصنع سريرًا لنفسك من الصحف داخل صندوق؟ ومن أين قد تحصل على المياه إن كان الصنبور مغلقًا بقوة لدرجة أن يصعب تحريكه؟ ثم فتح النافذة ليستشعر درجة الحرارة وهو يؤنب نفسه على حماقته في منتصف الليل، لقد ولت فترة هطول الثلوج، لكن الجو أبرد من المتوقع بهذا الوقت من السنة، وكم سيصبح أبرد إن كنت جائعًا؟ وكم سيصبح العالم أكثر ظلامًا لو كنت طفلًا؟

هز رأسه وأغلق النافذة، لم يهجر أحد طفلًا في حديقته، أليس كذلك؟ بالتأكيد لا، ومع ذلك، كان قد غادر سريره قبل مرور خمس دقائق، وتمشى حول الحديقة مبكرًا يرصد أحوال خضراواته والحديقة التوبيارية، ويخطط لعمله اليوم، ظل منتبهًا طوال الصباح بحثًا عن قبة عريضة وسط شجيرات الفاكهة، لكن لم يظهر شيء.

حين جلس صامتًا عند مائدة مطبخها يشرب كوب قهوة قالت السيدة: "ماذا بك؟".

قال: "لا شيء".

أنهى كوبه وعاد إلى الحديقة، وفحص شجيرات الفاكهة بعينين قلقتين.

لا شيء.

في وقت الغداء أكل نصف شطيرة، واكتشف أن لا شهية لديه، وترك النصف الآخر على أصيص زهور مقلوب بجوار صنبور الحديقة، ووضع إلى جواره قطعة بسكويت، وقال لنفسه إنه كان غبيًا، وفتح

الصنبور، الذى تطلب فتحه بعض الجهد حتى منه هو، وترك المياه تهبط محدثة ضوضاء داخل صفيحة قصديرية للرئى، وأفرغها فى أقرب حوض وأعاد ملأها، دوى المياه المتناثرة تردد قرب حديقة الخضراوات، وانتبه إلى ألا يتطلع إلى الأعلى أو حوله.

ثم أبعد نفسه قليلاً، وركع على العشب، مولياً ظهره إلى الصنبور، وبدأ تنظيف بعض الأصص القديمة، وذلك مهم ويجب فعله، إذ يمكن أن تنتشر الأمراض لو لم تنظف الأصص على النحو السليم بين مرات زراعتها.

سمع صرير الصنبور وراءه.

لم يلتفت على الفور، بل أنهى الأيص الذى كان ينظفه، على مهله.

ثم كان سريعاً، انطلق على قدميه نحو الصنبور، أسرع من الثعلب.

لكن لم تكن من حاجة إلى مثل هذه العجلة.

فقد حاول الطفل الخائف أن يهرب لكنه تعثر، أقام نفسه، وعرج لبضع خطوات، ثم تعثر مجدداً، أمسك به "جون"، ورفع -وزنه لا يزيد عن وزن قطة- وقلبه ليواجهه، وسقطت القبة.

الغلام عبارة عن كيس من العظام، يتضور جوعاً وتحيط قشرة قاسية بعينه، وشعره اسودّ بسبب التراب، ورائحته قذرة، لديه بقعتان حمراوان توضحان مكان خديه، ثم وضع "جون" يده على جبهة الطفل ووجدها مشتعلة، أخذه إلى كوخ البستنة حيث رأى قدميه، وجدهما بلا حذاء ومظهرهما حقير ومتورم، ويتسرب منهما الصديد من بين التراب، إذ بلغت شوكة أو شيء يشبهها عمق القدم، وارتعد الطفل، إنه يعاني من الحمى، والألم، والجوع، والخوف، قال

"جون" لنفسه إنه لو وجد حيوانًا على هذه الحال لجلب مسدسه وأنهى معاناته.

حبسه في كوخه وذهب لإحضار السيدة، وحين جاءت السيدة تطلعت إليه واقتربت، وحين استنشقت رائحته تراجعت.

"لا، لا، لا أعرف ابن من هذا، ربما نعرف لو نظفناه قليلًا؟"

"تقصدين أن نغمره في برميل مياه كبير؟"

"برميل مياه كبير! سأذهب وأملأ الحوض في المطبخ."

خلعاً قطع القماش النتنه عن الطفل، "سنرميها في الموقد"، هكذا قالت السيدة ورمتها نحو الفناء، وشق التراب الذى كسا الطفل طريقه إلى البالوعة، وتحولت أول ملاءة حوض بالمياه في الحال إلى اللون الأسود، فرفعا الطفل منه حتى يفرغاه ويعيدا ملاءه، وقد وقف الطفل متميلاً على قدمه الأفضل، يقف عارياً ويقطر ماءً، وتجرى على جسده نهيرات صغيرة من المياه البنية الرمادية.

نظرا إلى الطفل، وتبادلا النظرات، ثم نظرا إليه مجدداً.

"(جون)، ربما أنا نظرى ضعيف، أخبرنى، أترى شيئاً لا أراه؟"

"لا".

"أى غلام! إنها فتاة صغيرة".

غلياً إناءً تلو الآخر، وحكا جلدها وشعرها بالصابون، وأزالا التراب المتصلب من تحت أظفارها، بمجرد أن أصبحت نظيفة، عقما الملقط وسحبا الشوكة من قدمها -جفلت لكنها لم تبك- وضمدا الجرح وغطياه، وحكا بلطف زيت خروع دافئاً بالقشرة المحيطة بالعينين، ووضعاً غسول الكالامين على عضات البراغيث والفازلين على شفثيها المتشققتين الممزقتين، ومشطا شعرها الطويل المتشابك لفك تشابكه، وضغطاً بعض الأقمشة الباردة على جبهتها وخديها المشتعلين، وأخيراً،

لها في منشقة نظيفة وأجلساها عند مائدة المطبخ، حيث صبت السيدة ملاعق الحساء في فمها، وقشر "جون" لها تفاحة.

تبتلع الفتاة رشقات الحساء، وتنتزع شرائح التفاح، لكنها تستطيع بلعها بسرعة كافية، فقطعت السيدة شريحة من العيش وغطتها بالزبد، فأكلتها الطفلة بشراهة.

راقباها، وجدا عينيها بعدما نُظفتا من القشرة عبارة عن قطعين من أخضر الزمرد، وجف شعرها ليصبح أحمر ذهبياً لامعاً، وعظام خديها بارزة وعريضة وسط وجهها الجائع.

قال "جون": "أتفكرين في ما أفكر به؟"

"نعم".

"أسنخره؟"

"لا".

"لكنها تنتمي إلى هذا المنزل".

"نعم".

فكرا لدقيقة أو اثنتين.

"ماذا عن الطبيب؟"

البقع الوردية في وجه الطفلة ليست لامعة جداً، وحين وضعت السيدة يدها على جبهة الطفلة وجدت حرارتها لا تزال مرتفعة.

"سنرى كيف ستبلى الليلة، وسنجلب الطبيب في الصباح".

"إن كان ضرورياً".

"نعم، إن كان ضرورياً".

قالت السيدة "وينتر": "وقضى الأمر، وبقيت في المنزل".

"ماذا كان اسمك؟"

"حاولت السيدة مناداني (ماري)، لكن الاسم لم يلتصق بي، ودعاني "جون" بـ"شادو"، لأنني التصقت به مثل ظله، علمني القراءة بواسطة فهارس البذور في الكوخ، لكنني اكتشفت المكتبة سريعاً، ولم تنادني "إيميلين" بأى اسم، لم تحتج إلى ذلك لأنني كنت دائماً موجودة، تحتاجين إلى أسماء للغائبين فقط".

فكرت بشأن الأمر لوهلة في صمت، الطفلة الشبح، بلا أم وبلا اسم، الطفلة التي كان وجودها سرّاً، يستحيل ألا تتعاطف معها، ومع ذلك...

"ماذا عن (أوريليوس)؟ لقد عرفت كيف يكون الأمر حين تكبرين من دون أم! لماذا هُجر؟ والعظام التي وجدوها في (أنجلفيلد).. لا بد أن (آديلاين) هي التي قتلت (جون ذا ديچ)، لكن ماذا حدث لها بعد ذلك؟ أخبريني، ماذا حدث في ليلة الحريق؟"

كنا نتحدث في الظلام، ولم أتمكن من رؤية تعبير وجه السيدة "وينتر"، لكنها بدت مرتجفة وهي تلقي نظرة على الجسد الذي على السرير.

"هلا جذبت الغطاء على وجهها، سأخبرك عن الرضيع، وسأخبرك عن الحريق، لكن أولاً، ربما يمكنك مناداة (جوديث)؟ فهي لم تعرف بعد، ويجب أن تتصل بالطبيب (كليفتون)، هناك أشياء يجب فعلها".

حين جاءت، كان اهتمام "جوديث" الأول بالأحياء، من أول نظرة إلى شحوب وجه السيدة "وينتر" أصرت على وضعها في سريرها وجلب أدويتها قبل أى شيء، دفعنا كرسيها معاً إلى جناحها، وساعدتها

"جوديث" في ارتداء ثوب النوم، وملأت أنا زجاجة مياه ساخنة وطويت غطاء السرير.

قالت "جوديث": "سأهاتف الطبيب (كليفتون) الآن، هلا بقيت مع السيدة (وينتر)"، لكن بعد بضع دقائق فقط ظهرت مجددًا في مدخل غرفة النوم وأشارت لي للدخول إلى غرفة الانتظار.

همست إلى: "لم أتمكن من الوصول إليه، لقد عطلت الثلوج خطوط الهاتف".

لقد غُزلنا.

تذكرت رقم هاتف الشرطي على قصاصة الورق في حقيبتي وشعرت بالارتياح.

اتفقنا على أن أبقى مع السيدة "وينتر" لأول مناوبة، حتى تتمكن "جوديث" من الذهاب إلى غرفة "إيميلين" وتفعل ما يجب فعله، وستريحني لاحقًا، حين يحين موعد دواء السيدة "وينتر" التالي. ستكون هذه ليلة طويلة.

الرضيع

السيدة "وينتر" على سريرها الضيق، ولا يميز جسدها إلا أصغر التضاريس في أغطية السرير، استرقت كل نفس بحذر، كأنها توقع أن يُنصب لها كمين في أية لحظة، سعى ضوء المصباح إلى رأسها: فغطى عظمى خديها وأضاء القوس الأبيض بجبينها، فأغرق عينيها في بركة عميقة من الظلال.

على ظهر مقعدي استقر شال حريري ذهبي، فعلقته على المصباح لعله ينشر الضوء ويدفئه ويجعله يهبط بقسوة أقل على وجه السيدة "وينتر".

جلستُ بهدوء، وراقبتها بهدوء، وحين تكلمت، بالكاد سمعت همسها.
"الحقيقة؟ لَر..."

انجرفت الكلمات من بين شفثيها إلى الهواء، وتعلقت فيه مرتجفة، ثم وجدت طريقها وبدأت رحلتها.

لم أكن طيبة مع "أمبروز"، كان ذلك بإمكانى، ربما كنت لأفعل ذلك في عالم آخر، ما كان الأمر ليكون بهذه الصعوبة: فقد كان طويلاً وقوياً وشعره ذهبى تحت الشمس، وعرفت أنه معجب بى، وأنا لم أكن غير مبالية بذلك، لكننى قسّيت قلبى، فأنا ملزمة بـ"إيميلين".

سألنى فى يوم: "هل أنا غير جيد كفاية بنظرك؟" كان سؤاله مباشراً واضحاً هكذا.

ادعيت أننى لم أسمع، لكنه أصر.

"إن كنت غير جيد كفاية، فقلليها إلى وجهى!"

قلت: "أنت لا تجيد القراءة، ولا تجيد الكتابة!"

ابتسم، وأخذ قلمًا من عتبة نافذة المطبخ وبدأ بنقش الحروف على قصاصة ورق، كان بطيئاً، والحروف غير متساوية، لكنها كانت واضحة كفاية، "أمبروز"، كتب اسمه وحين انتهى منه، أخذ الورقة ورفعها إلى ليرينى.

انزععتها من يده، وشكلتها على هيئة كرة ورميتها إلى الأرض.

توقف عن المجيء إلى المطبخ فى استراحة الشاي خاصته، وشربت الشاي على مقعد السيدة، مفتقدة سيجارتى، وأنا أستمع إلى أصوات خطواته أو إيقاع مجرفته، حين جاء إلى المنزل باللحم، مرر الكيس بلا كلام، يتفادى تلاقى نظراتنا، وبوجه مجمد، لقد استسلم، وصادفت لاحقاً قصاصة الورق التى عليها اسمه وأنا أنظف المطبخ، شعرت بالخجل من نفسى ووضعت الورقة فى حقيبة صيده المعلقة وراء باب المطبخ، حتى أبعداها عن ناظرى.

متى أدركت أن "إيميلين" حبلى؟ بعد بضعة أشهر من توقف الفتى عن المجيء لشرب الشاي، عرفتُ قبل أن تعرف هى نفسها، فهى بالكاد كانت لتلاحظ التغيرات فى جسدها، أو لتدرك العواقب،

استجوبتها بشأن "أمبروز"، كان من الصعب جعلها تفهم معنى أسئلتى، وفشلت تمامًا في إدراك سبب غضبى، "كان حزينًا للغاية" هو كل ما قالته لى، "لقد كنتِ فضة معه للغاية"، تكلمت بلطف جدًا، يملؤها التعاطف تجاه الفتى، وموجهة عتابها إلى.

كان بإمكانى أن أصدمها.

"أنت تدركين أنك ستلدين رضيعًا، صحيح؟"

مر بوجهها ذهول ضعيف، ثم عاد لهدوئه السابق، بدا أن لا شيء يمكن أن يعكر سكونها.

صرفتُ "أمبروز"، أعطيته أجره حتى نهاية الأسبوع وأبعدته، لم أنظر إليه وأنا أتحدث إليه، لم أقدم له أى أسباب، وهو لم يسأل أى أسئلة، قلت له: "بإمكانك أيضًا المغادرة فى الحال"، لكن هذه لم تكن طريقته، بل أنهى غرس صف النباتات الذى قاطعته أنا، ونظف أدوانه بدقة، مثلما علمه "جون"، وأعادها إلى كوخ الحديقة تاركًا كل شيء نظيف ومرتب، ثم طرق باب المطبخ.

"ماذا ستفعلين لتحصلى على اللحم؟ أتعرفين كيف تقتلين دجاجة على الأقل؟"

هزرت رأسى نافية.

"تعالى".

هز رأسه باتجاه الحظيرة، وتبعته.

أرشدنى: "لا تضعى أى وقت، أفضل طريقة هى أن تكونى نظيفة وسريعة، لا تترددى".

انقض على أحد الطيور ذات الريش النحاسى التى تنقر عند أقدامنا، وثبت جسدها بقوة، وقلَّد الحركة التى ستكسر عنقها، "أترين؟"

أومات.

"أريني إذاً".

أطلق سراح الطائر، الذى سقط إلى الأرض وأصبح سريعاً غير مميز
وسط أقرانه.

"الآن؟"

"ماذا ستأكلان الليلة؟"

كانت أشعة الشمس تلمع على ريش الدجاجات وهى تنقر الأرض
لتتناول البذور، مددت يدي إلى إحداها، لكنها هزلت مبتعدة، الثانية
انزلقت من بين أصابعى بالطريقة نفسها، حاولت الإمساك بالثالثة،
وأمسكت بها على نحو أخرق، قرقرت وحاولت التخفيق بجناحيها،
وتساءلتُ كيف حملها الفتى بهذه السهولة، وأنا أعانى لأبقيها ثابتة
تحت ذراعى وألف يديّ حول عنقها فى الوقت نفسه، شعرت بعينى
الفتى الحادتين تحمقان إلى.

ذُكرنى: "بنظافة وبسرعة"، لقد شكك بى، يمكننى استشعار ذلك من
صوته.

سوف أقتل الطائر، لقد قررت أن أقتله، لذا ضغطت وأنا ممسكة
بعنق الدجاجة، لكن يديّ لم تطيعانى حتى النهاية، حلقت صرخة
مختنقة من حلق الدجاجة، وترددتُ للحظة، فانزلقت من تحت
ذراعى بالتواء وخفقة جناحين قوية، حدث ذلك فقط لأن الهلع شل
حركتى وأنا ممسكة بعنقها بين يدي، الجناحان يضربان، والمخيلبان
يتخبطان بجموح فى الهواء، كادت الدجاجة أن تترنح مبتعدة عني.

بسرعة وبقوة، أخذ الفتى الدجاجة من قبضتى وبحركة واحدة
أنهى الأمر.

قدمها إلىّ وأجبرت نفسى على أخذها، كانت دافئة وثقيلة، وجامدة.

لمعت الشمس على شعره وهو ينظر إلى، كانت نظرتة أسوأ من
المخالب، وأسوأ من الأجنحة الضاربة، أسوأ من الجسد اللين بين
يدي.

التفت وسار مبتعدًا دون أن ينطق كلمة.

ما نفع الفتى لي؟ لم يكن قلبي لي لأقدمه له، بل انتمى إلى أحد
آخر، مثلما كان دائمًا.

لقد أحببت "إيميلين".

وأعتقد أن "إيميلين" أحببتني أيضًا، لكنها أحببت "آديلاين" أكثر.

الأمر مؤلم أن تحب توأمين، حين تكون "آديلاين" موجودة، يمتلئ
قلب "إيميلين"، لم تكن لها حاجة إليّ، وأترك أنا بالخارج منبوذة،
كأننى شيء زائد، مجرد مراقبة للتوأمين وتوأمهما.

يصبح بقلب "إيميلين" مكان لأحد آخر فقط حين ذهبت "آديلاين"
لتهيم وحيدة، حينئذ يصبح حزنها فرحى، استمالتها إلى خارج وحدتها
شيئًا فشيئًا، أقدم لها هدايا من الخيوط الفضية والحلى اللامعة،
حتى كادت تنسى أن أحدًا قد هجرها، واستسلمت للصدقة والرفقة
التي عرضتها، لعبنا بالبطاقات قرب الموقد، وغنينا، وتحدثنا، كنا
سعيدتين معًا.

حتى تعود "آديلاين" غاضبة بسبب البرد والجوع، كانت تأتى
إلى المنزل مهتاجة، وفي لحظة وصولها تأتى معها نهاية عالمنا الثانى،
وأصبح أنا بالخارج مجددًا.

لم يكن ذلك عادلاً، فمع أن "آديلاين" كانت تضربها وتشد شعرها،
أحببتها "إيميلين"، ومع أن "آديلاين" هجرتها، أحببتها "إيميلين"، أيًا
كان ما تفعله "آديلاين"، لا شيء يتغير، لأن حب "إيميلين" لها كان
كاملاً، وأنا؟ كان شعري نحاسيًا مثل "آديلاين"، وعيناي خضراوين مثل

"آديلاين"، وفي غياب "آديلاين"، يمكننى خداع أى شخص بجعله يظن أننى هى، لكننى لم أخدع "إيميلين" قط، لقد عرف قلبها الحقيقة. وضعت "إيميلين" رضيعها فى يناير.

لم يعرف أحد بشأن الأمر، فقد أصبحت أكسل مع تضخم حجمها، ولم يكن صعبًا عليها ألا تغادر حدود المنزل، كانت سعيدة لبقائها بالداخل، تتشاءب فى المكتبة، والمطبخ، وغرفة نومها، لم يلحظ أحد انسحابها، ولم قد يلحظه أحد؟ فالزائر الوحيد للمنزل كان السيد "لوماكس"، وهو يأتى فى أيام وساعات منتظمة، والأمر سهل للغاية أن أبعدھا عن طريقه حين يطرق الباب.

كان تواصلنا مع الآخرين طفيفًا، لأننا مكتفيات ذاتيًا من اللحوم والخضراوات، لم أتعلم قط أن أحب قتل الدجاجات، لكننى تعلمت قتلها، أما بقية المون، فكنت أذهب إلى المزرعة بنفسى لأجلب الجبن والحليب، وحين يرسل المتجر فتى على دراجة باحتياجاتنا الأخرى مرة أسبوعيًا، أقابله عند الطريق الخاص، وأحمل السلة إلى المنزل بنفسى، ظننته سيكون احتياطًا معقولاً أن يرى أحد إحدى التوأمين بين الحين والآخر على الأقل، مرة حين بدت "آديلاين" هادئة كفاية، أعطيتها العملة المعدنية وأرسلتها لمقابلة الفتى على الدراجة، أتخيله يقول حين يعود إلى المتجر: "جاءت لى الأخرى اليوم، الغريبة"، وتساءلت عما قد يستنتجه الطبيب من ذلك، لو بلغت رواية الصبى أذنيه، لكن سريعًا أصبح من المستحيل استخدام "آديلاين" هكذا، فحمل "إيميلين" أثر فى توأمها على نحو غريب: فللمرة الأولى فى حياتها اكتشفت أن لها شهية، وبعدما كانت كيس عظام هزيل، أصبح لها منحنيات ممتلئة ونهدان كاملان، فى بعض الأحيان - فى ضوء ضعيف، ومن زوايا محددة - حتى أنا لم أستطع التمييز بينهما للحظات، لذا فبين الحين والآخر فى صباحات الأربعاء، أكون "آديلاين"، أعبت بشعرى،

وأوسخ أظفاري، وأرسم وجهًا صارمًا محتدًا، وأخرج إلى الطريق الخاص لمقابلة الفتى على الدراجة، وحين يرى سرعة مشيتي وأنا أتقدم عبر الطريق الخاص الحصوي لمقابلته، كان يعرف إن كنت الأخرى، فأرى أصابعه تلتف بقلق حول مقود دراجته، يسلمني السلة وهو يراقبني خلسة، ثم يضع بقشيشه في جيبه ويكون مسرورًا لأنه يتعد، في الأسبوع التالي، يقابلني وأنا نفسي، وأجد في ابتسامته صدى ارتياح.

لم يكن إخفاء الحمل صعبًا، لكنني كنت قلقة خلال أشهر الانتظار تلك بشأن الولادة نفسها، فقد عرفت ما يمكن أن تحمله مخاطر الولادة، والدة "إيزابيل" لم تنج من الولادة الثانية، ولم أستطع إبعاد هذه الفكرة عن رأسي لأكثر من بضع ساعات في كل مرة، لم يكن هذا واردًا.. أن تعاني "إيميلين"، وأن تُعرض حياتها للخطر، وعلى الجانب الآخر، لم يعد الطبيب صديقنا وأنا لم أرد وجوده بالمنزل، لقد رأى "إيزابيل" وأبعدها، لا يمكن السماح بحدوث ذلك لـ "إيميلين"، لقد فصل "إيميلين" و"آديلاين"، ولا يمكن السماح بحدوث ذلك لـ "إيميلين"، وعلاوة على ذلك، كيف يمكن أن يأتي دون أن تحدث تعقيدات فورية؟ ومع أنه اقتنع -على الرغم من عدم فهمه للأمر- بأن الفتاة داخل الغشاوة اخترقت درع "إيميلين" الدمية القماشية البكماء التي قضت في السابق شهورًا معه، فإنه سيدرك الحقيقة فورًا إن عرف فجأة أن بمنزل "آنجلفيلد" ثلاث فتيات، خلال زيارة وحيدة منه من أجل الولادة، يمكنني حبس "آديلاين" في الحضانة القديمة ولن يشعر الطبيب بالأمر، لكن بمجرد أن يُعرف أن هناك رضيعًا في المنزل، لن تنتهي الزيارات، وسيكون مستحيلًا أن نحفظ سرنا.

كنت مدركة جيدًا لهشاشة وضعي، أدرك أنني أنتمي إلى هنا، أدرك أنه مكاني، ليس لي بيت سوى "آنجلفيلد"، ولا حب سوى "إيميلين"، ولا حياة سوى هذه هنا، ومع ذلك لم تكن لدى أي أوهام بشأن كم سيبدو استحقاقي هشًا في نظر الآخرين، من أصدقائي؟ يصعب توقع

أن يدافع الطبيب عني، ومع أن السيد "لوماكس" لطيف معي الآن، فإنه بمجرد أن يعرف أنني أنتحل شخصية "آديلاين"، سيكون حتميًا أن يتغير أسلوبه، تعلق "إيميلين" بي وتعلقى بها لن يكون له أي وزن. "إيميلين" نفسها، الغارقة في جهلها وسكونها، تركت أيام حبسها تمر بلا قلق، أما أنا فقد قضيت تلك الفترة في عذاب من الحيرة، كيف أبقى "إيميلين" آمنة؟ كيف أبقى نفسي آمنة؟ في كل يوم أوجل القرار إلى اليوم التالي، كنت واثقة خلال الشهور الأولى بأن الحل سيأتي إليّ في الوقت المناسب، ألم أحل كل المشكلات الأخرى مع أن ذلك لم يكن مرجحًا؟ إذًا فهذا أيضًا يمكن حله، لكن مع اقتراب الموعد، ازدادت المشكلة إلحاحًا، وأنا لم أقرب من الحل، ترددت لمدة دقيقة بين أخذ معطفي والذهاب إلى منزل الطبيب، في التو واللحظة، لأخبره بكل شيء، والفكرة المضادة: أنني حتى أفعل ذلك سأكشف نفسي، وأن كشف نفسي لن يؤدي إلا إلى إبعادي.

غداً، هكذا قلت لنفسي وأنا أعيد معطفي إلى الشماعة، سأفكر بحل غداً.

لكن حينئذ كان قد فات الأوان.

أيقظتني صرخة، "إيميلين"!

لكنها لم تكن "إيميلين"، فـ"إيميلين" كانت تنفخ وتلهث، وتشخر وتتعرق كأنها وحش، وبرزت عيناها وأظهرت أسنانها، لكنها لم تصرخ، تغذت على ألمها وتحول إلى قوة بداخلها، الصرخة التي أيقظتني، والصرخات التي ظلت تتردد بجميع أنحاء المنزل، لم تكن منها بل من "آديلاين"، ولم تتوقف حتى الصباح، حين وُلد رضيع "إيميلين".

كان يوم السابع من يناير.

نامت "إيميلين"، وابتسمت في نومها.

حملتُ الرضيع، وفتح عينيه وحملق، مذهولاً بلمس المياه الدافئة.

أشرقت الشمس.

جاء وقت اتخاذ القرارات وراح، ولم يُتخذ أى قرار، ومع ذلك ها نحن ذو، على الشاطئ الآخر من الكارثة، بأمان.
يمكن لحياقي أن تستمر.

الحريق

بدا أن السيدة "وينتر" استشعرت وصول "جوديث"، فحين ظهرت مدبرة المنزل عند حافة الباب، وجدتنا صامتتين، جلبت لى الكاكاو على صينية، لكنها عرضت أيضًا أن تحل محلّى إن أردت النوم، هزّزت رأسى: "أنا على ما يرام، شكرًا".

ورفضت السيدة "وينتر" حين ذكرتها "جوديث" بأنها يمكنها تناول المزيد من الأقراص البيضاء إن احتاجت إليها.

حين ذهبت "جوديث"، أغلقت السيدة "وينتر" عينيها مجددًا.

سألت: "كيف حال الذئب؟"

قالت: "هادئ فى الركن، ولم لا؟ إنه واثق بانتصاره، لذا فهو سعيد بانتظار الحين المناسب، يعرف أننى لن أحدث ضجيجًا، لقد اتفقنا على شروط".

"أى شروط؟"

"سيدعني أنهي حكايتي، ثم سأدعه ينهيني".

حكى لي قصة الحريق، والذئب يعدّ المتبقى من الكلمات.

لم أفكر كثيرًا بشأن الطفل قبل أن يولد، بالتأكيد درست الجوانب العملية لإخفاء رضيع في المنزل، وكانت لدي خطة لمستقبله، إن تمكنا من إبقائه سرًا لفترة، كانت نيتي أن أسمح بالمعرفة بوجوده لاحقًا، ومع أن هذا بلا شك سيثير القيل والقال، يمكن تقديمه على أنه الطفل اليتيم لأحد الأقارب البعيدين، وإن اختار الناس التساؤل حول نسبه الدقيق، فإن لهم مطلق الحرية في ذلك، لا شيء بإمكانهم سيجبرنا على كشف الحقيقة، حين رسمت تلك الخطط، تصورت الرضيع على أنه مشكلة يجب حلها، ولم أضع في اعتباري أنه من لحمي ودمي، لم أتوقع أن أحبه.

إنه رضيع "إميلين"، وهذا سبب كافٍ، وهو ابن "أمبروز"، وهذا موضوع لم أسهب بالتفكير فيه، لكنه رضيعي أنا أيضًا، لقد ذهلت أمام بشرته اللؤلؤية، والنتوء الوردي في شفتيه، والحركة المترددة ليديه الدقيقتين، غمرتنى رغبتى الشديدة في حمايته: أردت حمايته من أجل "إميلين"، وأن أحميها من أجله، وأن أحمي كليهما من أجل، حين كنت أشاهدهما معًا، لم أستطع إبعاد عيني عنهما، كانا جميلين، كانت رغبتى الوحيدة أن أبقيهما آمنين، وعرفت سريعًا أنهما بحاجة إلى وصي ليقيهما بأمان.

شعرت "آديلاين" بالغيرة من الرضيع، تجاوزت تلك الغيرة غيرتها من "هيستر"، وغيرتها منى، بالطبع كان هذا متوقعًا، فـ"إميلين" كانت متعلقة بـ"هيستر"، وأحببتنى، لكن مشاعرها تجاه كلينا لم تمس قط

مستوى حبها لـ "آديلاين"، لكن الرضيع، كان وضعه مختلفًا، استحوذ الرضيع على كل مشاعرها.

ما كان يجب أن أفاجأ بحجم الكراهية التي لدى "آديلاين"، أعرف مدى البشاعة التي قد يصل إليها غضبها، ورأيت مدى عنفها، ولكن يوم فهمت للمرة الأولى الأشواط التي قد تقطعها في سبيل ذلك، صُعب على التصديق، فبينما أنا أمر بغرفة نوم "إيميلين"، دفعت الباب بصمت لأرى إن كانت لا تزال نائمة، وجدت "آديلاين" في الغرفة منحنية أعلى سرير الرضيع بجوار سرير "إيميلين"، ثم استدارت واجتازتني مندفعة إلى خارج الغرفة، وتشبثت يداها بوسادة صغيرة. شعرت بضرورة أن أندفع إلى سرير الرضيع، كان مستغرقًا في النوم، ويداه مضمومتان عند أذنيه، ويتنفس تنفس الرضع الخفيف الرقيق. إنه بأمان!

حتى المرة التالية.

بدأت أتجسس على "آديلاين"، أصبح عهدي القديم بحياة الأشباح مفيدًا مجددًا، إذ راقبتها من وراء الستائر وأشجار الصنوبر، كانت تصرفاتها عشوائية داخل المنزل وخارجه، كانت تنشغل بتصرفات متكررة بلا معنى، بلا تقييد بوقت أو بطقس محدد، كانت تطيع إملاءات تتجاوز إدراكي، لكن بالتدريج استرعى أحد أنشطتها انتباهي على نحو خاص، إذ كانت تذهب إلى استراحة العربات مرة ومرتين وثلاث مرات يوميًا وتغادرها في كل مرة حاملة صفيحة بنزين، تأخذ الصفيحة إلى المرسم أو إلى المكتبة أو إلى الحديقة، ثم يبدو أنها تفقد الاهتمام، إنها تعرف ما تفعله، لكن الفكرة غير تامة الوضوح، وهي كثيرة النسيان، كنت آخذ الصفائح في غفلة منها، تُرى ماذا استنتجت من اختفاء الصفائح؟ لا بد أنها ظنت أن للصفائح إرادة خاصة بها، وأن بإمكانها التنقل حسب رغبتها، أو ربما اعتبرت ذكرياتها عن نقل

الصفائح أحلامًا أو خططًا لم تتحقق بعد، وأيًا كان السبب، لم يبد أنها تجد اختفاء الصفائح غريبًا، لكن على الرغم من تمرد صفائح البنزين، استمرت في جلبها من الاستراحة وإخفائها في أماكن عدة بأنحاء المنزل. بدا أنني أقضي نصف يومي في إعادة الصفائح إلى الاستراحة، لكن في أحد الأيام، ولعدم رغبتى في ترك "إيميلين" والرضيع نائمين بلا حماية، وضعت أحد الصفائح في المكتبة، بعيدة عن الأنظار وراء الكتب وعلى رف مرتفع، وفكرت في أن هذا قد يكون مكانًا أفضل، لأن بإعادتي للصفائح دائمًا إلى الاستراحة، كل ما كنت أفعله هو أن أضمن أن يستمر هذا إلى الأبد، كدوامة الملاهى، وبإخراج الصفائح من الدائرة تمامًا، ربما أضع نهاية لهذا الهراء.

مراقبتها أتعبتنى، أما هى! فلا تتعب أبدًا، بعض النوم يبقاها نشطة لفترة طويلة، يمكن أن تكون مستيقظة ونشيطة في أية ساعة من الليل، وأنا أنعس، وفي أحد الأيام، لاذت "إيميلين" إلى سريرها بساعة مبكرة من المساء، وكان الفتى في سريرها بغرفتها، كان مصابًا بالمغص وظل مستيقظًا ويبكى طوال اليوم، لكنه الآن مستغرق في النوم بعدما شعر بتحسن.

أسدلت الستائر.

حان الوقت لأتفقد "آديلاين"، كنت متعبة من كوني متيقظة دائمًا، أراقب "إيميلين" وطفلها خلال نومهما، وأراقب "آديلاين" خلال صحوهما، بالكاد نمت مطلقًا، كم كانت الأجواء مسالمة في الغرفة، تنفس "إيميلين" يبطئنى ويجعلنى أسترخى، وبجواره نسمة الهواء الخفيفة التى يتنفسها الرضيع، أذكر الاستماع إليهما والتناغم بينهما، وأفكر بمدى طمأنة ذلك، أفكر بطريقة لوصفه -هكذا سليت نفسى دائمًا، أن أصف بالكلمات ما أراه وما أسمع- وفكرت في أننى يجب أن أصف كيف أشعر بأن تنفسهما يخترقنى ويستولى على أنفاسى، كأن

ثلاثتنا جزء من الشيء نفسه، أنا و"إيميلين" ورضيعنا، نحن الثلاثة بنفس واحد، سيطرت على هذه الفكرة، وشعرت بنفسى أنجرف معهما، إلى النوم.

شيء ما أيقظنى، كنت مثل القطعة أستيظ قبل أن تُفتح عيناي، لم أتحرك، أبقيت تنفسى منتظماً، وراقبت "آديلاين" من بين رموشى. انحنيت على سرير الرضيع ورفعته، وكانت فى طريقها إلى خارج الغرفة، كان بإمكانى أن أصرخ لأوقفها، لكننى لم أصرخ، فإن صرخت ستؤجل خطتها، لكن إن تركتها تستمر بها، تمكننى معرفة ما تنويه ووقفه لمرة وللأبد، تحرك الرضيع بين ذراعيها، كان يفكر فى الاستيقاظ، لم يحب أن يُحمل بين أى ذراعين غير ذراعى "إيميلين"، والرضع لا ينخدعون بالتوائم.

تبعته هبوطاً إلى المكتبة، واختلست النظر عبر الباب الذى تركته موارباً، كان الرضيع على المكتب، بجوار كومة كتب التى لم تُرد إلى رفوفها لأننى أعيد قراءتها مراراً وتكراراً، وإلى جوار مستطيل الكتب المنظم، رأيت حركة فى ثنايا بطانية الرضيع، وسمعت همهمات المكتومة، لقد استيقظ.

كانت "آديلاين" راكعة على الأرض بجوار الموقد، أخذت قطع فحم من القفة، وجذوع أشجار من مكانها بجوار الموقد، وأودعتها فى الموقد بعشوائية، لم تكن تعرف الطريقة الصحيحة لإشعال الموقد، ولقد تعلمت من السيدة الترتيب الصحيح للأوراق والمادة الملتهبة، وقطع الفحم والجذوع، ونيران "آديلاين" عبارة عن شيء عشوائى وجامح لا يفترض أن يشتعل على الإطلاق.

بطء تكشف ببالى ما كانت تنويه.

لن تنجح، أليس كذلك؟ كان بالرماد أثر دفء، لا يكفى ليشعل قطع فحم أو جذوع، وأنا لم أترك قط المادة الملتهبة أو الثقاب فى

المتناول، حريقها كان أخرق، لا يمكن أن يشتعل، عرفت أنه لا يمكن أن يشتعل، لكننى لم أستطع طمأنة نفسى، فرغبتها فى رؤية ألسنة اللهب كانت هى المادة الملتهبة التى تحتاج إليها، وكل ما احتاجت إلى فعله هو أن تبحث عن شيء لتشعلها به، سحرها الحارق كان قويًا للغاية لدرجة أنها تستطيع إشعال النار فى المياه لو أرادت ذلك بشدة.

راقبتها برعب وهى تضع الرضيع الملفوف ببطانيتها على قطع الفحم.

ثم جالت بنظرها فى الغرفة، عم تبحث؟

حين تحركت نحو الباب وفتحته، عدت قفزًا إلى الظل ولم تكشف تجسسى، كانت تبحث عن شيء آخر، انعطفت إلى الممر تحت السلم، واختفت.

ركضت نحو الموقد وأخرجت الرضيع من المحرقة، لففت بطانيتها سريعًا حول وسادة من الأريكة أكلتها العثة ووضعتها على قطع الفحم مكانه، لكن لم يتبق وقت للهرب، سمعت خطوات على البلاط الحجرى، وصوت جر يحدثه كشط صفيحة البنزين بالأرض، وانفتح الباب بمجرد أن تراجعت إلى إحدى مدات المكتبة.

"صه، لا تبك الآن"، صليت بصمت، وحملت الرضيع قرب جسدى حتى لا يفتقد دفء بطانيتها.

فحصت "إيميلين" الموقد وهى تميل رأسها إلى الجانب، ما المشكلة؟ هل لاحظت التغير؟ لكن يبدو أنها لم تلاحظه، تجولت بعينيها فى الغرفة، ما الذى تبحث عنه؟

تحرك الرضيع، رعشة بذراعيه وركلة بقدميه وانقباضة بعموده الفقرى والتى عادة ما تسبق بكاءه، غيرت وضعيته جسده، رأسه ثقيل على كتفى وأنفاسه على عنقى، "لا تبك، أرجوك لا تبك".

عاد لسكونه مجدداً، وعدت أنا للمراقبة.

كتبتى التى على المكتب، الكتب التى لا أمر بها دون أن أفتحها على صفحة عشوائية، لأحظى بمتعة بضع كلمات، وتحية سريعة، كم يبدو هذا متناقضاً حين أرى الكتب بين يديها، "آديلاين" والكتب؟ بدا المشهد خطأ تماماً، حتى حين فتحت الغلاف، فكرت للحظة طويلة وغريبة أنها سوف تقرأ.

مزقت الصفحات بماء يدها ونثرتها على المكتب وانزلق بعضها على الأرض، وحين انتهت من التمزيق، أمسكت حفنة منها وصنعت منها كرات، بسرعة! كانت أشبه بدوامة هوائية! مجلداتى الصغيرة المنظمة، فجأة أصبحت جبلاً من الورق، من المذهل أن كتاباً يمكن أن يحتوى على كل هذا الورق! أردت الصياح، لكن بماذا؟ كل الكلمات، الكلمات الجميلة، تمزقت وتكومت، وأنا فى الظلام عاجزة عن الكلام.

جمعت من الأوراق ملء ذراعيها ورمتها على قمة البطانية البيضاء فى الموقد، راقبتها تتردد من المكتب إلى الموقد ثلاث مرات، تملئ ذراعاها بالصفحات، حتى تكس الموقد وارتفع بالكتب الممزقة، "جين أير"، و"مرتفعات ويذيرنج"، و"ذات الرداء الأبيض"، سقطت كرات من الورق من قمة المحرقة، البعض الآخر تدحرج وصولاً إلى السجاد، لينضم إلى الكرات التى أسقطتها فى طريقها إلى الموقد.

توقفت إحدى الكرات عند قدمي، وهبطت بصمت لأستردها.

أوه! ذلك الشعور الشنيع الخاص بالورق المتجعد، كلمات جن جنونها، تطير فى كل الاتجاهات بلا معنى، لقد فُطر قلبى.

اجتاحنى الغضب، وحملنى مثل قطعة من حطام سفينة، لا أرى ولا أتنفس، اعتلج مثل المحيط فى رأسى، كان يمكن أن أصرخ، أو أن أقفز كالمجنونة من مخبئى وأفاجئها، لكن كنز "إيميلين" كان بين ذراعى،

ولذا وقفت متفرجة، أرتجف وأنتحب في صمت، في حين تدنس أختها الكنز الذي يخصنى.

في النهاية كانت راضية بمحرقتها، ولكن أيًا كان رأيك، فإن الجبل في الموقد كان هو الجنون بعينه، كانت السيدة تقول إنه منقلب، ولن يشتعل أبدًا، يجب أن تكون الأوراق في الأسفل، ولكن حتى إن أعدته "آديلاين" على نحو سليم فلن يشكل ذلك فارقًا، فهى لن تستطيع إشعاله لأنها ليست تملك ثقابًا، وحتى إن استطاعت الحصول على ثقاب، فإنها لن تحقق هدفها المتعلق بالفتى، الضحية التى تقصدها، الذى بين ذراعى، أما الجنون الأكبر من كل هذا: لنفترض أننى لم أكن موجودة لأوقفها؟ لنفترض أننى لم أنقذ الرضيع وأنها أحرقته حيًا! كيف تصورت أن حرق طفل أختها سيعيدها إليها؟

كان ذلك حريق امرأة مجنونة.

بين ذراعى تحرك الرضيع، وفتح فمه ليبنى، ماذا أفعل؟ انسحبت بخفة وراء ظهر "آديلاين"، وهربت إلى المطبخ.

يجب أن أوصل الرضيع إلى مكان آمن، ثم أتعامل مع "آديلاين" لاحقًا، كان عقلى يعمل بشراسة، يفكر بخطة تلو الأخرى، لن يتبقى لدى "إيميلين" أى حب لأختها حين تعرف ما حاولت فعله، سنبقى أنا وهى، سنخبر الشرطة أن "آديلاين" قتلت "جون ذا ديغ"، وهم سيأخذونها بعيدًا، لا! سنخبر "آديلاين" أننا سنخبر الشرطة إن لم تغادر "أنجلفيلد"، لا! ثم فجأة وجدتها! سنترك "أنجلفيلد"، نعم! سأغادر و"إيميلين" مع الرضيع، وسنبداً حياة جديدة دون "آديلاين" ودون "أنجلفيلد"، لكن معًا.

وقد بدت الفكرة بسيطة جدًا لدرجة أنى تعجبت من أننى لم أفكر فيها من قبل.

تتعلق حقيبة صيد "أمبروز" بخطاف على باب المطبخ، فككت أبازيها سريعًا ولففت الرضيع بين ثناياها، ووضعت في حقيبة الصيد تلك الصفحة من رواية "جين أير"، من أجل الحماية، وملعقة أخذتها من على مائدة المطبخ، سنحتاج إليها في طريقنا نحو حياتنا الجديدة، وفي بالي مستقبل مشرق للغاية لدرجة أنه بدا حقيقة أكثر من الحاضر. والآن إلى أين؟ مكان ليس بعيدًا عن المنزل، حيث لا شيء قد يؤذيه، حيث سيشعر بالدفء كفاية خلال بضع الدقائق التي سأستغرقها حتى أعود إلى المنزل وأجلب "إيميلين"، وأقنعها باتباعي.

ليس في استراحة العربات، فأحيانًا تذهب "آديلاين" إلى هناك، بل الكنيسة، فهذا مكان لا تذهب إليه مطلقًا.

ركضت على الطريق الخاص، وعبر المدخل المسقوف، وإلى داخل الكنيسة، توجد في الصفوف الأمامية وسائد منسوجة صغيرة للركوع، رتبها على شكل سرير ووضعت الرضيع عليها بحقيبته الكتانية.

والآن، يجب أن أعود إلى المنزل.

كدت أصل حين تحطم مستقبلي، رأيت شظايا زجاجية تطير في الهواء، ونافذة تنكسر تلو الأخرى، وشعاع لهب مشئوم يطوف في المكتبة، يظهر إطار النافذة الفارغ نيران سائلة تُرش بالغرفة، وصفائح بنزين تنفجر بسبب الحرارة، وجسدين بشريين.

"إيميلين"!

ركضت، تصل رائحة الحريق إلى فتحتي أنفي حتى وأنا في ردهة المدخل مع أن الأرض والجدران الحجرية باردة ولن يصل إليها الحريق، لكنني توقفت عند باب المكتبة، الألسنة يطارد بعضها بعضًا وهي تصعد الستائر، رفوف الكتب مشتعلة، والموقد نفسه جحيم، والفتاتان في وسط الغرفة، تجمدت مكانى مندهشة للحظة وسط

ضوضاء وحرارة الحريق، لأن "إيميلين" الساكنة، الطيعة، ترد الضربة بضربة، والركلة بركلة، والعضة بعضة، لم ترد الأذى لأختها من قبل، لكنها تفعل هذا الآن، من أجل طفلها.

أرى ضوءًا منفجرًا تلو الآخر حولهما وفوق رأسيهما مع انفجار صفائح البنزين، والأمطار النارية تهبط على الغرفة.

أفتح فمى لأقول لـ "إيميلين" إن الرضيع بخير، لكن مع أول نفس أستنشقه لا أجد إلا حرارة، وأختنق.

أقفز فوق النيران، وأخطو من حولها، وأبعد النيران التي تهبط على من الأعلى، وأصد النيران بيدي، وأضرب النيران التي تمسك بملابسي، حين أبلغ الأختين دون أن أستطيع رؤيتهما، لكنني أمد يدي كالعمياء عبر الدخان، لمستى تفاجئهما فتباعدان على الفور، تأتي لحظة أرى فيها "إيميلين" بوضوح وهي تراني، أمسك بيدها وأجذبها عبر السنة اللهب وعبر الحريق، حتى وصلنا إلى الباب، لكنها تتوقف حين تدرك ما أفعله، أقودها بعيدًا عن النار إلى الأمان، فأشدها بقوة.

"إنه بأمان"، جاءت كلماتي أجشة مبحوحة، لكنها واضحة كفاية.

لم لا تفهم؟

أحاول مجددًا: "الرضيع، لقد أنقذته".

بالتأكيد سمعتني، أليس كذلك؟ لكنها تقاومني على نحو عجزت عن تفسيره، وتنزلق يدها من قبضتي، أين هي؟ لا أرى إلا الظلام.

أتعثر إلى الأمام نحو السنة اللهب، وأصطدم بجسدها، فأمسك بها وأشد. لكنها لا تبقى معي، بل تستدير وتعود إلى الغرفة مجددًا.

لم؟

إنها معلقة بأختها.

إنها معلقة.

أتبعها إلى داخل الدخان بلا بصر وبرئتین تحترقان.
سأكسر الرابطة بينهما.

اقتحمت المكتبة وعيناي مغلقتان في مواجهة الحرارة وأبحث
وذراعى أمامي، لا أتركها حين تبلغها يداى وسط الدخان، لن أدعها
تموت، سوف أنقذها، أجريها بشراسة إلى الباب وخارجة على الرغم
من مقاومتها.

الباب مصنوع من البلوط وثقيل، ولا يحترق بسهولة، فادفعه
لأغلقه وراءنا، وأعشّق مزلاج الباب.

تتقدم هي إلى جانبي وتوشك أن تفتحه مجدداً، هناك شيء أقوى
من الحريق يجذبها إلى هذه الغرفة.

المفتاح الذى استقر فى القفل، غير المستخدم منذ أيام "هيوست"،
ساخن، فيحرق كفى وأنا أديره، لم يؤذنى شيء آخر فى تلك الليلة، لكن
المفتاح يكوى كفى وأشم رائحة جلدى وهو يحترق، تمد "إيميلين"
يدها لتقبض على المفتاح وتفتحه مجدداً، فيحرقها المعدن وتصيبها
صدمة.

أجذب يدها بعيداً.

تملاً رأسى صرخة قوية، أهى صرخة بشرية؟ أم هو صوت الحريق
نفسه؟ لا أعرف حتى إن كانت آتية من داخل الغرفة أم من الخارج
معى، تبدأ بداية حلقية وتستجمع قوتها وهى تتصاعد، وتصل
إلى ذروة صاخبة، وحين أظن أن هذه نهاية نَفْسِها، تستمر، بصوت
منخفض وطويل على نحو مستحيل، صوت لا نهائى يملأ العالم ويبتلعه
ويحتويه.

ثم يختفى الصوت ولا يتبقى سوى أجيج النار.

تهطل الأمطار خارج المنزل، والعشب غارق في المياه، فهبطنا على الأرض، وتدحرجنا على العشب المبتل لنبلل ملابسنا وشعرنا الداخن بلا لهب، ونشعر بالبلل البارد على جلدنا المحروق، استقرنا على ظهرينا هناك، مسطحتين على الأرض، أفتح فمى وأشرب المطر، ويسقط على وجهى، ويبرد عيني، ويرتد إلى بصرى، لم أر قط سماء كهذه، لون أزرق داكن عميق به سحب سوداء أردوازية سريعة الحركة، والمطر يهبط بلون فضي كحواف الشفرات، وبين الحين والآخر يتصاعد من المنزل وابل من اللون البرتقالى اللامع، كأنه نافورة من النيران، وتقسم صاعقة السماء إلى شطرين، وتظل تقسمها مرارًا وتكرارًا.

الرضيع، يجب أن أخبر "إيميلين" بشأن الرضيع، ستر لأننى أنقذته، سيجعل هذا الأمور على ما يرام.

التفتُ إليها وفتحت فمى لأتكلّم، وجهها.

وجهها الجميل المسكين أمسى أسود وأحمر، يغطيه الدخان والدم والنار. عيناها، نظرتها الخضراء مدمرة، لا ترى، ولا تعرف.

أنظر إلى وجهها ولا أجد فيه محبوبتى.

أهمس: " (إيميلين)؟ (إيميلين)؟"

لا ترد.

أشعر بموت قلبى، ماذا فعلتُ؟ هل قمْتُ...؟ أمِكن أن...؟

لن أحتمل أن أعرف.

ولن أحتمل ألا أعرف.

"(آديلاين)؟" قلتها بصوت مكسور.

لكنها -هذه الإنسان، هذه الفتاة، هذه أو الأخرى، هذه قد تكون أو قد لا تكون، هذه الحبيبة، هذه الوحش، هذه التى لا أعرف من هى- لا ترد.

الناس يتوافدون، يجرون على الطريق الخاص، وهناك أصوات تنادى بتعجل فى الليل.

أنهض جائئة وأركض سريعاً مبتعدة، وأظل منحنية ومختبئة، ويصل الناس إلى الفتاة على العشب، وحين يتأكد لى أنهم وجدوها أترك أمرها لهم، ثم ذهبت إلى الكنيسة، وعلقت الحقيبة على كتفى، وتشبثت بالرضيع فى حقيبته بجانبى، وانطلقت.

الغابة هادئة، فالمطر الذى تبطئ أوراق الشجر هبوطه، ينزل برقة على الأشجار المتشابكة، والطفل يتذمر ثم ينام، تحملنى قدمائى إلى المنزل الصغير عند حافة الغابة، أعرف ذلك المنزل، رأيته كثيراً خلال سنوات حياة الأشباح، تعيش به امرأة وحدها، دائماً ما اعتقدت أنها تبدو لطيفة وأنا أتجسس عليها عبر النافذة وهى تحوك أو تخبز، وحين أقرأ عن الجدات الطيبات والعرايات الخياليات فى الكتب، أزودهن بوجهها.

أخذ الرضيع إليها وأتطلع عبر النافذة مثلما فعلت من قبل، وأراها فى مكانها المعتاد قرب النار، تحوك وهى هادئة وتفكر، إنها تفكك ما حاكته، لا تفعل شيئاً سوى الجلوس وفك الغرز، والإبر على الطاولة بجوارها، هناك مكان جاف فى المدخل المسقوف للرضيع، فأضعه هناك وأنتظر وراء الشجرة.

فتحت الباب ورفعت الرضيع، وأدركت حين رأيت تعبير وجهها أنه سيكون بأمان معها، تنظر إلى الأعلى وحولها وباتجاهى، تبدو كأنها رأت شيئاً، هل أحدثت حفيفاً بأوراق الشجر فكشفت مخبئى؟ تمر ببالى فكرة أن أتقدم من مكانى، بالتأكيد ستصادقنى، أليس كذلك؟

ترددتُ، وغيّرت الرياح اتجاهها، وشممت رائحة الحريق في اللحظة نفسها مثلها، تلفتت بعيداً ونظرت إلى السماء، وشهقت أمام الدخان المرتفع من البقعة التي يقف فيها منزل "أنجلفيلد"، ثم تظهر الحيرة على وجهها، قربت الرضيع إلى أنفها وشمته، انتقلت رائحة الحريق إليه من ملابسى، عندها ألقت نظرة أخرى إلى الدخان وتراجعت بخطوات حازمة إلى المنزل وأغلقت الباب.

أنا وحدى.

بلا اسم.

بلا منزل.

بلا عائلة.

أنا لا شىء.

ليس لى مكان أذهب إليه.

ليس لى أحد ينتمى إلى.

أحملق إلى كفى المحترقة لكننى لا أشعر بالألم.

ما أنا؟ هل أنا حتى على قيد الحياة؟

يمكننى الذهاب إلى أى مكان، لكننى سرت رجوعاً إلى "أنجلفيلد"، إنه المكان الوحيد الذى أعرفه.

أبرز من بين الأشجار وأقرب من المشهد، هناك سيارة إطفاء، والقرويون يتراجعون بدلائهم، مذهولين بوجوه سودها الدخان، ويراقبون رجال الإطفاء وهم يحاربون ألسنة اللهب، والنساء مذهولات بالدخان المتصاعد نحو السماء السوداء، هناك سيارة إسعاف، والطبيب "مودسلى" راکع بجوار جسد على العشب.

لا أحد يرانى.

أقف خفية على حافة كل ما يحدث، ربما أنا بالفعل لا شيء، ربما لا أحد يرانى مطلقاً، ربما مت في الحريق ولم أدرك الأمر بعد، ربما أصبحت أخيراً ما كنته دائماً: شبحاً.

حينها نظرت إحدى النساء باتجاهي.

صاحت وهى تشير بإصبعها: "انظروا، إنها هنا!" فالتفت الواقفون وحملقوا، وركضت إحدى النساء لتنبيه الرجال، فصرفوا نظرهم عن الحريق ونظروا إلى، قال أحدهم: "الشكر للرب!"

فتحت فمى لأقول.. لا أعلم ماذا، لم أقل شيئاً، وقفت هناك فقط، أصنع أشكالاً بفمى، بلا صوت، وبلا كلمات.

الطبيب "مودسلى" بجانبى الآن: "لا تحاولي الكلام".

أحملق إلى الفتاة التى على العشب، ويقول الطبيب: "إنها ستنجو".

أنظر إلى المنزل.

السنة اللهب، كتبى، لا أظن أننى يمكننى تحمل هذا، أذكر صفحة "جين أير"، وكرة الكلمات التى أنقذتها من المحرقة، لقد تركتها مع الرضيع.

أبدأ البكاء.

يقول الطبيب لإحدى النساء: "إنها فى حالة صدمة، أبقئها دافئة وابقى معها ونحن نوصل أختها إلى الإسعاف".

تأتى إلى امرأة، وتعبر عن قلقها بأصوات، وتخلع معطفها وتلفه حولي بحنان، كأنها تلبس رضيعاً، وتغمغم: "لا تقلقى، ستكونين بخير، وأختك على ما يرام، أوه، يا عزيزتى المسكينة".

رفعوا الفتاة من العشب ووضعوها على السرير النقال فى سيارة الإسعاف، ثم ساعدوني على الدخول وأجلسوني عكسها، وأخذونا إلى المشفى.

إنها تحملق إلى الفضاء، عيناها مفتوحتان وفارغتان، أتوقف عن النظر إليها بعد اللحظة الأولى، وينحنى المسعف فوقها، ويطمئن نفسه بأنها تتنفس، ثم يلتفت إلى.

"ماذا عن هذه اليد، ها؟"

تشبثت بيمناى فى يسراى، وعقلى غير مدرك للألم، لكن جسدى يفضحنى. أخذ يدى، وسمحت له بفك أصابعى، هناك علامة منقوشة بعمق فى كفى، إنها علامة المفتاح.

يقول لى: "هذا سيُشفى، لا تقلقى، والآن هل أنت (آديلاين) أم (إيميلين)؟"

يشير إلى الأخرى: "هل هذه (إيميلين)؟"

لا أستطيع الإجابة، لا أستطيع الشعور بنفسى، لا أستطيع الحركة.

قال: "لا تقلقى، كل فى وقته".

يفقد الأمل فى جعلى أفهمه، ويتمتم من أجل منفعته الشخصية: "لكن مع ذلك، يجب أن ندعوك باسم ما، (آديلاين)، (إيميلين)، (إيميلين)، (آديلاين)، نصف ونصف، أليس كذلك؟ لا تقلقى، كل ذلك سيروح بالاعتسال".

وصلنا إلى المشفى، وانفتح باب سيارة الإسعاف، لا يوجد شيء إلا الضوضاء والصخب، أصوات تتكلم بسرعة، ثم رُفعت النقالة على حامل متحرك ودُفعت بعيدًا بسرعة، جلبوا لى كرسيًا متحركًا وشعرت بيدين على كتفى: "اجلسى يا عزيزتى"، تحرك الكرسي وقال صوت من وراء ظهري: "لا تقلقى يا صغيرتى، سنرعاك وأختك، أنت بأمان الآن يا (آديلاين)".

رأيت الضعف بفمها المفتوح، وخصلة من الشعر الجامح لم تستقم عند صدغها، وبدت خلال نومها مسنة للغاية، وشابة للغاية، أعطية السرير ترتفع وتنخفض على كتفيها الرقيقتين مع كل نفس لها، ومست حافة البطانية ذات الشريط وجهها عند كل انقباضة صدر، بدت غير مدركة لها، لكن مع ذلك انحنيت فوقها لأطوى الأغطية وأعيد لفافة الشعر الباهت إلى مكانها.

لم تتحرك، تساءلت إن كانت نائمة حقًا أم أن هذه إغماءة؟

لا أستطيع أن أجزم لكم من الوقت راقبتها بعد ذلك، توجد ساعة، لكن حركات عقاربها بلا معنى كأنها خريطة لسطح البحر، أطبقت على موجة تلو الأخرى من الوقت وأنا أجلس بعينين مغلقتين، لست نائمة، بل منتبهة مثل أم تراقب تنفس طفلتها.

بالكاد أعرف ما يجب قوله عما حدث ناليًا، أيمكن أن التعب أصابني بالهلوسة؟ هل غفوت وحلمت؟ أم هل تكلمت السيدة "وينتر" حقًا للمرة الأخيرة؟

"سأوصل رسالتك إلى أختك".

هزرت عيني لأفتحهما، لكن عينيها كانتا مغلقتين، بدا أنها مستغرقة في النوم مثلما كانت من قبل.

لم أر الذئب حين أتى، لم أسمع، لم يحدث إلا أنني أحسست بسكون قبل الفجر بقليل، وأدركت أن التنفس الوحيد المسموع في الغرفة هو تنفسي .

بدايات

الثلوج

ماتت السيدة "وينتر" وظلت الثلوج تتساقط.

حين جاءت "جوديث"، وقفت معى لبعض الوقت عند النافذة، وراقبنا سماء الليل والضوء يغزوها على نحو مقبض، ثم أرسلتني إلى سريرى حين أخبرنا تغير اللون أبيض أن الصباح قد حل. استيقظت في نهاية عصر اليوم.

الثلوج التى عطلت الهاتف بلغت الآن حواف النافذة، ونصف الأبواب، لقد عزلتنا عن بقية العالم كأنها مفتاح سجن، وهربت السيدة "وينتر"، كذا السيدة التى أشارت إليها "جوديث" باسم "إيميلين"، والتى تجنبْتُ تسميتها، وأصبح بقيتنا، "جوديث" و"موريس" وأنا عالقين.

كان القط مضطربًا، فقد أزعجته الثلوج، لم يحب القط هذا التغير فى عالمه، وانتقل من عتبة نافذة إلى أخرى بحثًا عن عالمه المفقود، وماء بالبحاح أمام "جوديث" و"موريس" وأنا، كأن استعادة عالمه

المفقود بأيدينا، وعند المقارنة، فقد اعتبر فقدان سيدته شأناً صغيراً، لو كان لاحظته من الأساس، ولم يزعجه على نحو حقيقى.

حاصرتنا الثلوج داخل امتداد جانبي من الوقت، ووجد كل منا طريقته الخاصة ليواكب الوضع، "جوديث" كانت هادئة، أعدت حساء الخضراوات ونظفت خزانات المطبخ، وحين لم تجد ما تفعله وضعت طلاء أظفارها ووضعت لوجهها مرطباً، أما "موريس" فقد أغضبه الحبس وقلة النشاط، فلعب جولات بلا نهاية من ألعاب الورق، لكن حين اضطر إلى شرب الشاي أسود بسبب نقص الحليب، شاركته "جوديث" ألعاب الورق لتلهيه عن مرار مشروبه.

أما أنا فقضيت يومين أفرغ ملاحظاتي الأخيرة، وحين أكملتها وجدت أننى لا أكتفى بالقراءة، فحتى "شارلوك هولمز" لم يستطع الوصول إلى في ذلك المكان الحبيس بالثلوج، قضيت ساعة وحيدة في غرفتي أدرس أحزاني، محاولة تسمية ما اعتقدت أنه عنصر جديد بها، أدركت أننى أفتقد السيدة "وينتر"، لذا اتجهت إلى المطبخ باحثة عن صحبة البشر، سُرَّ "موريس" للعب الورق معى، مع أننى لا أعرف إلا ألعاب الأطفال، وأعددت الكاكاو والشاي بلا حليب إلى أن تجف أظفار "جوديث"، ولاحقاً تركتها تهذب وتطلى أظفاري.

بهذه الطريقة انتظر ثلاثتنا والقط مرور الأيام، محبوسين مع ميتتنا ومع السنة الماضية التى مدت إقامتها.

في اليوم الخامس سمحت لأحزان واسعة بأن تغلبنى.

غسلت الصحون وجففها "موريس" وأنا ألعب مع "جوديث" بالأوراق على المائدة، كنا مسرورين جميعاً ببعض التغيير، وحين انتهى غسل الصحون، انسحبت من رفقتيها إلى المرسم، أطلت نافذة المرسم على جزء من الحديقة محجوب عن الطقس، هنا لم ترتفع الثلوج كثيراً، ففتحت النافذة وعبرت إلى اللون الأبيض بالخارج وخطوط على

الثلوج، الأحزان التى أبقيتها تحت السيطرة لسنوات، اعتمادًا على الكتب ورفوفها، جاءتنى كلها الآن، أسلمت نفسى على دكة يحميها سياج طويل من الصنوبر لحزن يشبه عرض وعمق الثلوج التى حولى، وبالنقاء نفسه، بكيت السيدة "وينتر" وشبحها، و"آديلاين" و"إيميلين"، بكيت أختى ووالدى ووالدى، أما أكثر وأصعب ما بكيته فكان نفسى، حزنى هو حزن الرضيعة، التى فصلت للتو عن نصفها الآخر، إنه حزن طفلة منكبة على صفيحة قديمة، تفهم بعض الأوراق على نحو صادم ومفاجئ، وحزن امرأة بالغة، تجلس باكية على دكة وسط ضوء وصمت الثلوج المثيرة للهلوسة.

حين عدت إلى نفسى وجدت الطبيب "كليفتون"، مد ذراعه حولى وقال: "أنا أعرف، أعرف".

بالتأكيد لم يعرف، ليس حقًا، لكن هذا ما قاله، وارتحت أنا لسماعه، لأننى عرفت ما يقصده، كلنا لنا أحزاننا، ومع أن الحدود الدقيقة للحزن وثقله وأبعاده مختلفة لدى الجميع، فإن لون الحزن موجود لدينا جميعًا، قال: "أنا أعرف"، لأنه بشر، وبالتالى فقد عرف بطريقة ما.

قادنى إلى الداخل، إلى الدفء.

قالت "جوديث": "يا عزيزتى، هل أجلب لك الكاكاو؟"

جذب لى "موريس" كرسيًا وبدأ يغذى الموقد.

ارتشفت الكاكاو ببطء، ووجدت حليبًا جلبه الطبيب حين جاء مع المزارع على الجرار.

طوت "جوديث" شالاً حولى، ثم بدأت تقشير البطاطس من أجل العشاء، أصدر ثلاثهم التعليقات بين الحين والآخر - ما قد نتناوله فى العشاء، وما إذا كانت الثلوج أخف الآن أم لا، وكم ستستغرق عودة

خطوط الهاتف للعمل- وفي خضم ذلك، أخذوا على عاتقهم مهمة شاقة وهى ضخ الحياة مجددًا بعدما أوقفنا الموت جميعًا فى متاهاته. شيئًا فشيئًا، امتزجت التعليقات وأصبحت محادثة. استمعت إلى أصواتهم، وبعد وهلة، انضممت إليهم.

عيد ميلاد سعيد

عدت إلى المنزل.

إلى متجر الكتب.

قلت لوالدي: "ماتت السيدة (وينتر)".

سألني: "وأنت؟ كيف حالك؟"

"على قيد الحياة".

ابتسم.

سألته: "أخبرني عن ماما، لم تتصرف هكذا؟"

قال لي: "كانت مريضة جدًا حين ولدت، لم ترك قط قبل أن تؤخذ منها، لم ترَ أختك قط، كانت على حافة الموت، وحين استعادت وعيها، كانت جراحتك انتهت وأختك..."

"أختي ماتت".

"نعم، لم يكن أحد متأكدًا بشأن مصيرك، كنت أنتقل من جوارها إلى جوارك، ظننت أنني سافقد ثلاثتكم، صليت لكل إله سمعت به في حياتي لينقذك، وأجيب صلواتي، جزئيًا، إذ نجوت أنت، ووالدتك لم تتعاف".

كنت بحاجة إلى معرفة شيء واحد.

"لم تخبرني أن لي توأمًا؟"

وجهه الذي التفت إلى كان مدمرًا، ازدرد ريقه، وحين تكلم كان صوته أجشًا: "قصة مولدك حزينة، ظننت والدتك أنها أثقل من أن تتحملها طفلة، كنت لأنقلها إليك يا (مارجريت)، لو استطعت، لكنني لأفعل أي شيء لأجنبك ذلك".

جلسنا في صمت، فكرت في كل الأسئلة الأخرى التي قد أسألها، لكن جاءت اللحظة التي لا أحتاج فيها إلى طرحها.

مددت يدي إلى يد والدي في اللحظة نفسها التي مد هو يده إلى.

حضرت ثلاث جنازات في ثلاثة أيام.

كان المعزون بوفاة السيدة "وينتر" كثيرًا، وأعلنت الأمة الحداد على قاصتها المفضلة وخرج آلاف القراء لتقديم العزاء، أما أنا فغادرت بأسرع ما يمكن، فقد ودعتها بالفعل.

كانت الثانية هادئة، لم يحضرها إلا "جوديث" و"موريس" والطبيب، وأنا لرثاء المرأة المشار إليها طوال العزاء باسم "إيميلين"، بعدها قلنا وداعات موجزة وافترقنا.

أما الثالثة فكانت أكثر وحدة، في محرقة للجثث في بانبري، كنت الوحيدة الحاضرة حين أشرف قس له ملامح عادية على عملية تمرير

مجموعة من العظام مجهولة الهوية إلى يدى الرب، إنها بين يدى الرب، باستثناء أننى حصلت على جرة الرماد لاحقًا: "بالنيابة عن عائلة (آنجلفيلد)".

ظهرت زهور الثلج بـ"آنجلفيلد"، أو على الأقل أولى علامات ظهورها، تشق طريقها عبر الأرض المتجمدة وتظهر أطرافها، خضراء ومنعشة، أعلى طبقة الجليد.

سمعت صوتًا وأنا واقفة، إنه "أوريليوس" الذى وصل عند البوابة المسقوفة، وكان يحمل زهورًا والثلوج مستقرة على كتفيه.

"(أوريليوس)!" كيف أصبح بهذا الحزن؟ وهذا الشحوب؟ قلت له: "لقد تغيرت".

"لقد أرهقت نفسى فى مطاردة بلا طائل"، عيناه اللتان تبدوان دائمًا وديعتين، انفتح لونهما إلى أزرق باهت مثل سماء يناير، ثم كن رؤية قلبه المفطور فى عينيه الشفافتين، "طوال حياتى أردت العثور على عائلتى، أردت أن أعرف من أنا، ومؤخرًا شعرت بالتفاؤل، ظننت أن فرصة للشفاء من هذا قد تأتى، والآن أخشى أننى كنت مخطئًا".

تمشينا بطول العشب بين المقابر، وأزحنا الثلوج عن الدكة وجلسنا قبل سقوط المزيد، فتش "أوريليوس" فى جيبيه وفض غطاء قطعتين من الكعك، مد واحدة إلى بشرود وغرس أسنانه فى الأخرى.

سألنى: "أهذا ما لديك لى؟" متطلعًا إلى علبة الجواهر، "أهذه بقية قصتى؟"

مكتبة

ناولته العلبة.

t me/t_pdf

"أليست خفيفة؟ إنها خفيفة كالهواء، ومع ذلك..." ومد يده إلى قلبه في محاولة للإشارة إلى ثقل قلبه، ولما فشل في التعبير، وضع العلبة جانبًا وأخذ قضة أخرى من الكعكة.

حين أنهى آخر قضة تكلم: "لو كانت أُمي، لمَ لم أكن معها؟ لمَ لم أمت معها في هذا المكان؟ لمَ أبعدتني إلى منزل السيدة (لاف) ثم عادت إلى منزل يحترق؟ لماذا؟ الأمر ليس منطقيًا".

تبعته وانحرف هو عن الممر الرئيس وشق طريقه في متاهة الحدود الضيقة بين المقابر، توقف عند قبر نظرت إليه من قبل وترك زهوره، كان شاهد القبر بسيطًا.

"جوان ماري لاف".

"لا تُنسى أبدًا".

مسكين "أوريليوس"، كان مرهقًا للغاية، بالكاد ألاحظ وأنا أدس ذراعي تحت ذراعه، لكن حينها التفت لينظر إلي: "ربما من الأفضل ألا تكون لي قصة مطلقًا، ذلك أفضل من قصة تتغير باستمرار، لقد قضيت حياتي كلها أطارد قصتي، ولم أعرفها حقًا، كنت أطارد قصتي، في حين أن السيدة (لاف) كانت لدى طوال الوقت، لقد أحبتني".

"لم أشك بهذا قط"، لقد كانت أمًا صالحة له، أفضل مما قد تكون عليه الفتاتان، قلتُ: "ربما من الأفضل ألا تعرف".

التفت من شاهد القبر إلى السماء البيضاء: "أتظنين ذلك؟"

"لا".

"إدًا فلم تقترحين ذلك؟"

سحبت ذراعي من تحت ذراعه ودسست يديّ الباردتين تحت ذراعي معطفي، "إنه ما قد تقوله والدتي، إنها تعتقد أن قصة بلا وزن أفضل من قصة بالغة الثقل".

"إذا فقصتي ثقيلة".

لم أعلق، وحين طال الصمت، لم أخبره قصته بل قصتي.
قلت: "كانت لي أخت، توأم".

حولت وجهي نحوه، كانت كتفاه جامدتين وعريضتين أمام السماء،
واستمع بجدية إلى القصة التي صبتها إليه.

"كنا ملتصقتين، هنا..." وحركت يدي على جانبي الأيسر، "لم
تستطع العيش من دوني، احتاجت إلى قلبي لينبض من أجلها، لكنني
لم أستطع العيش معها، كانت تستنزف قوتي، ففصلونا، وماتت هي".

انضمت يدي إلى يدي الثانية على ندي، وضغطت بقوة.

"لم تخبرني والدتي قط، اعتقدت أن من الأفضل لي ألا أعرف".

"قصة بلا وزن".

"نعم".

"لكنك تعرفين".

ضغطت بقوة أكبر، "اكتشفت بالصدفة".

قال: "آسف لذلك".

شعرت بيديه تأخذان يدي، وضمهما على شكل قبضة كبيرة، ثم
جذبني إليه بذراعه الأخرى، شعرت بنعومة بطنه عبر طبقات من
المعاطف، واندفعت ضوواء إلى أذني، وفكرت في أنه نبض قلبه، إنه
قلب بشري، ويقف بجانبى، إذاً فهكذا صوته: فاستمعت.

ثم تباعدنا.

سألني: "وهل من الأفضل أن تعرفي؟"

"لا يمكنني إخبارك، لكن بمجرد أن تعرف يستحيل أن تعود بالزمن".

"وأنت تعرفين قصتي".

"نعم".

"قصتي الحقيقية".

"نعم".

بالكاد تردد، أخذ نفسًا وبدأ أنه يتضخم قليلاً.

قال: "من الأفضل أن تخبريني إذًا".

حكيت له، وتمشينا وأنا أحكي له، وحين انتهيت كنا واقفين حيث تبرز زهور الثلوج عبر بياض الثلوج.

تردد "أوريليوس" وهو يحمل اللعبة بين يديه: "لدى شعور بأن هذا مخالف للقواعد".

ظننت هذا أيضًا، "لكن ماذا أمامنا غير ذلك؟"

"القواعد لا تنطبق على هذه الحالة، أليس كذلك؟"

"لا يصح غير هذا".

"هيا بنا إذًا".

استخدمنا سكين الكعكة لنحت فراغ في الأرض المجمدة أعلى نعش المرأة التي عرفتها باسم "إيميلين"، قلب "أوريليوس" الرماد فيها، وأعدنا التربة لتغطيه، ضغط "أوريليوس" بكل وزنه، ثم أعدنا ترتيب الزهور لإخفاء عبثنا.

قال: "سيظهر مع ذوبان الثلوج"، ومسح الثلوج عن بنطاله.

"(أوريليوس)، يوجد المزيد في قصتك".

قدته إلى جزء آخر من باحة الكنيسة، "أنت تعرف بشأن والدتك الآن، لكنك كان لك أب أيضًا"، أشرت إلى شاهد قبر "أمبروز"، "حرفي

الـ(إيه) والـ(إس) على الورقة التي أُرِيَتْها لى، كان ذلك اسمه، وحقيته
أيضًا، كانت تستخدم في حمل الصيد، وهذا يفسر وجود الريشة".
سكتُ لوهلة، كان ذلك كثيرًا على "أوريليوس"، وحين أوماً بعد
وهلة طويلة، تابعت: "كان رجلًا صالحًا، أنت تشبهه جدًا".
حملق "أوريليوس" مبهورًا، فكلما عرف أكثر، فَقَدَ أكثر، "إنه ميت،
أعرف ذلك".

قلت برقة: "هذا ليس كل شيء"، أدار عينيه ببطء نحوى، وقرأت
فيهما الخوف من أن قصة التخلي عنه لا نهاية لها.
أخذت يده، وابتسمت له.

"بعد ولادتك تزوج (أمبروز)، وأنجب مرة أخرى".
استغرقه الأمر وهلة ليدرك ما يعنيه ذلك، وحين أدركه، أعادت
هزة من الحماس جسده إلى الحياة: "أتقصدين.. أن لى.. وهى.. هو..
هى..."

"نعم! أخت!"

أصبحت الابتسامة عريضة على وجهه.

تابعت: "وهى لديها طفلان، ولد وفتاة!"

"ابنة أخت! وابن أخت!"

أخذت يديه بيدي لأمنعهما من الارتجاف، "إنها عائلة يا
(أوريليوس)، عائلتك، أنت تعرفهم بالفعل، وهم ينتظرونك".
بالكاد استطعت مجاراته ونحن نمر عبر البوابة المسقوفة ونمد
الخطى على الطريق المشجر المؤدى إلى بيت الحارس الأبيض، لم ينظر
"أوريليوس" إلى وراء، ولم نتوقف إلا عند بيت الحارس، وكان هذا
بسببى.

"(أوريليوس)! كدت أنسى أن أعطيك هذا".

أخذ المغلف الأبيض وفتحه، والبهجة تشتته، أخرج البطاقة وتطلع إلى: "ماذا؟ ليس حقًا؟"
"نعم، حقًا".

"اليوم؟"

"اليوم! تلبّسنى شيء في هذه اللحظة، وفعلت شيئًا لم أفعله بحياتي قط ولم أتوقع أيضًا أن أفعله، فتحت فمي وصحت بأعلى صوتي، "عيد ميلاد سعيد!"

لا بد أنني كنت مجنونة قليلًا، وعلى أية حال، فقد شعرت بالخجل، لا أقصد أن "أوريليوس" قد يهتم لهذا، كان واقفًا بلا حركة، وذراعا ممدودتان إلى جانبيه، وعينا مغلقتان ووجهه متجه إلى السماء، كل سعادة العالم تهبط عليه مع الثلوج.

في حديقة "كارين"، حملت الثلوج آثار ألعاب المطاردة، آثار أقدام صغيرة وآثار أقدام أصغر تطارد بعضها في دوائر واسعة، لم يكن الطفلان في أي مكان ظاهر، لكن كلما اقتربنا كنا نسمع أصواتهما آتية من الفجوة في شجرة الصنوبر.

"لنلعب لعبة (سنو وايت)".

"هذه قصة للفتيات".

"ما القصة التي تريد أن تلعبها؟"

"قصة عن الصواريخ".

"لا أريد أن أكون صاروخًا، لنكن قوارب".

"كنا قوارب بالأمس".

حين سمعا صوت مزلاج الباب تطلعا إلى خارج الشجرة، "هل أخبركم من هذا؟" هكذا سألت طفليها وهى تبتسم بخجل لـ"أوريليوس"، "هذا خالكم".

بدل "أوريليوس" نظراته بين الطفلين و"كارين"، بالكاد كانت عيناه كبيرتين كفاية لتريا كل شيء أراده، كان عاجزاً عن التعبير، لكن "كارين" مدت يدها مترددة، وأخذها بيده.

بدأ كلامه: "الأمر كله..."

وافقته هى: "أليس كذلك؟ لكننا سنعتاد الأمر، صحيح؟" أوماً.

كان الطفلان يحملقان بفضول إلى البالغين.

سألتهما "كارين" لتلهيهما: "ماذا تلعبان؟"

أجابت الفتاة: "لا نعرف".

وقال أخوها: "لا نستطيع أن نقرر".

سألت "إيما" "أوريليوس": "أتعرف أية قصص؟"

قال لها: "واحدة فقط".

اندهشت: "واحدة فقط؟ أبها أية ضفادع؟"

"لا".

"ديناصورات؟"

"لا".

"ممرات سرية؟"

تبادل الطفلان النظرات، فهذه ليست قصة دسمة، على ما يبدو.

قال "توم": "نحن نعرف الكثير من القصص".

رددت هي على نحو حالم: "الكثير، أميرات، وطفادع، وقصور
سحرية، وعرايات..."

"برقات، وأرانب، وأفبال..."

"جميع أنواع الحيوانات".

"جميع أنواعها".

خيم عليهما الهدوء، مستغرقين في تأمل مشترك للعوامل المختلفة
التي لا تُحصى.

شاهدهما "أوريليوس" كأنهما معجزة.

ثم عادا إلى العالم الحقيقي، قال الفتى: "ملايين القصص".

سألت الفتاة: "هل أخبرك قصة؟"

ظننت أن "أوريليوس" قد عرف ما يكفي من القصص ليوم واحد،
لكنه أوماً.

التقطت غرضاً خيالياً ووضعتة في راحة يدها اليمنى، وقلدت
ببسرها حركة فتح غلاف كتاب، واسترقت نظرة لتتأكد من أنها
تحظى بكامل انتباه رفاقها، ثم عادت عيناها إلى الكتاب بين يديها،
وبدأت.

"في يوم من الأيام..."

"كارن" و"توم" و"أوريليوس"، ثلاثة أزواج من الأعين كلها تستقر
على "إيما" وقصتها، سيكونون جميعاً على ما يرام معاً.

تراجعت من البوابة وانسللت بعيداً بطول الشارع دون أن يلاحظ
أحد.

الحكاية الثالثة عشرة

لن أنشر السيرة الذاتية للسيدة "فيدا وينتر"، ربما العالم متشوق لمعرفة القصة، لكنها ليست قصتي لأحكيها، "آديلاين" و"إميلين"، الحريق والشبح، كلها قصص خاصة بـ"أوريليوس" الآن، كذا المقابر التي في باحة الكنيسة خاصة به، وعيد الميلاد الذي يستطيع تحديده بحسب ما يريد، فالحقيقة ثقيلة كفاية من دون الثقل الإضافي لعيون العالم على كتفيه، وإن أراد، يمكنه و"كارين" أن يطويا الصفحة، وأن يبدأ من جديد.

لكن الوقت يمر، وفي يوم من الأيام لن يكون "أوريليوس" موجودًا، و"كارين" أيضًا ستغادر هذا العالم، والطفلان، "نوم" و"إيما"، بعيدان عن الأحداث التي حكيتها هنا أكثر من خالهما، وبمساعدة والدتهما، بدأ ينسجان قصصهما الخاصة، قصص قوية ومتماسكة وحقيقية، سيأتي يوم تكون فيه "إيزابيل" و"تشارلي"، و"آديلاين" و"إميلين"، والسيدة و"جون ذا ديج"، والفتاة التي بلا اسم، قدماء جدًا لدرجة أن عظامهم القديمة لن تتحلى بأيّة قوة لتثير الخوف أو الألم، لن

يكونوا أى شىء إلا قصة قديمة، غير قادرة على إيذاء أحد، وحين يأتى ذلك اليوم - سأكون أنا نفسى مسنة - سأعطى "توم" و"إيما" هذه الحكاية، ليقرأها، ولينشرها إن قررا ذلك.

أمل أن ينشرها، لأن إلى أن يفعل ذلك، ستظل روح تلك الطفلة الشبح تطاردنى، ستتجول فى خواطرى، وستبقى فى أحلامى، وستكون ذاكرتى ملعبها الوحيد، لم أقدم لها الكثير بهذا الإحياء بعد وفاتها، لكنها على الأقل ليست منسية، سيكون هذا كافيًا، حتى اليوم الذى ينشر فيه "توم" و"إيما" هذا النص، وستكون قادرة على الوجود أكثر بعد موتها، أكثر مما عاشت قط.

وبالتالى، فإن قصة الفتاة الشبح لن تُنشر لسنوات عدة، إن نُشرت من الأساس، لكن ذلك لا يعنى أنى ليس لدى ما أعطيه للعالم فى الحال لإرضاء فضوله بشأن "فيدا وينتر"، لأن لدى شيئًا ما، ففى نهاية اجتماعى الأخير مع السيد "لوماكس"، كنت على وشك المغادرة حين أوقفنى قائلاً: "هناك شىء آخر بعد"، وفتح مكتبه وأخرج مظروفًا.

كان ذلك المظروف معى حين انسللت دون أن يلاحظنى أحد إلى خارج حديقة "كارين" وحولت خطاى نحو بوابات المنزل، لقد سويت الأرض من أجل الفندق الجديد، وحين حاولت تذكر المنزل القديم، لم أجد إلا صورًا فوتوجرافية فى ذاكرتى، لكن حينئذ وردت ببالى فكرة أنه بدا دائمًا مواجهًا للجهة الخطأ، لقد كان ملتويًا، سيكون المبنى الجديد أفضل، سيواجه الناظر مباشرة.

انحرفت من ممر الحصى لأعبر العشب المغطى بالثلوج إلى حديقة الغزلان القديمة والغابة، كانت أفرع الأشجار المظلمة مثقلة بالثلوج، التى تهبط منها أحيانًا كتل كبيرة لينة عند مرورى، وصلت أخيرًا إلى النقطة المرتفعة عند المنحدر، يمكنك رؤية كل شىء من هنا، الكنيسة ومقابرها، وأكاليل الزهور الزاهية على الجليد، وبوابات المنازل

البيضاء كالطباشير تحت السماء الزرقاء، واستراحة العربات المجردة من غطاءها، لم يختفِ إلا المنزل، وقد اختفى تمامًا، قلص الرجال ذوو الخوذات الصفراء الماضي إلى صفحة فارغة، وقد بلغنا نقطة التحول، لم يكن ممكنًا أن يُطلق على هذا موقع هدم، فغداً، أو ربما اليوم، سيعود العمال وسيصبح موقع بناء، هُدم الماضي، وحان الوقت ليشرعوا في بناء المستقبل.

أخرجت المظروف من الحقيبة، لقد كنت أنتظر الوقت المناسب، والمكان المناسب.

الحروف التي على المظروف مرسومة بشكل خاطئ على نحو غريب، جرات القلم غير المتساوية إما متلاشية إلى لا شيء وإما محفورة في الورقة، لم تعطِ أي انطباع بالسلاسة: كل حرف أعطى انطباعاً بأنه قد اكتمل على نحو فردي، وبجهد كبير، والتالي فقد رُسم كأنه مغامرة جديدة شاقة، كأن الحروف قد كُتبت بيد طفل أو شخص مسن للغاية، والمظروف موجه للأنسة "مارجريت ليا".

نقضت الظرف وأخرجت محتوياته، وجلست على شجرة مبتورة لأقرأها، لأنني لم أقرأ شيئاً واقفة قط.

عزيزتي مارجريت،

إليك النص الذي أخبرتك عنه.

حاولت أن أنهيه، ووجدت أنني لا أستطيع، لذا فإن هذه القصة التي أحدثت العالم ضجة كبيرة جداً بشأنها يجب أن تنجح على حالها، إنها شيء وإه: شيء من لا شيء، افعل بها ما تشائين.

أما العناوين، فإن العنوان الذى يثب إلى بالى هو "طفلة سندريلا"، لكننى أعرف كفاية بشأن القراء لأفهم أن أيًا كان الاسم الذى سأختار لها، ستُعرف للأبد بعنوان واحد، ولن يكون عنوانى.

لم نحمل الرسالة توقيعًا، ولا اسمًا.

لكن القصة موجودة.

كانت قصة "سندريلا"، كأننى لم أقرأها من قبل، كانت مقتضبة وصعبة وغازية، كانت عبارات السيدة "وينتر" شظايا زجاجية، براقعة وقاتلة.

تخيل هذا، تبدأ القصة، ويوجد فتى وفتاة، الفتى غنى، والفتاة فقيرة، فى غالب الأحيان تكون الفتاة هى من لا تملك الذهب، وهذه هى الحال فى قصتنا هذه، لم تكن هناك حاجة إلى حفل، فتمشية فى الغابة كانت كافية ليتعثر كل منهما بمسار الآخر، وفى يوم من الأيام كانت هناك عرابة ساحرة، لكنها لم تبقى إلى الأبد، وهذه القصة عن واحدة من مرات غيابها، وعربة فتاتنا عادية، تزحف إلى منزلها بعد منتصف الليل، وعلى ثوبها التحتى دماء لأنها اغتُصبت، ولن يأتى خادم إلى بابها بحذاء فرو فى اليوم التالى، وهى تعرف ذلك بالفعل، إنها ليست غبية، بل هى حبلى.

فى بقية القصة، تلد "سندريلا" طفلة، وتربيتها فى الفقر والقدارة، وتتخلى عنها بعد بضع سنوات فى أرض المنزل المملوك لمغتصبها، وتنتهى القصة فجأة.

تشعر الطفلة بالبرد والجوع فى منتصف طريق فى حديقة لم تذهب إليها من قبل، وتدرك فجأة أنها وحيدة، وراءها باب الحديقة المؤدى إلى الغابة، والذى يظل مواربًا، ألا تزال والدتها وراءه؟ وأمامها كوخ،

يبدو لعقلها الطفولي مثل منزل صغير، مكان قد تلجأ إليه، ومن يعرف، ربما يوجد به شيء يؤكل.

باب الحديقة؟ أم المنزل الصغير؟

الباب؟ أم المنزل؟

تردد الطفلة.

تردد...

وتنتهي القصة هنا.

أهـى أقدم ذكرى لدى السيدة "وينتر"؟ أم أنها مجرد قصة؟ أم قصة ابتكرتها طفلة واسعة الخيال لتملأ الفراغ الذى كان يجب أن تشغله والدتها؟

الحكاية الثالثة عشرة، القصة الأخيرة، الأشهر، غير المنتهية.

قرأت القصة وحزنت.

بالتدريج تحولت أفكارى بعيداً عن السيدة "وينتر" وإلى نفسى، ربما والدتى ليست مثالية، لكن على الأقل لى أم، هل فات أوان الأمل؟ لكن هذه قصة أخرى.

وضعت المظروف فى حقيبتى، ووقفت، ومسحت غبار لحاء الشجرة عن بنطالى قبل العودة إلى الطريق.

كنت ملزمة بكتابة قصة حياة السيدة "وينتر"، وقد فعلتها، لا يوجد شيء آخر أحتاج إلى فعله لأتم شروط التعاقد، إحدى نسخ هذه الوثيقة ستودع لدى السيد "لوماكس"، الذى سيخزنها فى خزانة بنك ثم سيرتب اللازم ليحول لى مبلغاً ضخماً من المال، من الواضح أنه ليس مضطراً حتى إلى تفقد ما إذا كانت الصفحات التى قدمتها إليه بيضاء.

من الواضح أنها وثقت بي، تبدو نواياها في العقد الذي لم أقرأه ولم أوقعه جلية جدًا، أرادت أن تحكي لي القصة قبل أن تموت، أرادتني أن أسجلها، ما أفعله بها بعد ذلك كان قراري، أخبرت المحامي بشأن نواياي تجاه "توم" و"إيما"، وحددنا موعدًا لإضفاء طابع رسمي عليها في صورة وصية احتياطية، وهذا يجب أن تكون نهاية الأمر.

لكنني لا أشعر أنني قد تجاوزت التجربة حقًا، لا أعرف مَنْ سيقراً هذا في النهاية، أو كيف، لكن لا يهم إن كانوا قلة، ولا يهم إن حدث ذلك بعد زمن بعيد، فأنا أشعر بالمسئولية تجاههم، ومع أنني حكيت لهم كل ما تُمكن معرفته عن "آديلاين" و"إيميلين" والطفلة الشبح، أدرك أن هذا لن يكون كافيًا بنظر البعض، أعرف كيف يكون الأمر أن تُنهي كتابًا وتجد نفسك تتساءل بعد يوم أو أسبوع، عما حدث للجزار، أو من حصل على الماس، أو ما إذا كانت الأرملة الغنية قد اجتمعت مع ابنة أختها مجددًا، يمكنني تخيل القراء يتفكرون في ما حدث لـ "جوديث" و"موريس"، وإذا ما كان أحدٌ ظل يهتم بالحديقة البهية، ومَنْ انتقل للعيش في المنزل.

لذا، إن كنت تتساءل، دعني أخبرك، بقت "جوديث" و"موريس" في المنزل، والمنزل لم يُباع، فقد أضيف شرط في وصية السيدة "وينتر" يفيد بأن يُحول المنزل والحديقة إلى متحف للأدب، بالتأكيد الحديقة هي ما تحمل القيمة الحقيقية (إنها "جوهرة غير معروفة" بحسب ما وصفتها مجلة بستنة في وقت مبكر)، لكن السيدة "وينتر" أدركت أن سمعتها في قص القصص ستجذب الحشود أكثر من مهاراتها في البستنة، ولذا سيضم المتحف جولات بالغرف، ومحل شاي، ومتجر كتب، يمكن للحافلات التي تجلب السياح إلى متحف "برونتي" أن تأتي بعدها إلى حديقة (فيدا وينتر) السرية، ستستمر "جوديث" في

منصب مدبرة للمنزل، و"موريس" مديرًا للبستنة، مهمتهما الأولى، قبل أن يمكن بدء تحويل المنزل إلى متحف أن يفرغا سكن "إيميلين"، فهذا لن تسمح بزيارته، لأن لا شيء به يُرى.

أما "هيستر"، وهذا سيفاجئك، فقد فاجأني بالطبع، وصلتني رسالة من "إيمانويل درايك"، ولأصدقكم القول فقد نسيت أمره تمامًا، لقد كان يياشر أبحاثه ببطء وبأسلوب منهجي، وعلى الرغم من كل الصعاب، وجدها، "لقد ضللتني الصلة بإيطاليا"، بحسب ما وضح في رسالته، "في حين ذهبت معلمتك المنزلية بالاتجاه الآخر تمامًا، إلى أمريكا!"، عملت "هيستر" لمدة عام مساعدة كتابية لمتخصص أكاديمي في علم الأعصاب، وحين انتهت السنة، خُمنوا من جاء لينضم إليها؟ الطبيب "مودسلي"! فقد ماتت زوجته (لا لشيء أكثر شرًا من الأنفلونزا، لقد بحثت الأمر)، وخلال أيام من الجنازة كان على متن قارب، إنه تأثير الحب، وكلاهما ميت الآن، لكن بعد حياة سعيدة ومديدة معًا، أنجبا أربعة أطفال، أحدهما كتب رسالة إليّ، وأرسلت أنا إليه النسخة الأصلية من دفتر مذكرات والدته ليحتفظ بها، أشك في أنه سيتمكن من تمييز أكثر من كلمة من كل عشر كلمات، إن طلب مني توضيحًا سأخبره أن والدته عرفت والده هنا في إنجلترا، خلال فترة زواج والده الأول، لكن إن لم يسأل، سأبقى صامتة، في رسالته إليّ، أرفق قائمة بالمنشورات المشتركة لوالديه، لقد بحثا وكتبا العشرات من المقالات ذات الشأن (لا يتعلق أى منها بالتوائم، أظن أنهما عرفا متى يجب التوقف) ونشراها على نحو مشترك: الطبيب "إي"، والسيدة "إتش جى مودسلي".

"إتش جى"؟ كان لـ "هيستر" اسم أوسط: "جوزافين".

ماذا تريد أن تعرف أيضًا؟ من اعتنى بالقط؟ حسنًا، انتقل "شادو" للعيش معي في متجر الكتب، يجلس على الرفوف، في أية مساحة يستطيع إيجادها بين الكتب، وحين يصادفه الزبائن هناك يستجيب

لنظراتهم برباطة جأش هادئة، وبين الحين والآخر، يجلس عند النافذة، لكنه لا يطيل الجلوس، فالشارع يحيره، والسيارات والمارة والأبنية المقابلة، لقد أريته طريقًا مختصرًا عبر الحارة إلى النهر، لكنه يرفض استخدامه.

قال والدى: "ماذا تتوقعين؟ النهر بلا فائدة بنظر قِطٍ من يوركشاير، إنه يبحث عن الأراضي البور".

أعتقد أنه على حق، فـ"شادو" يقفز إلى النافذة والتطلعات مسيطرة عليه، وينظر عبرها، ثم يلتفت إلى نظرة طويلة محبطة.
لا أود التفكير في أنه يفتقد بيته.

جاء الطبيب "كليفتون" إلى متجر والدى إذ صادف أنه يزور البلدة، بحسب ما قال، وحين تذكر أن والدى يملك متجرًا للكتب هنا، فكر في أن زيارتنا مستحقة، ليرى إن كان لدينا مجلد محدد عن طب القرن الثامن عشر كان مهمًا به، رغم أن احتمالية ذلك ضعيفة، وما حدث هو أن كانت لدينا نسخة، ودردش ووالدى على نحو ودى عن الكتاب باستفاضة، حتى تجاوزنا موعد الإغلاق بفترة طويلة، ولتعويضنا عن البقاء لوقت متأخر هكذا، دعانا لتناول وجبة، كان الأمر لطيفًا للغاية، وبما أنه كان في البلدة لليلة أخرى، دعاه والدى في المساء التالي لوجبة مع العائلة، أخبرتنى والدى في المطبخ أنه "رجل لطيف جدًا يا (مارجريت)، لطيف جدًا"، عصر اليوم التالي كان الأخير له في البلدة، ذهبنا للتمشية قرب النهر، لكن في هذه المرة كنا كلينا فقط، فانشغال والدى بكتابة الرسائل منعه من مصاحبتنا، وحكى للطبيب قصة شبح "آنجلفيلد"، استمع بإنصات وحين انتهيت تابعتنا السير، ببطء وفي صمت.

"أذكر رؤية صندوق الكنوز هذا"، بحسب ما قال في النهاية، "كيف نجا من الحريق؟"

توقفت مكانى أتساءل، "لم أفكر قط فى أن أسأل".

"لن تعرفى مطلقاً الآن، صحيح؟"

أخذ ذراعى وتابعنا المسير.

على أية حال، بالعودة إلى موضوعى، وهو "شادو" وحنينه إلى بيته، حين زار الطبيب "كليفتون" متجراً والدى ورأى حزن القط اقترح أن يفتح بيته لـ "شادو"، سيسر "شادو" كثيراً بالعودة إلى يوركشاير، لا شك لدى فى ذلك، لكن هذا العرض، على الرغم من لطفه، أغرقنى فى حالة من الحيرة المؤلمة، لأننى لست متأكدة إن كنت أستطيع تحمل الانفصال عنه، أنا واثقة بأنه سيتحمل غيابى برباطة الجأش نفسها التى تقبل بها اختفاء السيدة "وينتر"، لأنه قط، لكن لأننى إنسان، فقد أصبحت مولعة به، وأفضل لو أمكن أن أبقيه بقربى.

أفشيت واحدة من هذه الأفكار للطبيب "كليفتون" فى رسالة، ورد بأنه ربما يجب أن نأتى كلانا، "شادو" وأنا، لنقضى إجازة، إنه يدعونا لمدة شهر فى الربيع، وبحسب ما يقول فإن أى شىء يمكن أن يحدث خلال شهر، وبنهايته يعتقد أن من الممكن أن نتوصل إلى حل يناسبنا جميعاً لهذه المعضلة، ولا يسعنى إلا التفكير بأن "شادو" سيحظى بهذه النهاية السعيدة.

وهذا كل ما فى الأمر.

مكتبة

t.me/t_pdf

استدراك

استدراك

ربما ذلك ليس كل ما في الأمر، إذ يعتقد المرء أنه قد انتهى من شيء، ثم يكتشف فجأة أنه لم ينتهِ منه تمامًا.

جاءتني زائرة.

كان "شادو" أول من لاحظها، كنت أدندن وأنا أحقب أشياء من أجل عطلتنا، الحقيبة مفتوحة على السرير، و"شادو" يخطو إلى داخلها وخارجها، ويلهو بفكرة أن يصنع لنفسه عشًا على جواربي وستراتي، حين توقف فجأة، وبدا عازمًا للغاية وهو يحملق نحو الباب ورأى. لم تأتِ في صورة ملاك ذهبي، ولا شبح الموت الذي يرتدى معطفًا، بل كانت مثلي: امرأة طويلة إلى حد ما، نحيفة وبنية الشعر، لن تلاحظها إن مرت بجوارك في الشارع.

هناك مئات، بل آلاف الأشياء التي ظننت أنني أريد سؤالها عنها، لكنني كنت متأثرة لدرجة صعبت حتى نطق اسمها، خطبت نحوى، ولفتنى بذراعها وضغطت على إالى جانبها.

نحجت فى أن أهمس: "(مويرا)، كنت بدأت أظن أنك لست حقيقية".

لكنها كانت حقيقية، خدها على خدى، وذراعها على كتفى، ویدی على وسطها، تلامسنا بنبدتینا، وتلاشت أسئلتي كلها وأنا أشعر بتدفق دمها إلى دمی، ونبض قلبها مع نبض قلبی، كانت لحظة مبهرة، لحظة عظيمة وهادئة، وأدركت أنني أتذكر هذا الشعور، لقد حُبس بداخلی، بعيدًا، والآن جاءت هى وأطلقت سراحه، هذا الاتصال البهیج، هذا الاتحاد كان فى السابق عاديًا، ووجدته اليوم إعجازيًا بعدما استعدته. جاءت وكنا معًا.

أدركت أنها جاءت لتودعنى، فى لقائنا التالى سأكون أنا الآتية إليها، لكن هذا اللقاء التالى لن يحدث إلا بعد وقت طويل جدًا، ولا داعى للتعجل، يمكنها الانتظار، وأنا كذلك.

شعرت بلمسة أصابعها على وجهى وأنا أمسح دموعها، ثم، تحت تأثير السعادة، وجدت أصابعنا بعضها بعضًا وتشابكت، أنفاسها على خدى، ووجهها على شعرى، ودفنت أنفى فى انحناءة عنقها واستنشقت حلاوتها.

یا لها من سعادة.

لا يهم أنها لن تستطيع البقاء، لقد أتت، لقد أتت.

لست واثقة بكیف أو متى غادرت، أدركت ببساطة أنها لم تعد موجودة، جلست على السرير هادئة للغاية، وسعيدة للغاية، انتابنى ذلك الشعور الغريب بأن دمی يعيد توجيه نفسه، وأن قلبی يعيد

ضبط نبضه ليكفيني وحدي، لقد أعادت الحياة إلى ندي حين لمسته،
والآن، تبرد حرارته بالتدريج حتى تتساوى مع بقية جسدي.
لقد أتت ورحلت، لن أراها مجددًا في هذه الناحية من العالم،
وحياقي ملكي وحدي.

كان "شادو" نائمًا في الحقيبة، مددت يدي لأمسده ففتح عينًا
خضراء هادئة، وتطلع إلى اللحظة، ثم أغلقها مجددًا.

مكتبة
t.me/t_pdf

هل تؤمن بالأشباح؟

مكتبة | سر من قرأ
t.me/t_pdf

أعترف، أن ذلك الشعور في مؤخر العنق شائع
إلى حد ما؛ لكن هذه أول مرة أحتره. مثل
الكثير من الوحيديين، حواسي معتادة على
وجود الآخرين، فأنا معتادة على أن أكون
المتجسّسة الخفية في الغرفة أكثر من كوني
المتجسّس عليها. والآن أحد يراقبني، وليس
هذا فقط، بل وكان يراقبني لبعض الوقت.
لكم من الوقت ظل هذا الشعور غير القابل
للسك يدغدغني؟ تأملت الدقائق الأخيرة
محاولة تتبع ذاكرة جسدي مع أحداث
الكتاب. أكنت أراقب منذ أن بدأت الراهبة
الحديث إلى الشاب؟ منذ أن أرشدت إلى
داخل المنزل؟ أم قبل ذلك؟ حاولت أن
أذكر من دون تحريك عضلة واحدة، كنت
منكبة على الصفحة كأن شيئاً لم يحدث.

الغلاف: موهبة عادل

ISBN 978-977-315-798-4



9 789773 137984



مكتبة
المحرسة
للحفظ والتعميم والتوزيع